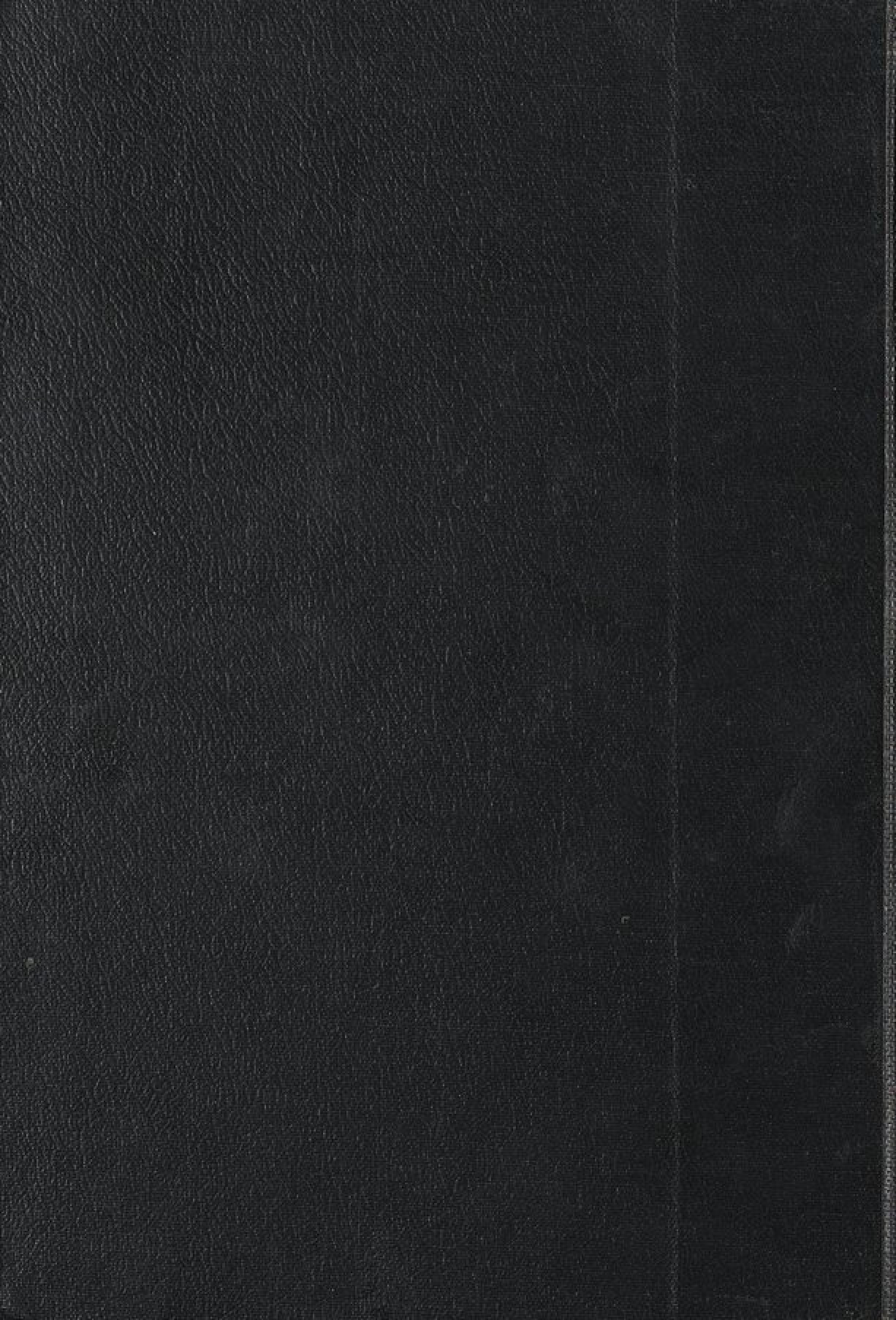
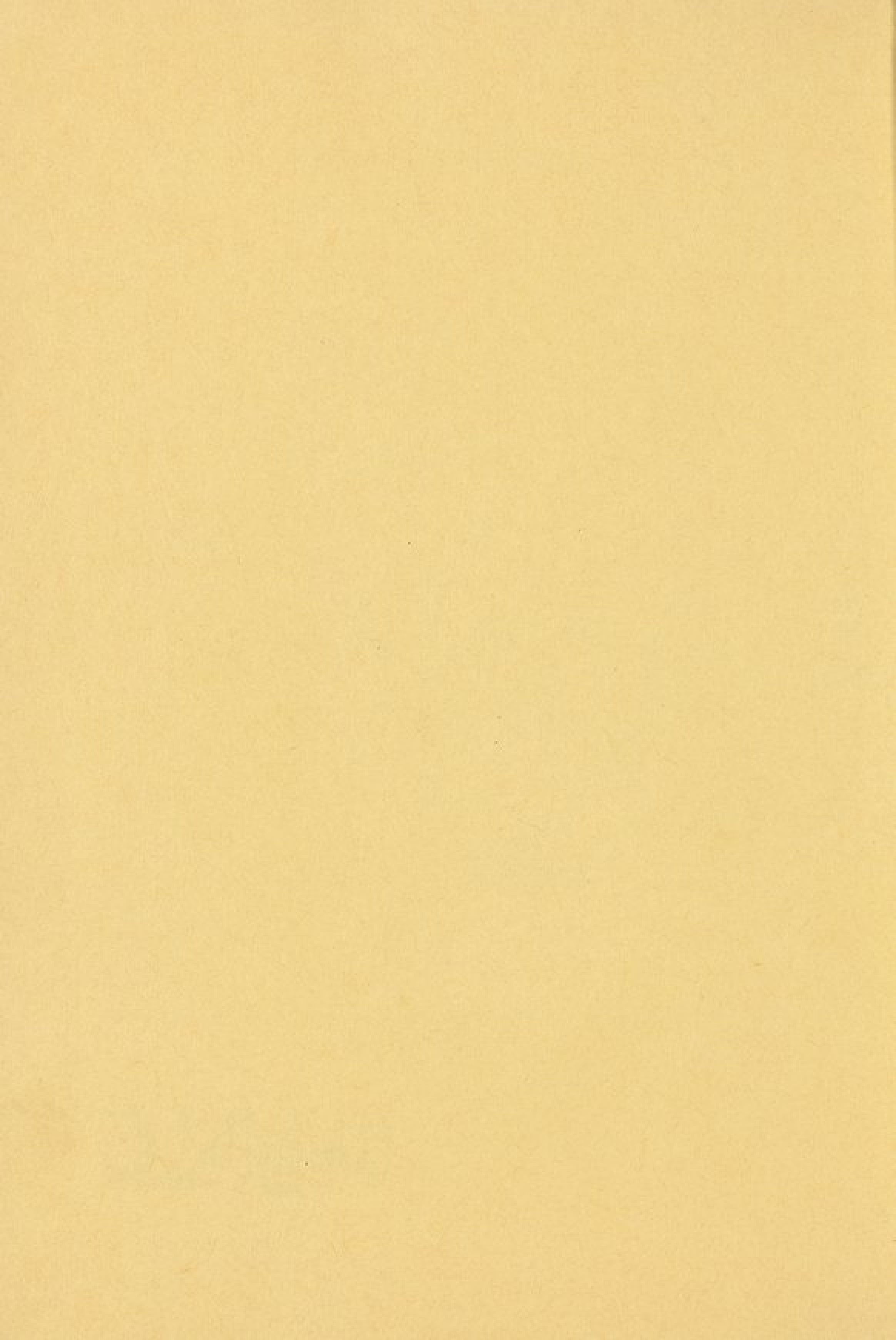






المجتمع العراقي



ساعدت جامعة بغداد على نشره

المجتمع العراقي
في شعر القرن الرابع للهجرة

(رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة بغداد ونالت مرتبة امتياز)

تأليف
عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي

مكتبة النهضة
بغداد

مقــدّمــة

بقلم : الدكتور فيصل السامر

رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب – جامعة بغداد

يكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو العصر الذي شهد قمة التطور في المؤسسات الحضارية والثقافية الإسلامية . لذلك – من هذه الزاوية – اشبع هذا القرن بحثاً ودرساً من جانب القدامى والمحدثين عرباً ومشارقة ومستشرقين ، حتى خيل للكثيرين ان البحث والدرس فيه أصبحا أمراً عسيراً على من يريد التصدي الى الابتكار والإبداع والجدة .

غير اني أتساءل : هل صحيح ان دروب القرن الرابع ومسالكه قد أوصدت أمام الباحثين ، وان التصدي لدراسته تقود الى حلقة مفرغة لا طائل تحتها ؟ وجوابي كلا والف كلا . فثمة كثير من نواحي المائة الرابعة الهجرية ما تزال حقولاً بكراً لطالبي البحث الجاد ، المزودين بالموهبة ، والمتميزين بالقدرة على الغوص الى ما وراء النصوص ، في محاولة للكشف عن الحقائق الموضوعية التي تفسر الظواهر الاجتماعية والفكرية والسياسية ووضعها في مكانها الصحيح من التاريخ .

صحيح أن عدداً من الدراسات الناجحة الموفقة عن القرن الرابع قد خرجت الى النور ، وأنها غطت كثيراً من جوانبه ، إلا أن الكثير من هذه الجوانب ما

زالت مطموسة وغامضة ، أو انها درست دراسة سطحية او شكلية لم تستوعب روح العصر وسماته الاساسية ، وبتعبير آخر لم تكشف عن الدوافع الفعلية التي اكسبت ذلك العصر سماته المميزة .

ومن جهة أخرى ، فإن اغلب الدراسات الجادة – ليس في القرن الرابع وحده – وانما في مجمل التاريخ الاسلامي صدرت عن المستشرقين الذين جمعوا بين المنهج العلمي السليم من جهة ، وبين النظرة الكلية الشاملة من جهة ثانية ، وبين الجرأة في قول الحقيقة من جهة ثالثة . هذا مع اعترافنا بأن المستشرقين لا يركن الى جميع احكامهم ، لأن بعض تلك الأحكام تميل مع الهوى وتصدر عن التعصب أو عدم الفهم والتفهم . وانه اذا كانت قد ظهرت بعض الدراسات الجيدة بأقلام باحثين عرب ، فهي ما زالت قليلة ونادرة وبخاصة في مجال دراسة المجتمع والاقتصاد .

لذلك كله رحبت بهذه الدراسة الجريئة التي نال بها مؤلفها الاستاذ عبد اللطيف الراوي درجة الماجستير في الأدب العربي من جامعة بغداد . واقول الحق ان المؤلف الفاضل حين دفع إلي بمسودة بحثه لتقويمه وتقديمه ، وجدت ان الجرأة هي الطابع المميز لبحثه من أوله الى آخره . لقد وضع الباحث امامه وثائق بحثه ونقدها بحرارة وجرأة ، وتعمق فيما وراء دائرة اهتمامه ما سيقال عنه وفيه . انها فيما يبدو لي روح الشباب الوثابة التي لا تخشى التقريع او اللوم، كما لا تبالي بالثناء والمديح .

وماذا كانت حصيلة هذه الجرأة ؟ الحق ان كثيراً من الأحكام جاءت صائبة على أنها مرة وقاسية . فحين يشخص الباحث دوافع الشعر وخصائصه في القرن الرابع نجده مشمئزا ، بحيث لا يفارقه الاشمئزاز من ذلك الجيش اللجب من الشعراء المادحين والماجنين والباحثين عن المنفعة وعن المجد في ارفع صوره واحطها .

ان منهج البحث سليم ، لأن المؤلف وضع نصب عينيه نظرية استطاع ان يخلص لها ، ويمحضها الوفاء . فهو ينطلق من حقيقة ان الشعراء في ذلك العصر إنما هم فئة عاشت على افضال طبقة الخاصة ذات الحول والطول والجاه والثروة والنفوذ المادي والأدبي . فمن حالفه الحظ توصل بشعره إلى ساحة الملوك والأمراء والوجهاء فنفق عندهم ، ارتفع شأنه وامتلأ جيبه بالعطايا والهبات والمنح ، ومن جانبه الحظ عاش بائساً يائساً يشكو دهره ويذم زمانه . ومن هنا كانت هناك فئتان من الشعراء احداهما التحقت بالخاصة ، وأخرى ظلت ملتصقة بهموم الطبقة العامة التي مثلت الغالبية الساحقة من مجتمع القرن الرابع الهجري .

لقد أراد المؤلف ان يدرس المجتمع من خلال الشعر ، أي انه أراد اعتبار الشعر مصدراً من مصادر دراسة التاريخ . والحق ان الوقائع التي دونها المؤرخون والاخباريون لا يمكن أن تكون وحدها مصادرنا الكاملة لدراسة تاريخ المجتمع البشري بكل فاعليته وحيويته . وهنا يأتي الشعر ـ والأدب بصورة عامة ليكمل وثائق المؤرخين والآثار المادية التي خلفها الماضون . ان الشعر معين مثمر لا ينضب لدراسة المجتمعات ، باعتباره صوتاً ينبعث من اعماق النفس . ومهما يكن من تأثر الشعراء بمصالحهم وحاجاتهم اليومية ومطامحهم الشخصية ـ مما أفقد كثيراً من الشعر طابع الصدق ـ فإن المؤرخ الحاذق لا بد ان يعثر في شعر أي شاعر على ملامح تنم عن الحقيقة .

ان النتيجة التي أراد المؤلف ان يصل اليها هي اعتبار الشعر ـ وهو جزء من ثقافة العصر ـ انعكاساً لمجتمع طبقي ـ أعني مجتمع القرن الرابع ـ انقسم فيه الناس الى طبقتين اثنتين : طبقة خاصة استأثرت بالجاه المادي والنفوذ الأدبي وهي أقلية ، وأخرى طبقة عامة كانت تسعى سعياً حثيثاً دائباً الى لقمة العيش وهي جماهير الفلاحين والصناع والجنود والعاطلين عن العمل وصغار

الباعة وأصحاب المهن . وكان الشعراء — شأن المثقفين يومذاك — فئة تعكس حقاً حدة التمايز الاجتماعي وتعبر عنه بنتاجها خير تعبير . ان شعر المديح يعكس دون أدنى شك زيفاً فكرياً واجتماعياً وهو دليل على حاجة الشاعر الى عطايا مادحه . والبرهان على ذلك انك لو أخذت منظومة مدح في أمير أو وزير أو وجيه ، ثم رجعت الى المدونات التاريخية ، فإنك لن تجد إلا صورة شديدة المخالفة للصورة البهية الزاهية التي يحاول الشاعر ان يطبعها في ذهنك .

ان ابتعاد الشاعر عن ابناء الطبقة العامة وهمومها ، وتكريس شعره لأهداف مادية شخصية بحتة هو سمة عصر — كالقرن الرابع — يجعل الثقافة عموماً في خدمة الفئة التي تمسك بمقاليد الأمور . ان ذلك العصر ربط الشاعر ربطاً محكماً بالطبقة العليا لانها كانت مصدر رزقه ، ومن هنا ابتعد الشعر في مجمله عن أن يكون أدب الشعب وثمرة كفاحه ومرآة همومه ، الا في النادر القليل الذي نجده في شعر شعراء الطبقة الثانية والثالثة من المغمورين الذين اغلقت في وجوههم ابواب القصور ، او أولئك القلائل الذين وضعوا أرواحهم وفنهم في خدمة قضية عادلة .

وبعد ، فإن هذه الدراسة محاولة جيدة وجريئة وموفقة لإعادة النظر في تقييم تراثنا الأدبي وتقويمه ، واذا كانت هناك هنات (1) ومآخذ شكلية ومنهجية ، او اخرى نتجت عن الحماسة او الاندفاع ؛ فإن ذلك كله يجب أن يغتفر لباحث صادق الدوافع سليم النوايا يحاول أن يصل الى الحقيقة ويدافع عنها .

---

(١) هناك ملاحظات نبهني اليها الاستاذ الفاضل أخذت بها قدر امكاني فله مني جزيل الشكر والامتنان . (المؤلف)

المقدّمة

يبدأ إقليم العراق من تكريت شمالاً وينتهي عند عبادان والبصرة والبحر جنوبا ، مارا بسامراء وبغداد وواسط ومنطقة البُطيحة والأهواز ، ويبدأ أيضا من اعالي هيت غربا حتى شهرزور وحلوان شرقا ، مارا بمدينة الأنبار ومنطقة ديالى وجلولاء وخانقين وقصر شيرين (١) .

ومثلما أكدت كُتب الجغرافية اقليمية العراق أكدتها كتب الأدب ، فلقد قسمت الشعراء حسب اقاليمهم ، فهناك شعراء اقليم العراق وشعراء اقليم الموصل والجزيرة وشعراء اقليم الشام ومصر ، وشعراء اقليم فارس وخوارزم ، وأول ما وصل الينا من الكتب التي اتبعت هذا المنهج يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وتتمتُها لأبي منصور الثعالبي ، ثم دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي ، ثم خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصبهاني .

ولقد اخترت دراسة مجتمع اقليم العراق كما عكسه الشعر في القرن الرابع للهجرة لعدة أسباب منها ، جدة الموضوع وطرافته ، والرغبة في اعطاء علاقة

---

(١) ينظر المسالك والممالك للاصطخري ٥٦ وما بعدها ، الاقاليم للاصطخري ايضا ، وينظر في الكتاب نفسه الخريطة رقم ١٣ التي حدد بها الاصطخري العراق ومدنه ، ينظر كذلك أحسن التقاسيم ١١٣ ، ١١٤ ، وتقويم البلدان ٢٩١ ، ٢٩٨ وما بعدها ، مراصد الاطلاع ٢ / ٩٢٦ .

الأدب بالمجتمع تفسيراً علمياً بعيداً عن التقعرات اللفظية والافتراضات الشخصية ، آملا أن يخدم هذا التفسير الشعر واللغة والمجتمع وأن ينزه التاريخ من الدراسات الزائفة التي أرهقته وأرهقت الكثير من المبتدئين في دراسته ، خاصة وان القرن الرابع يمثل مرحلة أدبية واقتصادية متطورة واضحة تساعد الباحث وتأخذ بيده الى النظرات الموضوعية الصائبة او القريبة من الصواب ..

أمّا منهجي في ذلك فاختيار النصوص ذات الدلائل الاجتماعية ، وتحليلها تحليلاً علمياً موضوعياً لا يقتصر على المظهر السطحي للنص انما يغور الى اعماق الكلمات وما يمكن أن توحيه هذه الكلمات من معان اجتماعية وسياسية وفنية مبتعدا عن النص المتحيز وبخاصة المديح ، الا ما كان له دلالة اجتماعية أو حضارية مهمة .

ولقد حاولت أن أبحث عن نصوص جديدة لم يستهلكها الباحثون ، على أن هذا لا ينفي اعتمادي مثل هذه النصوص المستهلكة حينما لا أجد مناصا من استعمالها أو أن مستعمليها لم ينتبهوا للدلالة من دلائلها .

ولقد فتح عليّ في هذه الدراسة وأسهم اسهاما فعالا في كشف جوانب مهمة منها ، وجود كتب تاريخية وأخرى أدبية درست الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق بهذا المقدار أو ذاك .

من هذه الكتب « الادب في ظل بني بويه » الذي كان لصاحبه استاذنا الدكتور محمود غناوي الزهيري فضل في اختيار الموضوع والارشاد الى مصادره ومنابع دراسته ،

ولا أنكر ما أخذت عن كتاب « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز » من مصادر واشارات مهمة سهلت علي صعوبات عديدة واختصرت لي زمناً لا بأس به .

ولا بد لي هنا من الوقوف قليلاً عند مصادري ومراجعي ، فلقد عولت في أخذ النصوص الشعرية والتاريخية على المصادر القديمة واهتممت كثيرا بتلك التي ألفت في القرن الرابع أو قريباً منه ، ولكني حين اجد نصاً يفيدني ذكر في مصدر متأخر عن القرن أو مرجع حديث اثبته وأحاول ان أجد له مصدرا أقدم فإن لم أجده أشرت الى الكتاب الذي أخذته منه .

إن دراستنا هذه عملية نفاذ خلال النصوص الشعرية ووراءها لاستخلاص نتائج ودلالات اجتماعية لم ينتبه لها الكثير من المؤرخين والباحثين ، أو أنهم لم يوفوها حقها من التدقيق والتحليل ، ولقد قسمتها ــ بعد التمهيد في حياة العصر ــ ثمانية فصول :

الفصل الاول ــ الشاعر في المجتمع من خلال ما يعكسه الشعر ، ولقد أوضحت في هذا الفصل علاقة الشاعر بالحاكم والناس والشعراء .

الفصل الثاني ــ الخلفاء والأمراء من خلال شعرهم وقد اتخذت الراضي انموذجاً لمجتمع الخلفاء وآل بويه انموذجاً للأمراء .

الفصل الثالث ــ الوزراء ورجال الدولة الآخرون ، وفيه بينت علاقات هذه الفئة الحاكمة وحياتها من الشعر الذي جرى على لسان افرادها .

الفصل الرابع ــ التبذل والمجون ، وقد استخلصت حصيلة مما قالـــه الشعراء الذين عرفوا باللفظ الفاحش ، والشعر الماجن ، ولم أنس أن آخذ نماذج من مساهمات معظم مقالة الشعر في هذا الميدان .

الفصل الخامس ــ تكلمت فيه على مجتمع اهل الكدية من خلال ما كشف عنه شعر بعض أصحابها ونظمهم .

الفصل السادس ــ أهل التصوف ونزعاتهم وطبائعهم وأفكارهم ، وقد

حاولت جهدي أن أذكر نصوصا شعرية صوفية تفسر كل ما لهـم وما عليهم .

الفصل السابع ـ خصص لفئة مهمة من فئات مجتمع العراق ، هي فئة الساخطين والمتمردين الذين ارتسمت علائم رفضهم لحياة الذل والجوع في صفحات شعرهم بشكل واضح جلي .

الفصل الثامن ـ كلام مجمل على مظاهر اجتماعية وحضارية شائعة اشترك فيها معظم فئات المجتمع وطبقاته وظلت تشير في احيان كثيرة الى تمايز طبقي بيّن .

اني اذ أقدم كتابي هذا أرى من الواجب علي أن لا أحمّل احداً اوزاره ، ولا أشركه بمسؤولية ما أعلنت فيه من آراء فذلك يقع عليّ وحدي ، واذا كان هناك ما أحمّله لاستاذي المشرف الدكتور علي جواد الطاهر وأحمله اليه فهو شكري له واكباري لجهوده التي بذلها معي ، فلقد كبحَ جماح لغتي وشطحاتي اللفظية والفكرية ، وصرف الساعات الطوال في قراءة الفصول ومراجعتها بحضوري ، وما سمعت منه بعد كل جهوده الا لغة الموجه الحريص ، ولفظ الاخ الكبير الناصح ، فله مرة أخرى ولكل الذين وضعوا ايديهم بيدي لأتمّ بحثي هذا خالص إجلالي وتقديري .

نيسان ١٩٧١

عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي

التمهيد

١ ـ الحالة السياسية :

مر العراق خلال القرن الرابع بعصرين سياسيين متباينين تقريبا : عصر تحكم الجنود المرتزقة وهو الذي نصطلح على تسميته بعصر نفوذ الاتراك ، ويليه بعد ذلك العصر البويهي الذي يكاد يكون وحده متميزاً عن العصر الذي سبقه من حيث البنية الحاكمة .

عصر ما قبل البويهيين ٢٩٥ ـ ٣٣٤

يبدأ هذا العصر منذ تولي المقتدر (جعفر بن المعتضد) (١) عام ٢٩٥ الخلافة حتى دخول معز الدولة البويهي (احمد بن بويه) (٢) بغداد عام ٣٣٤

تولى الخلافة خلال هذا الدور خمسة خلفاء كان المقتدر أهمهم واطولهم مدة فلقد جيء به الى كرسي الخلافة صبيا غرا لم يتجاوز الثالثة عشرة بتدبير من الوزير العباسي بن الحسن (٣)، واستمر عهده حتى عام ٣٢٠ هـ . وكان العراق خلال ذلك يمر بأحلك عهد سياسي عرفه منذ انتقال عاصمة الخلافة اليه .

---

(١) ينظر في خلافة المقتدر وترجمته تاريخ الطبري ١٣ / ٢٨٠ ، مروج الذهب ٣٠٢ ، اليتيمة ٣٢٦ ، تجارب الامم ١ / ٣ ، مختصر التاريخ ١٧٢ ، الفخري ٢٦٠ ، النبراس ٩٠ ، مآثر الأنافة ١ / ٦ / ٢ ، العصور العباسية المتأخرة ١٨ .

(٢) ت ٣٩٦ هـ ترجمته في وفيات الأعيان ١ / ١٥٧ .

(٣) قتل سنة ٢٩٦ هـ .

لقد تحكم في البلاد الجواري والغلمان وتجرأ الكثير من الطامعين فتقدموا لنيل مناصب رفيعة في الدولة ، وساطتهم في ذلك الرشوة والتذلل . وحين استشعر بعض رجال الدولة ما آلت اليه دولتهم من ضعف قاموا بحركة مفاجئة عزلوا فيها المقتدر ووضعوا محله عبد الله بن المعتز ، فحدثت بذلك فتنة ذهب ابن المعتز ومن سايره ضحيتها(١)، وعادت بعد ذلك دولة النساء والخدم متمثلة بالمقتدر وحاشيته، وعاد مع هذه الدولة الهزيلة وسياستها الاستغلال والمجاعة والاضطراب ، وتدخلت ام المقتدر (شغب) وقهرمانتها وخدمها في أمور الدولة وسياستها تدخلاً سافراً ، فلقد اجلست ام المقتدر هذه قهرمانتها (ثمل) للقضاء(٢) واطلقت يد قهرمانتها الاخرى ام موسى (٣) في شؤون الوزارة والادارة ، وتأخذ الرشاوي من هذا الطامع او ذاك ، ولقد تغيرت الوزارة بفعل هذه السياسة المبنية على الغش والرشوة اربع عشرة مرة خلال فترة حكم المقتدر كان لام موسى (٤) ت ٣١٠ هـ نصيب وافر في خلق مثل هذه التغيرات الخطيرة كما كان لنصر الحاجب ولمؤنس ولام المقتدر نصيب كبير (٥) في ذلك أيضا .

وفي خلافة المقتدر الضعيف تفاقم أمر القرامطة وقويت شوكتهم فاحتلوا الكوفة وهددوا بغداد أكثر من مرة وتصاغرت أمام بأسهم وعزيمتهم عاصمة

---

(١) تجارب الامم ١ / ٥ وما بعدها ، الكامل ٨ / ١ وكتب التاريخ الاخرى حوادث ٢٩٥ .

(٢) المنتظم ٦ / ١٤٨ .

(٣) المنتظم ٦ / ١٣٨ ، ينظر الكامل ٨ / ٦٢ ، ٦٤ .

(٤) ينظر النجوم الزاهرة ٣ / ١٥١ حوادث سنة ٣٠٤ حينما ثقل على علي بن عيسى امر الوزارة وضجر من سوء أدب الحاشية ، وينظر المنتظم ٦ / ١٣٨ وكيف كان تأثير ام موسى في عزل علي بن عيسى والقبض عليه .

(٥) المنتظم ٦ / ١٨٨ وينظر تاريخ التمدن الاسلامي ٤ / ١٨٧ .

الخلافة وحكامها (١)، فسقطت هيبة الخليفة وتجرأ الجند اخيراً على شتم المقتدر (٢) .

وحين اشتدت سطوة الجواري والغلمان وازداد استخذاء المقتدر ووصلت الدولة حضيض الضعة والاختلال ، دفع هذا الهوان القواد الى خلع المقتدر عام ٣١٧ هـ ومبايعة اخيه محمد بن المعتضد الذي لقب بالقاهر ، لكن الامر لم يستمر اكثر من يومين، فلقد خلع القاهر واعيد المقتدر بضعفه وانغماره باللهو (٣).

واذ عاد المقتدر الى خلافته لم تهدأ الامور ، ولم تستقر الخلافة فسرعان ما تمرد مؤنس الخادم على خليفته ، وحاول المقتدر ان يتمرد على ضعفه وشهواته فخرج لقتال مؤنس لابساً البردة ، لكن القتل كان اسرع من تدبيره ، فلقد قطع رأسه وسلبت ثيابه وترك عاريا مكشوف العورة الى ان مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش (٤) ثم حفر له ودفن في موضعه .

بعد مقتل المقتدر عام ٣٢٠ اعيد القاهر الى الخلافة (٥) والامور مرتبكة والسطوة لمؤنس ومن احاط به من قتلة المقتدر امثال علي بن بليق وابيه ، ولم يكن القاهر ضعيفا مثل اخيه كما لم يكن سياسيا مثل ابيه ، لذلك تصرف بعنف

---

(١) ينظر في تحركات القرامطة ايام المقتدر تجارب الامم ١ / ١٤٥ ، ١٧٢ – ١٨٠ وغيره من كتب التاريخ حوادث السنوات ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، وينظر في المؤلفات الحديثة بندلي جوزي ١٧٤ وما بعدها ، العصور العباسية المتأخرة للدوري ٢٥، القرامطة لعارف تامر دار الكتاب العربي ومكتبة النهضة بغداد .

(٢) تجارب الامم ١ / ١٨٢ ، النبراس ١٠٧ .

(٣) المنتظم ٦ / ٢٢١ ، وما بعدها وكتب التاريخ حودات سنة ٣١٧ .

(٤) مروج الذهب ٤ / ٣٠٦ ، تجارب الامم ١ / ٢٣٧ ، المنتظم ٦ / ٢٤٣ ، شذرات الذهب ٢ / ٢٨٤ وتنظر كتب التاريخ الاخرى حوادث سنة ٣٢٠ هـ .

(٥) ينظر في خلافة القاهر ، مروج الذهب ٤ / ٣١٣ ، التنبيه والاشراف ٣٣٦ ، تجارب الامم ١ / ٢٤١ ، المنتظم ٦ / ٢٤١ ، النبراس ١١٣ ، دول الاسلام ١ / ١٤٢ .

وتطرف وغباء فقتل مؤنسا وبليقا (١) وابنه وشدد في مطاردة علي بن مقلة، فهابه الناس وخشوا صولته (٢) واثر عنفه وقتله لقواده في نفوس حاشيته فخافوا على أنفسهم ثم دبروا بتأثير من علي بن مقلة ومؤيديه مؤامرة (٣) خلعوه فيها وسملوا عينيه، وكان القاهر اول خليفة يسمل في الاسلام (٤).

بعد خلع القاهر جيء بمحمد بن جعفر المقتدر، وبويع بالخلافة ولقب بالراضي، ولم يكن الراضي احسن من ابيه سياسة وادارة، فقد كان ضعيفا امام شهواته وامام سطوة رجال دولته، وتحكمهم، لذلك كان زمنه مضطربا تعاظم فيه أمر الطامعين واستفحل طغيان الجنود المرتزقة الذين كانوا ينتقلون من قائد الى آخر حسب قوة القائد ومقدار عطائه.

وفي وزارة علي بن مقلة للراضي كثر الاضطراب، فتعاظم امر عبد الله البريدي في البصرة والاهواز (٥)، واشتدت شوكة الحنابلة، «فصاروا يكبسون دور القواد والعامة (٦) ويفعلون افاعيل فيها الكثير من التطرف «والفوضى» حتى أرهجوا بغداد وآذوا غيرهم من أصحاب المذاهب الاخرى (٧).

وشغب الجند على ابن مقلة فاضطر الى الهرب (٨) ثم قبض عليه وولي

---

(١) في الكامل بليق ٨ / ٢٦٠ وفي تجارب الامم ١ / ٢٦١، والمنتظم ٦ / ٢٤٩ بليق.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٣١٣، الكامل ٨ / ٢٦١، مختصر التاريخ ٦ / ١.

(٣) الكامل ٨ / ٢٧٩.

(٤) تاريخ التمدن الاسلامي ١ / ١٢٨، آدم متز ٢ / ١٢٩.

(٥) ينظر في خلافة الراضي واخباره، اخبار الراضي للصولي ومروج الذهب ٤ / ٣٣٢، مختصر التاريخ ١٧٩، وكتب التاريخ حوادث سنة ٣٢٢ هـ.

(٦) الكامل ٨ / ٣٠٦.

(٧) نفسه ٣٠٨.

(٨) الكامل ٨ / ٣٠٨.

الوزارة عبد الرحمن بن عيسى (١) فعجز عن تدبير الامور بعد ان « قطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع البريدي حمل الاهواز وكان ابن بويه قد تغلب على فارس (٢) » .

بعد عجز عبد الرحمن بن عيسى عن تدبير الوزارة وليها ابو جعفر محمد بن القاسم الكرخي لكن وزارة أبي جعفر لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر ونصف فقد التاثت عليه الاوضاع فاستوزر محله ابو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد ، « فكان في الوزارة كابي جعفر في وقوف الحال وقلة المال (٣) » .

استعان الراضي على هذا التدهور السياسي باحد قادة الجنود المرتزقة ، هو محمد ابن رائق (٤) الذي جاء عام ٣٢٤ الى بغداد وامسك الامور بيد قوية فلقبه الراضي بأمير الأمراء ، وقد ابطلت في عهده (العسكري) الدواوين والوزارة وصار هو وكاتبه (ينظران في الامور جميعها) .

لم يطل أمر ابن رائق كثيرا فقد تغلب عليه عام ٣٢٦ احد اتباعه من القواد وهو بجكم التركي (٥) فلم يكن للراضي بد من تقليد امرة الامراء لبجكم ، فتسلط هذا القائد التركي وتجبر وسلب الاموال وتصرف تصرفا مطلقا في شؤون الناس والدولة دون ان يكون للراضي ادنى رأي او مشورة .

واذ مات الراضي عام ٣٢٩ هـ تقلد أمور الخلافة ، رجل ضعيف هزيل

---

(١) نفسه ٨ / ٣١٢ .

(٢) تجارب الأمم ١ / ٥١٣ ، والكامل ٨ / ٣١٤ .

(٣) ينظر الفخري ٢٨١ وكتب التاريخ ضمن سنوات خلافة الراضي .

(٤) تجارب الامم ١ / ٥٣٣ ، الكامل ٨ / ٣٢٢ .

(٥) تنظر اخبار ابن رائق وبجكم في تجارب الامم ١ / ٣٥١ وما بعدها .

الرأي ذلك هو ابراهيم بن المقتدر الذي لقب بالمتقي (١) ولم يكن له اي سلطان ازاء جبروت بجكم وكاتبه احمد بن علي الكوفي .

في عهد المتقي قتل بجكم ونهب رجال الخليفة داره (٢) واستولى البريدي على بغداد (٣) وقلّد امرة الامراء ايضا ، لكن الناس اخرجته بالقوة لسوء سيرته كتقلدها كورتكين الديلمي حيث انزل جنده دور الناس فاجتمعت العامة (وتظلموا من الديلم ونزولهم في دورهم ، فلم ينكر ذلك فمنعت العامة الخطيب من الصلاة واقتتلوا هم والديلم ، فقتل من الفريقين جماعة) (٤) .

وفي هذه الاثناء عاد ابن رائق من الشام وطرد كورتكين ثم جاء البريدي عام ٣٣٠ هـ فاستولى على بغداد ونهبها فهرب المتقي مع ابن رائق الى موصل الحمدانيين وهناك قتل ابن رائق على يد أبناء حمدان (٥) .

عاد المتقي الى بغداد بصحبة ناصر الدولة الحمداني الذي طرد البريدي وقام ببعض الاصلاحات المالية والادارية ، ولكن حين رجع الحمداني الى الموصل ثار الديلم ونهبوا داره وانتصر توزون على سيف الدولة برغم مساعدات المتقي لسيف الدولة هذا (٦) .

وحين استولى توزون والاتراك على بغداد وانتهت سلطة الحمدانيين خلع المتقي مضطرا على توزون ومنحه لقب امير الامراء (٧) ، لكن المتقي عاد

---

(١) ينظر في خلافة المتقي مروج الذهب ٢ / ٣٤٧ ، تجارب الامم ٢ / ٢ ، الفخري ٢٨٤ النبراس ١١٩ تاريخ ابي الفدا ٣ / ١١٠ ، شذرات الذهب ٢ / ٢١٨ .

(٢) تجارب الامم ٢ / ٩ ، الكامل ٨ / ٣٧١ .

(٣) الكامل ٨ / ٣٧٢ .

(٤) نفسه ٨ / ٣٧٤ .

(٥) الكامل ٨ / ٣٧٥ وما بعدها ، شذرات الذهب ٢ / ٣٢٥ .

(٦) مروج الذهب ٤ / ٣٤٢ ، الكامل ٨ / ٣٨٣ وما بعدها .

(٧) الكامل ٨ / ٤١٨ .

فهرب بنفسه وأهله إلى الموصل (١) وأقام مدة عاد بعدها إلى بغداد ولم تفد معه نصائح ناصر الدولة ، فغدر به توزون وسمله وعزله (٢) وولى الخلافة بعده عبد الله بن المكتفي الذي لقب بالمستكفي (٣) ولم يكن لهذا الخليفة الجديد أمر ولا نهي فالامر بيد توزون الى ان مات هذا القائد التركي عام ٣٣٤ ﻫ (٤) فتسلم الامور ابن شيرزاد حتى دخول معز الدولة البويهي بغداد في السنة نفسها حيث منح لقب امير الأمراء وبدأ بدخوله عهد جديد هو العهد البويهي .

العصر البويهي :

يبدأ هذا العصر بدخول معز الدولة البويهي بغداد سنة ٣٣٤ ونقف فيه عند وفاة بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة ٤٠٣ ﻫ ، ويتميز بأنه ذو وجه سياسي واحد ، فالبويهيون هم أصحاب الامور ، وما التبدلات السياسية في هذا العصر إلا تغيير لوجوه بويهية بأخرى من الاسرة نفسها ، ولا يعني هذا وجود تشابه كلي في سياسة الافراد البويهيين الذين حكموا العراق ، فالفروق بين هذا الملك البويهي وذاك واضحة . والعراق ومجتمعه يتحملان ويلات هذا التمايز في الحكم ، فلقد مرّ خلال عهد البويهيين أيام عصيبة كثرت فيها النعرات الطائفية والفتن الطاحنة ، واتبع البويهيون سياسة خرقاء في إدارة البلاد وجباية الضرائب .

فمعز الدولة البويهي — وهو الذي يدعي الشيعية — لم يعزل الخليفـة

(١) تجارب الامم ٢ / ٤٧ وما بعدها ، الكامل ٨ / ٤٠٦ .

(٢) تجارب الامم ٢ / ٦٩ ، الكامل ٨ / ٤١٨ .

(٣) ينظر في خلافة المستكفي : تجارب الأمم ٢ / ١٠٩ ، الكامل ٨ / ٤٢٠ ، تاريخ ابي الفدا ٣ / ١١٨ ، الفخري ٢٨٧ .

(٤) الكامل ٨ / ٤٤٨ .

السني فقد ابقاه ليدلّ عليه ويذلّه ، ويتصرف دونه في الامور (١) وقد اهان المستكفي وأذله وخلعه وسمله وولى محله الفضل بن المقتـــدر الذي لقب بالمطيع (٢) ، فكانت معاملته له أسوأ معاملة ، فغدا المطيع خانعا « لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر (٣) فقد « تسلم معز الدولة العراق بأسره ، ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة الا ما اقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته (٤) » .

ولم تنحصر اساءات معز الدولة في الخليفة وحده ، فقد استهان بأرواح الناس وأموالهم فنهب ضياع السلطان واملاك الناس وأقطعها لقواد جنده (٥) وأصحابه وبدأت بذلك مرحلة حادة من مراحل الاقطاع يمكن ان نسميه الاقطاع العسكري .

وحين أحس بتذمر الناس ألهاهم بالركض والمصارعة والسباحة (٦) فشغلهم اياما كثيرة بهذه الالعاب وجعل يقدم من يبرز في ميادينها ويجيزه ، واستطاع بذلك ان يصرف سخطهم عليه وعلى جنده الذين أنزلهم دور الناس وجعل ذلك رسماً .

---

(١) ينظر في محاولة معز الدولة عزل الخليفة العباسي وتولية علوي محله : الكامل ٨ / ٤٥٢ . وكما يقول فيصل السامر لم يكن تشابه المذهب أو اختلافه هو الذي يتحكم في علاقات هذه الفترة انما كانت المصالح السياسية هي التي تلعب الدور الاساسي بدليل العلاقـات العدائية بين الحمدانيين والفاطميين وبين البويهيين والحمدانيين الخ .

(٢) ينظر في خلافة المطيع : مروج الذهب ٤ / ٣٧٢ ، تجارب الامم ٢ / ٧٨ ، الكامل ٨ / ٤٥١ ، الفخري ص ٢٨٩ تاريخ ابي الفدا ٣ / ١١٨ .

(٣) مروج الذهب ٤ / ٣٧٢

(٤) الكامل ٨ / ٤٥٢ .

(٥) الكامل ٨ / ٤٥٦ . وينظر حضارة الاسلام ص ٢٧٤ والدولة الحمدانية ص ٣٤ .

(٦) المنتظم ٦ / ٣٤١ ، الكامل ٨ / ٥٧٥ .

وحين مات معز الدولة (١) وخلفه ابنه عز الدولة بختيار تدنت الامور اذ ترك الامير الجديد شؤون الدولة وانغمس في الصيد والاكل والشرب واللهو وتحريش الكلاب والديكة والمساخر والمغنين ، وبث الفتن بين الديلم والاتراك وبين الشيعة والسنة فاضطربت عليه الامور (٢) وتجرأ عليه جنوده من الديالمة والاتراك حتى استعان بعمه ركن الدولة (الذي كان في فارس) فأعانه بابنه عضد الدولة الذي طمع بملكه فحاول عزله لكن اباه منعه فامتنع ، وحين مات ابوه عاد الى بغداد عام ٣٦٧ هـ واحتلها وقتل بختيار (٣) وامسك بالامور امساك عسكري حاذق ، فاستقرت السياسة وانتعش العمران والاقتصاد وامتد حكمه من بحر الخزر الى كرمان وعمان وبث في هذه البلدان الجواسيس (٤) ولقب نفسه « بشاهنشاه » أي ملك الملوك وهو أول من فعل ذلك في الاسلام (٥)

ولم يدم ذلك طويلا فقد مات عضد الدولة عام ٣٧٣ فعادت الخلافات تأخذ بخناق ابناء بويه ، فقد تولى الامور بعد عضد الدولة ابنه صمصام الدولة (٦) .

وكان بينه وبين اخيه شرف الدولة حرب انتصر فيها الثاني وسمل الاول (٧) سنة ٣٧٦ هـ ، وفي عهد شرف الدولة كثرت الفتن بين الديلم

---

(١) تجارب الامم ٢ / ٢٣٤ وما بعدها ، الكامل ٨ / ٥٧٦ .

(٢) تجارب الامم ٢ / ٣٤ وما بعدها ، الكامل ٨ / ٥٧٦ .

(٣) الكامل ٨ / ٦٨٩ وما بعدها .

(٤) المنتظم ٧ / ١١٤ .

(٥) نفسه ٧ / ١١٣ .

(٦) الكامل ٩ / ٢٢ . وترجمة صمصام الدولة في المنتظم ٧ / ٢٠٤ .

(٧) الكامل ٩ / ٢٣ ، ٤٨ ، ٦١ ، تاريخ ابي الفدا ٤ / ١٥ شذرات الذهب ٣ / ٥٨٦ .

والترك (١) لكن فضله كان في منع السعايات والوشايات التي كانت تأخذ برقاب الناس .

توفي شرف الدولة سنة ٣٧٩ ﻫ فجاء بعده أخوه بهاء الدولة الذي كثرت على عهده الفتن العنصرية والطائفية (٢) واشتدت خلافاته مع أهله واقربائه ، وفي سنة ٣٨١ ﻫ احتاج بهاء الدولة الى المال فبادر الى خلع الطائع الذي كان قد ولي الخلافة بعد تنازل أبيه (المطيع) ، وكانت طريقة الخلع مهينة وغير انسانية (٣) .

جيء بالقادر بالله احمد بن اسحق بن المقتدر ففوض اموره لبهاء الدولة وانزوى في دار الخلافة يعبد ربه .

وفي هذه السنوات حتى نهاية القرن استبد الجند بشكل لم يسبق له مثيل وقوي أمر العيارين ، وكثر انتهاب الناس بعضهم لبعض وتفاقمت الفتن المختلفة (٤) . ففي عام ٣٩٢ ﻫ نهب العوام بيْعة للنصارى (٥) وفي شهر رمضان من السنة نفسها « عظمت الفتنة في بغداد وكثرت العملات وانتشر الدعار (٦) » وفي سنة ٣٩٨ ﻫ وقعت الفتن بين أهل الكرخ والفقهاء استحالت الى قتال بين السنة والشيعة (٧) ، وهكذا توالت سنون هذا القرن حالكة مفزعة ، أصابت الناس في أرواحها وأرزاقها ولم تترك واحداً دون ان تنال منه .

---

(١) الكامل ٩ / ٤٩ .
(٢) الكامل ٩ / ٦٣ ، تاريخ ابي الفدا ٤ / ١٦ .
(٣) المنتظم ٧ / ١٥٦ ، الكامل ٩ / ٧٩ ، شذرات الذهب ٣ / ٩٧ .
(٤) الكامل ٩ / ١٨٦ .
(٥) المنتظم ٧ / ٢١٩ .
(٦) المنتظم ٧ / ٢١٩ ، الكامل ٩ / ١٧١ .
(٧) المنتظم ٧ / ٢٣٧ ، الكامل ٩ / ٢٠٨ ، شذرات الذهب ٣ / ١٤٩ .

٢ ـ الحالة الاقتصادية :

لم تكن الحياة الاقتصادية في هذا القرن الا امتدادا وتطوراً طبيعياً للسياسة الاقتصادية ذات الطابع الاقطاعي الطبقي الذي نشأت عليه الدولة العباسية ، وكان لا بد لهذا التطور الاستغلالي من ان يبلغ مرحلة تؤثر تأثيرا فعالا وسيئا في سير الحياتين السياسية والاجتماعية .

لقد تميز القرن الرابع بشراسة الطبقة المستغلة حيث أخذت تتبع مختلف الاساليب وتتوسل بطرق شتى لابتزاز أموال الطبقة المعدمة المستغلة التي زاد عددها ، وبدأت تدافع عن نفسها ووجودها بطرق كثيرة ، ومبتكرة منها ما هو مقبول ومنها ما هو شاذ وغريب .

كانت موارد الدولة وموارد رجالها تفد من عدة وجوه ، منها ما هو مشروع كالزكاة والخراج والجزية والمواريث وغيرها من الموارد الاسلامية المعروفة ، ومنها ما هو مستحدث بعيد عن الشرع الاسلامي كالضرائب المفروضة على الدور والامتعة والملابس والملح والخمرة ، والضرائب التي تعنّ في ذهن الوالي أو الحاكم او الزيادات على الضرائب الاسلامية التي يستحدثها الجباة حسب أهوائهم .

وتؤلف المصادرات موردا آخر للابتزاز ، فان ضاق الامر بالخليفة صادر الوزير ، وان ضاقت يد الوزير صادر تاجرا أو اقطاعيا أو وزيرا سابقا ولو كان من أصدقائه .

وفي العهد البويهي كان الملك البويهي اذا أعسر صادر الخليفة أو الوزير ولم يرعَ في ذلك ذمة ولا عهدا كما حدث مع الوزير المهلبي (١) والخليفة الطائع (٢) مثلا .

---

(١) صادره بعد موته معز الدولة البويهي ، ينظر الكامل ٨ / ٥٤٧ .

(٢) صادره بهاء الدولة البويهي ، المنتظم ٧ / ١٥٦ .

من هذا المنطلق الاقتصادي الاستغلالي كانت تنبع سياسة الدولة المرتبكة ، التي يسودها سوء الظن وتمتلىء بأساليب الوقيعة والدس وتحيّن الفرص ،فقد كان كل واحد من المتنفذين والأثرياء يستطيع أن يبلغ مطمحه السياسي اذا بذل المال الذي يفي بحاجات الخليفة أو الامير أو حاشيتهما .

سمع ابن الجصاص أن الوزير ابن الفرات يريد مصادرته ، فهدد بأنه سيبذل للمقتدر الملايين من الدنانير لازاحته ونكبته ان هو تعرض لامواله أو لتجارته وحياته ، فما كان من ابن الفرات إلاّ ان تراجع معترفا أن المقتدر ضعيف أمام المال لا يفرق بين كفاية ابن الفرات وبين أخس كتابه « مع المال الحاضر (١) » .

وهناك أمثلة كثيرة تدل على أهمية المال وفاعليته في السياسة منها وصول الخاقاني وحامد بن العباس وابن الفرات نفسه الى الوزارة ، والرشاوى المقدمة لمعز الدولة ومنح معز الدولة الاقطاع للجند وقادته ، وتولي القضاء عن طريق الضمان ، وغير ذلك من الامور التي تبرهن على ان الوصول الى المنصب كان يقوم أساسا بتأثير المال وبريقه .

هذا ما كان من تأثير المال في الطبقة الحاكمة (المستغلة) ، أما تأثيره في الطبقة المحكومة المستغلة ، فكان شيئا يعجز الانسان عن تصوره ، وسنستعرض بعض الاحداث السياسية التي كان لويلات الاستغلال والمجاعات يد طولى في دفع الناس الى عملها معبرين بذلك عن سخطهم وتذمرهم على قاتليهم « مدفوعين بغريزة حب البقاء (٢) التي تختزن عند كل كائن حيّ .

واذا كنا نعترف ان الحياة السياسية مرتبطة كليا بالحياة الاقتصادية ، فان

---

(١) ينظر الخبر كاملا في الوزراء ص ١٢٥ ، الحمقى والمغفلين ٨٨ .

(٢) الادب في ظل بني بويه ٥١ .

اندفاع الناس الى الثورة وانضمامهم الى الحركات العنيفة التي قامت ضد الدولة العباسية ، كان حافزه الاول هو الاقتصاد المتدهور والحالة البائسة للطبقة العامة التي لم « تقبل ظروفها التعسة بهدوء ، بل حاولت ان تثبت كيانها وتحسن أحوالها بكل وسيلة سلمية أو ثورية (١) » .

فلقد حاول بعض أفرادها ان يغير وضعه الاقتصادي بعنف وثورية فانضم الى حركة القرامطة أو ثورة الزنج ، بينما حاول ذلك آخرون بطرق سلمية تعاونية فكونوا « الجمعيات والنقابات (٢) » .

وحين يتحدث الدكتور طه حسين عن ثورات بابك والزنج والقرامطة يؤكد الحالة الاقتصادية يقول « ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث انها كانت تقصد الى تغيير الحياة الاقتصادية بحيث يُغير توزيع الثروة بين الناس ويُحقق شيء من العدل والمساواة بين الافراد والجماعات (٣) » .

وكانت تقوم الى جانب هذه الثورات المنظمة حركات شعبية متمردة ضد المظالم الاقتصادية ، (ففي سنة ٣٠٦ حين شغب الجند على ابن الفرات الوزير لأنه أخّر أرزاقهم (٤) سقطت وزارته وتولاها حامد بن العباس فضمن خراج العراق وأصفهان وخوزستان واحتكر حبوبها ومنع حملها الى بغداد بالاتفاق مع المقتدر فثارت عليه العامة ومنعت صلاة الجمعة وكان من نتيجة

---

(١) تاريخ العراق الاقتصادي للدوري ٨٠ وهذه شهادة على عدم شعوبية هذه الحركات .

(٢) نفسه .

(٣) مع المتنبي ٣٠ ويضيف الدكتور طه حسين « وانها كانت تقصد كذلك تقوية الشخصية الفردية وتحريرها من القيود والاغلال التي فرضها عليها النظام الديني والسياسي والاجتماعي » وهذه شهادة أخرى تبرىء هذه الثورات من الاتهامات السطحية وتؤكد انها ناتج خطل السياسة الاقتصادية للدولة العباسية .

(٤) الكامل ٨ / ١١٣ .

ذلك سقوطه وانتهاء وزارته ايضا (١).

وفي سنة ٣١٥ ثار العيارون ونهبوا الاموال (٢)، وفي سنة ٣٢٣ ضج الناس من غلاء الاسعار وصار الخبز أربعة ارطال بدرهم، وشكا بنو هاشم الضر وسودوا وجوههم ومنعوا الامام من الصلاة يوم الجمعة وتكرر مثل هذا العمل منهم في السنة نفسها (٣).

وفي سنة ٣٢٤ «شغب العامة لغلاء السعر في مسجد الرصافة، ودخل الجند في طلبهم فصعدوا الى السطوح ورموا الفرسان بالحجارة حتى هربوا»، وحين استمرت الحرب بين الجند والعامة أمر الوزير باجراء «اصلاحات جزئية» طلبا للرفق بهم (٤).

وفي سنة ٣٢٩ «كثر الضجيج من تعنت أصحاب لؤلؤ للناس ووضع الجبايات عليهم واغرامهم فعزل عن الشرطة، ووليها غيره (٥).

وفي العام نفسه اشتد الغلاء وأكل الناس الحشيش وكثر الموت فمنعت العامة الامام من الصلاة وتظلمت من الديلم ونزولهم في دورهم وتعديهم عليهم في معاملاتهم، وكسرت المنبرين وشعثت المسجد ومنعتهم الديلم من ذلك فقتل من الديلم جماعة (٦).

وفي خلافة المتقي اشتد الغلاء حتى بلغ كرّ الحنطة مائتين وعشرة دنانير، فخرج الحريم من قصر الرصافة ينادين الجوع .. الجوع (٧)، وقام رجل «في

---

(١) نفسه ٨ / ١١٣.
(٢) نفسه ٨ / ١٢٦.
(٣) اخبار الراضي ٦١، ٦٦، ٧٠.
(٤) نفسه ٧١.
(٥) اخبار الراضي ٧١، ولؤلؤ هو صاحب الشرطة.
(٦) المنتظم ٦ / ٣١٨.
(٧) الأناقة ١ / ٢٩٢.

الجامع والامام يخطب فلما دعا للمتقي قال له العامي : كذبت ما هو بالمتقي فأخذ وحمل الى دار السلطان (١) » .

ووقعت أيام البويهيين – على الرغم من قسوة الحكام – « تمردات حادة بين العامة كان دافعها الاول سوء الحالة الاقتصادية ، ففي سنة ٣٥٨ اشتد الغلاء بالعراق واضطرب الناس (٢) » وفي سنة ٣٦٣ قلّت الاموال عند بختيار واضطرب أمر جنده – الاتراك والديلم – « فكثر ادلأبهم عليه واطراحهم لجانبه وشغبهم عليه » واضطر لذلك الى ايقاع فتنة بين الاتراك والديلم في الاهواز اشتدت وعمت بغداد والعراق كله (٣) .

وحدثت مثل هذه « الاضطرابات والفتن » في عهد صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة اولاد عضد الدولة البويهي بعد ان ارهقوا الناس بالضرائب الغريبة والرسومات الكثيرة والمجاعات المستفحلة (٤) .

يتضح لنا – من خلال هذه الالمامة التاريخية – ان فساد الحياة السياسية ليس سببه فساد الطريقة المتبعة في انتخاب الخليفة (٥) ، انما سببه – وهذا ما أثبته واقع الامور – فساد النظام الاقتصادي وسوء توزيعه ، وما تبع ذلك من نشوء طبقات جديدة مستغِلة لا تعرف مذهبا أو قوما الا مذهب الاستغلال وقومية الثراء ، ولذلك نستطيع استعادة مـــا قاله الدكتور طه حسين من ان

---

(١) المنتظم ٦ / ٣٢٦ . ونلاحظ كيف كانت تستغل الجوامع وخطباؤها من اجل الدعاية للخليفة وبطانته ولكن النتيجة تأتي في الغالب عكس ما يريدون اذ سرعان ما تتخذ المساجد اماكن للتحريض على التمرد والثورة .

(٢) الكامل ٨ / ٦٠١ .

(٣) نفسه ٨ / ٦٣٤ .

(٤) ينظر الكامل ٩ / ٢٢ وما بعدها .

(٥) كما يرى ذلك د. عبد الرزاق محي الدين في كتابه ادب المرتضى ص ١٢ ط ١ مطبعـــة المعارف ، بغداد ١٩٥٧ .

« فساد السياسة الاسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الاسلامي (١) »

٣ – المجتمع :

كان من نتائج سوء توزيع الضرائب والاستغلال الذي رافق عمليات جبايتها ، ونتيجة للنظام الاقتصادي المرتبك الذي سارت عليه الدولة العباسية نشوء طبقتين اجتماعيتين متميزتين ، هما الطبقة الحاكمة المترفة المستغلة ، والطبقة المحكومة المستغلة ، « ولا يعدل ترف الاولى من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع (٢) » والطبقة المترفة تعيش طفيلية تبتز ترفها وغناها من عرق أبناء الطبقة المعدمة « المسحوقة » .

وليس بين هاتين الطبقتين طبقة ثالثة لها خصائصها المستقلة المتميزة فالطبقة الوسطى التي اعتاد أغلب الباحثين درجها ضمن التقسيمات الطبقية للمجتمع العراقي خلال القرن الرابع تكاد تكون معدومة لانها مضطرة الى الارتباط باحدى هاتين الطبقتين ، فاما ان تتعامل مع الطبقة الحاكمة المتسلطة وتبيعَ نفسها لها وبذلك تُصبح جزءا منها أو تتعرض للسلب والإفقار لانها لا تملك ما تحمي به وجودها وبهذا تكون ملتحمة مع الطبقة المستغلة .

وقد رأينا ان نسمي هاتين الطبقتين بما تعارف عليه المؤرخون القدماء والمحدثون ، فنطلق على الطبقة الاولى « طبقة الخاصة » وعلى الثانية « طبقة العامة » .

واذا كان هذا التقسيم هو الذي يمكنه ان يلف معظم فئات المجتمع آنذاك (٣) فان هناك انحرافات اجتماعية تتولد بسبب قساوة الحياة الاقتصادية ،

---

(١) مع المتنبي ٢٦ .
(٢) بروكلمان ٢ / ٨٢ .
(٣) ينظر الادب في ظل بني بويه (الحالة الاجتماعية ٣٦ – ٥٥) .

فتبرز لذلك فئات شاذة غريبة لا ترتبط عضويا بأي من الطبقتين الرئيسيتين وان ارتبطت لفظيا بطبقة العامة .

هذه الفئات هي الافراز الطبيعي للصراع الطبقي آنذاك ، فهي فئات ضعيفة منهارة اتخذت اساليب الذلة والعزلة والدجل طريقا للعيش .

تشمل هذه الفئات المكدين وبعض رجال الصوفية ودراويشها وكل المشعوذين الذين اتخذوا من السحر وما شابه من ضروب الشعوذة اسلوبا للوصول الى حياة مادية أفضل .. وهذه الفئات هي « طبقات غير اساسية في المجتمعات « لانها لا ترتبط مباشرة بأسلوب الانتاج السائد » .

تضم « طبقة الخاصة » اشتاتا من المستغلين تبدأ بالخليفة أو الملك البويهي وتنتهي بأبسط جندي تركي او ديلمي .

وكان الخليفة قبل البويهيين قمة هذه الطبقة يليه الوزير أو أمير الامراء ثم بقية رجال الدولة وقادة الجند .

واذا كان الخليفة يمثل السلطة « الثيوقراطية » الاقطاعية ، فان بقية رجال الدولة يمثلون السلطة العسكرية والارستقراطية .

وتضم هذه الطبقة ايضا كلّ المنتفعين والمرتبطين بالسلطة ممن يحتمل ان يكونوا أصحاب سلطة او ثراء مثل التجار (١) والاقطاعيين والشعراء والادباء والعلماء ورجال الدين والخدم والعبيد الذين استهوتهم السلطة وحاولوا ان يصلوا الى مكان متقدم يعوضون به عن ذلهم واسترقاقهم .

---

(١) أما بعد قيام البويهيين فقد أصبح الملك البويهي هو القمة بعد ان ذهبت هيبة الخليفة وانتهت تأثيراته الروحية ، وصار واحدا من افراد حاشية الملك البويهي لا قيمة سياسية له ، وقد نرى الخليفة في تلك المرحلة يصبح تقدمياً اذا ما قيس بالحكام الفعليين .

ويمكن ان نلاحظ على هذه الطبقة سمة ندرة التجار(١) ،فان وجد فيها تجار فهم من كبار الصرافين ورجال الذهب والجواهر، وهؤلاء معرضون للمصادرة والتشرد والفقر ان سلموا من القتل أو التعذيب ، ويظل ما حصل لابن الجصاص الجوهري من المصادرة (٢) رمزا لرفض طبقة الخاصة للتجار ، فمادة هذه الطبقة هم الاقطاعيون على الغالب، فالخليفة والملك البويهي والوزير وقادة الجند وحاشية الخليفة اقطاعيون من الدرجة الاولى ، وهم ينظرون الى التاجر بالمنظار الاقطاعي الايراني الذي يرى في التاجر عنصراً غير ذي قيمة .

وبالرغم من ان الاقطاع يخلق المعوقات الكثيرة امام نمو التجارة وازدهارها (٣) فقد ظلت العامة لا تغض من شأن التجارة والصناعة بل هي تشجع التجارة «لان وقف التجارة فيه هلاك الامة (٤)» .

لقد كانت النظرة العليا الى التجار سيئة ، وكان التاجر في مفهوم طبقة الخاصة «عامياً (٥)» يستحق ان يعدّ ساذجا مغفلا (٦) . على ان هذه النظرة

---

(١) هناك تجار بلغت أموالهم الملايين مثل ابن الجصاص وغيره ، حتى لقد بلغ الأمر بابن الجصاص وابراهيم بن احمد المادرائي حين حدثت بينهما ملاحة ومعاندة أن تراهنا بمئة الف دينار. تنظر القصة في المنتظم ٦ / ١٢٢ ، وينظر في ممتلكات ابن الجصاص من الجواهر التي لا تقدر بثمن . مروج الذهب ٤ / ٢٣٤ .

(٢) تنظر قصة مصادرة الحسين بن عبد الله الجصاص في الفرج بعد الشدة ١ / ١١٩ .

(٣) «سيغال» لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ ٢٩ – ٣٣ ، وللتأكد من استفحال الأقطاع وسيطرته ينظر ما كتبه الماوردي بهذا الشأن في الاحكام السلطانية ١٩٠ وما بعدها .

(٤) ينظر في نظرة الخاصة والأدباء والعامة الى التجار (حضارة الاسلام) لجردبنام ص ٢٧٤

(٥) قال بجكم التركي عن ابن مقاتل وهو احد افراد حاشية ابن رائق «وعلمت أنه تاجر عامي صغير النفس وان الدراهم ليعظم في نفوس امثاله» .

(٦) اخبار الحمقى والمغفلين ما خصص عن حمق ابن الجصاص ٨٣ – ٩٤ ، وسبب هذه النظرة المتحاملة لم يهتم أحد بأدب التجار وعد أدبا عاميا ، ويمكننا بعد ذلك ان نعد التجار بالقياس الى رجعية الاقطاعيين وثيوقراطية الخليفة المغرقة في الجمود فئة تقدمية حاولت خلق اطار متغير =

لا يمكن أن تنفي ارتباط أغلب التجار مصيريا بطبقة « الخاصة المستغلة (١) » .

أما طبقة « العامة » فتتكون من صغار التجار « وارباب الصنائع والمهن (٢) والزراع والفلاحين والكادحين في المدن (٣) الذين كانوا خليطا من مختلف الشعوب والالوان والعقائد جاءوا للعمل والبحث عن الرزق (٤) » .

وينتمي الى هذه الطبقة أيضا كل من لم يرتبط بالسلطة ولم يحم منها ، كما

=لبنية المجتمع آنذاك فجوبهت بقسوة وعنف بالرغم من انها كانت اذكى من الفئات الاخرى وأوسع فكراً بسبب اطلاع افرادها وكثرة اسفارهم .

وينظر التمثيل والمحاضرة وكيف وضع الثعالبي التجار مع السوقة ص ١٩٦ وما بعدها : والملاحظ ان نظرة الأدباء والكتاب الى التجار نابعة من نظرة سادتهم الحكام (ينظر حضارة الأسلام ٢٧٤) .

(١) هناك تقسيمات للمجتمع كثيرة قديمة وحديثة ، منها تقسيم الوليد الاموي فقد كتب الى صاحب الساحل : اجعل الحائك والاسكافي في مرتبة ، والحجام والبيطار في مرتبة والمعلم والخصي في مرتبة ، والنخاس والشيطان في مرتبة (المحاضرات ٢ / ٤٥٩ ، ومنها تقسيم الفضل بن يحيى احد رجال الحاشية العباسية فقد قال : « الناس أربع طبقات ، ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعلية انهضهم اليسار وأوساط الحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء ، وسيل غثاء ، لكع ولكاع وربيطة اتضاع هم احدهم طعامه ونومه . (مختصر كتاب البلدان ، آدم متز ١ / ٢٦٢) اما المأمون فقال : السوقيون سفل ، والصناع أنذال ، والتجار بخلاء ، والكتاب ملوك على الناس . المحاضرات ٢ / ٤٥٩ .

وللاستاذ أحمد امين تقسيمات فيها الكثير من الصواب كما فيها الكثير من الارباك والسطحية ، ظهر الاسلام ١ / ١١٤ ، ١٢٢ ، ٢ / ١٢ .

واجود التقسيمات هو تقسيم الدكتور غناوي الزهيري الذي اهتدينا به ، ويقاربه تقسيم عبد النافع طليمات في كتابه (اهل الكدية ابطال المقامات في الادب العربي ص ٤٠) والدكتور فيصل السامر تقسيم علمي جيد لطبقات المجتمع اطلعت عليه بعد فترة من اكمال هذا البحث ومناقشته . ينظر الحمدانية ص ٣٠ .

(٢) نشوء الاصناف والحرف في العراق ، الدوري . مجلة كلية الآداب ع ١ س ١٩٥٩ . ص ١٥٦ .

(٣) ينظر الادب في ظل بني بويه ٤٠٥ .

(٤) نشوء الاصناف .

يرتبط بها كثير من الهاشميين الذين يعتزون بنسبهم لكنهم من حيث المبدأ والواقع الاقتصادي جزء من هذه الطبقة (١) ، فهم مثلها يتعرضون للمجاعة والاستغلال ولم يكن ينفع أغلبهم ربع الدينار الذي وضعته السلطة جراية شهرية وثمنا لهذا النسب « الشريف » (٢) .

هناك فئة من العامة تمردت على واقعها الذليل وبدأت تتبع اسلوبا حادا في كسب قوتها اليومي هذه الفئة هي فئة العيارين والشطار التي صار اعضاؤها أشبه بالمرتزقة ، وقد استُغِل العيارون واستَغَلّوا ، ففي سنة ٣١٥ كانت لهم هيمنة وجولة في بغداد (٣) وفي سنة ٣٢٦ تحرك بعض عياري المخرم في امر السعر (٤) ، وفي عام ٣٣٠ استعان ابن رائق بالعيارين على البريدي ، وفتح العيارون السجون (٥) . وعظم أمرهم زمن الخليفة القادر فصارت لهم قيادة تنظم شؤونهم وكان على رأس هذه القيادة العيار المعروف بـ (عزيز) الذي أصبح مع من التحق به يثير الرعب في أشد النفوس (٦) .

وفي سنة ٣٩٢ صارت لهم هيبة وسطوة وارهجوا ببغداد بأفعالهم كثيراً وصار فيهم هاشميون (٧) .

ولا يمكن لباحث الا سهاب في دراسة العيارين لندرة أخبارهم ولأن هذا القليل الذي وصل الينا لا يبين وجهة نظرهم هم ، وانما يبين وجهة نظر المؤرخين الذين رأوا فيهم سراقا وقتلة وفساقا ، ويفهم من روح هذه الاخبار

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ١٧ .
(٢) آدم متز ١ / ٢٦٤ .
(٣) ينظر الكامل ٨ / ١٢٦ .
(٤) اخبار الراضي ١٠٤ .
(٥) نفسه ٢٢٣ .
(٦) ينظر المنتظم ٧ / ٦٤ .
(٧) العبر ٣ / ٥١ .

أن كلمة « عيّار » كانت سبة (١) « على أن هناك من الباحثين من يرى انهم كانوا يمثلون حركة تقدمية فعالة في طبقات الشعب الدنيا» (٢) « وهم على اي حال مظهر اجتماعي ذو اساس اقتصادي يلبس احيانا لبوسا دينيا » (٣) « وكان من الطبيعي والبديهي أن تتأثر الفتوة بالحالة الاجتماعية في القرن الرابع فقد تفاقمت العراق وخصوصا بغداد العصبية المذهبية ... وامتزجت الفتوة بالعيارة والشطارة والفتن المذهبية الدموية » (٤) .

واذا كانت حركات العيارين أو الشطار (٥) تفتقد للكثير من التنظيم السياسي والاقتصادي فقد كانت حركة القرامطة وثوراتهم ودولتهم تتبع نظاما اقتصادياً حاذقا يمتلك اسسا اشتراكية واضحة .

وتلتقي الحركة القرمطية مع حركة العيارين في عملية الرفض العنيف للتناقض الطبقي الذي يسود مجتمع العراق ، لكن رفض القرامطة كان خاليا الى حد ما من الطابع الفوضوي غير الهادف الذي كانت عليه حركات العيارين ، فلقد انتهج القرامطة منذ اللحظات الاولى لدعوتهم سبلاً سياسية واقتصادية قويمة .

وكان أول أمرهم دعوة دينية ذات بناء اقتصادي متفرعة من الاسماعيلية ، لكنها تطورت فصارت أكثر تنظيما من الاسماعيلية وأوسع أفقاً فكرياً ،

---

(١) الشعر العربي ١ / ٥٧ .

(٢) الحركات التقدمية في العراق ٦٢ .

(٣) الشعر العربي ١ / ٥٧ .

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي . مجلد ٥ ، س ١٩٥٨ ، ص ٥٥ مقال الدكتور المرحوم مصطفى جواد .

(٥) ينظر ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري عن العيارين ، مجلة كلية الآداب ١/ ١٥٧، والعصور العباسية المتأخرة ٢٨٢ وما بعدها . وينظر مقال الدكتور حسين امين ، « العيارون ونشاطهم الشعبي في بغداد » التراث الشعبي ع ٢ س ١ ، ت ١ ، ١٩٦٧ ص ٤ .

واجتماعياً وقد وصلت قمة فاعليتها حينما أسست دولة ذات كيان معترف به في « هجر البحرين » حتى لقد أحنت لها خلافة بغداد هامتها أكثر من مرة ودفعت لها الجزية وفعل مثل ذلك الكثير من حكام الاقاليم الاسلامية (١)

وكان لدولة القرامطة نائب في بغداد يرعى شؤون اتباعها (٢) ، وقد اثبتت لنا كتب التاريخ أن القرامطة كانوا يتبعون نظام حكم جماعي تتمثل فيه « المركزية الديمقراطية » وهو ما كان يسمى عندهم بالشورى (٣) ، وينهج هذا الحكم الجماعي سياسة اقتصادية ذات بناء اشتراكي ، فالاعمال مؤممة تسيطر عليها الدولة أو الحركة (قبل نشوء الدولة) وقد طبّق القرامطة في سواد العراق « اشتراكية تامة يعطى فيها لكل فرد حسب حاجته بينما يكون مركزه الاجتماعي مناسبا مع خدماته (٤) » .

ولا نريد أن نسهب في الكلام على موضوع درسه الباحثون وحللوه (٥) ، لكننا نؤكد ان القرامطة أثروا في مسيرة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العراق لانهم كانوا ثورة اجتماعية ، والثورة الاجتماعية تعدّ دائما « أعلى

---

(١) ينظر ما فعله معهم علي بن عيسى عام ٣٠٣ ، المنتظم ٦ / ٣١ . وينظر ما كتبوه الى معز الدولة عام ٣٣٦ ، المنتظم ٦ / ٣٥٦ .

(٢) ينظر المنتظم ٦ / ١٩٥ ويبدو انهم اصبحوا كثيرين في بغداد ، فقد وقعت بينهم وبين الاتراك عام ٣٣٠ حرب ، المنتظم ٦ / ٣٢٦ .

(٣) ينظر من تاريخ الحركات الفكرية ، القرامطة .

(٤) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٢٦ .

(٥) كتب عن القرامطة كل المؤرخين القدامى كالطبري والمسعودي ومسكويه وابن الجوزي وابن الاثير وغيرهم . تنظر هذه الكتب حوادث السنوات ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ . كذلك كتب عن القرامطة مؤرخون محدثون منهم من هو موضوعي علمي ومنهم غير ذلك ومن الذين كتبوا بموضوعية لويس برنارد في أصول الاسماعيلية ، وعبد العزيز الدوري في دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، وبندلي جوزي في كتابه (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) ١٥٩ . ينظر في القرامطة كتاب القرامطة لأبن الجوزي ط ٢ بيروت ١٩٦٨ وكتاب القرامطة لعارف تامر ، وكتاب قرامطة العراق لمحمد عليان .

أشكال الصراع الطبقي » فغيرت لذلك ثوراتهم وتحركاتهم في نواحي عديدة من أرض العراق بنية التركيبات الطبقية والسياسية ، وقد فعلت فعلها ايضا في نفوس العامة الذين كانوا مادة القرمطية وجعلتهم يرفضون باستمرار وبأشكال حادة مختلفة أوضاعهم الاجتماعية والإقتصادية المزرية .

كان من نتيجة وجود هذا المجتمع العراقي المُحمَّل بأنواع التناقضات السياسية والاقتصادية نشوء عادات وأوضاع شاذة قد تعم جميع المجتمع أو تختص بفئة معينة منه .

فالاضطراب السياسي كان عامّاً اما مصدره فكان من الطبقة الخاصة ، فالتنازع والتنافس بين افراد السلطة الحاكمة على تسلم الزعامة والقيادة صار يأخذ شكلا دمويا عنيفا ، وأصبحت الدولة متقاسمة بين أيد عديدة غير أمينة ، ولقد شاعت بين الناس أمثال وحكم تدلل على فساد الاوضاع وتدهورها فقالوا : « من كثرة الملاحين غرقت السفينة (١) ».

وفي مثل هذا الجو الحرب انتشرت الرشوة بأشكال وصور مختلفة ، من ذلك أن أولاد الوزير الخاقاني تحكموا عليه ، فكل يسعى لمن يرتشي منه ، وكان يولي في الايام القليلة عدة من العمال ، حتى انه ولى بالكوفة في مدة عشرين يوما سبعة من العمال (٢ » .

وفعل أغلب القضاة في مجال اختصاصهم فعل الوزراء والامراء(٣) ، فضرب الناس الامثال في الرشوة وقالوا : « الرشوة تعمي عين الحكيم(٤) » و« الرشوة رشاء الحاجة » و« البذل بالمؤونات (٤) » .

---

(١) خاص الخاص ١٧ .

(٢) الكامل ٨ / ٦٤ .

(٣) ينظر التحف والهدايا للخالديين ١١٩ ، الوزراء للصابي ٢٨٢ . –

(٤) التمثيل والمحاضرة ٤٦٨ .

ومثل هذه الامثال شاعت اخرى تدلل على نواح اجتماعية وسياسية كبيرة ، فلكثرة الويلات قالوا : « لا تعلم اليتيم البكاء » ولتفشي الانانية قالوا : « كل يجر النار الى قرصه » ونتيجة لاستمرار الظلم قالوا : « فرّ من القطر وقع تحت الميزاب » و« خرج من البئر الى الجب » و« فم يسبّح ويد تذبّح » ، ولأن المداجنة شائعة عامة قالوا : « خير الغناء ما شاكل الزمان » وهكذا (١) .

واذا كانت العامة تتأثر بالحياة السياسية والاجتماعية السائدة رأيناها تصدق الاراجيف ، والاختلافات التي حيكت حول القرامطة ، وفوضويتهم وقسوتهم وإلحادهم وكانت تصدق الخرافات والاساطير ، ففي سنة ٣٠٤ ضاقت العامة من حيوان يسمونه الزبزب قالوا انهم يرونه على سطوحهم وأنه يأكل الاطفال وربما عضّ يد الرجل أو ثدي المرأة فقطعهما وهرب بهما فكان الناس يتحارسون ويتزاعقون ، ويضربون بالطشوت ، والصواني ، وغيرها ليفزعوه فارتجت بغداد لذلك (٢) .

وليست العامة وحدها بهذه العقلية الصغيرة فقادة الطبقة المسيطرة كانوا بعقلية سمجة ساذجة ، وكان المقتدر وهو خليفة المسلمين همه متعه ولذاته لا يتردد على لسانه إلاّ أمثال قوله : « من اللذات أربع ، حلق اللحى الطويلة العريضة ، وصفع الاقفية اللحمية ، وشمّ الارواح الثقيلة البغيضة والنظر الى الوجوه الصبيحة المليحة (٣) » .

واذا أردنا أن نستكمل الصورة لمجمل القرن استرجعنا قول أبي حيان

---

(١) خاص الخاص ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) الكامل ٨ / ١٠٥ .

(٣) خاص الخاص ٥١ .

التوحيدي (١) : «وقد بلينا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذي يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم ، الخاوي من الكرام الذين يتسعون في أحوالهم ويوسعون على غيرهم» وبعد ان يعدد اخلاق السابقين وتنافسهم على صنع المحامد يقول : «فذهب هذا كله وتاه أهله وأصبح الدين وقد أخلق لبوسه ، وأوحش مأنوسه ، واقتلع مغروسه وصار المنكر معروفا والمعروف منكرا ، وعاد كل شيء الى كدره وخاثره وفاسده وضائره ، وحصل الامر على ان يقال : فلان خفيف الروح ، فلان حسن الوجه .. حلو الشمائل .. حسن اللعب بالنرد ، جيد في الاستخراج .. الى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره والكاتب من تشطيره .. وهذه كنايات عن الظلم والتجديف ، والخساسة والجهل ، وقلة الدين وحب الفساد» .

بعد كل هذا الكلام لا يبقى لنا الا القول : إن أبا حيان خير شاهد على انهيار قيم عصره وتحللها وتدهور العلاقات الاجتماعية والاعراف الدينية والقبلية التي كـــان يرتكز عليها المجتمع الاسلامي بعامة والمجتمع العراقي بخاصة (٢) .

الحالة الثقافية :

ان ازدهار الثقافة ونموها يرافق في كل الاحوال الاستقرار السياسي والاقتصادي وحيث أن القرن الرابع كان مضطربا في سياسته وادارته (٣)... فقد كان مضطربا في بنية ثقافته أيضا .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٦ .

(٢) كتب الدكتور فيصل السامر فصلا اسماه «روح العصر» ضمن كتابه القيم «الدولة الحمدانية في الموصل وحلب» استعرض فيه مجمل الحياة الاجتماعية في القرن الرابع بصورة علمية دقيقة وقد اطلعت عليه بعد مناقشة الرسالة وكان سروري كبيرا حين وجدت منهجي في البحث يتقارب كثيرا مع منهج الدكتور الفاضل .

(٣) الوصف في العراق ٢٨٨ .

لقد كانت بداية هذا القرن مجدبة حضارياً فرجال الدولة بعيدون عن عالم الثقافة لأنهم غرباء عن لغتها أولا ولانشغالهم بخلق ظروف سياسية تلائم مطامحهم ووضعهم الشاذ ..

ومثلما تجمدت المذاهب والاجتهادات الاسلامية تجمدت العلوم والفنون والآداب . « ولم يكن أدب غير الأدب القديم ولا لغة غير الالفاظ القديمة حتى كأن العالم الاسلامي كله أجدب بالعلم(١) » ، وبارت تجارة الشعر وانغمر الشعراء بالقديم وولع رجال الدولة بالمسامرات والقصص الخيالية مثل « عجائب البحر وحديث سندباد والسنور والفأر(٢) » ، ولم يسلم الادباء والشعراء أو العلماء من الاهانات التي بلغت حدّ التعذيب والقتل كما جرى للحلاج وابن عطاء من بعده (٣) .

وبلغ الجهل ببعض الناس أن منعوا دفن محمد بن جرير الطبري سنة ٣١٠ هـ فاضطر الى دفنه في الليل (٤)وهو من هو في الفقه والتفسير والتأريخ ، وسلب أبو بكر الصولي ونهبت أمواله من قبل الديالم في رمضان سنة ٣٢٩ مع ان منزلته الأدبية كانت مشهورة وصلته بالخليفة معروفة . وطعن علي ابي عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد بعلمه وهو احفظ أهل زمانه وأذكاهم (٥) وحرم ابو نصر يوسف بن عمر بن محمد الأزدي بعد وفاة الراضي من تولي القضاء مع انه

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٧ .

(٢) اخبار الراضي : ٦ وهذا يدلنا على أن قصص الف ليلة كانت موجودة زمن الراضي .

(٣) تجارب الامم والمنتظم وكتب التاريخ الاخرى حوادث السنوات ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١١ .

(٤) المنتظم ٦ / ١٧٠ .

(٥) اخبار الراضي ٢١٠ والصولي هو محمد بن يحيى ت ٣٣٥ أو ٣٣٦ ترجمته في الفهرست ١٥٠ ، نزهة الالباء ١٨٨ . وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧ والوفيات ٣ / ٤٧٧ .

كان معروفا بالنزاهة والعلم والفقه(١) ، كل ذلك لأن الوصول الى المراكز المتقدمة في الدولة ودور الحكام يتطلب الملق والادعاء والخنوع ولا أهمية للعمق الفكري والقيمة العلمية أو الأدبية .

ولا يعني هذا أن الادباء والشعراء حرموا نهائيا من الرعاية والعناية ، فابن الفرات الوزير كان يخصص كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسما لهم سوى ما يصلهم به متفرقا عند مديحهم اياه (٢) » .

وكان للراضي عناية خاصة بالشعر والشعراء كانت مجالسه الأدبية مقاربة لمجالس الوزير المهلبي فيما بعد .

وهناك بعد ذلك التفاتات نحو الشعراء والادباء من هذا الخليفة أو ذاك الوزير لكنها ليست دائمة ولا تستحق ان تسمى رعاية أو اهتماما .

هذا ما حدث قبل مجيء البويهيين ، اما زمن البويهيين فقد ارتفعت قيمة الاديب على حساب كرامته ، وصار ارتفاعه وعدمه مرتبطا ارتباطا فعليا بمصلحة الحاكم ، وقد تعرض الكثير من أدباء العصر البويهي للاهانة فالوزير المهلبي تعرض للضرب في حياته (٣) وتعرّض للمصادرة بعد مماته (٤) ، وتعرّض الصابي (٥) وكذلك والد الشريف الرضي (٦) للاعتقال والعزل على يد عضد الدولة الذي كان ــ كما يقال ــ يرعى الادب والعلم ويحتضن الشعراء والادباء .

---

(١) نزهة الالباء ١٩٠ .

(٢) ينظر آدم متز ١ / ١٦٣ .

(٣) نشوار المحاضرة ١ / ٧١

(٤) معجم الادباء ٩ / ١٨ .

(٥) معجم الادباء ٩ / ١٨ ، زهر الآداب ١ / ٣٩١ .

(٦) الكامل ٨ / ٧١٠ .

أما أبو حيان التوحيدي فقد كان نصيبه التشريد والضياع واهانات الصاحب ابن عباد ووصل به الامر الى سكب ماء وجهه بعبارات تذلل واستجداء للوزير ابن سعدان(١) كي يكسب قوت يومه ، ولم ينفعه علمه أو أدبه عند الناس أو الحكام .

ومع كل هذا لا بد من القول إن الحياة الثقافية قد انتعشت بشكل بارز عندما استقرت امور الدولة في يد البويهيين ويبدو ذلك جيدا زمن عضد الدولة .

ويرى الدكتور مصطفى جواد(٢) أن سبب الازدهار السريع للعلوم بعد أن دخلت الخلافة في حماية البويهيين يعود الى « توفر الحرية الدينية والحرية الفكرية والحرية العلمية ، وكانت هذه الحريات قبلهم مزمومة مكتومة ، وقد عوقب عليها قبلهم بالموت كما جرى على الحسين بن منصور الحلاّج » ، وهذا الرأي يبقى غير نافذ الى اعمـــاق العوامل الحقيقية التي دعت الى ازدهار العلم والادب والتي نستطيع ان نقول بأنها سياسية واقتصادية بالدرجة الاولى .

فبعض الاستقرار السياسي الذي أعقب تولي آل بويه مقادير الامور ، ومحاولة هؤلاء الحكام الجدد كسب مشاعر أهل العراق بتقريبهم الشعراء والادباء والعلماء وتظاهرهم بالحرص على اللغة وادعائهم التأدب والشاعرية والمعرفة أدى الى انتعاش الحركة الفكرية والادبية ، نضيف الى ذلك كون آل بويه اتخذوا « من الادب وسيلة يستعينون بها على تهدئة الخواطر المضطربة والنفوس القلقة ويستخدمونها في اقامة الهيبة وبث الدعوة وتثبيت السلطان(٣) » عن طريق المراسلات التي كان يدبج متونها وزراؤهم وكتابهم أمثال ابي

---

(١) الامتاع ٣ / ٧ وما بعدها ، وينظر في استجدائه كتاب ابي حيان : ٣٦ ، ٤٢ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي س ١٩٥٦ مج ٤ ٢ / ٥٠٢ . مقال الدكتور مصطفى جواد .
(٣) الادب في ظل بني بويه ١٢٢ .

اسحق الصابي (١) وعبد العزيز بن يوسف (٢) وابن عباد (٣) وغيرهم .

نستطيع بعد هذا القول : ان تقريب آل بويه للادباء والشعراء لم يكن من أجل علمهم أو أدبهم فقط « فلو لم يكن لقدرة هؤلاء البلاغية جدوى للملوك وأثر حسن في حياتهم وحياة ممالكهم لما رأيناهم يتسابقون الى احتضان الادباء الاكفاء فيسلمونهم ممالكهم (٤) »، ولو كان الادب والشعر واللغة سبيلاً الى السلطة لرأينا المتنبي وابن فارس اللغوي ت ٣٦٩ ، وأبا علي الفارسي المتوفى ٣٧٧ ، والجوهري صاحب الصحاح وأبا حيان التوحيدي وغيرهم ممن كانوا أعظم علما وأسمى أدبا من وزراء آل بويه أصحاب سلطة ومسيّري أمور دولة .

لقد كان آل بويه يستغلون الأدب والانسان معا من أجل سيادة كلمتهم واستقرار أمور دولتهم ، وان برز منهم من يهتم بالأدب ويتظاهر بأنه يقرّب أصحابه حبا بالتزود من مناهله ، فلا يعدو أن يكون هذا اهتماما سطحيا يشبه الى حد بعيد الاهتمام بالملبس والمأكل والمشرب ومجالس الانس والطرب ، لأن الادب غدا مظهرا من مظاهر الترف الحضاري .

واذا تساءلنا بعد ذلك كيف تجمع مثل هذا السيل الجارف من الادباء والشعراء ورجال العلم ؟ جاءنا الجواب واضحا صريحا وهو ان الادب وليد البيئة وخلق ظروف الحياة سياسية كانت أو اقتصادية ، وهو ليس ابن يومه اذ يحمل جنينا في رحم المجتمع ويولد وبه كل الصفات الوراثية التي طبعتها مراحل تطور هذا المجتمع وتقدمه .

---

(١) ابراهيم بن هلال الصابي ت ٣٨٤ ترجمته في معجم الادباء ٢ / ٢٠ ، اخبار الحكماء ٧٥ ، معاهد التنصيص ٢ / ٦١ ، وفيات الأعيان ١ / ٣٤ .

(٢) الفهرست ١٣٤ .

(٣) الصاحب اسماعيل بن عباد العباسي ت ٣٨٥ هـ ترجمته في الفهرست ١٣٥ معاهد التنصيص ٤ / ١١١ معجم الادباء ٦ / ١٨٦ وما بعدها ، وفيات الاعيان ١ / ٢٠٦ .

(٤) الادب في ظل بني بويه ١٢٤ .

ولهذا فأدباء وشعراء وعلماء هذا العصر حصيلة تلاحم الثقافة العربية مع الثقافات الاجنبية التي بدأت تغزو أسواق العلم في بغداد وغيرها أوائـل القرن الثـاني للهجرة من خلال الترجمة والتجارة وقد تطورت هذه الثقافة الممتزجة وتنامت في القرن الثالث للهجرة ثم نضجت وأتت أكلها في قرننا الرابع هذا .

وبما أن هذه الثقافة — وكل ثقافة في الدنيا — متأثرة بشكل مباشر بالحياة السياسية والاقتصادية وتقلباتها وتراكماتها فقد لوثت بما كانت متلوثة به هذه الحياة من اضطراب وزيف انتهى بالادب عموما والشعر خصوصا الى أن صار حرفة يتاجر بها جماعة من البشر ، يزورون حقيقة وجودهم الانساني — على الأغلب — بأساليب متنوعة من التصاغر والشذوذ ، وصار من يقف بوجه تيارهم يعدّ غريبا ويكون مصيره الجوع والتشرد .

وقد أحس الكثير من الأدباء والشعراء بهذه الغربة وهذه الوضاعة فصوروا ذلك في أشعارهم وكتاباتهم ، وسنبين في كلام آت منزلة الشاعر من خلال الشعر الـذي تجمع لدينا فأعطانا القيمة الحقيقية لحضارة القرن الرابع التي يتحدث عنها بعض المؤرخين والكتّاب ويملأ فمه فخرا وحماسة معتقـداً أنها حضارة اسلامية ، وقد فاته كونها حضارة مبنية على الاستغلال والجوع والحرمان .

ولما كان استعراض الحركة الفكرية في هذا القرن لا بد منه فقد رأينا أن نوجز .. فنقصر الحديث عند ذكر قسم من رجال كل جانب من جوانب هذه الحركة ومجمل لآرائه ، ومذاهبه .

وأول ما نأتي على ذكره هو التفسير ، ونعني به تفسير آي القرآن الذي تطور في هذا القرن وتشعب ، وصار لكل مذهب ديني تفسير يختص به أهل

ذلك المذهب ويتأثرون بآرائه .

ولعل محمد بن جرير الطبري قد اوصل التفسير الى مرحلة جديدة ومنهج الطبري في التفسير أن يجمع في كل آية التفسير بالمأثور ، وفي الغالب يفضل أحد الاقوال (١) » .

واذا كان الطبري قد بلغ الذروة في التفسير بالمأثور فهناك من اتخذ التفسير بالرأي اسلوبا كما فصل الشريف المرتضى في أماليه(٢) حيث اتبع فيه طريقة المعتزلة « اذ كان هو نفسه شيعيا معتزليا (٣) » .

أما الحديث فقد دونت في هذا العصر كتب كثيرة منه مثل صحيحي البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل (٤) .

وقد ظهرت في هذا القرن مزية حفظ الاحاديث الكثيرة ، وكان هناك من يروي الاحاديث وينقدها (٥) .

ولم يكن المحدثون مبرئين من التلاعب في الاحاديث فهناك من أخذ يضع الاحاديث ويبتكرها ليدافع عن مذهب أو ليثبت رأيا ، ومع هذا كانت للمحدثين سلطة كبرى فمن « خرج على لنهجهم قيد شعرة ، شغّب عليه ، ورمي بالزندقة (٦) » .

وكان لعلم الكلام صولة وجولة ، وكان للمعتزلة الفضل الاكبر في تطور هذا العلم ، والحقيقة أنه علامة تدلل على سلامة التطور الفكري للمجتمع ، ولكنه في القرن الرابع لم يبق على ما كان عليه في القرنين الثاني والثالث من فاعلية

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٣٨ ، وترجمة الطبري في تاريخ بغداد ٢ / ١٦٢ .

(٢) تنظر أمالي المرتضي ط عيسى البابي محمد ابو الفضل ابراهيم ١٩٥٤ .

(٣) ظهر الاسلام ٢ / ٤٠

(٤) نفسه ٢ / ٤٦ .

(٥) ينظر ظهر الاسلام ٢ / ٤٧ .

(٦) نفسه ٢ / ٤٩ .

وحركة . على أن عملية الانتماء الى المعتزلة ظلت ذات بريق سطحي خلاّب يؤكد هذا ادعاء الصاحب بن عباد الاعتزال وولعه بالجدل (١) .

أما التصوّف فقد أخذ مظهرا متميزا في هذا العصر ، وقد حدّ مقتل الحلاّج والتمثيل به ، من جرأة بعض المتصوفة .

وكان أبرز متصوفة هذا العصر الحلاّج ، وابن عطاء والشبلي والطوسي صاحب كتاب اللمع في التصوف ، وابو طالب المكي صاحب كتاب قوت القلوب والسّلمي صاحب الكتب الصوفية المتعددة منها كتاب طبقات الصوفية ، ولا حاجة بنا الآن الى استعراض آراء المتصوفة لاننا سنفصل ذلك في موضع آخر من هذا البحث .

أما اللغة وعلومها وآدابها فقد كانت ذات حركة كبيرة ، فقد ألف ابن دريد معجمه اللغوي الذي سماه « جمهرة اللغة (٢) » وألف الجوهري معجمه الذي دعاه « الصحاح (٣) » ووضع ابن فارس (٤) كتابا لغويا « نحا فيه نحوا جديدا » وأطلق عليه اسم « مقاييس اللغة » ، وألف الثعالبي كتابه المعروف بـ« فقه اللغة » ، الذي جمع فيه الالفاظ المتقاربة في موضع واحد .

لقد كانت حركة تأليف الكتب اللغوية والنحوية في هذا العصر ذات أهمية باللغة فالعامية بدأت تنتشر انتشارا واسعا ، وصارت جزءا من كلام الناس ، كما بدأت تغزو الشعر والادب .

---

(١) ينظر الصداقة والصديق ٧ ونزهة الالباء ٢٢٤ ، الكشكول ١ / ٢٤٤ .

(٢) تنظر جمهرة اللغة ط ١ حيدر آباد ، ابو بكر محمد ابن دريد ت ٣٢١ هـ ترجمته في نزهة الالباء ١٧٥ سنة ١٣٤٤ اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى بغداد .

(٣) ينظر الصحاح ط دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥١ ، والجوهري هو أبو نصر اسماعيل ابن حماد ت ٣٩٠ ترجمته اليتيمة ٤ / ٣٧٣ ، بغية الوعاة ١٩٥ ، نزهة الالباء ٢٣٦ ، انباه الرواة ١ / ١٩٤ ، معجم الادباء ٦ / ١٥١ ، النجوم الزاهرة ٤ / ٢٠٧ .

(٤) ترجمتة في الاعلام ١ / ١٨٤ .

وفي النحو والصرف برزت اسماء لامعة كان لها تأثير فعّال في الحدّ من ميوعة اللغة العربية الفصحى ، ومن أهم رجالات هذا القرن، الزجّاج (١) الذي تتلمذ عليه أبو علي الفارسي (٢) استاذ ابي جني (٣) صاحب المذاهب الصرفية والنحوية .

وهناك نحويون ظهروا في هذا القرن فتأثروا بعلم الكلام المعتزلي وروح المنطق اليوناني فخلطوا النحو بالمنطق والفلسفة ومن هؤلاء النحويين الرّماني أبو الحسن علي بن عيسى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٤) .

أما البلاغة فقد بدأت تبحث بصور وأشكال مختلفة ، كان أغلبها يبحث في أسباب اعجاز القرآن (٥) ، وحين وصلت الى ابي هلال العسكري (٦) جعلها أحق العلوم بالتعلم «اذ بدونها لا تفهم أسباب إعجاز القرآن (٧)» ، وكانت علوم البلاغة تسمى علم البيان .

أما في النقد فقد ظهرت كتب ومؤلفات عديدة منها كتب الصولي التي أهمها «أخبار ابي تمام (٨)» وأخبار البحتري (٩) والاوراق (١٠) ، وفي الاول منهج نقدي واضح يمكن ان يعتمد في كتابه دراسة عن نقد الصولي .. وغير

---

(١) هو ابو اسحق ابراهيم الزجاج ت ٣١٠ ترجمته في نزهة الألباء ١٦٧ ، أنباء الرواة ١ / ١٥٩ ، تاريخ بغداد ٦ / ٨٩ .

(٢) الحسن بن احمد ت ٣٧٧ ترجمته في نزهة الألباء ٢١٦ .

(٣) ينظر كتاب ابن جني النحوي للدكتور فاضل السامرائي .

(٤) ترجمته في نزهة الالباء ٢١٧ .

(٥) ينظر كتا ب البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف ط ٢ دار المعارف بمصر ٢٩ ، ١٠٢ ،

(٦) في كتاب الصناعتين ط عيسى البابي الحلبي تح علي البجاوي وابو الفضل ابراهيم .

(٧) ظهر الاسلام ٢ / ١٢٤ .

(٨) ط المطبعة الهاشمية ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٩) مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١٠) كتاب الاوراق في عدة اجزاء ظهر منه ثلاثة أجزاء هي : اخبار الراضي والمتقي واشعار اولاد الخلفاء واخبار الشعراء .

كتب الصولي كان كتاب الموازنة للآمدي (١)، وكتاب الابانة عن سرقات المتنبي (٢)والرسالة الحاتمية(٣) وكتب الثعالبي التي جمع فيها مختارات شعرية وأشار إلى نواح جمالية عديدة في هذا الشعر .

واذا تخطينا الفلسفة التي كان من أئمتها الفارابي وابو سليمان المنطقي وابو حيان التوحيدي ، ومسكويه واخوان الصفا وجئنا الى النثر والشعر توضحت لنا معالم واسعة لهما متمثلة بلغة النثر العالية التي نجدها عند ابي اسحق الصابي وابي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني وابي حيان التوحيدي (٤) وابي منصور للثعالبي ، وغيرهم .

لقد أغنى هؤلاء اللغة العربية بأساليبهم العالية والفاظهم المبتكرة وانا لواجدون بذورا جيدة للقصة في مقامات الهمداني ، ونموذجاً واضحا للروح الوجودية والعمق الفكري في لغة ابي حيان التوحيدي وفلسفته (٥) .

واذا كان من الواجب أن نذكر الشعر والشعراء رأينا أن نثبت شيئا عن لغة الشعر فنقول : انها كانت ، مواكبة لحركة العصر متأثرة بتطوراته وما استجد فيه وما دخل عليه من سمات أجنبية ، ذات مظاهر سطحية ، على أن هذه اللغة أفادتنا كثيرا في استكمال دراسة المجتمع من خلال الشعر وجعلتنا نطرق أبواب دراسة تحليلية جديدة .

---

(١) ط مطبعة صبيح ، القاهرة

(٢) طبعة دار المعارف في مصر ١٩٦١ .

(٣) الرسالة الحاتمية كتابان لابي علي محمد بن الحسن الحاتمي الاول مناظرة بينه وبين المتنبي حين جاء الى بغداد والكتاب ملحق بالابانة عن سرقات المتنبي . والثاني له أيضا يتضمن الحكم والتي اقتبسها المتنبي عن ارسطاطاليس .

(٤) مما كتب عن ابي حيان وأدبه كتاب الدكتور عبد الرزاق محي الدين (ابو حيان التوحيدي سيرته – آثاره) وكتاب الدكتور إحسان عباس (ابو حيان التوحيدي)، وينظر في ترجمته الاعلام ٥ / ١٤٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ١ / ٣٣٣ .

(٥) ينظر مقدمة كتاب الاشارات الالهية لأبي حيان التوحيدي التي كتبها محقق الكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ونلاحظ فلسفة الوجودية في كتابه ثلاث رسائل وبخاصة رسالته في الحياة .

هذه اللغة السطحية السهلة نجدها عند الخبزارزي والمفجع البصري وابن ليكك وابن سكرة وابن الحجاج وغيرهم .

ومثلما نجد هذه اللغة الاجتماعية الشعرية ، نجد لغة عالية تترسم خطى الشعراء الاقدمين ، وتتقولب بقالبهم ، لكنها متأثرة بروح العصر وما دخل عليه من سعة أفق وامكانية تصوير . مثل هذه اللغة نجدها عند المتنبي والشريف الرضي والصابي والشريف المرتضى ومهيار الديلمي وغيرهم .

اخيراً نستطيع أن نؤكد أن الحياة الثقافية كانت متحركة منتجة لكن حركتها وانتاجها يرتبطان بحركة المجتمع السياسية والاقتصادية ، ويصوران مسيره ونماءه (١) .

---

(١) يرى الدكتور فيصل السامر في ملاحظاته على كتابي وهو رأي صائب ان من أسباب ازدهار الادب استقلال الدويلات وثقافتها وحرص أمرائها على احاطة انفسهم بالاقلام والألسن للدعاية ، يضاف الى ذلك الترف المادي نتيجة تدفق الثروة النقدية وتركزها بيد الخاصة وتدفق ذوي المواهب عليهم لنيل الجزاء .

الفصل الاول

الشاعر في المجتمع

يتميز الشاعر عن بقية الناس بعلاقاته المتشعبة في مجتمعه ، ومن علاقاته التي تستحق التوضيح والدراسة وتبرز أهميته في المجتمع علاقته بالحاكم ، والناس ، واقرانه الشعراء .

الشاعر والحاكم :

لم يكن لأكثر الشعراء ارتباط عضوي مع طبقة معينة من طبقـات المجتمع (١) فارتباطه متعلق بمصلحته التي تعمي عنده الرؤية الواضحة فلا تجعله يفرّق — في اغلب الاحيان — بين حاكم جائر وآخر عدل ، فالحاكم عدل ما دام كريما في الهبة ، فان شحت يده وقصرت عن العطاء ، فهو لا يستحق من الشاعر ذكراً ان سلم من الهجاء والقدح .

أما الحاكم فانه يرى في الشاعر لعبة صغيرة تسد فراغه أو ببغاء يردد اقوالا حفظها تنتفخ لها أوداج الحاكم أبهة وفخرا ، أوآلة يستعملها عند الحاجة وينتقي منها الاجود ، والاجود عنده هو من عمل لمصلحته ، ورفع اسمه ، واشاد بمفاخره ، وثبت له أركان سلطته .

---

(١) لأن المثقفين ورجال الدين وبعض الفئات الطارئة ليسوا من طبقات المجتمع الاساس ، التي لها علاقة بوسائل الانتاج .

وقد أحسن بعض الشعراء بالحال المزرية التي آلت اليه منزلته فعبّر عن ألمه بقول ابي المكارم المطهر البصري (١) :

رأيتُ الشعرَ للساداتِ عزّاً ومنقبةً وصيتا وارتفاعا
وللشعراء هُونا وانخفاضاً ومجلبةً لذلٍ واتضاعا

وكيف لا يحدث مثل هذا الاتضاع وأكوام الشعراء – ان جاز التعبير – تقف مكدسة على أبواب الملوك والأمراء والوزراء وبقية رجال الدولة، تنتظر دورها لتلقي الكلمات التي لفقتها لتستجدي بها رزقا ، فقد يقف الشاعر ببؤس أياما أو أشهرا ينتظر انفتاح باب القصر – باب الفرج – ليملأ فمه بالالفاظ التي كدّ في تلفيقها الليالي وأرهق نفسه وفكره ، وقد تبلغ به ا لحال ما بلغت بالسّلامي حين قال (٢) :

أفلا أُجازُ ولِي ثلاثة أشهر لا تعلمون بما أُقيمُ تَجمُّلي
قد بِعتُ حتى بعتُ طرفاً قائماً تحتَ القِدور على ثلاثةِ أرجل
ورَهنتُ حتى قد رَهنتُ منادمي ومُناشدي ومذكّري ومعلّلي
فرأيتُ حالة حاسِديك كحالتي ورأيتُ منزل حاسِديَّ كمنزلي

انها دعوة استجداء صريحة تدفعنا لرثاء كرامة السلامي التي فقدها حين غدا يطوي عرض البسيطة جاعلا « قصارى المطايا أن يلوح لها القصر » مبشرا آماله بلقاء « ملك هو الورى » مؤملا عطاياه وجوائزه (٣) .

واذ يفتح الحاكم أذنيه ليسمع الكلمات تزدهر حياة الشاعر ويبدأ الرزق يرفده من كل جانب ثم يصبح لسانا آليا ، يمدح ، يرثي ، يفخر بنسب الحاكم ومنزلته ... الخ ، فالصدق هنا مسألة ثانوية اذ المهم والاهم أن يسمع الناس ما يقول الشاعر عن الحاكم . والمناسبات خير ما يطلق السن الشعراء للمدح والتقرب .

---

(١) تتمة اليتيمة ١ / ١٨ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ / ٤٣٧ .
(٣) نفسه ٢ / ٤٠٢ .

فاذا جاء العيد وجب على الصابي أن يقف مهنئاً به قائلاً (١) :

يا سيداً أضحى الزمانُ بأُنسِهِ منه رَبيعا
أيامُ دَهْرِكَ لم تزل للناسِ أعياداً جميعاً
حتى لأوشكَ بينَها عيدُ الحقيقةِ أن يَضيعا

وحين يعود أمير أو وزير من سفر أو حج أو غزو تزهو الدنيا ويبتهج الكون خلال الكلمات التي يقولها الشاعر .

هذا الشريف الرضي ، على منزلته ، يقدم أحد الحكام فما يستطيع الا أن يأتي مهنئاً بهذا القدوم فيقول (٢) :

قَدِمَ السرور بِقَدْمَةٍ لك بشّرت غُرَرَ العلا وعَوَاليَ التيجانِ
قد كان هذا الدهرُ يلحظُ جانبي عن طَرْفِ ليثٍ ساغبٍ ظمآنِ
فالآن حين قَدِمتَ عُدْنَ صروفُه يرمُقْنَني بلوحظ الغِزلان

ويدلل هذا الكلام على أهمية رعاية الحاكم للشاعر في تكوين منزلته الاجتماعية وموقعه بين الناس بمختلف فئاتهم .

وجود الشاعر اذا يحققه وجود ممدوحه ، وهذا ما يدفعنا الى التساؤل عن أهمية المديح للممدوح وللشاعر معا ، كما يدفعنا للتساؤل ايضا عن المسببات الرئيسة في هذا المديح وعن أهمية المادة في تدفق عباراته والفاظه ، وللممدوح وعطاياه ومنزلته اثر كبير في شهرة الشاعر وانتشار شعره مهما كانت قدراته الفنية وعطاياه الابداعية .. يقول صريع الدلاء موضحاً ذلك في احدى اماديحه لفخر الملك (٣) :

كم أديب تراه اعرفَ مني بعلوم الاشعار والآداب
لو تعاطى بنعله قحفَ رأسي كان قحفي يقوم بالإعراب

---

(١) نفسه ٢ / ٢٧٩ ، نهاية الأرب ٥ / ١٧٦ .
(٢) الديوان ٢ / ٥٠٨ ، نهاية الأرب ٥ / ١٣٦ .
(٣) الديوان ورقة ٧٩ أ .

يتحاشون كالكلاب من الاف ... لاس بين الورى بلا أذناب

٭

وبجود المليك صرت أنا القصّا ... رُ لا بالآداب والانساب

قد يكون المال أهم هذه الأسباب لكنه ليس كلها ، فملازمة الشاعر الدائمة للحاكم تولد نوعا من الالفة قد تتحول الى صداقة وحب عميقين يبقيان مع الشاعر حتّى بعد أن ينكب الحاكم بالعزل أو القتل ، وهذا ما حدث لابن الأنباري مع ابن بقية الوزير حين قتل الاخير بيد عضد الدولة فرثاه ابن الانباري وبكاه بقصيدة رائعة الوفاء تمنى عضد الدولة لو أنه كان محل المقتول لينال شرف كلماتها التي تقول (١) :

علوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ ... لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأن الناسَ حولَك حينَ قاموا ... وفودُ نَداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً ... وكلُّهُمُ قيامٌ للصَّلاةِ
مددْتَ يدَيْكَ نحوَهم احتِفالا ... كمدِّهما إليهم بالهِباتِ
ولما ضاقَ بطنُ الأرضِ عنْ أن ... يضمَّ عُلاكَ من بعدِ المماتِ
أصاروا الجوَّ قبْرَكَ واستنابوا ... عن الأكْفانِ ثوبَ السّافياتِ
لعَظْمِكَ في النفوسِ تَبيتُ تُرعى ... بِحُرّاسٍ وحُفّاظٍ ثِقاتِ

وهكذا تستمر القصيدة في سفح مشاعر الحزن الصادقة والتي تدلل على

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٧٤ ، الوافي ١ / ١٠١ وترجمته الوزير محمد بن محمد بقية المقتول سنة ٤٦٧ في الوافي بالوفيات ١ / ١٠٠ ، نكت الهميان ٢٧١ . ولابن الحجاج اكثر من قصيدة مديح في ابن بقية نجد فيها الكثير من الفاظ التعظيم والتأليه ، وهي على ما فيها من دجل تسجل منزلة ابن بقية الكبير ينظر مثلا ديوان ابن الحجاج من رقم ٤٤٢ م ورقة ٢ وورقة ١٢ وورقة ١٦ .

(٥) اما ترجمة أبي بكر الانباري محمد بن عمر فنجدها في اليتيمة ٢ / ٣٧٤ وتراجع اخباره في نكت الهميان ٢٧٢ ، شذرات الذهب ٣ / ٦٣ . وقد خلط محي الدين عبد الحميد بينه وبين ابن الانباري المتوفى سنة ٣٢٧ .

عمق وفاء فاق ما روى عن وفاء البحتري للمتوكل بعد قتله (١) وسبق به وفاء الشريف الرضي للخليفة الطائع بعد عزله ووفاته (٢). ولنا في رثاء ابن سكرة للوزير المهلبي (٣) بعد وفاته ومصادرة أمواله ، ورثاء مهيار (٤) الديلمي للصاحب ابي القاسم بن عبد الرحيم بعد مقتله محبوساً في هيت أمثلة أخرى تدلل على صدق ما ذهبنا اليه .

ومع كل هذا تظل العلاقة المادية طاغية على كل عمل شعري يصل بين الشاعر والحاكم . حتى الرثاء لا يعدو ان يكون وصفا لمحاسن الميت من حيث هو كريم ، باذل للمال ، حافظ الشاعر من العوز والجوع .

وابن سكرة يوضح في صدق هذه الحقيقة حين يقول في الوزير المهلبي (٥) :

أيامَ كنتُ من المهالبِ في	ربعٍ أغنَّ ومرتعٍ خَصِبِ
فَبِمَن أعوذ اليومَ من كَمَدٍ	لا أستقلُّ به من الكَرَبِ
طلّقتَ لذّاتِيْ الثلاثَ فما	بيني وبين اللهو من سَبَبِ
فعلى السرور وكلِّ فائدةٍ	بعدَ الوزير سلامُ محتسبِ

أو حين يقول :

مضى مَلِكٌ عمَّ البريةَ جودُه	رؤوفٌ، وإنْ راعَ الاسودَ، شفيقُ
سَكِرْتُ بنُعماه وجودِ وزيرِه	فقالتْ ليَ الايام : سوفَ تُفيقُ

واذ نشم من هذا الرثاء بعض الوفاء يجعلنا نتغاضى عن الروح المادية التي تملؤه ، لا يمكننا بأية حال من الاحوال أن نستشعر شيئا من الاحترام للعلاقة الذليلة التي يصورها لنا ابن الحجاج حين يمدح ابا الفرج محمد بن العباس بن

---

(١) ينظر ديوان البحتري وقصيدته التي قالها في المتوكل بعد مقتله والتي جاء فيها :

تغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره

١ / ٥٤ ط دار صادر ، دار بيروت .

(٢) الديوان ٢ / ١٩٤ ، ١٩٧ مثلا .

(٣) اليتيمة ٣ / ٢٤ .

(٤) الديوان ١ / ٤١٨ وترجمة الصاحب ابن عبد الرحيم في الوافي بالوفيات ٣ / ٨ .

(٥) اليتيمة ٣ / ٢٥ .

فسانجس الوزير بقوله (١) :

يــا وزيرا بنوره طلعت أنجمُ العــدى
صحن خدّي لأرض نعلِكَ يا سيدي الفدا
بكَ قامت سوقُ النوالِ وقد أصبَحَتْ سُدى
وسمِعنا فيها النداءَ علَى الجودِ والنــدى

وكذلك لا يمكننا الا أن نغض الطرف حياء من هذا التصاغر الذي نجد صريع الدلاء مغموراً فيه ، فحين يجفوه فخر الملك لا يجد غير كلمات تقطر وضاعة وانهياراً فيقول (٢) :

شمت الحاسدون بي بعد عزّي ... وبكى لي من رحمة احبابي
أنا كالكلب ليتني كنت كلباً ... انا مثل السنور بين الــكلاب
كان جاهي ما بينكم في الثريا ... فأنا اليوم في الثرى والــتراب

• • •

من أنا الكلب؟من كذقني وشعري ... وصريع الدلاء في الالقاب

• • •

لي سبق لا في الحروب ولكن ... في حضور الطعام قبل الذباب

كما أننا نعجب للشريف الرضي المفاخر بعلويته ونسبه وهو يتنازل عن مقامه فيقول لآل بويه (٣) :

نرى منعكم جودا ومطلكم جُدا ... وإذلالكم عزاً وإمراركم شَهدا
خُذوا بزمامي قد رجعتُ اليكمُ ... رجوعَ نزيلٍ لا يرى منكمُ بُدا

---

(١) تكملة الطبري ١ / ٢٠١ «وابو الفرج بن فسانجس تقلد مع ابي الفضل الشيرازي الامور بعد وفاة الوزير المهلبي ولكن من غير تسمية لاحدهما بوزارة» ، ينظر الكامل ٨ / ٥٤٧ .

(٢) الديوان مخ ورقة ٧٧ ب ، ٧٨ أ .

(٣) الديوان ١ / ٤٠١ .

أريد ذهابا عنكم فيردنـــي اليكم تجاريب الرجال ولا حمدا

وتظهر هنا علامات للصراع النفسي عند الشريف الرضي وخاصة في البيت الاخير كما يظهر تكلفه المديح في جفاف كلماته وارتباكها في أداء المعنى الذي يريده .

ويبدو الشاعر صغيرا محميا مستظلا بفيء الحاكم حين يضخم كلماته ويبالغ بالمديح فيتضاءل وجوده بينما يبني على حساب كرامته مجداً كاذباً — في أغلب الأحيان — لممدوحه ، يقول السلامي مادحاً سابور بـــن أردشير (١) :

اليوم طبّقَ أفقَ الدولة النورُ وأوضحتْ فلقَ المُلْكِ التباشيرُ
فكلّ عينٍ إليك اليومَ طامحةٌ وكل قلبٍ بما خُوِّلت مسرورُ
أقبلتَ في خِلَعِ السلطان زيّنها ذيلٌ على أنجم الجوزاء مجرورُ
ورحت فوق جوادٍ كالعُقاب جرى والجودُ في سرجه والمجدُ والخيرُ

وقد يكون سابور كريماً ، وقد يكون كرمه مفرطا ، عميما ، أو محدوداً خاصا بفلان من الشعراء وعلان من الادباء ، وقد يكون حاكما يعطي ليمدح (٢) ، أو يمدح فيعطي ، أو لا يكون شيئا من هذا ، ولكن السلامي ثبت لسابور كرما ، وخلد له ذكرا .

وان كان السّلامي اقتصر في مديحه على الكرم وحب الناس للممدوح فابن نُباتة السعدي جعل لعضد الدولة مقاما فوق البشر بل فوق الانبياء والملائكة

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٢٩ وترجمة سابور اردشيرت ٤١٦ في الوفيات ٢ / ٩٩ .

(٢) من الحكام الذي اعطوا ليمدحوا فخر الملك ابو غالب محمد بن علي من أهل واسط وزربهاء الدولة وقتلة سلطان الدولة سنة ٤٠٧ ، ينظر المنتظم وفيات هذه السنة .. وقد اختص صريع الهرلاء بفخر الملك هذا وكاد يقصر ديوانه على مديحه وتعظيمه ، ويبدو أنه كان مثل آل بويه ميالا الى شعر السخف والتحامق ولصريع اشارات عديدة لذلك ينظر الديوان الأوراق ٧٩ أ ، ٨١ ب ، ٨٢ أ ، ٨٥ أ ، ٨٧ أب ، ٩٠ ب ، ٩١ أب ، ٩٢ أ وغيرها .

حين قال (١) :

يا عَضُدَ الدولة لا واحدٌ بعدَك غيرُ الصَّمَدِ الواحدِ
تركت أخبارَ قرون خَلَوا حوادثاً بادت مع البائدِ
في كل يومٍ غارةٌ تنطوي على لذيذِ المغنَم البارِدِ

وقد عرض في قصيدته هذه ببختيار ووصفه بقلة العقل وفساد الرأي حين قال (٢) :

لم يدر من في (آمُلَ) أنه بينَ خطاه شركُ الصائدِ
يفرح بالصحة في جسمه وسَقْمُهُ في رأيهِ الفاسدِ

ولا ينسى ابن نُباتة في مديح آخر أن يؤله عضد الدولة ويصفه بالجبروت والعظمة حين يقول (٣) :

يا عَضُدَ الدولة الذي قمعتْ دولتُه الدهرَ وَهْوَ جبّارُ

وليس ابن نباتة وحده الذي يؤلّه ممدوحه ، فالحاتِميّ البغداديّ يحذو حذوه ، حينما يمدح سابور بنَ أردَشِير ، ويُعَدّ مدح ابن نُباتة لعضد الدولة متواضعا امام هذا الزخم من كلمات التعظيم التي يصغر ازاءها كل شيء ، فلا يجوز ان تقال في عصر يؤمن أهله بدين الوحدانية السماوي .

يقول الحاتمي (٤) :

---

(١) مختارات البارودي ٢ / ١٧٨ . من الاشعار التي تعظم عضد الدولة وتؤلهه قول ابن الحجاج :

«وانتظرني لي دين عند قارون الزمان
عند مولاي ولي النعم القرم الهجان
عند حي غير ميت عند باق غير فان
عند من يطلع مثل الشمس في كل مكان

القطعة ٤٤٢ ، ٢ ورقة ٦٤

(٢) نفسه .
(٣) اليتيمة ٢ / ٣٩١ .
(٤) نفسه ٣ / ١٣٢ .

أوْفَى على كلِّ البَشَر　　　سابورُ مَجْداً وأثَرْ
وإنما العَضْبُ الذكر　　　أعارَهُ ما لم يُعَرْ
رأياً كمحتوم القَدَرْ　　　فانصاع كالنّجم انْكَدَرَ
يُحْمَدُ إن ذُمَّ المطر　　　تهفو الرواسي إن زَفَرَ
في كفّه نَفْعٌ وضر　　　ولحظُه خَيْرٌ وشَر
والدهر طَوْعَ ما أمَرَ　　　يجري بما ساء وسر

• • •

عُمِّرْتَ ما شاء الوطر　　　فأنت للملك وَزَر
دونَكَ عذراء الفقر　　　تُتلى كما تُتْلَى السور

ولا يدري الانسان ماذا يقول بعد هذا السيل من كلمات الدجل والتملق، التي تأبى النفس تصديقها لانها المنطق المتحيّز بعينه.

واذا كان المديح يوضح جزءا كبيرا من علاقات الشاعر بالحاكم، واذا كانت هذه العلاقة ذات مشاعر سالبة تنبع من جانب واحد هو الجانب الضعيف فان هناك علاقة موجبة تفصح عن مشاعر ودّ متبادل بين شاعر وحاكم كما يبدو ذلك في علاقة الخبزارزي الشاعر مع ابن يزداد الذي كان يتقلد البصرة وكانت الهدايا متبادلة بينهما باستمرار، لكن الشعر الذي قاله الخبزارزي مرافقا لهذه الهدايا ظل يرسم صورة لصداقة غير متكافئة ... قال الخبزارزي في مناسبات اهداء:

أهْديتُ ما لو أنَّ أضعافَه　　　مُطّرحٌ عندك ما بانا(١)
هذا امتحانٌ لكَ إن تَرْضَه　　　بانَ لنا أنكَ تَرْضَانا(٢)

• • •

فأعْطَيتَها تحكي أياديكَ في الورى　　　بياضاً وإنْ كانت أياديك أنصعا(٣)

---

(١) التحف والهدايا للخالديين ٢٣.

(٢) نفسه ٦٧.

(٣) التحف والهدايا ١٩ – ٢٢.

وقد نرسم صورة واضحة لعلاقة الشاعر بالحاكم اذا استعدنا المحاورة التي جرت بين الجرجاني وبين الحاتمي نقلها لنا ابو حيان في كتابه « أخلاق الوزيرين » (١) فقال :

« ولقد رأيت الجرجاني ، وكان في عداد الوزراء وجلة الرؤساء – وانما قتله ابن بقية لأنه نعم بالوزارة – يقول للحاتمي ابي علي (٢) وهو من ادهياء الناس :

– انما تُحرَم لانك تشتُم .

فقال الحاتمي : وانما اشتم لأني أحرم .

فاعاد الجرجاني قوله

فاعاد الحاتمي جوابه

فقال : ثم لماذا ؟

فقال الحاتمي : دع الدست قائمة، وان شئت عملناها على الواضحة (٣) .

قال : قل .

قال الحاتمي : يقطع هذا ألا يسمعوا مدائحهم ، ولا يكترثوا بمراتبهم ، وان يعترفوا لنا بمزية الادب وفضل العلم وشرف الحكمة ، كما خذينا (٤) لهم بعظمة الولاية ، وفضل العمل وبسط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد بالتنعم والطاق والرواق ، والامر والنهي ، والحجاب والبوّاب وان يكتبوا على ابواب دورهم وقصورهم :

يا بني الرجاء ، ابعدوا عنا ، ويا أصحاب الامل اقطعوا اطماعكم عن خيرنا وميرنا وأحمرنا وأصفرنا ، ووفروا علينا أموالنا فلسنا نرتاح لنثركم

---

(١) محمد بن احمد البغدادي الكاتب ت ٣٦٣ ترجمته واخباره مع الوزير ابن بقية في تجارب الامم ٢ / ٣١٠ – ٣٢٣ ، والامتاع والمؤانسة ٣ / ٣١٧ ، المقابسات ٨١ .

(٢) ابو علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي ت ٣٨٨ ترجمته واخباره في الامتاع ٣ / ١٢٦ ، المنتظم ٧ / ١٠٥ ، بغية الوعاة ٣٥ ، الأعلام ٦ / ٣١٢ .

(٣) يعني دع الأمر كما هو والا دعنا نتكلم بصراحة ..

(٤) خضعنا وأقررنا .

في رسالة تحبّرونها ، ولا لنظمكم في قصيدة تتخيرونها ، ولا نعتد بملازمتكم لمجالسنا ، وترددكم على أبوابنا ، وصبركم على ذل حجابنا ولا نهش لمدحكم وقريضكم ، ولا لثنائكم وتقريظكم ، ومن فعل ما زجرناه ثم ندم فلا يلومن الا نفسه ، ولا يقلعن الا ضرسه ، ولا يخمشن الا وجهه ، ولا يشقن الا ثوبه ، وان من طمع في موائدنا يجب ان يصبر على أوابدنا ومن رغب في فوائدنا نشب في مكايدنا ، فأما اذا استخدمونا في مجالسهم بوصف محاسنهم ، وستر مساويهم ، والاحتجاج عنهم ، والكذب لهم ، وان نكون ألسنة نفاحة عنهم فليثبوا على العمل ، فان في توفية العمال أجورهم قوام الدنيا ، وحياة الاحياء والموتى ، فـان قصرنا بعد ذلك في اعـادة الشكر وابدائه وتنميق الثناء وافشائه ، فانهم من منعنا في حـل ، ومن الاساءة الينا في سعة » .

واذ ينتهي الحاتمي يوافقه الجرجاني ويصادق على كلامه أبو حيان ونستنتج نحن أن علاقة الاديب والشاعر مع الحكام علاقة مادية فعلى مقدار العطاء يأتي المديح أو الرثاء أو الدجل .

وقد نجد أنفسنا أمام سؤال مهم هو أين يذهب الشعراء والادباء بما يقبضونه ، وما يقبضونه كما قد تواترت الاخبار في المصادر غير قليل ؟

ان الشعراء والادباء شأنهم شأن بقية المنتفعين والمتطلعين الى حياة مترفة ، يحاولون أن يجدوا لأنفسهم متنفسا يفرغون فيه أزماتهم ومشكلاتهم الخاصة أو يقتلون فراغا خانقاً أو يقلدون سيدا بطرا ، لذلك فهم يبددون الاموال التي يحصلون عليها باللهو والمجون وشراء الجواري والغلمان ، أو بتوزيعها أحياناً على الخدم ليحصلوا على قليل من التقدير يكون في المستقبل وساطة جيدة للوصول السريع والولوج الى دار سيد هؤلاء الخدم .

واذا كانت العلاقة المادية بين الحاكم والشاعر هي السائدة فان ذلك لا يمنع وجود علاقات أخرى تنفي عن مطلق الشعراء الببغاوية والتبعية فكما نرى بعض الشعراء يمدح ويفخم ويتمسح على الاعتاب نرى بعضا آخر يوجه النصح

ويحس لنفسه ببعض الكرامة والأهمية ، وهذا ابن نباتة الذي رأيناه مع عضد الدولة دون وجود يعود ثانية متراجعا يحس ببعض قيمته فيوجه النصح الى شرف الدولة ابي الفوارس ويقول (١) :

أسِرُّ إليكَ مقالَ النصيح ... ولستَ الى النُّصحِ بالمفتقِرْ
عليك اذا ضاغنتك الرجال ... بضرب الرؤوسِ وطَعْنِ الثُغَرْ
ولا تَحْقُرَنَّ عدواً رماك ... وإن كان في ساعديه قِصَر
وينفعُ في الروع كيدُ الجبان ... كما لا يَضُرُّ الشجاعِ الحَذر
شُبِ الرغْبَ بالرهب وامزج لهم ... كما يفعل الدهرُ حلو بمر (٢)

ومع ما في هذا الشعر من استعداء فهو قد يدلل على تململ الشاعر وخروجه من دائرة التذلل والمسايرة الى عالم يشعر الانسان بنفسه واستقلاله .

ويزداد هذا التململ ، ويصبح النصح تحريض حاكم قوي على آخر فيه رعونة وقلة تدبير يحس بهما ابو الحسن محمد بن غسان فيقول لعضد الدولة محرضاً إياه على ابن عمه عز الدولة بختيار (٣) :

يسوسُ الممالكَ رأيُ الملِك ... ويحفظُها السيّدُ المحتنك
فيا عَضُدَ الدولةِ انهض لها ... فقد ضُيِّعتْ بينَ شَشٍ وبَك(٤)

واذا كان هذا التحريض والتعريض فيه تفخيم وتعظيم الى شخصية أخرى فان النصح يغدو ايجابيا جدا ، فيبين غضبا ممزوجا بأحرف الشاعر الموجهة الى الحاكم وهذا ما نلحظه عند ابن زريق الكوفي حين قال (٥) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٩٥ وترجمة شرف الدولة بن عضد الدولة في المنتظم ٧ / ١٤٨ وتنظر أخباره في الكامل ٩ / ٢٣ وما بعدها .

(٢) في الكتاب شب الرعب بالرهب ، ولا يستقيم المعنى مع ما ذكر . والامر لا يعدو تصحيفاً لم ينتبه اليه المحقق .

(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٩١ ، تاريخ الحكماء ٤٠٢ ، شعراء النصرانية ٩ ، ق ٣ / ٢٥٣ .

(٤) اشارة الى ولع بختيار بالنرد وتركه أمور الدولة .

(٥) نشوار المحاضرة ١ / ٢١٦ ، اليتيمة ٢ / ٣٧٨ .

إنا لقينا حِجابا منكَ أرمضَنا فلا يَكُن ذُلُّنا فيه لك الغَرضَا
فاسمعْ مقالي ولا تعجل عليّ فما أبغِي بنُصْحِكَ لا مالاً ولا عَرضا
في هذه الدار ، في هذا المكان ، على هذي الوسادةِ كان العزُّ فانقرضا

هذا الحجاب الذي أغضب ابن زريق فجعل كلماته تتدفق سلسلة جميلة ممزوجة بطعم الغضب الهاديء الناصح الواعي ، جعل شاعرا آخر هو ثابت ابن هارون يموج غضبا ويقول بعزة نفس ملحوظة (١) :

سأهجرُ كلَّ بابٍ رُدَّ دوني اذا ما ازْوَرَّ أو خُشِيَ الحجابُ

ويتحول الهجر والغضب الى كلمات ممزوجة بالحقد على الظلم والقسوة الموجهة ضد الشاعر وحده ، أو ضده وضد مجتمعه ، وتقفز استقلاليته مرحلة أخرى فيقف شاعر مثل بشر بن هارون يشتّم القاضي أبا رقاعة ويعدد مقابحه (٢)، ثم يتطاول الى مقام الوزير سابور بن اردشير الذي رأينا كيف ألّه له هاجياً (٣) :

سابورُ ويْحَكَ ما أخسّك ما أخصّك بالعيوبِ
واكدّ وجهَكَ بالشناعةِ للعيون وللقلوبِ
وجهٌ قبيحٌ في التبسم كيف يَحسُنُ في القطوبِ

ان هذا الشعر يدلل على ان روحا متمردة بدأت تغزو وجود الشاعر وتخلق منه انسانا آخر . ولا يفوتنا هنا ان نذكر شاعرا ذا شخصية متميزة بطابعها المستقل ، الناقد ، الذكي ، العنيف احيانا كثيرة . هذا الشاعر وان لم يكن عراقيا أصلا فانه يؤلف أنموذجا للشاعر الذي وقف بصمود واع امام مآسي عصره وعاف لذات الدنيا كي تبقى رؤيته للاحداث نزيهة ناصعة ولهذا جاء شعره معبّرا عما يحسه من مظالم وتّهرىء اجتماعي :

---

(١) شعراء النصرانية ٩ ق ٣ / ٢٦٠ .
(٢) نفسه ٣٩١ .
(٣) نفسه ٢٦٣ .

ما أجهلَ الأممَ الذين عرفتهم ولعلَّ سالفَهم أضلُّ وأتبرُ
يدعون في جُمُعاتِهم بسفاهةٍ لأميرِهم فيكادُ يبكي المِنبَرُ (١)

ولعلنا أدركنا أن هذا الشاعر هو ابو العلاء المعري الذي عاش زمنه بتفاعل حي ولذا نراه يقول :

يا سلوكَ البلاد فُزتم بنسيِ العُمر والجورِ شأنكم في النساء
يَرتجي الناسُ أن يقومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساء
كَذَبَ الظنُّ لا إمام سوى العقل مُشيرا في صبحِه والمساء
إنما هذه المذاهبُ أسباب لجذبِ الدنيا إلى الرؤساء
غرضُ القوم متعةٌ لا يرقّون لدمعِ الشمّاء والخنساء
كالذي قامَ يجمعُ الزنج بالبصرةِ والقرمطيِّ في الاحساء (٢)

لقد كان أبو العلاء — ابن لنكك البصري أيضا — مثلا لا نكاد نجد له نظيرا ، وان وجدنا شعراء وقفوا مواقف متحمسة بوجه هذه المسألة الاجتماعية ، أو ذاك الحاكم الجائر فمردّ ذلك — في الأغلب — الى كون الشاعر عنصرا مثقفا (متعلما في الاقل) يجابه الحقائق بمقدار ما تمليه عليه مصالحه ويفرضه عليه واقعه الاجتماعي .

فبطولة بعض الشعراء ، التي يصورها لنا شعرهم ، بطولة ساذجة « اعتباطية لم تأت عن وعي وتصميم ، وهي تقاس بمقدار ارتباطها بالمصالح الفردية للشاعر وبمقدار ضعف الحاكم واحترامه للأدب ، وتبجيل الحاكم للادب والشعر لم يكن نزيها في ذلك العصر ، فهو ان لم يستغلهم لصالحة فانه في الاقل يفاخر بهم غيره من الحكام الراغبين بوجودهم ضمن حضانتهم .

واذا كنا في استعراض علاقة الشاعر بالحاكم فلا بد ان نذكر هنا علاقة فريدة حصلت بين الاثنين يمثلها الشاعر ابن الحجاج بصورة جلية ، فيها تزال

---

(١) زجر النابح ٢٧٤ ، اللزوميات ١ / ٣١٤ ، وينظر في مواقفه الناقدة اشعاره في مواضيع اخرى كثيرة .

(٢) الزجر ١٦ ، ١٧ ، اللزوميات ١ /٥٥ .

الاستار بين الحاكم والشاعر ويكلّم الشاعر صاحبه وكأنه يكلم شخصا اعتياديا متخذاً اسلوب الصفعنة والوضاعة طريقا لاضحاك الحاكم وقد ارجأت الكلام على هذه العلاقة في فصل قادم على ان اورد هنا مثالا واحدا قاله ابن الحجاج وقد اتخذ دعوة أيام بختيار ودعا اليها اقواما شتى من رجال الدولة (١) :

قل للأمير المرتجى من جاءني فقد نجا
من أبى فذُقنه في عصعصي قد لجا
يسبح في بحر خَرا اذا جرى تموجا
من لم يجيءْ فذقنه في است الذي استُدْعِي فجا

ومع وجود هذه العلاقات المختلفة فان العلاقة التي تبقى بارزة وطاغية هي علاقة ضعيف بقوي ، ويبقى الشعراء البطانة التي تردد رغبات الحكام وتملأ نفوسهم فخرا وأبهة بكلمات ضخمة مكرورة ، تملأ حيزا من حياتهم المشبعة بأوقات الفراغ أو تنفذ شيئا من طماحهم وساطتهم ، ولا أجد في الختام خيرا من أبيات لابن الحجاج ارسلها الى ابي الفتح ابن العميد بعد أن ترك النبيذ حزنا على بختيار وكان ابن بقية قد شربها تمثل بوضوح علاقة الشاعر بالحاكم أو الحاكم بالشاعر .. يقول ابن الحجاج (٢) :

حقّي على الاستاذِ قد وجبا فإليه قد أصبحتُ منتسبا
مولاي تَركُ الشُرب يُنكره مَن كان في بغداد محتسباً (٣)

---

(١) اليتيمة ٣ / ٤٤ .

(٢) اليتيمة ٣ / ٧٢ وأظن أن هذه القصيدة كانت في نكبة بختيار الأولى على يد عضد الدولة ، لأن ابن بقية في نكبة بختيار الثانية قتل قبل بختيار ، تنظر كتب التاريخ حوادث ٣٦٤ ، ٣٦٧ .

(٣) يقصد نفسه لأنه كان محتسب بغداد. والمحتسب موظف مركزه يوازي مركز امين العاصمة الآن . ينظر كتاب معالم القربة في احكام الحسبة تأليف ابن الأخوة تح روبن بيوي ١٣٧ . وينظر في مكانة المحتسب حضارة الاسلام ص ٢٧٧ .

ان كان من غَمَّ الامير فَلِمْ وزيروه (١) بالأمس قَد شرِبا
إنَّ الملوك إذا هُمُ اقتتلوا أصبحتُ فيهم كَلبَ مَن غَلَبا
فلذاك أشكر غيرَ مُكترِثٍ وألف مَعْ خَيشوميَ الذنبا

انها كلمات واضحة صريحة تبين كيف كان ينتقل الشاعر من حاكم الى آخر مثل أي فرد مرتزق أو مكدّ جوّال .

٢ – الشاعر والناس :

قلنا : ان الغالب على علاقة الشاعر بالآخرين هي الدوافع المصلحية ، ولما كان أكثر الشعراء يعتمد في رزقه ومعاشه على الحاكم لذلك كانت نظرتهم الى الناس من الزاوية التي ينظر بها ربيب النعمة ، فهناك مثلا شعور بالتعالي على الناس عند الحاكم ينتقل مصلحيا الى الشاعر (جريدة الحاكم الرسمية) فيبرز واضحا جليا في شعره ، فالشريف الرضي يرى – متواضعا – أن بهاء الدولة يساوي في قيمته الناس مجتمعين لذلك يقول (٢) :

مِن بَني ساسانَ أفنىً ضُرِبت حُجرُ الملكِ عليه والسَّدَدْ
مـا رأينـا كأبيه ناجلاً ولد النـاسَ جميعاً بولد (٣)

والشاعر نفسه يرى آل بويه وهم من ابعدوا أباه ونكّلوا به – كل الناس ولا ناس في عينه غيرهم (٤) :

آل بويه ما نرى الناس غيركم ولا نشتكي للخلقِ أولاكم فقدا

ان الشاعر هنا يعبّر – دون أن يشعر – عن ازدراء الحاكم للناس ، وتعاليه عليهم .

---

(١) يقصد وزيره .
(٢) الديوان ١ / ٢٧٥ .
(٣) وشبيه بهذا التعظيم قول ابن نباتة يمدح صمصام الدولة سنة ٣٧٢ هـ :
فمـا ولدت كوالدك الليـالي ولا الأيـام سهواً واعتمـادا
مختادات البارودي ٢ / ١٨١ .
(٤) نفسه ١ / ٤٠١ .

واذ يقف شاعر معين ليذم الناس دون أن يحدد فئة معينة انما يخرج منهم الحاكم ، خاصة اذا عرفنا أن علاقة متينة تربط بين هذا الشاعر والحاكم فاذ يقول الشريف الرضي (١) :

أبى الناسُ إلا ذميمَ النفاق   إذا جربوا ، أو قبيحَ الكذبْ
كلابٌ تبصبصُ خوفَ الهوان   وتنبحُ بينَ يدي من غلبْ

أو يقول (٢) :

فما طِلابك إنساناً تُصاحبُه   كلُّ الأنام كما لا تشتهي همَلُ

انما يخرج الحكام من قصده ، فالحاكم في نظر الشاعر المرتبط بالدولة — مثل الشريف الرضي — يعدّ في مرتبة أعلى من مرتبة الانام الذين يقول فيهم القاضي أبو نصر عبد الله المالكي (٣) :

كل الأنام كلابٌ   هرّوا بكلّ طريق
فإن ظفرت بحر   فاحفظه فهو سلوقي

وقد يكون هذا الشعر في لحظات حقد ، أو لحظات تدلل ، وقد يكون نقدا اجتماعيا مرا ، لكننا نسمعه ثانية من المعرّي النزيه ، فنكاد نصدقه ، ونكاد نؤمن بانتفاء العاقل الاريب في مجتمع هذا القرن :

يا ليتَ آدمَ كانَ طلّقَ أمّهم   أو كان حرّمها عليه ظِهارُ
ولدتْهم في غير طُهْرٍ عاركاً   فلذاك تفقد فيهم الأطهار
ولديّ سرّ ليسَ يمكن ذكرُه   يَخفي على البصراء وهو نهار
أما الهدى فوجدته ما بيننا   سِرّاً ولكن الضّلالَ جهار (٤)

واذا كان أبو العلاء متأخرا أو كان شاميا ، فقبله بعشرات السنين عاش عالم لغة وأدب ، شاعر خبر البشر قرنا من الزمان ذلك هو ابن دريد الذي

---

(١) نفسه ١ / ١٣٠ .
(٢) الديوان ٢ / ١٨٢ .
(٣) الدمية ١ / ٢٩٥ .
(٤) الزجر ٩١ ، اللزوميات ١ / ٤٦٥ .

كانت حصيلة خبرته قصيدة أوضح فيها مجتمعه، وما فيه سوءات وتناقضات.

واذا عرفنا ان ابن دريد (توفي سنة ٣٢١ هـ) ادركنا أن لقرننا نصيبا من نقده الذي يقول فيه (١):

أرى النَّاسَ قد أغروا ببغي وريبة ... وغيٍّ إذا ما ميَّزَ النَّاسَ عاقلُ

وقد لَزِموا معنى الخلافِ فكلُّهم ... إلى نحو ما عابَ الخليقة مائلُ

إذا ما رأوا خيراً رَمَوْه بِظِنَّةٍ ... وإن عاينوا شراً فكلٌّ مناضلُ

وليسَ امرؤ منهم بناجٍ مِنَ الأذى ... ولا فيهِمُ عن زلةٍ متغافـلُ

فإن عاينوا حبراً أديباً مهذبـاً ... حسيباً يقولوا: إنه لمخـاتلُ

وإن كان ذا ذهنٍ رَمَوْه ببِدعَةٍ ... وسَمَّوْه زِنديقاً وفيه يُجادَلُ

وان كان ذا دينٍ يسمّوه نعجةً ... وليسَ له عقل ولا فيه طائلُ

وان كان ذا صَمْتٍ يقولون: صورةٌ ... ممثلةٌ بالعيِّ بل هو جاهلُ

وان كان ذا شرٍّ فويل لأمّهِ ... لما عنه يحكى من تضم المحافلُ

وان كان ذا أصل يقولون انما ... يفاخر بالموتى وما هو زائلُ

وان كان مجهولاً فذلك عندَهم ... كبيضِ رمالٍ ليس يعرف عامل

وان كان ذا مال يقولون: ماله ... من السحت قد رابى وبئس المآكل

وان كان ذا فقر فقد ذل بينهم ... حقيرا مهيلا تزدريه الاراذل

وان صاحب الغلمانَ قالوا: لريبة ... وإن أجملوا في اللفظِ قالوا: مباذل

وان هَوِيَ النسوانَ سَمَّوْه فاجراً ... وان عفَّ قالوا: ذاك خنثى وباطل

* * *

وان كان بالشطرنج والنرد لاعباً ... ولاعب ذا الادابِ قالوا: مداخلُ

* * *

وان يعتلل يوما يقولوا: عقوبة ... لشر الذي يأتي وما هو فاعلُ

وان مات قالوا: لم يمت حتفَ أنفهِ ... لما هو في شرِّ المآكل آكـلُ

---

(١) ديوان ابن دريد ٩٩.

وما الناس الا جاحدٌ ومعاندٌ وذو حسد قد بانَ فيه التخاتلُ
فلا تركنْ حقا لخيفةِ قائل فإنّ الذي تخشى وتَحْذَرُ حاصلُ

ان النظرة المتشائمة التي نراها في هذه القصيدة وفي غيرها من القصائد والمقطعات وليدة عوامل نفسية وبيئية متراكمة في دواخله أساسها تدهور بناء المجتمع ، والمجتمع المفكك اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا يجعل انسانـه (وشاعره) منفصلين عن القيم والأعراف الخيرة ويلصقهما (اضطرارا) بقيم تفرضها ظروف العيش القاسية .

ان مجتمعا متدهورا اقتصاديا ، مرتبكا سياسيا ، منحلا اخلاقيا لا يمكن أن يعيش فيه شاعر ملتزم — حتى بالمفهوم الساذج للالتزام — موفور الكرامة والرزق ، وان شاءت الظروف ، فانما يعيش فقيرا ، مفردا ، منبوذا يأتيه الموت عن طريق مجاعة ، أو سعاية .

وليست حال السلامي بالغريبة حين يقول (١) :

لبِستُ العُدْمَ حتى صار ذَيْلي يضيقُ تقلبي فيه كزيقــي
وكادَحْتُ المطالب بعد ضر ودارأت المعيشةَ بعد ضيقِ
فقد أوقدت صندوقَيْ ثيابي وصُبَّ الماء في حُبِّ الدقيقِ
فهل في الناس يا لَلناس حُرٌّ يُبَيِّضُ وجهَ ممتحن مضيقِ ؟
أريد أخي إذا ما ثُلَّ عرشي وصرت الى المعيشة في مضيقِ
فاما حين يصلحُ بَعضُ حــالي فإنَّ الناسَ كلُّهم صديقي

ان حالا مثل حال السلامي تدلل على غربة الشاعر في مجتمعه وهي ترينا الى حد ما الشاعر الذليل حين يخلو الى نفسه ويراجع أوضاعه كيف يتعذب ويصارع ذاته ونوازعه .. ونتساءل اذا كان وضع السلامي المقرب من آل بويه المدلل من الوزراء ورجال الدولة بهذا الشكل فكيف حال الشاعر الذي يكبو جواده في سيره الى دور الحكام ومواطن الرفد والرزق ؟

---

(١) اليتيمة ٢ / ٤٢٧ .

ومع السلبية الشديدة التي نلحظها في أغلب ما قاله الشعراء نجد أحياناً احساسا شاعريا يتألم لمأساة المجتمع ويؤمن بقدرة الانسان على اثبات وجوده . يقول المعري وهو يرى في الانسان الفقير الثورة والتمرد والقدرة على مجابهة مآسي الحياة (١) :

لا يصبرنَّ فقيرٌ تحتَ فاقتهِ   إن السباريتَ جابتها السباريتُ(٢)
ناسٌ اذا نسكوا عُدّوا ملائكة   وإن طَغَوْا فهمُ جِنٌّ عفاريت

وفضلا عن علاقات الشاعر السلبية والايجابية مع الناس فهو — احيانا — مسجل جيد لما يدور في مجتمعه من مآسٍ اجتماعية ومباذل (٣) ، كما ان اشعاره الاجتماعية تؤكد بوضوح طبقية المجتمع ، والقسمة غير العادلة في الرزق والمناصب وما صاحب كل ذلك من استغلال افقد الانسان كثيرا من مقوماته البشرية وجعل الشاعر يقول (٤) :

أصبحتُ من سِفْل الأنام   إذ بعتُ عِرضي بالطعامِ
أصبحتُ صَفعانا لئيـــــمَ   النفس من قومٍ لئامِ

• • •

نفسي تَحنُّ الى الهُلام   الموتُ من دونِ الهلام
من لحم جِديٍ راضعٍ   رخصِ المفاصِلِ والعظامِ
هــذا لأولادَ الخطايا   والبغــايــا والحــرامِ

ان المشاعر الصادقة والمعاناة الحقيقية للانسان البائس في هذه القطعة الشعرية وفي مقاطع وقصائد أخرى سنأتي عليها في فصول آتية تدلنا على أن الشعراء

---

(١) الزجر ٣٧ ، اللزوميات ١ / ١٥٣ .

(٢) السباريت الأولى : القفار ، والثانية : الصعاليك أو الفقراء .

(٣) ينظر مثلا اشعار ابن الحجاج التي سيأتي ذكرها في فصول قادمة وكذلك اشعار ابن لنكك والمفجع وغيرهما .

(٤) الامتاع ٢ / ٥٠ ، وينظر قول الوزير المهلبي (الا موت يباع فأشتريه .. الابيات) اليتيمة ٢ / ٢٢٥ .

ليسوا عناصر خاملة بمجموعهم ، فهناك شعراء أحسوا (١) بتفاهة وجودهم وبالهاوية التي يتردى فيها مجتمعهم فحاولوا ، ولكن اصواتهم كانت أخفت من أن تظهر وسط الصراخ المسعور لاستغلال الانسان لاخيه الانسان .

٣ – الشاعر وأقرانه الشعراء :

في مجتمع مثل مجتمع القرن الرابع يعدّ الشعر مهنة تحترف لا بد ان يتبع الشعراء فيها أساليب أهل الحرفة الواحدة في عرض بضائعهم ، فالحسد والتباغض والدس والهجاء أساليب شائعة رافقت عروض الشعر التجارية هذه ..

واذ كان لا بد لمشتري هذه البضاعة الشعرية من المفاضلة بين شاعر وشاعر وبين شعر وشعر ، كسدت بضاعة شعراء وراجت بضاعة آخرين ، وأصيب الكاسدة بضاعتهم بأزمات نفسية أدت الى الحقد على المنافسين الذين رفعتهم بضاعتهم الى مناصب متقدمة أو وضعت في أكفهم جوائز وخلع يسيل لها لعاب الشاعر التاجر .

اتبع بعض الشعراء أخس الطرق وأحطها للاستهانة بقيمة شاعر منافس وإبعاده عن طريق الرزق التي يرودها الشعراء ، فكان السّري الرّفاء مثلا يدس على الخالديين الاخوين ويتهمهما بالسطو على قصائده وقصائد غيره ويستعدي عليهما الوزير المهلبي وغيره من الحكام والوجهاء مظهرا اياهما دجالين معتدين مبرزا نفسه الى جانب ذلك مظلوما مهضوم الحقوق .

قال السري يخاطب (أبا الخطاب المفضل بن ثابت الصابي) (٢) وهو صديق الخالديين (٣) :

بكرتْ عليكَ مغيرةُ الأعراب ... فاحفظْ ثيابكَ يا أبا الخطاب
وردَ العراقَ ربيعةُ بنُ مُكدّم ... وعتيبةُ بن الحارث بن شهاب

(١) مثل ابن لنكك البصري في العراق ، وابو العلاء المعري في الشام والعراق ايضا .
(٢) في اليتيمة، تحقيق محي الدين الضبي ، ومثلما أثبتنا جاء في ط الصاوي وفي الصداقة والصديق ٨٨ ، وفي زهر الآداب ١ / ٥٤٧ .
(٣) الديوان : – ٤١ .

أفعندنا شكٌ بأنهما همـــا في الفتكِ لا في صحةِ الأنساب

* * *

لهما من الحظِّ الصوارمْ والقنا ومن الطروسِ نفيسةُ الأسلابِ
شنّا على الآدابِ أقبحَ غارة جرحَتْ قلوبَ محاسنِ الآداب

وقال يخاطب المهلبي ويتظلم اليه منهما ويدّعي أنهما سرقا شعره (١)

هل للغنيين عذرٌ في اغتصابهما حُلياً يبوءُ بأوفى اللعنِ غاصبهُ
قل للوزير تَحرَّجْ إنه سَلَبٌ غشماً تعدّى على المسلوب سالبهُ
وكيف تسحبُ وشياً قد تداوله قومٌ سواك فقد رثّت مساحبهُ

واذا عرفنا أن السري كان ينسج شعر كُشاجم ويدس في نسخه « أحسن شعر الخالديين ليزيد في حجم ما ينسخه ، وينفق سوقه ، ويغلي سعره ، ويشنع بذلك على الخالديين ، ويغض منهمـــا ، ويظهر مضداق قوله في سرقتهما (٢) ادركنا نوعية الاسلوب الذي اتبعه للحط من قيمة شاعرين كانت لهما منزلة شعرية محترمة آنذاك عند حكام بغداد والموصل ، وان دل عمل السري على شيء فانما يدل على مقدار حرفية الشاعر ومتاجرته بأدبه وشعره وأخلاقه (٣) .

وحين ينتقل الشعراء من أساليب التحريض والدس بعضهم على بعض الى أساليب المراشقة بالاشعار الهجائية يتردون في هاوية الالفاظ (العامية) المبتذلة ويحاولون ايجاد العيوب أو ابراز المقابح أو اختلاق الصفات المشينة .. فاذا اراد محمد بن احمد بن عبد الله القطان المعروف بالمنوتي أن يعرض بأبي بكر الصولي وصمه بالبخل ، وقال (٤) :

---

(١) الديوان : — ٥٤ .

(٢) اليتيمة ٢ / ١١٨ .

(٣) ولا يقف السري عند الدس على الخالديين وهجائهما ، فهو ينهش كل من يقف بجانبهما أو يؤيدهما كما فعل مع ابن العصب الملحي تنظر اليتيمة ٢ / ١٥٠ — ١٥٨ .

(٤) المحمدون ٧٧ .

غضبَ الصوليُّ لمـا . كَسَرَ الضيفُ وسمـّا
ثم عند المضغ منـه . كاد أن يتلف غمـّا
قال للضيف ترفـق . شُمّ ريحَ الخبزِ شـمّا
واغتنم سكرى فقال : . الضيفُ بلْ اكلا وذمـا

وان أراد ابن الحجاج أن يستهين بالمتنبي لم يجد - وهذه طريقته المعروفة - خيرا من كلمـات السخف والمقاذر قالبا يصب فيه هجاءه ويقول (١) :

يا ديمةَ اللهِ صُبّي . عـلى قفـا المُتنبي
وانتِ يا ريحَ بطني . على عـذاربه هبي
ويا قفـاه تدانَ . واقعد قريبـا بجنبي
وان صفعتُك ألفا . فلا تقولنّ حَسبي

وتشيع هجائية ابن الحجاج السطحية للمتنبي ، وتشيع له سطحية أخرى في زميله في السخف والمباذل اللفظية ابن سكرة الهاشمي ويردد الناس قول ابن الحجاج (٢) :

سلحةٌ بعد قرقرهْ . من سلاحِ المُزورّهْ
باتت الليلَ كلّـه . جوفَ بطني مُخمّرهْ
ثم رامت تَخلُّصـا . فاغتدتْ ذات طرطرهْ
ثم سارت كـأسهم . عن قِسِيَ موترّهْ
فأصابت بوثبةٍ . جوفَ ذقنِ ابن سُكّرة

---

(١) محاضرات الأدباء ٢ / ٧٠ . وينظر مع اختلاف في بعض الالفاظ تلطيف المزاج في ورقة ١٠ ، ١١ ولابن الحجاج قصيدة هجاء في ابن سكره مطلعها :

نافستني في البـــاب . وفي ركـوب الدواب
يـا شاعراً في مجيـئي . صفعتـــه وذهابي

ينظر قطعة من شعر ابن الحجاج (مخ) رقم ٤٣٥ / م

(٢) اليتيمة ٣ / ٤٢ .

وما جرى بين ابن الحجاج وابن سكرة، جرى بينهما وبين شعراء آخرين أيضا ، فكما لم يسلم الكثير من رجال الدولة من رذاذ كلماتهما لم يسلم زملاؤهما الشعراء من هذا الرذاذ ايضا . هذا هو ابن سكرة يمسك بتلابيب شاعر مسكين ولا يجد ما يرميه بوجهه غير قوله (١) :

كل العجائب قد سمعت وما أرى أني سمعت لشاعر قرنانِ

قرن يحك به السماء وقبلـه ذنب يرور الحوت في الأزمانِ

واذا تحدث أحدثَتْ لهواتُه فترى الانوفَ تلوذ بالاردانِ

وترى أخادعه تعط كأرنب عكفت عليه مناسر العقبانِ

ان هذه الكلمات ليست وليدة ساعتها أو يومها ، لأن فيها مرارة الحقد ورائحة الكراهية وان شيبت باللهجة « الكاريكاتورية » الناقدة ، وقد أجد مسوغا للقول ان للحكام في هذه الاشعار متعة ونادرة يستظر فونها لذلك فهم ان لم يكونوا يحرضون الشعراء فيما بينهم (٢) فهم في تقريبهم لبعضهم ونفورهم من بعض آخر ، يسهمون اسهاما كبيراً في خلق مثل هذه الاجواء المشحونة بالمهاترات اللفظية التي تنز بالحسد والغيرة ، وقصيدة العصفري في السلامي شاهدة على هذا الحسد وهذه الغيرة . يقول العصفري (٣) :

رأيتُ في الجامع حوّاقة في وسْطِها شيخٌ له شانُ

---

(١) نفسه ٣ / ١٧ .

(٢) يؤكد ذلك ما ذكره الصولي عن الراضي وكيف كان « يغري بعضهم ببعض » ويصل بعض الشعراء ولا يصل بعضاً آخر ، وينقل وشاياتهم ببعضهم . ينظر اخبار الراضي ص ١١٦ . ويتأكد لنا تحريض الحكام للشعراء في قول ابن الحجاج حين هجا ابن سكره :

حتى بغى صاحبكم ومورد البغي وبي

مدعيا ان الامير كان قد أغراه بي

مخ ٤٣٥/م ورقة ١٨ .

(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٨٥ والعصفري كما يبدو هو الذي يقول فيه صريع الدلاء :

ايها العصفري ذقنك في استي ابداً سرمداً مع الاوقات

الديوان مخ ٧ آ .

عليه طرطور ودرّاعـــة لها ذيول وجُرُبّانُ (١)
فقلت : من هذا العظيمُ الذي كأنّه في التّيهِ سلطانُ ؟
أجاءه جبريلُ عن ربـه أم عندَه وحيٌ وتبيـانُ ؟
فقيل : هذا شاعرٌ مفلـقٌ لـه أماديح وديـوانُ
قلت : أمرؤ القيس؟ فقالوا: صه فقلت : هذا الشيخ حسـانُ
قالوا : ولا حسان هذا ، إذا قلت : فذو الرّمـة غيلانُ ؟
قالوا : السلاميّ فقلت احلبقي ذا محلبان الضرع لبـانُ
الشعر لا يسوى ولا أهله هذا فلم ذا الشيخ غضبانُ؟
وإنمـا الشاعر مستنزهٌ تلهو بهِ النفسُ وبستانُ
إمـا مجيدٌ فهو مسترفَدٌ أو بـارد الشعر فصفعانُ

ويظل هذا الشعر بصورهِ «الكاريكاتيرية» وأسلوبهِ الهازىء يدلّل على علاقات سيئة كما يدلل على علامات اجتماعية أهمها قيمة الشاعر والشعر وأهمية بضاعة الشاعر على منزلته ورزقه .

وإذا أردنا الاستزادة من هذه الصور حصلنا عليها من هجاء ابن لنكك لكثير من أقرانه ومعاصريه من الشعراء (٢) .

ان هذه المراشقات والاساءات لا تعني جدبا كليا في علاقات الشعراء بعضهم مع بعض ، فالعواطف الانسانية لم تقتلها أنانية السري أو بذاءة ابن الحجاج وابن سكرة وابن لنكك ، أو مطامع الشعراء التجار . فقد أينعت هذه العواطف الانسانية وأثمرت علاقات صداقة ومحبة بين شعراء عديدين حتى غدا بعضها مضرب المثل في الوفاء والاخلاص .

واذ تبادل الشعراء عواطفهم نظما فوصل الينا الذي وصل رأينا فيه موضوعات كثيرة طريفة أو حزينة ، فان أراد ابن لنكك أن يمزح مع

(١) جربان الثوب : الخرقة العريضة التي فوق القب وهي التي تستر القفا ، والجربان لفظ فارسي معرب ..
(٢) تنظر اليتيمة ٢ / ٣٥٤ .

الخبزارزي ويبين له أذى مهنته (خبز الرز) كتب له (١) :

لنصرٍ في فؤادي فرطُ حب — ينيفُ به على كلّ الصحابِ
أتيناهُ فبخّرنا بُخورا — من السقفِ المدخن بالتهابِ
فقمتُ مبادراً وحسبتِ نصراً — يريدُ بذاك طردي أو ذهابي
فقالَ : متى أراكَ أبا حسينٍ ؟ — فقلت له : إذا أتسخت ثيابي

ولا يكاد الخبزأرزي يسمع هذا الشعر حتى يستظرفه ويستملحه فيبادر بالاجابة ويقول (٢) :

منحت أبا الحسين صميمَ ودّي — فداعبَني بألفاظِ عذابِ
أتى وثيابُه كالشيبِ لوناً — فعُدنَ له كريعان الشبابِ
فإن يكن التقزّز منه فخراً — فلَمْ يكن« الوصيُّ » أبا ترابِ

ومثلما يُستَملح ما دار بين ابن لنكك والخبز أرزي يُستَملَح ويُستَلطَفُ ما دار بين ابن سكرة والعصب الملحي وما في مبادلتهما الشعرية من تعريض مستطاب بكنية الاول ولقب الثاني .

كتب ابن سكرة الى العصب الملحي (٣) :

يا صديقاً أفادَنيه زمانٌ — فيه ضَنَّ بالأصدقاء وشحّ
بين شخصي وبينَ شخصِك بعدٌ — غير أن الخيالَ بالوصل سمحُ
إنما باعدَ التألفُ منّا — أنّني سُكّر وأنكَ مِلح

فأجابه الملحي (٤) :

هل يقول الاخوانُ يوماً لخلٍ — شابَ منه محضَ المودة قدحُ
بيننا سُكّر فلا تُفسِدَنه — أو يقولون : بيننا وبَكَ مِلح

(١) اليتيمة ٢ / ٣٣٦ .
(٢) نفسه ٢ / ٣٦٦ .
(٣) اليتيمة ٣ / ١٢٥ .
(٤) الوفيات ٤ / ٤٠ ، الوافي بالوفيات ٣ / ٣٠٩ .

وإذا كَثُرت المداعبات ، وطال أمد المزاح ، حدث بعض البرود ، وقد يتبعه الهجر . والعتاب بين الشعراء الاحباب طريق طيب لتلاحم النفوس ، وازالة ما يعلق فيها من صدأ وجفاء ، وهكذا يبادر الخبزأرزي ابن لنكك بالعتاب على الهجر ويقول له (١) :

لِمْ لا ترى لصداقتي تصديقا فينا ، ولَمْ تَدْعُ الصديق صديقا

ذو العقلِ لا يرضى بوَسْم صداقةٍ حتى يرى لحقوقِها تحقيقا

فلمن يرجّي الحق أن يدعى أخاً وعلى الرفيق بأن يكون رفيقا

ان غاب غاب محافظا أو حَلَّ كا ن مداعبا أو قال كان صدوقا

ويكاد من علق الهوى بفؤاده مما تعكر أن يرى زنديقا

وهكذا ينهي العتاب القطيعة ، ويبدأ الاصدقاء الشعراء حياتهم من جديد ، يملؤونها هزلا ، وسخفا ، ونقدا اجتماعيا لاذعا .

وتأخذ علاقات الشعراء بينهم روحا أخرى اذا كانت بين شاعر مجرد من الصفة الرسمية وشاعر له طابع « رسمي » ، ومنزلة متقدمة في الدولة ، فنحن نرى بجلاء قيمة هذه المنزلة في خلق علاقات طيبة بين الشاعر والشاعر الموظف ، فقد يتخذ بعض الشعراء من هذه العلاقة جسرا يعبرون عليه الى دور الملوك ومجالس السلطان ، فأبو اسحق الصابي كاتب الملك البويهي وجليس الوزراء وقرينهم يتقرب اليه الشعراء ويعظمونه ويستجدونه ، فنرى السري الرفاء يمد له يديه طالبا حصته حتى من البخور (٢) :

يا أبا اسحق زادَ الله في حُسنِ حبورِكْ

وغدا شانيك ذا همٍ طويل بسروركْ

* * *

أشرق الدهر ومـا إشراقه الاّ بنورِكْ

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٣٥٢ .

(٢) الديوان ١٢٩ .

وأرى الايـامَ لا تبخل الاّ بنظيرِك

* * *

حسبنا من جودك الغمر ومن فيض بحورِك
قد أتانا منه ما راد على شكرِ شكورك
بين صفر من دنانيرك أو صفر خمورك
فاشفع العرف بعرف ترتضيه من بخورك

وحين يصلهم بما يستطيعه يطمعون بأكثر من جوده المادي فيودون لو أنه أوصلهم الى دور سادته آل بويه ، فاذا فعل وقدم أحدهم ثم نال الحظوة حسده بقية الشعراء وقالوا على لسان السري يعاتبونه لأنه لم يقدمهم قبله (١) :

كم منطقٍ كسحيق المسك ظاهره لم يُقْضَ عند أبي اسحقَ واجبُه
كانت مدائحنا غُرّا محجلـةً تثني عليه فقد اضحت تعاتبُه
ورغبة كلما جاءت معرضـة بجاهه أعرضت عنها رغائبُه
الشعر وشيُ برودٍ ، أنت ساحبُه فهماً ، ودر عقود أنت ثاقبه
فلِمْ منعت عن الإحسان محسنَه ما نال من جاهك المبذول خاطبُه
لأصبرن على إخلال عرفك بي حتى يثوب إلى المعهود ثائبـه

واذا شممنا في هذه الأبيات رائحة المصلحة الذاتية تعطّ من جوانب كلماتها فاننا نجد كلمات العتاب الّتي يرسلها معظم الشعراء الى الشعراء الموظفين تأخذ شكلااعتذاريا ، قد يحمل الذلّة والمسكنة . ولكن هذا لا ينفي وحود شعراء يتمردون على هذه العلاقة اذا رأوا من المقابل اعراضا يمس كرامتهم ، فالمفجّع البصري تربطه علاقات ودّ وصدقة بالقاضي التنوخي (الشاعر ايضا) تسمح له أن يتبسط معه في القول الى حدود المداعبة ، فحين يدخل المفجع على التنوخي ويراه يقرأ « معاني الشعر » على العبيسي يقول (٢) :

(١) الديوان ٢٩ .

(٢) المحمدون ٣٥ . وأبو قبيس اسم جبل مشرف على مكة ، وكذلك اسم حصن مقابل شيزر . ينظر معجم البلدان ١/ ٨٠ .

قد قَدِم العُجْبُ على الرويسِ   وشارف الوهدُ أبا قبيسِ
وطاول البقل فروع الميس   وهبّتِ العنزُ لقرع التيس
وادعت الروم أباً في قيسِ   واختلط الناس اختلاطاً الحيسِ
اذ قرأ القاضي حليفُ الكيسِ   معانيَ الشعر على العُبيسي

ولكن المنجع البصري الذي يتعامل مع القاضي التنوخي بهذه الروح ، يمتدح التنوخي مرة فيقابله بجفاء ، واذ ذاك يحس بصدمة ، ويصاب بأزمة نفسية تكاد تذهب بصداقته وعلاقته بالتنوخي أو هي تذهب بهما ويحل محلهما الندم ، فيقول (١) :

لو أعرض الناس كلهم فأبوا   لم ينقصوا رزقي الذي قُسما
كان وداد فزالَ وانصرما   وكان عهد فبان وانهدما
وقد صحبنا في عصرنا أمما   وقد فقدنا من قبلهم أمما
فما هلكنا هزالا ولا ساخت الا   أرض، ولم تقطرِ السماءُ دَماً(٢)
في الله من كل هالك خلف لا   يرهب الدهر من به اعتصما
حرّ ظننا به الجميلَ فما   حقق ظنّنا ولا رعى الذّمما
فكان ماذا ؟ ما كل مُعتَمَد   عليه ، يرعى الوفاء والكرما
غَلطتُ والناس يغلطون وهل   تعرف خلقا من غلطة سلما
شُلَّت يدي لم جلست عن تَفَه   أكتب شجوى وأمتطي القلما
يا ليتني قبلها خرست فلم   أعمل لسانا ولا فتحت فما

واذا كانت بعض هذه العلاقات تجارية ارتزاقية تؤثر فيها عوامل عديدة فتميل بها تارة نحو اليمين وأخرى نحو اليسار فهناك علاقات أخرى فيها وفاء ونكران ذات ، وفيها نقاوة وصفاء مشاعر ، هذه العلاقات تبدو على احسن وجوهها بين الشعراء الذين يمتلك جميعهم صفة رسمية .

---

(١) نفسه .

(٢) البيت مكسور ، ولا أدري كيف فات الامر على المحقق ، ويستقيم الوزن اذا قلنا : هزلا بدل هزالا .

ويبدو ان ما وطد هذه العلاقات كون هؤلاء الشعراء غير محتاجين مادياً اولا ، ولأن أيّا منهم لم يكن يطمع بمنزلة الآخر الرسمية لأنه قانع بمنصبه الذي يحتله ، نضيف الى كل هذا سلامة الطوية ، والصدق في التعامل مع النفس ومع الآخرين فتنزهت بعد ذلك علاقات هؤلاء الشعراء عن الروح المادية « أو النفعية » . ومن خير الشواهد على ذلك ما كان من مشاعر ودّ وفيّة متبادلة بين أبي اسحق الصابي وبين الشريف الرضي أو بينهما وبين غيرهما من الشعراء الآخرين .

كتب أبو اسحق الى الشريف الرضي وقد بلغ به العمر حد العجز يقول (١) :

اذا ما تعدت بي وسارت محفّةٌ ... لها أرجلٌ يسعى بها رجلانِ

وما كنت من فرسانها غير أنها ... وَفَتْ لِيَ لمّا خانت القدمانِ

• • •

أبا حسن قطّعت أحشاء حاسد ... طواها على البغضاء والشنآن

وأنت سماء في الذؤابة صاعدٌ ... وذاك حضيض في القرارة عاني

أقيك الردى إنّي تنبهت عن كرىً ... وسهوٍ على طول المدى اعتوراني

وتصل هذه الأبيات الشريف الرضي فيستشعر المودة ويعيشها بكل تفاوتها ثم يجيب قائلا (٢) :

ظمائي إلى من لو أراد سقاني ... وديني على من لو يشاء قضاني

ولو كان عندي مُعسرا لعذرته ... ولكنه وهو الملي لواني

• • •

أكرر في الاخوان عينا صحيحةً ... على أعين مرضى من الشنآن

فلولا أبو اسحق قل تشبثي ... بخلٍ وضربي عنده بجران

هو اللافي عن ذا الزمانِ وأهلِه ... بشيمةِ لا وانٍ ولا متواني

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٠٠ .

(٢) الديوان ٢ / ٥٣٩ ، اليتيمة ٢ / ٣٠٣ ، رسائل الصابي ٤٥ .

إخاء تساوى فيه ودّاً وألفـة رضيع صفاء لا رضيع لبان
تمازج قلبانا تمازج اخـوة وكلّ طلوبي غاية اخـوان
وربّ قريبٍ بالعداوة ساخـطٌ وربّ بعيدٍ بالمودة دانـي

• • •

ولو أن لي يوما على الدهر إمرةً وكانت لي العدوى على الحدثان
خلعت على عطفيك بردَ شبيبتي جوادا بعمري واقتبال زماني

وبعد أن نقرأ هذه المشاعر الوفية التي تنساب بصدق من فم الشريف، تدرك عمق علاقتهما، ومقدار تواضع كل منهما للآخر، واحترام واحدهما لصاحبه. وتبدو سمات الوقار عليهما من خلال كلماتهما المشبعة بروح الادب المنتقاة من أجود البضائع اللفظية.

واذا أشاد كل منهما باخلاص الآخر وجودة صداقته فما ادعيا ذلك، ولا دجلا، ولقد مر بنا وفاء الشريف الرضي للطائع بعد خلعه على ما في هذا الوفاء من مخاطر على حياته ومنصبه وسيؤكد هذا الوفاء في كثير من المناسبات واستمرارية تذكره والحنين الى أيام صداقته، وقصيدة الرثاء التي قالها فيه بعد وفاته خير شاهد على هذا الوفاء.

قال الشريف الرضي في رثاء الصابي عند وفاته (١):

أعلمتَ من حملوا على الاعوادِ أرأيت كيف خبا ضياءُ النادي
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقعه متتابعَ الإزبـاد
ما كنت أعلم قبل حطّك في الثرى ان الثرى يعلو على الاطـوادِ

• • •

هذا أبو اسحق يُغْلَقُ رهنُهُ هل ذائد أو مانع أو فادي ؟
أعزز عليَّ بأن أراك وقد خلت من جانبيك مجالسُ العـوّاد
أعزز عليَّ بأن يفارق ناظري لمعانُ ذاك الكوكب الوقـاد

(١) الديوان ١ / ٣٨١، اليتيمة ٢ / ٣٠٧، ينظر في الادب العباسي ٤٤٠.

وتمر الأيام ولا ينسى الشريف الرضي صداقته للصابي ، وحين يجوز بقبره وهو بالجنينة من أرض كرخايا يقول (١) :

أيعلم قبر بالجنينة أننا ... اقمنا به نُنعي الندى والمعاليا ؟
مررنا به فاستشرفتنا رسومُه ... كما استشرف الروضُ الظباءَ الجوازيا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلّبت ... من الدمع أوشالٌ ملأن المآقيا

هذه بعض دلائل عمق صداقة الشريف الرضي ونبل مشاعره ووفائه . أما وفاء الصابي لاصدقائه فقد أكدته أقوال الشريف الرضي في وصف اخلاص الصابي وجودة اخوته ويؤكده عبد العزيز بن يوسف في قوله (٢) :

وقيت أبا إسحق من حافظٍ عهدا ... وراعٍ لمن يُمنى بفرقته ودّا
ومنفردٍ بالمُكْرمات تألّفت ... عليه المعالي فاستقل بها مجدا
بلوتُ أخلاّءَ الزمانِ ، وكلهم ... سوَاء ، فلا ذما منحتُ ولا حمدا
سواك أبا اسحق ، إنك والندى ... لأوفاهُمُ عهدا وأصفاهُمُ عقدا
وابعدهم في كل مكرمة مَدى ... وأنظمهم في جيد مأثرة عقدا
تلاقت بنا الآداب في خير منسب ... عليه تساقينا على ظمأ بردا

واذا عرفنا ان عبد العزيز بن يوسف كان بمنزلة الوزير في بلاد عضد الدولة ، واذا عرفنا ان الصابي ان عاتب عبد العزيز على هجر وانقطاع قال له (٣) :

صديق لكم يشكو اليكم جفاكُمُ ... وفي قلبه داء من الشوق قاتلُ
تناسيتموه وهو للعهد ذاكرٌ ... وللغيب مأمونٌ وللحبل واصلُ
يقول لكم والوجد بين ضلوعه ... مقيم وقد حَمّت عليه البلابل (٤)

---

(١) الديوان ٢ / ٥٧٩ ، رسائل الصابي ٤٥ ، وينظر في صدق رثائيات الشريف الرضي (في الأدب العباسي ٤٣٧ وما بعدها) .
(٢) اليتيمة ٢ / ٣٢٢ .
(٣) نفسه ٢ / ٢٩١ .
(٤) البلابل : جمع بلبال وهو شدة الحلم .

أكابرنا عطفا علينا فاننـــا بنا ظَمأ بَرْحٌ وأنتم مناهــل

اذا عرفنا هذا أدركنا أن للصابي صفاتٍ تدعو الى الاحترام والتقدير وأن رفاقه يجلّونه حباً به وبصفاته هذه ، وليس طمعا بمال أو مركز ، ويمنحهم بالمقابل مشاعر مثل مشاعرهم أو تفوق عليها .

ويطول بنا الكلام اذا أوردنا كل الاشعار الاخوانية الصادقة المتبادلة بين شعراء موظفين ولكننا نختصر القول ونشير الى مساجلات أبي عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي مع الصاحب بن عباد والقاضي التنوخي ، وهذا الاخير مع الوزير المهلبي ومساجلات الصابي مع الشريف الكثيرة (١) .

وقد يكون مناسبا ان نختم هذا الكلام بذكر قسم من رثاء الشريف الرضي لابن الحجاج محتسب بغداد والشاعر الماجن اللفظ (٢) :

نعوه على ضَنّ قلبي بـــه فلله مـــاذا نعى الناعيـــان

• • •

بكيتك للشرد السـائرات تَعَبَّثُ ألفاظُهـــا بالمعـــاني

• • •

وما كنت أحْسَبُ ان المنونَ تَفُلُّ مَضارِبَ ذاك اللسانِ

• • •

فان شاءَ كان حِرانَ الجِماحِ وان شاء كان جِماحَ الحِران
يهابُ الشُّجاعُ غذاميرَهُ على البعد منه مَهابَ الجبان (٣)

---

(١) ينظر اليتيمة ٢ / ٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، وينظر ما تبادله عبد العزيز بن يوسف الصاحب والصابي ، اليتيمة ٢ / ٣١٧ .

(٢) الديوان ٢ / ٤٤١ ، معجم الأدباء ٢٢٩/٩ . ولابن الحجاج ابيات ومقطعات في الشريف الرضي منها ستة ابيات لطيفة جاء فيها :

أيا من مجده المجد الأثيـــل وداء حسوده الداء الدخيل
ابـــوك ابـــو أئمتنا عـــلي وامك ام سادتنا البتول
جعلت لك الفداء فكل ود سوى ودي يميل ويستحيل

ديوان ابن الحجاج مخ ٤٤٢ / م ورقة ١ .

(٣) غذاميره : طول لسانه .

وتعنوا الملوكُ له خيفــةً اذا راعَ قبلَ اللظى بالدُّخان

• • •

ليبكِ الزمانُ طويلا عليك فقد كنتَ خفةَ روح الزمان

انها علاقات نبيلة تدلل على ان الخير لم يزَل من النفوس وأن تجارة الشعر لم تُفسِد كل الشعراء .

القيمة الفنية :

لا جدال في أن أعلى الكلم فنيا ما كان نابعا عن صدق في المشاعر ، واخلاص في التعامل مع اللفظ ، وادراك واع لحقيقة الوجود .

والشاعر الذي يتفاعل مع الحياة ويتعامل مع مكوناتها بتناقض بيّن لا بد وأن يأتي كلامه متفاوت البنية الفنية والقيمة الاجتماعية .

فنجده ينحشر في قالب من الالفاظ المصطنعة والكلمات الجامدة حين يتكلف المديح أو الوصف أو الاغراض الاخرى المعروفة في الشعر العربي ، لكنه يرتفع وقد يحلق في أجواء من الفن الرفيع حينما يخلص لفنه ويصدق مع نفسه ومع الآخرين .

ويمكننا ان نسحب هذا القول على الشعر الذي يبين لنا علاقات الشاعر بمجتمعه ، فنحن نرى غلوا وتكلفا وصنعة جامدة في اقوال اغلب الشعراء تذهب برونق شعرهم فتحيله نظما بلا أية رعشة فنية أو عاطفية .

ومع هذا نجد أيضا الشعر الذي نفتش عنه ، فهناك قصائد أو أبيات تكاد تكون أنموذجا من حيث صدقها وامتلاؤها بالعواطف النبيلة ، كما في قصيدة الرثاء التي قالها الانباري في ابن بقية الوزير أو الابيات التي قالها ابن زريق لأحد الحكام .

لقد كان الشعر العربي مبنياً في فنه على ما تبعثه كلماته في النفوس من هزة ونشوة ودفء لذلك فليس من الشعر ما خلا من العواطف والصدق .

الخلاصة :

الشاعر عنصر فعـال في المجتمع وهو يرتبط بأواصر متينة وعلاقات مرسومة سابقاً .

فهو – في الاغلب – مع الحاكم ينزهه ويعظمه ويرضي نزعاته وغروره ومطامحه ، يغضب لغضبه ويفرح لمسرته ، وقد يعادي من يقف ضده ، ولذلك كانت له في نفوس الناس هيبة مستمدة من هيبة الحاكم اضافة الى أن الناس كانوا يرون في الشاعر عنصرا موهوبا جديرا بالتقدير .

وقد أصبح وضع الشاعر في القرن الرابع قلقا نظرا لما جابه الحياة السياسية من اضطراب رهيب جعل كراسي الحكام تهتز تحتهم باستمرار .

وقد انعكس هذا الوضع على نفس الشاعر فبات لا يدري أين يتجه وفي دار أي حاكم يلتجىء .

على أنه سرعان ما تكيف لهذا الوضع الذي استمر طويلا فأصبح الشاعر مرتزقا منتهز فرص ، يقعد على باب من ينتصر من الحكام المتصارعين وقد مثل ذلك خير تمثيل ابن الحجاج في قوله :

ان الملوك اذا هم اقتتلوا ... أصبحت فيهم كلب من غلبا

واذا كان الشعر حرفة يرتزق منها الشاعر ، حصل بين الشعراء منازعات وتنافس ، وكان الذي كان من الهجاء المقذع والدس الرخيص .

ولكننا وجدنا مع ذلك علاقات نبيلة حصلت بين هذا الشاعر أو ذاك ، فبلغت من السمو محلا مرتفعا كما كان بين الشريف الرضي وابي اسحق الصابي مثلا .

لقد ظلت علاقة الشاعر في مجتمعه مثل أي علاقة انسانية أخرى تتباين بمقدار أخلاق الشاعر وعمق تفكيره ومقدار مصالحه الذاتية .

الخلفاءُ والامراءُ

الخلفاء :

ليس مستغربا ان يقول الخلفاء شعرا لما يلقونه من وسائل التربية التي تشجع الشعر والادب ، ولما يرونه من مكانة للشعر عند الخاصة والعامة . وكان الخليفة يقول الشعر اما قتلا للفراغ ، أو تنفيسا عن هموم ذاتية ، أو هموم تسببها سيطرة الأجنبي على مقاليد الامور في البلد ، أو رغبة في الظهور بمظهر العالم الشاعر .

وقد كثر بين خلفاء القرن الثالث للهجرة قالة الشعر وورد في كتب الادب والتاريخ شعر للمتوكل والمعتصم والمهتدي والمعتضد (١). وكان شعرهم يرسم صورا من حياتهم ومطامحهم ، وهو يحمل بين طياته علامات بيّنة لانهيار الدولة العباسية ، لذلك فهو ينفع دارسي التاريخ لما فيه من دلالات سياسية واجتماعية مكثفة وصادقة (٢) .

---

(١) ينظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ط مكتبة خياط ، المسعودي : مروج الذهب ط محي الدين عبد الحميد ، السيوطي تاريخ الخلفاء تح محي الدين عبد الحميد أيضا ، وغيرها من كتب التاريخ .

(٢) قال المهتدي قبل أن يصبح خليفة :

اما والذي اعلى السماء بقدرة ... وما زال قدما فوق عرش قد استوى

لئن تم لي التدبير فيما اريده ... لتفتقدن الترك طرا فلا ترى

وقد تم للمهتدي تدبير الدولة لكنه انتهى على يد الاتراك دون أن تتأثر مسيرتهم في البطش والتنكيل بأبناء أسرته وقومه . (ينظر معجم الشعراء ٤٠١) .

واذا اجتزنا الى القرن الرابع لم نر الذي رأيناه لدى خلفاء القرن الثالث ، فاذا استثنينا الخليفة العباسي الراضي من ثمانية الخلفاء الذين ولوا خلال القرن الرابع لم نجد شيئا يذكر من الشعر لهؤلاء الخلفاء سوى ابيات قليلة نسبت للقاهر والمتقي والمستكفي . فمما نسب الى القاهر بعد سمله قوله (١) :

صرت وابراهيم شَيْخي عمىً   لا بد للشيخين من مصدر
ما دام « توزون » له إمـــرةٌ   مطاعةٌ فالمِيلُ في المِجْمَرِ

ومما ينسب الى المتقي بعد أن كحل قوله (٢) :

كَحلونا وما شكونا إليهم من الرمد
ثم عاثوا بنا ونحنُ أسودٌ وهم نَقَدْ (٣)
كيف يغتر من أقمنا وفي دسْتنا قَعَدْ

وفيها نتبين سلطان القادة الاتراك ، وضعف الخليفة العباسي أمام جبروت توزون وغير توزون ، وخوفه الدائم من التعرض للتكحيل والعمى وهي حال تبعث على العطف والرثاء وأحيانا الاشمئزاز من هذا الجبن والاذلال .

وإذا تساءلنا : لم انفرد الراضي شاعرا في هذا القرن ؟ أمكن أن نجد الجواب في اهتمام الصولي (استاذ الراضي) بتأديبه اضافة الى ميل الراضي للادب وذكائه ومواهبه ، وقد أكد هذا الصولي حين قال (٤) : « وقد يعلم الله تعالى أن الراضي في حالة إمارته وأخاه هارون لما أمر نصر الحاجب ان يتقدم اليّ بخدمتهما وأن يجعل علي نوبة لهما يومين في كل اسبوع ، ففعل

---

(١) التنبيه والاشراف ٢٧٨ وكتب التاريخ الاخرى حوادث ٣٢٠ – ٣٢٢ . وابراهيم هو المتقي .

(٢) نكت الهميان ٨٨ ، وينظر مختصر التاريخ ١٨٤ ، ١٨٧ في بيتين نسبا للمتقي وآخرين للمستكفي .

(٣) نقد : جنس من الغنم صغير الارجل .

(٤) أخبار الراضي ٢٤ .

ذلك ، دخلت اليهما فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين ، الا انهما خاليان من العلوم ، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك ، وكان الراضي أذكاهما وأحرصهما على الادب ، فحببت العلم اليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والاخبار قطعة حسنة ، فتنافسا في ذلك وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه وقرآ علي الأخبار والاشعار » .

وكان الصولي يلاقي عنتا ومضايقات من أم المقتدر وخدمها فحين توصف محاسن تأديبه لأولاد المقتدر أمام احدى قهرمانات « شغب » ترسل له هذه القهرمانة خبرا تقول فيه (١) : « ان هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساويء فقل له عني هذا : ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم (٢) قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم ، فاعمل على ذلك » .

ان هذه الروح المتمردة على الادب هي انعكاس طبيعي للاوضاع السياسية المضطربة التي تؤثر بدورها في عملية اختيار المربي ومن ثم تؤثر في تربية الامراء ــ خلفاء المستقبل ــ التي تحكم كما رأينا في سيرها أناس غرباء عن اصول التربية التي كان يتلقاها الامراء كما هم غرباء عن لغة هذه التربية اضافة الى وجود دافع قوي يدفعهم الى زرع بذور التربية الفاسدة في نفوس خلفاء المستقبل ليظلوا تحت هيمنتهم ، وتظل امور الدولة ملك تصرفهم .

وحين نعرف كل هذا ندرك سبب قلة الخلفاء الشعراء ، كما ندرك أن شيئا ما لعب دوره في ايجاد مرب متمكن استطاع تنمية مواهب الراضي الشعرية وصقلها فجعل منه شاعرا وسطا قام الصولي نفسه بجمع مختارات من شعره أودعها الجزء الخاص بأخبار الراضي والمتقي من كتاب الاوراق (٣)، وقد

---

(١) أخبار الراضي ٢٦ والسيدة هي أم المقتدر .

(٢) تعني المقتدر .

(٣) أخبار الراضي ١٥٤ – ١٨٢ .

وقعت في ثمان وعشرين صفحة ، عدا ما جاء في ثنايا الاخبار والاستطرادات .

اذا نظرنا الى شعر الراضي الذي نقله لنا الصولي وغيره من المؤرخين وجامعي الادب وجدناه في الغالب يهتم بالغزل الغلماني ومجالس الخمر واللهو كما يتناول الفخر والشكوى والرثاء ، وهو على العموم صورة لمجتمع خلفاء القرن الرابع . يعوضنا كثيرا عن خرس الخلفاء الآخرين في قول الشعر الذي يمكن ان نستشف منه حياتهم وطبيعة مجتمعهم .

نلاحظ في شعر الراضي مقطوعات كان قد نظمها أيام كان أميرا تدلل بعضها على معاملة الخليفة لابنائه . فالمقتدر يغضب على الراضي أو يجفوه فيتألم مثل أي انسان آخر يحب أباه لذلك يقول معتذراً (١) :

هلاّ رددْتَ على العدو الكاشحِ   وقبلت فيَّ من الصديقِ الناصحِ
الآن حينَ ملأتَ قلبي رغبة   أعقبتَها ظلما بيأس قادحِ

* * *

أبعدت ظَنّي بعد ما قرّبته   ولسوف تذكر في فسادِي صالحي
ما للإمام تنكرت أخلاقُه   من قول هاجٍ في مكان مدائحي
في كلّ يوم أرتجي إنصاف من   يجري الى ظلمي بقول الكاشحِ
جَمْري إذا ما شئتَ طافٍ خامدٌ   واذا تشاء فكالشهاب اللائحِ

واذا لم يكن لهذه القطعة الشعرية قيمة فنية تذكر فهي مهمة في تصوير العلاقات بين الخليفة وابنائه ، تبين كيف يسمع فيهم أقوال الوشاة والمتملقين ، مما يؤكد إهمال هذا الخليفة لشؤون ابنائه وعدم معرفته أمور حياتهم دقائقها وكبائرها .

ومن أيام إمارته ينقل لنا الصولي اهتمام الراضي بالادب واحترامه لاصحابه . فقد اعتل الصولي وتأخر عن خدمة الراضي والنوبة كانت عليه فكتب الراضي رقعة الى الصولي جاء فيها (٢) :

---

(١) نفسه ١٦٥ .

(٢) أخبار الراضي ٦٠ .

يا عليلاً جعل الساعةَ إذ غابَ شهورا
ولقد كان به الدهرُ إذا جاء قصيرا
لعلوم لا أرى الدهرَ لـــه فيه نظـــيرا
صرف الله الأذى عنـــك ولقّاك سرورا

وكان الشاعر الأمير مرتبطا بحياة التبذل واللهو ، ففي أيام حبسه زمن خلافة عمه (القاهر) لا يتذكر الا ّ أيام لذته وأنسه فيقول (١) :

فقدتُ الهوى وَعَدمت الودودا وأبلى الجديدان منّي الجديـــدا
وقد كنتُ دهرا أطيعُ الهوى وأجري مع اللهو شأوا بعيدا
فَحرّمتُ كأسي على لَذّتي وأزمعتُ كُلّ وصال صُدُودا

ومثلما نلاحظ ارتباطه باللهو الذي يلازمه طيلة حياته نرى ملقه وجبنه حينما أرسل له القاهر برؤوس مؤنس وبليق وابنه متوعدا اياه بمصيرهم نفسه فارتعب وخاف وكتب اليه يستعطفه (٢) :

بَقيتَ أميرَ المؤمنين على الدّهرِ برغم الاعادي نافذ النهي والامرِ
شفيت غليلا كان لولاك قاتلا وخففت همّا ضاق عن حمله صدري
وقمت بحق الله في قتلِ معـــشر سَعَوْا في البلادِ بالفساد وبالكُفر
فَعِشْتَ لدين الله تجبُرُ وهْنَهُ وَبُلّغْتَ أقصى ما هَوِيتَ من العمر

وربما تشفّى الراضي من الذي جرى على قتلة أبيه لكن علائم الخوف تظل واضحة بارزة على كلمات هذه المقطوعة .

وعلى ذكر أبيه المقتدر فقد أورد المؤرخون ثلاثة أبيات حسنة يرثيه الراضي بها فيقول (٣) :

ولو أن حياً كان قبراً لميّـــت لصيرت أحشائي لأعظمه قبرا
ولو أن عُمْرِي كانَ طوع مشيئتي وساعدني المقدورُ قاسمته العُمرا

---

(١) نفسه ١٦٦ .
(٢) نفسه ٥٠ .
(٣) تكملة الطبري ١١٨ ، البداية والنهاية ١١ / ١٩٧ .

بنفسي ثرىً ضاجعتَ في تربهِ البِلى   لقدضمَّ منك الغيثَ والليثَ والبدرا

والتاريخ لا يؤيد الراضي فيما أسبغه على أبيه من شجاعة لانه كان معروفا بالضعف والانغماس في الملذات وترك امور البلاد تصرفها النساء .

ويذكر لنا الصولي أيضا مقطوعتين يرثي الراضي بهما أباه ، لا تخرجان في معناهما كثيرا عن الأبيات التي ذكرناها (١) :

واذا أصبح الراضي خليفة لم يكن أحسن حالا من أبيه في ضعفه وخنوعه واستسلامه للاجنبي ، ولقد بلغ ضعفه حد التصاغر أمام سلطان أمير الأمراء (بجكم) فقد رفع اليه آيات الحمد والثناء أكثر من مرة مادحا اياه بكلمات يأنف صاحب كرامة أن يقولها لندٍّ له لا لتابع من اتباع دولته . فحينما ينتصر بجكم على ابن رائق ويملك واسط يكتب له قائلا (٢) :

يا عمدةَ السلطان	وليثَ هذا الزمان
ومشتري الحمدِ منّي	بأوفـر الأثمـان
فككت أسرىَ مـن	كفٍّ طارِق الحدَثان
فصرتُ أسبق جريا	وقد ملكت عنـاني
فأنت حربُ عدوي	وسلْم من والانـي
والسيفُ مثل لساني	اذا تعـايا لسـاني
تسرني كـل وقت	في غيبـة وعيـان
فشكرك الدهر لا كارم	أن شكر غيرك شاني

ان كل بيت من هذه الأبيات ينطق بالذلة والخنوع ويدلل قطعا على ان الراضي لم يكن يمتلك حتى زمام نفسه ، لذا فانه ينزلق في مهاوي الجبن كل فرصة ، حتى عند هجائه ابن رائق المهزوم يكشف لنا عن كثير من نقاط

---

(١) أخبار الراضي ١٦٧ ، ١٧٧ .

(٢) نفسه ٥٥ .

ضعفه مع أنه حاول أن يتستر عليها ببعض الكلمات البائسة حينما قال : (١)

أيطلبُ كَيدي من يهون كِيادُه — فيوقِدُ ناراً مثلَ نار الحُباحِبِ

لقد رام صعبا لم يَرُمْه شبيهُــه — وراض شَمُوساً لا يذلُّ لراكب

صَغُرْتَ عن الأمر الذي رمتَ فِعلَه — فطالعتَني بالضغْنِ من كلِّ جانب

وأظهرت لي حباً يَطيفُ به قلى — كخلب بَرقٍ في عِراض سحائب

اتعقِدُ لي كيدَ النِّساء بمرصَــدٍ — وإني فتيٌّ السنِ شيــخُ التجارب

الا ربما عزت على الحازم الــذي — تَراهــا بكفيّه فريسةَ طــالبَ

تُكشِّفُ لِيْ الايامُ منكَ معايباً — وقد جرَّبَتْ لاشكَّ أخزى المعايب

فأصبحتَ مقهورا وعادتك نكبةٌ — تَشَكّى اليك الشوق شكوى الحبايبِ

ولست أدري أين كانت رجولة الراضي حينما كان الامر لابن رائق يستبد بكل شيء ويعيث بكل شيء أمام سمع الراضي وبصره ، وهو لا حول له ولا طول ، فلو لم ينقذه بجكم من تسلط ابن رائق لظل خانعا له مستسلما لسلطانه ، ولربما رفع له آيات الحمد كما رفعها لبجكم .

ان هذه القطعة مع بعدها عن الحقيقة تبين لنا علاقات سياسية عديدة ، كإظهار الود الكاذب للخليفة واستغلال النساء لعمل المكائد ، ونكبات رجال الدولة ، ومواقف الخليفة السلبية من كل هذه الامور على معرفته بها .

وكما يبدو ضعف الراضي أمام قادة الجيوش الاجنبية الذين يحكمون البلاد يبدو ايضا في ذاته ، وفي شعوره بالخطيئة وفي نظرته اليائسة الى الحياة حين يقول (٢) :

كل صفو الى كَــدَرْ — كلُّ أمنٍ إلى حذرْ

---

(١) اخبار الراضي ١٥٧ . والحباحب : النار الضعيفة .

(٢) نفسه ١٨٥ ، المحمدون ١٨٤ ، النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ تاريخ ابي الفدا ٣ / ١١٠ ، مختصر التاريخ ١٧٩ ، البداية والنهاية ١١ / ١٩٧ ، وقد اختلفت هذه المصادر في بعض الفاظ هذا النص .

أين من كان قبلنا ؟ درس الشخص والاثرْ

• • •

رب اني ذخرت عندك أرجوك مدخر
إنّني مؤمن بما بيّنَ الوحيُ في السور
واعترافي بتركِ نفعي وايثاريَ الضررْ
رب فاغفر لي الخطيئةَ يا خير من غفر

ولا بد أن تكون ذنوب الراضي كثيرة . وأنه يعرفها فيطلب المغفرة من ربه . وكيف لا يطلب المغفرة من انصرف الى الملاذ وكاد يطير المثل بضعفه أمام شهواته . وقد فضح شعر الراضي هذه الحياة اللاهبة المليئة بالخطايا ، اميرا وخليفة .

قال يتذكر مجالس أنسه ويصف ما يجري له فيها (١) :

طربت الى «عُمَىّ» وعاودني ذكرى وقسّمَ شوال بِقَدْمَته فكري
فكم فتكةٍ لي في ذُرى عرصاتها أروحُ على سُكرٍ وأغدو على سُكرِ
طرقتُ بهاً الخمارَ والنجمُ طالعٌ طلوعَ سِنانٍ قاصدٍ ثغرةَ النحرِ
فأنكحني خمراً رَضيتُ نِكاحَها وأغليتُ بالسومِ المبالغَ والمهرِ
وقلت لساقينا أدرْ ليَ خمرةً تُنيلُ المنى وافجُرْ بطلعتها فَجري
فقام خلوبُ الدّلِّ يجلو سُلافةً تُشَبِّهُ في كاساتها ذائبَ التبرِ
له مقلة تَسبي العقول وفتنةٌ تُسقِطني من حيثُ أدري ولاأدري
عليمٌ بوحي الطرف حتى كأنما يخاطبُه فكري بما ضمّه صدري
فحطّ على حُكمِي رحالَ إجابة وسار بما أهواه طوعاً إلى أمري

واذا كان الراضي يظهر نفسه ماجنا شهوانيا ، فإنما يثبت فساد الجو الذي يعيش فيه ويبين كيف كانت حالة مجتمع خليفته يعيش الفساد كله .. ويصف الراضي نفسه داعية الى حياة اللهو والفسق مسوغا ذلك بان الحياة غير مجدية ،

---

(١) أخبار الراضي ١٧٢ . ووردت غمى في معجم البلدان . وهي بلدة قريبة من بغداد ، وفيها يقول صريع الدلاء : وبغمى جعلت عقلي على الغم ... » ، الديوان ٧٦ أ .

لانها فانية آفلة . ولا يتراجع عن رأيه هذا حتى أيام اشتداد علته ، حيث يقول (١) :

ولما رأيتُ الدهرَ يخطُب خطبةً ... وأيامه تَعدو عليَّ بنوبـاتِ
عَصَيْتُ زماناً قد تجاسرَ صَرْفُهُ ... واتبعت يوم الهم يوم لذاذات
وأيقنت أني مهجةٌ مستعـارةٌ ... تُرَدُّ إلى مِلك المعيرِ بغُصّات
فيا ليتني أمضيتُ ما كنتُ عازماً ... عليه ليشفِي داء صدرِي ولوعاتي

وتلوح لنا مظاهر الهروب من الواقع المؤلم في هذه القصيدة وفي قوله (واتبعت يوم الهم يوم لذاذات) .

ان الراضي ينظر الى الحياة من زاوية واحدة فتبدو له وكأنها جلسة من جلساته الخمرية يقوم عليها ولدان منعمون ولهذا فانه يدعو في حماسة الى الاغتراف من هذا النعيم – في تصوره – ناسيا ، أو متناسيا أن الحياة ليست اللهو وأن الانغمار في الملذات هو هروب شائن من وجه الحياة ومتاعبها ، فالعيش يكون مشوها اذا كان مثلما يريد الراضي في قوله (٢) :

العيشُ راحٌ يعاطيها براحتِـه ... مُنَعَّمٌ يقتضي عِشقاً بلحظتِه
كأنما لونُها من لونِ وجْنته ... وطعمُ ريقتِها من طعم ريقتِه
إن أمكن الدهرُ من عيشٍ بشهوتِه ... فانعم بغفلتِه من قبلِ فِطنتِـه

ان الراضي يرى مما لا يراه المعتدلون، فهو يتطرف في دعواته الى الأخذ باللهو ، وقد تكون دعواته هذه ذات طابع شخصي لكنها تظل رمزا لمجون الخليفة وانهزامه وتقصيره في واجباته ، خاصة اذا سمعناه يقول (٣) :

بادر بلهوكَ ليلةً بدريـةً ... واقصد بما تهوى برغم الحُسّدِ
ومرِ الغريرَ يُديرُ بِكرَ سُلافـةٍ ... لا تسمعنَّ لعاذلٍ ومفنّـدِ

(١) نفسه ١٦٤ .
(٢) اخبار الراضي ١٦٤ .
(٣) نفسه ١٦٦ .

يهتز في سودِ الثياب كأنــهُ بدرٌ تجلّى من غَمامٍ أسودِ
ما زلتُ أسحَرُهُ بلحظ خاتلٍ وأسومُه الإنجازَ قبلَ الموعدِ
حتى تَورَّدَ خدُّه بمُدامــةٍ كالمسكِ ذاتِ توقّدٍ وتورّدِ
وتَبيّنَ الانعامُ في الحاظِــه مُتقرّبَ الألفاظِ بعد تبعُّدِ
يا ليلة كانت لدهري غُرّةً طَلعَتْ عليَّ نجومُها بالأسعُدِ

ومهما يكن فان هذه الاقوال تدل على صدق في اللهجة ، وهي حتى لو كانت خيالاً لا تليق — بأمير المؤمنين — الراضي بالله الذي من واجبه أن يظهر — ولو زورا — أمام الناس بمظهر لائق فيه بعض الوقار وقليل من الحشمة . لكن الراضي ينسى أنه خليفة وان شعره سيذيع ، ويتناقل الناس مباذل صاحبه وتصرفاته الخاصة المهينة ، ولهذا يكثر من وصف أنسه وملاهيه ، فيقول مثلا (١) :

داو الخُمــار بخمرهِ وصل الصَّبُوحَ بفجرهِ
واطرَبْ لفطر زائر أهلا بــه وبزوْرِه
يا ليلة «بالقفص» (٢) جادَكَ العذول بعُــذرِه
لمــا رأى رشأ يُــذيــبُ العقلَ ذائبُ تبره
متمردا في سُكره متمايلاً في خَطرِه
كالبــدر الا أنه بدر لسائر شهــرِه
فشربت خمرة كأسه ورشفت خمرة ثغرِه

وزادني في طربي منعــمٌ داني الرضا منّي ناءٍ بالغضــبْ
يدير راحا لمعت في كأسه وألبست من مزجه تاج ذهب

ومثلما هو سائد في الأسر المتسلطة المترفة آنذاك من الخلاعــة ونزع الاحتشام ، كان الراضي يرمي في مسراته احتشامه جانبا فيؤثر لذته وشهوته

(١) نفسه ١٧٣ .
(٢) القفص : بلدة قرب بغداد .

على رأيه (١) وبدون أية غيرة على سمعته يقول واصفا جلسة من جلسات أنسه وطربه ومجونه (٢) :

وقهوة يترامى شعاعها بلهيبِ
جعلتها حظ نفسي عشقا لها ونصيبي
بيوم سعد مصفّى من الزمان المشوب
فسقِّني تذكارا لطاعة المحبوب
واعصِ الرقيب فإنّي أحل قتل الرقيب
أبى شبابيَ إلاّ عصية لمشيبي
ما سوّد النسك مني الا بياض ذنوبي

وما بنا من حاجة الى وضع أصابعنا على مواقع عصيان الراضي للرقيب وللرب أيضا ، ما دام « بياض ذنوبه » يذهب بسواد نسكه وما دام يرى أن هذا العصيان حلال إذا كان في اللهو والشراب الذي يديره ظبي يعرف مكامن ضعف الراضي ، وعيوبه فيخلق جوا أنِسا ، مخمورا يجعل الراضي يقول (٣)

وعقار ذوب شمس جمعت حسنا وطيبا
سلبت عقلي ختلا وسرت فيّ دبيبا
قد سقّانيها غزال عالم منّي عيوبا
حقق الريبة لحظ منه خلاّني مريبا
وترى الغصن لعطفيه إذا اهتز نسيبا

هذه الأبيات ليست الاّ شيئا يسيرا من مظاهر الخلاعة عند الراضي وهو لا ينكر هذه المظاهر انما يصبها قوالب شعرية وكأنه ينفس بها عن همومه أو يعوّض بها عن نقص كبير فيه .

---

(١) اخبار الراضي ١٥٨ .

(٢) نفسه ٤٣ . قام بجكم للصولي عن الراضي بعد وفاته « كان شديد الجبن يؤثر لذته وشهوته على رأيه » ويعلق الصولي على ذلك بقوله : « فعجبت والله من عقل بجكم ، جاء والله بعيبيه اللذين ما كان فيه غيرهما » .

(٣) اخبار الراضي ١٦١ .

(٤) نفسه ١٦٢ .

واذا كان عصره عصر شراب وغلمان فليس من حقه أن يكون أنموذجا رديئا لعصره لأن منزلته الدينية والاجتماعية يجب أن تحول دون سقوطه في هوة الانحرافات الزمنية ، لكن ما حدث حدث ، فالراضي ينهار أمام غلام « ناظر عن دعج محكم في المهج » يدير كأسا فرّجت هم الفتى بالفرج(١) يتخذ منه بؤرة يفرغ فيها همومه لينفرد معه يؤانسه ويسقيه و .. و .. ويقول بعد كل هذا (٢) :

يا ربَّ ليلٍ قد دنا مـزاره يسترني ومؤنسي إزارُوُه
ساقٍ مليحُ القدّ كد(٣) جاره سراجـه ووجهـه منارُه
يشهد لي ببذلـه زنّـاره تاه بخد ظهـر احمـراره
ماس من الحمرة جلّنـاره أي كثيب قد حوى إزاره
وأي غصن ضمنت أزراره طوع الكؤوس ، غره عذاره

ويمكن بعد ذلك أن نتصور مدى ضعف الراضي أمام ملذاته وأمام غلمانه اذا عرفنا أن جسمه كان يصفر إذا ما تأمل محبوبه الذي يحمر خجلا « حتى كأن الذي بوجنتيه »(٤) قد انتقل من دم الراضي الواله ، أو نتصور هذا الضعف حينما نسمعه يقول (٥) :

ضللت في حبكم فحسبي حتى متى اتبّع الضلالا

إذا سمعنا ورأينا كل ذلك ثم اذا سمعناه يقول أيضاً (٦) :

بين الصَّراة وكرخايا (٧) تمرده والعيش من نكبات الدهر معصوم

---

(١) اخبار الراضي ١٦٥ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٣٢٣ .
(٣) وتروى كز
(٤) المنتظم ٦ / ٢٦٧ .
(٥) نفسه ٦ / ٢٦٨ .
(٦) اخبار الراضي ١٨١ .
(٧) الصراة نهر في بغداد ينظر الاقاليم ٤٨ . وكرخايا نهر ببغداد يمر ببراثا . ينظر مراصد الاطلاع ٣ / ١١٥٥ .

والغضب دين وشرب الراح مفترض   والهتكُ مستعمل والصونُ مثلومُ

أدركنا أي رجل غريب عن الخلافة والمسؤولية يحكم دولة مترامية الأطراف ، ثم أدركنا لم تهرأت أركان هذه الدولة ، ورثينا بعد ذلك للمجتمع المسكين الذي يحكمه خليفة ضعيف مثل الراضي المسرف في شهواته ولذائذه (حتى أيام علته) ، المسرف في أموال دولته وابنيتها « يهدم القصور ويصيرها بساتين» (١) وينفق ما يجده في بيت ماله أو بيت مال المسلمين مسوغا كل ذلك بقوله (٢) :

لا تكثرنْ لومي على الإسراف   ربح المحامد متجر الأشرافِ
أجري كآبائي المكارم سابقا   وأشيد ما قد أسست أسلافي
اني من القوم الذين أكفهم   معتادة الاخـلاف والاتلاف

ومن الطبيعي جدا أن يعتاد الراضي وأسلافه أو أخلافه اتلاف مال لم يجهد به غير الصناع والفلاحين وسواهم من العامة المرهقين بالضرائب وسياط الولاة والجباة .

ان مجتمع الخلفاء وان أصابه الوهن والتفسخ لم يخل من نبضات إيجابية سجلها لنا التاريخ : فقد ذكر أن الراضي كان يتألم لما يراه من ضعف سطوته ، وتخاذل هيبته أمام سيادة بجكم ، وابن رائق (٣) .

وذكر أن المطيع رفض أن يسمح للقاضي ابن ابي الشوارب بزيارته لأنه ضمن القضاء (٤) وكان يظهر لبختيار استياء من تسلطه وانفراده في السلطة (٥) كما ذكر أن الخليفة القادر كان متعبدا « في أيامه تراجع وقار الدولة العباسية ونما رونقها » (٦) .

---

(١) المنتظم ٦ / ٢٦٧ .
(٢) أخبار الراضي ٥٤ ، المنتظم ٦ / ٢٧٦ ، البداية والنهاية ١١ / ١٩٧ .
(٣) ينظر مروج الذهب ٤ / ٣٣٧ .
(٤) ينظر النبراس ١٢٤ .
(٥) الكامل ٨ / ٦١٨ .
(٦) الفخري ١٩١ .

القيمة الفنية :

يكاد شعر الراضي من حيث كثرته يوازي ما قاله بعض شعراء عصره ، وقد حظي باهتمام المؤرخين ورددوا في شاعريته الكثير من الاوصاف فقال المسعودي (١) : « إنه كان اديبا شاعرا ظريفا وله اشعار حسان في معان مختلفة وان لم يكن ضاهى بها ابن المعتز فما نقص عنه » .

وقال ابن الجوزي (٢) : إنه « كان ... أديبا شاعرا حسن البيان والفصاحة»

وقال ابن تغري بردى (٣): « إنه كان شاعرا محبا للعلماء وهو آخر خليفة له شعر مدون » .

وإذا عبرنا هذه الأقوال وغيرها ورأينا شعره بعين فاحصة تبيّن لنا الراضي شاعرا من الدرجة الوسطى ، ففي بعض قصائده ، أو أبيات من قصائده ومقطعاته ترتسم رقة الشاعر وعذوبة الفاظه وطراوتها وخاصة ما نظمه في الغزل والخمرة ، وفي مقياس النقد آنذاك كان الراضي بارعا مثلا في قوله (٤) :

قالوا : الرحيل !! فأنشبت أظفارها ... في خدها وقد اعتلقن خضابا
فاخضرّ تحت بنانها فكأنها ... غرست بأرض بنفسج عنّابا

ففي البيت الأخير تشبيه ــ وان كان في مفهومنا ساذجاً ــ إلاّ أنه جيد وجميل في مفهوم أهل عصره .

واذا كان هناك نبضات شعرية عند الراضي تخوّله أن يكون في عداد الشعراء ، فليس معنى هذا أنه شاعر متمكن فهو كما يبدو كان يقع في أغلاط بدليل قول الصولي (٥) « كان رضي الله عنه جمع شعره وأملاه عليّ فكتبته بحضرة الجلساء في يوم وليلة ، لا أقوم عنه الاّ الى الصلاة فوصلني على ذلك ، ونسخ الجلساء هذه النسخة وهي عندهم . فنظرت فيها فاذا فيها أشياء فقلت

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٣٢٣ .
(٢) المنتظم ٦ / ٢٦٦ .
(٣) النجوم ٣ / ٢٧١ .
(٤) نهاية الأرب ٢ / ٩٥ .
(٥) اخبار الراضي ١٥٤ .

من حيث لا يسمعني أحد : يا سيدي هذا شعر يبقى على الأبد وقد بقيت فيه حروف تحتاج الى أن نغيرها ، فقد غير ابن المعتز شعره مرات وان أمرتني نسخته نسخة أخرى وعرضته على سيدنا ويأمر أمره . فقال : افعل وأنا أصلك للنسخ وغيره (١) ، فعملت نسخة كتبتها ، وعرضتها عليه ، فسر بها وقال تأخذ نسخ أصحابنا منهم وتقرر النسخة على هذا » .

وهذا دليل واضح على مساعدة الصولي للراضي في تقويم شعره وتصحيح اغلاطه ، وهناك دليل آخر على هذا هو تغيير الصولي لبيت من احدى قصائد الراضي وقبول الراضي بهذا التغيير (٢) .

ومع هذا فقد كان الراضي ذواقة للادب والشعر يؤكد ذلك لنا نقده لشعر ينسب الى المعتمد جاء فيه (٣) :

من قال اني اعشق لو صوروا الحب لكان رجلا أحمق
ادور السطوح فلا أراه كأنني سنّور أو أبلق
تمنيت من شوقي اليه أن أطلع عليه فأكون لقلق
هوى الناس مجتمع عندي وهواهم عليهم مفرّق

فقد كتب تحت هذه الابيات :

لم يقل ذا الشعر الاّ جاهل بالشعر أحمق
أو مصاب ذو جنون ضائع الفكرة أبلق

والراضي بعد هذا فيه روح استاذه ومربيه ابي بكر الصولي وهو وان كان اقصر منه نفسا فانه أكثر عفوية وأسلس لفظا ، ويثبت ما ذكرنا من تأثره باستاذه قول الراضي نفسه (٤) :

« الصولي علمني الشعر وأنا أتبع الفاظه وأنحو مذهبه » .

---

(١) تلاحظ كلمة غيره .

(٢) ينظر اخبار الراضي ٥٢ .

(٣) الديارات ٦٧ .

(٤) اخبار الراضي ٤٦ .

الخلاصة :

يمثل شعر الراضي حياة معظم خلفاء ذلك القرن وهو يبرز لنا المأساة الاجتماعية السائدة آنذاك ويبين بوضوح حياة البذخ والدعارة التي كان يحياها السادة على حساب عرق الناس ودمائهم التي كانت تبذل في سبيل أن ينال الخليفة وحاشيته المتعة والانس ، وكان هذا الشعر ايضا شاهدا نزيها يحكي صورا حية للحياة السياسية المضطربة التي أذلت الخلفاء وأنهت سلطانهم ، وقد انعكس وضعهم المزري هذا على روح الشعر فجاء كما رأيناه ضعيفا ذليلا خنوعا .

وقد يكون معروفا أن الخلفاء في القرن الرابع ضعفاء وأن لا سلطان لهم ولكن الذي دلنا عليه شعر الراضي شيء أكثر من هذا ، ذلك هو انغماس الخليفة في حياة الترف واللهو وما يصاحبها من سكر وغلمان وفجور ، ولم يحدث أن رأينا خليفة عباسياً صرّح بانغماسه في مثل هذه الميادين على هذه الصراحة والجرأة كما فعل الراضي .

وقد يكون في هذا ما يدل على استهانة الخليفة بما تحاط به الخلافة من أبهة هيبة وغير ذلك .

كما يمكن أن يدل على أن الناس لم يعودوا يستشارون لمثل هذه الأشياء التي يفترض انها خارجة عن اطار الحشمة والعرف الديني أو الاجتماعي حتى كأنه أمر معروف عن الخلفاء وحاشيتهم .

لقد أوضح شعر الراضي قضايا اجتماعية خطيرة ومع هذا لم ينتبه المؤرخون القدماء الى نواح عديدة مما سجله هذا الشعر وبخاصة فسق الخلفاء ودعارتهم ، واذا كان المؤرخون القدماء (١) يهابون تسجيل مثل هذه الامور

---

(١) ينظر مثلا مروج الذهب ٤ / ٣٢٣ ، والمنتظم ٦ / ٢٦٥ ، وتاريخ الخلفاء ٣٩٠ وغير ذلك من كتب التاريخ القديمة ، ومحاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الخضري ٣٦٠ ط ١٠ مطبعة الاستقامة ، مصر) .

فلا ندري لماذا لم يلاحظها ويهتم بها المؤرخون المحدثون (١) على علمية بعضهم ونظراته التاريخية الجيدة ؟

وأظن أن سبب إهمالهم هذه الامور عدم تفحصهم بدقة اشعار هؤلاء الخلفاء لكي يستنبطوا منها حياتهم ويدرسوها في ضوء هذا التسجيل الذاتي ، الذي يعد خير ذخيرة للمؤرخ ودارسي المجتمع ، وكأني بهؤلاء المؤرخين يستهينون بالشعر مصدرا للتاريخ .

الأمراء :

منذ أن استبد الغلمان الاتراك زمن المعتصم وأمور الخلفاء في تضاؤل وأمور هؤلاء الغلمان في ارتفاع ، ولقد نالت الخلافة على يدهم الهوان والذل ، فقد قتلوا المتوكل والمعتز والمهتدي والمقتدر وسملوا القاهر والمتقي وعزلوهما ، وسلبوا ارادة الراضي (٢) بعد ان خلقوا منصب امرة الامراء (٣) وواوه لابن رائق وبجكم من بعده ثم توزون وغيرهم .

ولم يكن حظ الخلافة أحسن في عهد البويهيين الغزاة الجدد ، فقد جعلوا من امرة الامراء سلطة ملكية وراثية محصورة في آل بويه . لقد انتهى على ايديهم المستكفي وسلبت ارادة المطيع وخلع ، كما خلع ايضا ابنه الطائع وأهين وتفرد بهاء الدولة دون القادر بالسلطة (٤).

---

(١) ينظر تاريخ الاسلام السياسي ٣ / ٢٩ (حسن ابراهيم حسن ط ٦ مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٦٤)، دراسات في العصور العباسية المتأخرة للدوري ٣٢٣ . ومحاضرات في تاريخ الامم الاسلامية للخضري ط ١٠ مصر (مطبعة الاستقامة ص ٣٦٠) .

(٢) ينظر مروج الذهب ٤ / ١١٠ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٣٠٥ ، وغيره من كتب التاريخ حوادث السنوات : ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٣٢٠ .

(٣) ينظر في الامارة (وخاصة امارة الاستيلاء) وشروطها ، الاحكام السلطانية : ٣٩ وما بعدها .

(٤) ينظر الكامل وغيره من كتب التاريخ حوادث السنوات : ٣٣٤ ، ٣٦٣ ، ٣٨١ .

ولم يكن للخلفاء خلال هذين العهدين من نصيب غير مباركة المنتصر من هؤلاء الأمراء واسباغ الالقاب أو بيعها في سوق الذلة والجبن مما حدا بالخوارزمي أن يقول في هؤلاء الخلفاء (١) :

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكُنى ومن الألقاب أبوابا
ولقّبوا رجلا لو عاش أولُهم ... ما كان يرضى به للحُش بوّابا
قلّ الدارهم في كفّي خليفتنا ... هذا ، فأنفق في الأقوام ألقابا

واذا كان هؤلاء الامراء «يجترئون على مقام الخلافة» فانهم لم يتورعوا عن ارتكاب أبشع الجرائم ضد الناس ، وقد حدث هذا بالفعل فقد عبث الامراء وجنودهم بمقدرات الناس (٢)، في مختلف الظروف السياسية المتقلبة ، فانتهكوا حرماتها (٣) . وسلبوا أموالهم ولم يكن عند الناس من مقابل للحفاظ على حياتهم غير الرشاوي والتذلل والاستعطاف بوساطة الدين الذي لم تعد له تلك السطوة أو الهيمنة على عواطف هؤلاء الجند الاجلاف .

ومع هذا فقد اهتم بعض أمراء الاتراك — قبل العهد البويهي — بالادباء والعلماء ، وكانوا ينطلقون في اهتمامهم البسيط هذا من نزعتهم المتعالية على الناس ، ومن حب سيطرتهم على كل شيء حتى النواحي الانسانية التي يحس بها قسم من الناس فيصوغونها شعرا أو نثرا يؤيد ذلك ما جاء على لسان بجكم حين قال للصولي (٤) : «أنا انسان وان كنت لا أحسن العلوم والآداب ، أحب

---

(١) اليتيمة ١ / ١٥٠ — ١٥٣ .

(٢) اخبار الراضي حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عبث أصحاب بجكم .

(٣) تنظر قصة الخياط والقائد التركي الذي انتهك عرض امرأة في (نشوار المحاضرة ١ / ١٥٠ — ١٥٣) .

وملخص هذه القصة أن قائدا تركيا حاول أن ينتهك عرض امرأة فاراد الخياط وجماعة معه أن يمنعوه فضرب القائد هذا الخياط وشج رأسه ، فقام الخياط وصعد المئذنة وأذن ، فانتبه الخليفة والقواد فجاءوا الى الخياط وأخذوه الى الخليفة فقص عليه هذه الحادثة فكبس الجند دار القائد التركي وأخرجوا المرأة منه ، وأمر الخليفة الخياط أن يؤذن كلما أحس بمظلمة ..

(٤) أخبار الراضي ١٩٥ .

ألاّ يكون في الارض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة الاّ كان في جنبّي ، وتحت اصطناعي وبين يدي لا يفارقني » .

وقد تكون هذه المشاعر المتساطة تعويضا عن نقص نشأ عليه هؤلاء الامراء سببه استرقاق العرب لهم أو لآبائهم فلذلك يحاولون أن يظهروا أنفسهم بمظهر العلماء أو بمظهر الراعي للعلماء والادباء لكي يمنوا عليهم وعلى الناس الذين يحترمون العلم والأدب ويبرهنوا بعد ذلك أنهم قادرون على أن يسبقوا العرب حتى في لغتهم وآدابها وعلومها .

وقد زاد بنو بويه على الاهتمام بالشعر محاولتهم نظمه وقد يكون سبب ولع آل بويه بالشعر قرب ايران – وطنهم الاصلي – من أرض العرب ، وسبق دخول الاسلام مناطقهم ، إضافة الى أنهم حاولوا أن يبرزوا أنفسهم عظماء في الحرب والأدب والعلم .. وقد يكون أهم الاسباب مرونة آل بويه وانفتاحهم على المجتمع الجديد الذي حكموه بعكس الاتراك الذين انغلقوا على انفسهم ولغتهم والتزموا جانبا واحدا من الحياة هو الجانب العسكري المتسلط (١) .

وقد خلف لنا آل بويه نماذج من نظمهم فتمكنا من استخلاص كثير من النواحي الاجتماعية وغيرها وقد جعلنا من هذا النظم منطلقا لتصوير حياة الامراء بمجموعهم ، فهو يعكس صورا من حياتهم واهتماماتهم وتطلعاتهم .

فاذا انغمس هؤلاء الامراء في حياة اللهو والبذخ برز ذلك في شعرهم واضحا جليا (٢) . فقد كانت مجالس الشراب والأنس عادة سائدة في قصور

---

(١) ينظر في ابتعاد الاتراك عن الاندماج بغيرهم ، حضارة الاسلام ص ٢١٥ وما بعدها .

(٢) يصور الاستاذ الدكتور جميل سعيد اقبال الامراء على الترف واللهو مصاحبا للحياة المضطربة ، وليس الامر كذلك لأن اللهو يحصل بحصول الفراغ والفراغ معناه وجود الهدوء لا الاضطراب الذي يأخذ من وقت الامراء الكثير لازالته ومحاربة مسببيه . (ينظر الوصف في شعر العراق ٢٨٣) .

الامراء البويهيين ولذا نرى عز الدولة (بختيار) يقول (١) :

إشرب على قطر السماء القاطر ... في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولةً أبدى المزاج بكأسها ... دراً نثيراً بين نظم جواهر
من كفّ أغيد يستبيك إذا مشى ... بدلال معشوق ونخوة شاطر

ويبدو أن آل بويه مغرمون بشرب الخمر مع سقوط المطر (وقد يكون صوت سقوط القطرات المائية مؤثرا في نفوسهم المشبعة بروح العنف والقساوة ...) .

وكان من الممكن أن نعتبر هذه الظاهرة نزوة طارئة لو أن (بختيار) انفرد بها لكن عضد الدولة جاء ليؤكد هذه الرغبة ويزيدها شيئا من التعالي والشعور بالعظمة في قوله (٢) :

ليس شربُ الراح الاّ في المطر ... وغناء من جوارٍ في السحرْ
غانيات مبرزات للنُّهى ... ناغمات في تضاعيف الوترْ
مبرزات الكأس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاقَ البشر
عَضُدَ الدولة وابنَ (٣) ركنها ... ملكَ الاملاك غلابَ القدر

واذا كان عضد الدولة في هذه الأبيات يقدم سورة للهو المحتشم — نوعاً ما — فان عز الدولة (بختيار) يرسم لنا صورة مبتذلة للامير اللاهي الذي ينسى منزلته ومسؤولياته وينغمس في موبقاته الكثيرة ... يقول بختيار (٤) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢١٩ ، الدمية ١ / ٢٦٤ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٢١٨ ، الوفيات ٣ / ٢١٨ ، الكامل ٩ / ٢٠ ، البداية والنهاية ١١ / ٣٠٠ ، يتساءل الدكتور السامر فيما إذا كانت لبيئتهم الاصلية الممطرة وحنينهم إليها علاقة في هذا الشعر .

(٣) لا يستقيم الوزن الا باشباع حركة النون .

(٤) اليتيمة ٢ / ٢١٩ .

فيا حبذا روضتا نرجس تحيّي الندامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا عقارا بكأس كأجفانها
ومسنا من السكر ما بيننا نجرّر ريطاً كقضبانها

والصورة هنا جلية : ملك بأبهته وعظمته وقوته الجسمية (١) الخارقة تذهب الراح بعقله فيميس سكرا وابتذالا .

ويختلط الغزل الغلماني بالخمرة في شعر الامراء فيظهر لنا مقدار ولههم بالغلمان وحبهم لمعاشرتهم وقد مر قول بختيار يستحسن الخمرة : «من كف أغيد يستبيك ... البيت» . وليست قصة بختيار هذا وانهياره أمام أسر عضد الدولة لغلامه بغريبة على هؤلاء الأمراء (٢) .

وتاج الدولة بن عضد الدولة لا يختلف عن ابن عم أبيه بختيار في حبه للغلمان السقاة ــ بخاصة ــ وهو يجاهر بما يفعله معهم مجاهرة لا تدع مجالا للشك في شذوذه وغلمانيته وقد لا يتصورها تاج الدولة لانه حين يقول (٣) :

سقاني سحرا خمره وقد لاحت ليَ النثره
غزال فاتن الطرف مليح الوجه والطره
انا ملك وقد ملكت روحي صاحب الوفره (٤)
وقد زَرْفَنَ (٥) صُدغيه على أبهى من الزُّهره
اذا حاول ان يجهل أو تبدو له نُفره
أعان الشيخ ابليس عليه فأتى مُكره

---

(١) المعروف عن بختيار قوته الجسدية الخارقة التي تؤهله لأن يصرع اكبر الثيران .

(٢) وملخص القصة أن عضد الدولة أسر لبختيار عام ٣٦٦ غلاما كان يحبه بجنون ، فانهار بختيار وكتب الى عضد الدولة يتنازل له عن كل ما يملك في سبيل أن يسترد غلامه فسقطت هيبته في أعين جنده وأعين الناس .

(٣) اليتيمة ٢ / ٢٢٢ ، الدمية / ١ / ٢٦٦ .

(٤) الوفرة : مجتمع الشعر في مقدمة الرأس ، تلاحظ عملية التفنن في تجميع الشعر .

(٥) زرفن : أي تفنن في عقص شعره .

ينطلق من اعتيادية هذا الشذوذ وصيرورته عملية لا تُخجِل حين يُجاهَر بها ، فآل بويه مولعون بها ولهاً بيّناً وهم بذلك يجارون تيار العصر الذي جرفهم في سيره مثلما جرف غيرهم من الحكام أو غير الحكام .

وفي قول تاج الدولة نلاحظ عند الغلمان عملية التفنن في الشعر :

(وقد زَرْفَنَ صُدغيه ... البيت)

ونلاحظ هذه العملية ايضاً في قول ابي العباس بن فيروز بن ركن الدولة وهو يتغزل (١) :

أدر الكأس علينـــا أيّها الساقي لنطـــربْ
من شَمول مثل شمس في فم النِدمان تغرُبْ
فحكت حين تجلّت قمرا يلثم كوكـــب
ورد خديه جَنيٌّ لكن الناطورَ عقرب (٢)
فاذا مـــا لدغت فـــالـــريق دريـــاق مجرب

واذا تركنا ارتباك هذه الأبيات وضحالتها الفنية واهتممنا بنواحيها الاجتماعية تبين لنا ما في تفنن هؤلاء الغلمان بشعورهم من اغراء لسادتهم السكارى ، كما تبين لنا مقدار مهنية هؤلاء الغلمان ودعارتهم .

وفي الوصف الذي قاله امراء آل بويه نجد الالفاظ (الثمينة) – ان جاز القول – منتشرة في ثنايا اشعارهم وهي تبين عن نفسيات قائليها وأحوالهم الاقتصادية ونظراتهم المترفة حتى الى الامور الصغيرة .

فالامراء المخنوقون بالترف والنعيم وأنواع الطيب والحلى والمتع الجسدية وغيرها لا يمكن أن يصفوا أكلة مثل (البَهَطّه) (٣) الا بمفهومهم الخاص ونظراتهم الاميرية .

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٢٣ .

(٢) تلاحظ عملية عقص الشعر على شكل ذيل عقرب .

(٣) البهطه : لحم سمين وتوابل وأرز وزعفران وسكر الطبيخ : ٣١ ، ويسميها صاحب الطبيخ « المهلبية » أيضا ، وقد قال عنها محقق اليتيمة محي الدين عبد الحميد خطأ « أنها الارز باللبن » ويبدو أنه نقلها من اليتيمة ط الصاوي ١٩٣٤ .

واذا أراد عضد الدولة أن يصفها وعجز – كما يقول الثعالبي – عن وصفها بعض الشعراء قال (١) :

بَهَطَّه تعجز عن وصفها   يا مدّعي الأوصاف بالزورِ
كأنها في الجام مجلــــوة   لآلىء في مــاء كــافورِ

فالجام ، واللآليء ، وماء الكافور لا يمكن أن تتبادر الى ذهن انسان أو شاعر بعيد عن معايشتها والتنعم بها .

ومثل ذلك نلاحظه في وصف عضد الدولة الخيري (٢) الذي يقول فيه(٣) :

يا طيب رائحة من نفحة الخيري   إذا تمزّق جلباب الدياجــيرِ
كأنما رُشّ بالماورد أو عبقت   فيه دواخنُ ندٍّ عند تبخير
كأن أوراقه في القد أجنحة   صفرٌ، وحمر،وبيض من دنانير

ان هذه الكلمات مستاغة في مفهوم رجل يملك دولة ويعيش في جنان خلقتها سواعد المعدمين ، وهو بعد ذلك عضد دولة وتاج ملة لكنها لن تكون مستساغة لو لاكها شعراء مثل ابن لنكك أو الخبزأرزي أو الأحنف العكبري ، لأنها بعيدة عن حياتهم ، ولو انهم شاهدوا جوا مترفا عند شخص منعم وحاولوا أن يدخلوا مثل هذه الألفاظ في أشعارهم نبت بها السنتهم وكبا جواد شعرهم فجاء هذا الشعر كاذبا متكلّفاً .

وإذا عدنا الى تتبع روح الثعالبي التي لحظناها عند عضد الدولة (من فاق البشر ، وغلاب القدر) نجدها أيضاً عنده حينما ارسل اليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر عن مساعدته لبختيار ويطلب منه الأمان فأنشد يقول (٤) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ١٧ ويبدو لي أن عضد الدولة لم يرتجل هذين البيتين كما يصور لنا ذلك صاحب اليتيمة ، فقد يكون عمل على احضار البهطه ليمتحن الشاعر الذي ذكره الثعالبي وعرف مسبقا أنه سيعجز لذلك وضع البيتين سلفا وحين عجز الشاعر قالها عضد الدولة ليظهر للناس أنه شاعر قادر على الارتجال ولا أظنه كذلك .

(٢) الخيري نوع من النبات .

(٣) اليتيمة ٢ / ٢١٨ .

(٤) الكامل ٩ / ٢٠ .

أفاقَ حين وحاشت ضيق خناقه يبغي الأمان وكان يبغي صارما

فلأركبن عزيمةً عضديـــة تاجية تدع الأنوف رواغما

أو نجدها في قوله (١) :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع عدوا ولم أهمل على جيشه خلقا

وأخليت دور الملك من بعد عزهم فشردتهم غرباً وبــددتهم شرقــا

وقد يكون في واقع حياة عضد الدولة ما يسند قوله هذا فلقد كان شديدا في حكمه محنكاً في سياسته .

ومثلما كان آل بويه يتوارثون الامارة أو الملك كانوا يتوارثون مظاهر التعالي والعجرفة ، فقد استمر تعالي عضد الدولة في عقبه وبرز عند ابنه تاج الدولة رغم ما لحقه من نكبات على يد أخيه ابي الفوارس .

ونجد عند تاج الدولة ميزة الفخر بآبائه وذويه وهو ما لم نجده عند عضد الدولة التي كانت « الأنا » هي الغالبة على فخره .

فاذا أراد تاج الدولة أن يقول فخرا أشرك معه أباه وذويه وأنشد (٢) :

أنا ابن تاج الملة المنصور تـــاج الدولة المرجو ذو المناقب

اسماؤنا في وجه كل درهم وفوق كل منبر لخاطــب

واذا كان الفخر هم تاج الدولة في هذين البيتين فانه قد أرخ — من حيث لا يدري — لظاهرتين سياسيتين خطيرتين هما ضرب دراهم عليها صور آل بويه ، وذكرهم على المنابر أثناء الخطب ، ولم يكن شيء منهما للامراء قبل القرن الرابع أو في أوله (٣) .

---

(١) تاريخ الاسلام العباسي ٣ / ٤٨ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٢٢١ .

(٣) ذكر احد الخطباء مع الخليفة الراضي اسم ابن ياقوت فغضب الراضي وطرد الخطيب وفي زمن الراضي ايضا ضربت دراهم عليها من جهة : انما العز فاعلم ، للامير المعظم ، سيد الناس بجكم ، وهي مكتوبة حول صورة بجكم وهو شاك في سلاحه وفي الجهة الاخرى الصورة بعينها وهو جالس كالمفكر المطرق ، المروج ٤ / ٣٣٧ .

ومن مظاهر التفاخر والثقة العالية بالنفس عند تاج الدولة قوله (١) :

أنا التـاج المرصع في جبين الممالك سالك سبـل الصـلاح
كتائبنا يلوح النصر فيهـا برايات تطرّق بالنجـاح
تكاد ممالك الآفاق شرقـا تسير اليّ من كل النواحي

ولم تكن كل مظاهر التفاخر هذه دليل قوة عند تاج الدولة بقدر ما هي دليل على وجود نزعة فردية عند الحاكم البويهي بصورة عامة .

ان حياة اللهو التي كان آل بويه يحيونها مقتصرة على مجالس الشرب والتمتع بالغلمان ، فقد كانوا يخلقون لهم أجواء أخرى تزيل من حياتهم الرتابة والملل وتجدد حيويتهم ، وقد كان الطّرد من مقومات حياة تاج الدولة البويهي سجل لنا ذلك في طردية جاء فيها (٢) :

صرنا مع الصباح بالفهـود مردفة فوق متون القودِ
قد وَطئت توطئـة المهود بالقُطُف (٣) والجلال واللبود
فهي كقوم فوقهـا قعودِ قد ألبست وشيا على الجلود

* * *

وقطّعت حبـائل المسود تفوت لحظ الناظر الحديد
ركضا الى اقتناص كل رود فكم بها من هالك شهيـد

* * *

جدنا بها والجود بالموجـود فكثرت ولائم الجنـود
وشبت النيران بالوقود

وهنا نعرف ـ اضافة الى معرفتنا بولع تاج الدولة بالطرد وما يحصل فيه من متع ونزهة ، أن الفهود كانت موجودة في منطقة الأهواز وان الحيوانات

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٢١ .

(٢) نفسه ٢ / ٢٢١ .

(٣) القطف جمع قطيفة (والقطيفة دثار مخمل) وقيل : كساء له خمل اللسان ٨ / ٢٨٦.

التي تستعمل لحملها كانت تجلل بالقطيفة واللبود ويشدّ عليها الصيد بحبال من الليف (المسود).

ولم تكن حياة آل بويه المنعمة خالية من المنغصات والمشاحنات والاضطرابات، فقد قتل بختيار على يد ابن عمه عضد الدولة، وحصل صراع حاد خطير بين ابناء عضد الدولة بعد وفاته ادى الى سجن بعض وقتل بعض آخر (١). وقد ظهر التذمر من اطماع ابناء عضد الدولة وابناء عمومته بعضهم على بعض في شعر تاج الدولة الذي يقول فيه (٢):

أفكُرُ في بني أبي وفعلِ بعض اخوتي
تقنع بالاهواز لي وواسطٍ والبصرة
ان لم تزر بغداد بي عمّا قليل كَبّتي (٣)
وعسكر عرمرم يملك كل بلدة
حشوا الجبال والفلا مواكب من غلمتي

ولم تزر بغداد حملته الحربية وعسكره العرمرم فقد نكبه أخوه أبو الفوارس وحبسه وجعله يخنع لليأس والتواكل، فانهارت كلمات شموخه وجبروته وقال حينئذ (٤):

حتى متى نكبات الدهر تقصدني لا استريح من الاحزان والفِكَرِ
اذا أقول مضى ما كنت أحذره من الزمان رماني الدهر بالغِيَرِ
فحسبي الله في كل الامور، فقد بُدِّلْتُ بعد صفاء العيش بالكدر

وهكذا نرى أن أطماع المستغلين لا تتغير في كل العصور والاماكن فالمستغل لا يعرف أخاه — بل هو يقتله — ان وقف في طريق أطماعه وهذا ما

---

(١) ينظر على سبيل المثال العبر ٣ / ١.
(٢) اليتيمة ٢ / ٢٢٠.
(٣) الكبة الحملة في الحرب.
(٤) اليتيمة ٢ / ٢٢٢.

رأيناه عند بعض الخلفاء والامراء وسنراه عند بعض الوزراء وغيرهم من عتاة ذلك العصر الموبوء .

القيمة الفنية :

شعر آل بويه قليل ، وهو على قلته لا يعدو أن يكون كلمات مرصوفة في قوالب شعرية ميتة ، ولن تغرنا كلمات الدجل التي وصف الصاحب بن عباد بها شعر عضد الدولة حين قال (١) : « لا غرو اذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين وقعت على مثله ولا أذن سمعت بشبهه » .

ان هذا الاطراء ينافي الذوق النقدي السليم وقد أورده الثعالبي على لسان أحد خدم آل بويه الذين يهمهم أن يحافظوا على مراكزهم في الدولة ولو على حساب الحقيقة . اما الثعالبي نفسه ، فاذا ذكر عضد الدولة وشعره قال(٢) : «كان على ما مكن له من الارض ... يتفرغ، للادب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الادباء على منادمة الامراء ويقول شعرا كثيراً » .

ولنلاحظ « ويقول شعراً كثيراً » فالثعالبي لم يجرؤ أن يفخّم شعر عضد الدولة أو يعطيه صفة شعرية معينة وقد نشمّ من قوله السالف وجهة نظر معناها : ان الشعر الذي يأتي به عضد الدولة السياسي ، الاداري هو فضل منه لأنه لم يكن يمتلك الوقت ولم يكن رجل شعر انما كان رجلا محباً له مشجعاً لأهله .

وحين يصل الثعالبي الى تاج الدولة بن عضد الدولة يصفه بأنه أشعر آل بويه (٣) لكنه لا يعطيه صفة الشاعر التامة ، فشعره من شعر آل بويه الساسة ، يكتبونه حسب أوقات فراغهم ويمنون به على الناس يوهمونهم بشاعريتهم أو يجبرونهم — بما يمتلكون من سطوة ومال — على أن يقولوا بهذه الشاعرية الموهومة ويصفقوا لأصحابها دجلا وخوفا .

---

(١) نفسه ٢ / ٢١٧ .

(٢) نفسه ٢ / ٢١٦ .

(٣) اليتيمة ٢ / ٢٢٠ .

خاتمة :

قد يكون عسيراً على المؤرخين القدامى أن يثبتوا ما كان عليه الأمراء وبخاصة آل بويه الاقوياء من شذوذ وانحراف ، وما جبلت عليه نفوسهم من طبائع غريبة .

وقد عوضنا شعر آل بويه أنفسهم عما أهمله المؤرخون — عن قصد — فأظهر لنا آل بويه على حقيقتهم ، متعجرفين ، قساة ، قتلة ، أنانيين ، شاذين في خلقهم حكموا العراق اغتصابا فساموا أهله الذلة ، وأذاقوهم مرارة الجوع ، وبثوا بينهم الاحقاد والفتن ، والبدع ، ليلهوهم عن مظالمهم ، فيصفوا لهم جو النهب والانغمار في الملذات .

الفصل الثالث

الوزراء

كان الوزير (١) في الدولة العباسية المدبر الأول للأمور السياسية والادارية لا تعلو على كلمته إلا كلمة الخليفة وقد ظلت سلطته التدبيرية (٢) هذه بالرغم مما طرأ على الوزارة من اضطراب رافق التدهور العام لسياسة الدولة .

لقد صارت الوزارة أيام المقتدر لعبة بيد نساء دار الخلافة وخدمها ، تحجز لمن ينفذ متطلبات هؤلاء المتسلطين الشرهين ، وصار الوزير لكثرة ما عزل وعيّن من الوزراء موضع تندر الناس والشعراء .

فحين يعزل ابن الفرات ويعيّن محله حامد بن العباس يقول ابن بسام (٣) :

يا ابن الفرات تعزّ　　　قد صار أمرُك آيه
لما عُزِلتَ حصلنا　　　على وزير بدايه

واذا لم يستطع حامد هذا تدبير أمور الدولة وألهاه عنها جشعه وشهراته دبرها عنه علي بن عيسى مع احتفاظه بصفة الوزير وفي ذلك قال الشاعر (٤) :

---

(١) تنظر شروط الوزارة في الاحكام السلطانية ٢٢ وما بعدها .

(٢) ينظر بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ١٠ .

(٣) تكملة الطبري ٢٠ .

(٤) التمثيل والمحاضرة ١٤٥ .

أعجب من كل مـــا تراه   أن وزيريـــن في بـــلاد
هذا بـــلا وزير   وذا وزير بـــلا سواد

ومع كل هذا الاضطراب ظل الوزير في عهد الاتراك وزيرا للخليفة (وان « لم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور (١) في عهد ابن رائق الذي بدأ سنة ٣٢٤ هـ » ومن تولي امرة الامراء بعده (٢) .

فلم يكن الوزير يقطع بشيء دون مشورة الخليفة ورأيه .

أما في العهد البويهي فقد بطلت وزارة الخليفة ولم يعد له وزير يعتمده في تدبير أمور دولته « إنما يكون له كاتب على إقطاعه » (٣) .

وحين احتل معز الدولة البويهي بغداد عام ٣٣٤ صارت الوزارة له ، يستوزر لنفسه من يريد وأول من كتب لمعز الدولة وقام مقام الوزراء أبو الحسن علي بن محمد بن مقلة ، وأول من وزر لمعز الدولة أبو جعفر الصيمري الذي خلفه بعد ذلك الوزير المهلبي .

حين أصبح الوزير تابعاً للملك البويهي نشأت بينهما علاقة جديدة فقد معها الوزير كيانه الاداري الواسع الذي كان عليه قبل البويهيين وامرة الأمراء ، وأصبحت الأوامر تصدر إليه من هذا الحاكم الجديد فيطيعها ذليلاً وقد يلقى اهانات مرة (٤) .

ظهرت هذه العلاقة في الشعر الذي كان يرفعه الوزراء أو من جرى مجراهم الى مقام الملك البويهي فحين يقدم عبد العزيز بن يوسف تهنئة الى عضد الدولة يقول له بخنوع (٥) :

---

(١) الكامل ٨ / ٣٢٣ .
(٢) البداية والنهاية ١١ / ١٢ .
(٣) نفسه ٨ / ٤٥٢ .
(٤) الكامل ٨ / ٤٥٢ .
(٥) تنظر إهانة الوزير المهلبي في تشوار المحاضرة ١ / ٧١ ، مجلة سومر جـ ٢ س ١٩٥٤ ص ١٩٧ .

يفدى مقامك فيه الخلق قاطبة   ونحـن نفديك بالأرواح والمقل

وحين ينظر عبد العزيز بن يوسف عضد الدولة يراه بمنظار يستصغر فيه نفسه والآخرين فيبدو «كأن الناس زور ما خلاه» (١) أو كأن الدنيا لم تخلق إلاّ له (٢) .

ألا يا أمير المشرقين ومن بـه   تفاخرت الدنيا وكان له الفخرُ
ولم تُخلق الدنيا لغيرك فانتظـر   فهذا هو الفأل المحقق لا الزجرُ

ومع أن هذه العلاقة لا تشرف الوزير كثيراً الا أن منزلته عند الناس لم تكن بالقليلة ، وبخاصة اذا كان شاعراً أو أديباً ، لأن اختيار أهل الأدب والشعر للوزارة أو الكتابة منح الشاعر أو الأديب سمة جديدة فيها شيء من الاحترام ، كما منح الوزارة صفة التفتح الذهني وسعة الأفق .

لقد وجدنا في القرن الرابع وزراء كثيرين ينظمون الشعر ، فابن الفرات له شعر وعلي بن عيسى له أبيات شعر وأبو علي بن مقلة شاعر .. وفي العهد البويهي أصبح تقلد الشعراء للوزارة شيئاً مألوفاً ، فالمهلبي شاعر قبل ان يكون وزيراً وعبد العزيز بن يوسف ، وعبد الرحمن بن الفضل الشيرازي ، وعلي بن القاسم القاشاني (٤) شعراء كان يحسب لهم المؤرخون حساباً شعرياً مثلما يسجلون مسائلهم الادارية .

ولقد كان شعر الوزراء بيئياً ، فهم يقولون الشعر في المناسبات الخاصة أو تزجية لفراغ قاتل ، أو أرضاء لأمير ، أو تنفيساً عن هم أو ابرازاً لنزوة طارئة .. ونظمهم يبين صوراً من حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، واذا

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٢٣ .

(٢) نفسه ٣٢٤ .

(٣) نفسه ٣٢٥ .

(٤) ومثل هؤلاء كان الصاحب بن عباد وابن العميد في فارس . وهذه سمة العصر فقد كان أغلب الوزراء يختارون من الكتاب والكتابة كانت طريقاً الى الوزارة ولما كان الكتاب هم مثقفو العصر فقد كان عليهم ان يلموا باطراف الصناعات الكلامية ومنها الشعر (ملاحظة د. السامر) .

تسلسلنا تاريخياً في عرض شعر الوزراء وجدنا شطراً كبيراً من حياة كل وزير ملتصقاً بمفردات الفاظه .

فابن الفرات علي بن محمد (ق ٣١٢) حين يضيق به العمل في المصادرات والدسائس والتدابير الادارية يجلس للشرب فتغنيه (بِدْعَة) ثم ينتشي فينظم (١) :

إذا بِدْعَةٌ جوّدت عودها — تذلّل في ضربها كلّ صَعْبْ
تُغنّي فتجني ثمار القلوب — وتُهدي سرورا الى كل قلبْ

ولم يكن غريباً على ابن الفرات أن يمتدح مغنية بعد أن حصل على الوزارة وهو مقيّد بمنة القهرمانات والجواري والخدم .

ووزير يصل الى الوزارة سالكاً مثل هذا الطريق يحاول ألاّ يضيّع أوقاته سدى ، فهو ينعم بلذة اللهو مثلما ينعم بخيرات الوزارة ومواردها ، فاذا رأى أنه كدّ نفسه وأرهقها في العمل تبسّط في الأنس وعقد مجالس الشراب وأنشد (٢) :

خليليَ قد أمسيتُ حيرانَ موجعا — وقد بان شرخٌ للشباب فودّعا
ولا بد أن أعطي اللّذاذة حقّها — وان شاب رأسي في الهوى وتصلعا
ذا كنت للأعمال غيرَ مضيع — فما حق نفسي أن أكون مُضَيّعا

ويثبت التاريخ أنه كان حريصاً على الوزارة محاولاً اللحاق بدستها بأية وسيلة من الوسائل ، ويثبت هو أنه كان لاهياً لا يضيع من عمره دقائق ولو معدودة دون أن يجلس للهو يواصل صاحبات الهوى والعشق ويقول (٣) :

معذّبَتي هل ليَ إلى الوصل حيلةٌ — وهل ليَ إلى استعطاف قلبك من وجه
فلا خير في الدنيا وأنت بخيلة — ولا خير في وصل يكون على كُرْه

---

(١) الوزراء ٢١٥ .
(٢) نفسه ٨٦ .
(٣) الوزراء ١٦٠ .

ان روح اللهو والتصابي التي نراها عند ابن الفرات نفتقدها عند الوزير علي بن عيسى الجراح (ت ٣٣٤) فقد ارتفعت نفسه عن أساليب الوزراء الآخرين في الدس الرخيص والمؤامرات والسرقات والمظالم لأنه كان يرى «أن ظلم الأتباع مضاف الى المتبوع (١)» لا محالة ولهذا استعفى أو رفض الوزارة أكثر من مرة (٢).

وهو إذا قبل الوزارة أو أجبر عليها ورأى الناس يلتئمون حوله متملّقين مقدّمين ضروب الولاء والطاعة اشمأزت نفسه وقال (٣):

ما الناس الاّ مع الدنيا وصاحبها ... فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

وإذا أعفي من الوزارة بدسيسة من تجارها لم يفت ذلك في عضده وجابه شماتة الأعداء والنكبات بقلب مؤمن صابر ولسان يقول (٤):

ومن يَكُ عنّي سائلا لشماتةٍ ... لما نابني أو شامتا غير سائـل
فقد أبرزتْ منّي الخطوبُ ابن حرةٍ ... صبوراً على أهوال تلك الزلازل
اذا سُرّ لم يَبْطَر وليس لنكبـة ... اذا نزلت بالخاشع المتضائل

ومع كل هذه الكبرياء والمشاعر الصلبة انهار علي بن عيسى حينما نكبه ابن الفرات فقبّل يده ورأس ابنه المحسّن (٥). لكنه مع ذلك يظل الوزير الذكي المترفع عن الدنايا بالنسبة لذلك العصر في الاقل.

وإذا انتقلنا الى الوزير ابن مقلة محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٢٨) وجدنا كبرياءً من نوع آخر. كبرياء ممزوجة بروح الجرأة والمغامرة والتحدي والتصميم، فحين أراده بعض أصحابه أن يلقى بعد نكبته الفضلَ ابن الفرات

---

(١) الاعجاز والايجاز ١٠٦، وينظر في حسن اخلاقه بالنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨٨.

(٢) ينظر الوزراء ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٤٠.

(٣) المنتظم ٦ / ٢٠٥.

(٤) نفسه ٦ / ٣٥٢، معجم الادباء ١٤ / ٧٠، النجوم الزاهرة ٣ / ٨٩.

(٥) الوزراء ٣٣٢، ٣٣٣.

وزير الراضي قال (١) :

وقائلة قد أضعت الصواب بتركك هذا الوزير الجديدا
فقلت لها لا عداك السرور ولا كان قولك الآ سديدا
أمثليْ تطاوعــه نفســه على أن يُرى خاضعاً مستزيدا

ولا نريد أن نثبت ان كان صادقاً في تعففه أو مدعياً ، فعصره المملوء بالدجل واهدار ماء الوجه وبذل القيم العرفية من أجل المنصب يجد له العذر ان كان مدعياً، ويمنحه البطرلة ان كان صادقاً، والصدق يمكن له أن يرجح..

وحين يحاول جهده أن يحافظ على منزلة الخلافة من تسلط ابن رائق يتآمر عليه الراضي بجبنه السياسي ويخونه حيث أراد له ابن مقلة المنعة ، فتقطع يده ويحبس ويصور لنا هذه المؤامرة بقوله (٢) :

مــا سئمتُ الحياة لكن توثقــت بأيْمانِهم فبــانتْ يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حــتى حرموني دنياهُم بعد ديني
فلقد حطت ما استطعتُ بجَهدي حفظَ ارواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانتْ يميني فبيني

وتشير هذه القطعة بشكل ملحوظ الى خيانة الراضي وفساد تدبيره كما تبيّن لنا جرأة ابن مقلة أمام قسوة ابن رائق وتجبره هو وجنده .

وقد نمّت هذه الشجاعة والجرأة المطامح الكامنة في نفس ابن مقلة فكان يتوسل بمختلف السبل من أجل أن ينال بعضاً من مطامحه ، ولأن أقصى أمنياته نيل الوزارة والبقاء فيها ، اتّبع كثيراً من الأساليب حتى ارتقى من كاتب

---

(١) الفخري ٢٨٢ ، الوفيات ٤ / ٢٠٠ .

(٢) المنتظم ٦ / ٣١١ ، الفخري ٢٧٢ مع اختلاف في الابيات ، وكان سبب قطع يد ابن مقلة هو تحريضه الراضي على ابن رائق وضمانه الوزارة . وبعد أن يوافق الراضي يجبن ويطلع ابن رائق على مراسلات ابن مقلة فتقطع يد ابن مقلة جزاء وفائه للراضي .

صغير إلى وزير ذي شأن وهو يصور لنا طماحه هذا بقوله (١) :

وإذا رأيت فتىً بأعلى رتبة في شامخ من عزّه المترفع

قالت لي النفس العروفُ بفضلها ما كان أولاني بهذا الموضع

لقد كان واثقاً من نفسه متطلعا إلى أعلى بمزج هذه الثقة وهذا التطلع بمغامرة دفعت به الى الوزارة والموت .

ومع ما نجده عند ابن مقلة من صلابة ومغامرة نجد عنده أيضاً الصدق والوفاء ، فقد وعد بأن يقوم باصلاحات ان تولى الوزارة ففعل وأطلق المحبوسين حين تولاها بداية خلافة الراضي (٢) ، وكان يحاول ان يبتعد عن اسلوب المصادرات وهتك أعراض الناس مردداً « أنا في وزارتي أقدم على العظائم كلها الاّ على اثنتين : إزالة النعم وهتك الحُرَم (٣) .

وإذا أراد أن يدلل على وفائه وحسن صداقته وإخلاصه قال (٤) .

لست ذا ذلة إذا عضّني الدهرُ ولا شامخا إذا واتاني

أنا نارٌ في مرتقى نَفَس الحاسدِ ماءٌ جارٍ مع الاخوانِ

ولا تغير صلابة ابن مقلة ومطامحه من صفته الانسانية ومشاعرة الابوية فحين يمرض ابنه يكتب له (٥) :

لقّاك ربك صحة وسلامةً ووقاك ربي طارقَ الأدواء

---

(١) ذكرها الثعالبي اليتيمة(٣ / ١١٩) على أنها لأبي الحسن بن مقلة ونقلها عنه ابن خلكان على أنها لأبي علي محمد بن مقلة ، والعجيب أن محقق الكتابين محي الدين عبد الحميد لايعلق على هذا الوهم بشيء انما يرجعنا في ترجمة ابي الحسن بن مقلة الى ابن خلكان في ترجمته لأبي علي بن مقلة ، ولست ادري كيف فات الامر على المحقق فأبو الحسن هذا هوابن أبي علي محمد ونجد له ذكرا في معجم الادباء ٩ / ٢٨ - ٣٤ ضمن ترجمة عمه ابي عبد الله الحسن بن مقلة ويقول عنه ياقوت إنه مات بالفالج والسكتة سنة ٣٤٦ ومولده « ٣٠٥ هـ » ، ص ٣٠ ولم يذكر له شعرا ..

(٢) ينظر الكامل وكتب التاريخ الاخرى حوادث سنة ٣٢٢ .

(٣) مطالع البدور ٢ / ١١٤.

(٤) اليتيمة ٢ / ١١٨ منسوبة الى أبي الحسن ، الفخري ٢٧٢ ، الوفيات ٤ / ٢٠١.

(٥) الفخري ٢٧١ .

ذُكِرت شكاتاك ليْ وكأسي في يدي فمزجتُها دمعي مكان الماء

ومثلما اظهر لنا ابن مقلة نفسه شجاعاً وفياً بيّن لنا أيضاً أنه « حدّيّ » في علاقاته ، صريح في تعامله ، فقد كان يقول « إذا أحببتُ تهالكت واذا أبغضت أهلكت ، وإذا رَضيت آثرت وإذا أُغضبت أثّرت (١) » وكان يقول أمام الشعراء والمغنين « يعجبني من يقول الشعر تأدباً لا تكسباً ، ويتعاطى الغناء تطرباً لا تطلباً (٢) » . وصراحته هذه هي التي جعلته يقول لابي عبد الله يحيى الكاتب (٣) ، وقيل كاتب (٤) ابن الفرات عاتباً عليه انقطاعه لائماً اياه على نسيانه (٥) :

تُرى حُرِّمت كتبُ الأخلاّء بيننا ابنْ لِيْ أم القرطاسُ أصبحَ غاليا؟
فما كان لو ساءلتنا كيف حالُنا وقد داهمتنا نكبة هي ما هِيا ؟
صديقك من راعاك في كل شدة وكلٌّ تراه في الرخاء مُراعيا
فهبكَ عدوى لا صديقي فربما تكاد الاعادي يرحمون الأعاديا

اننا نعجب لصراحة ابن مقلة في هذه الأبيات الصادقة ، فهي ترسم له شخصية رجل متفائل متطلع ذكي ، اذا نكبته الايام لم يلن لقساوتها وان شذ زمنه لم يعجب لشذوذه لأنه أكبر منه وأذكى ، يستطيع أن يسايره من أجل ن يحفظ لنفسه طموحها وتطلعاتها ولهذا يقول (٦) :

جرّبني الدهر على صرفه فلم أحر عند التصاريف

---

(١) الاعجاز والايجاز ١٠٩ ، مطالع البدور ٢ / ١١٣ .

(٢) الاعجاز ١٠٦ ، الوفيات ٢ / ٢٠٢ .

(٣) الفخري ٢٧١ .

(٤) الفرج بعد الشدة ١ / ٧٢ واحمد بن اسماعيل زنجي ، وفي النجوم الزاهرة ٣ / ٣٢٨ محمد بن اسماعيل زنجي .

(٥) الفخري ٢٧١ ، الفرج ١ / ٧٢ ، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨ وقد تختلف هذه المصادر في بعض أجزاء القطعة و لكن هذا الاختلاف لا يخل بالمعنى و لهذا لم نشر اليه هنا و لن نشير الى امثاله من الاختلافات الا اذا أخلت بجزء كبير من المعنى .

(٦) الفخري ٢٧١ .

أَلِفتُ يوميه ويا ربّما يؤلف شيءٌ غيرُ مألوف

انه يدلنا على أن عصره عصر لا يلائم المنطق الصائب للحياة ومع ذلك فقد صبر على حادثاته ومصائبه لأنه يدرك أن « الصبر من فعل الألباء (١) » وان « كل الحادثات اذا تناهت فموصول بها الفرج القريب » (٢) . ومع كل هذا فقد غدر الزمن بمطامح ابن مقلة وشجاعته وصبره فكان ضحية من ضحاياه الكثيرة ولكنه ضحية ثمينة على أية حال .

وليس كلامنا على ابن مقلة تنزيها أو تبرئة له من الانغمار باللهو والترف على حساب مجاعة الآخرين . فقد كان يمتلك بستانا فيه كل أنواع الطيور والحيوانات وقد منح من بشّره بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بري مائة دينار (٣) .

وكان ابن مقلة مثل بقية الوزراء يجلس للشراب والغناء في مجالس عامرة بكل أسباب اللهو ، فنراه يقول مثلاً (٤) :

لا يكن الكأس يوم الغيث في كفك لبث
أو ما تعلم أن الغيثَ ساق مستحث

واذ ينتقل من الشراب الى الحب يبدو لنا انساناً رقيقاً ذليلاً لحبيبه يقول فيه (٥) :

أدلَّ فيا حبّذا من مُدِلٍّ ومن ظالم لدمي مستحلِ
اذا ما تعزّزَ قابلتُه بذُلٍّ وذلك جُهد المُقِلِ

أو يقول له (٤) :

---

(١) المنتظم ٦ / ٣١١ .

(٢) الفرج ٢ / ٤٥٢ .

(٣) المنتظم ٦ / ٣١٠ .

(٤) من غاب عنه المطرب ٢٤٤ .

(٥) اليتيمة ٣ / ١١٩ لقد تجرأنا ونسبنا ما ذكره الثعالبي من شعر ابي الحسن ابن مقلة الى أبيه أبي علي بن مقلة ذلك لأننا لم نجد من يذكر لأبي الحسن شعرا .

أنت يا ذا الخال في الوجنةِ مما بيَ خـــالي

* * *

أنا في النـــاسِ امـــاميٌّ وفي حبِّك غـــالي

وابن مقلة في غزله ومجونه يجاري عصره الذي امتلأ بمثل هذه الأفعال وصار من يستنكرها شاذاً وخاصة ان كان في موضع ابن مقلة من الطبقة الحاكمة المستغِلة .

وإذا انتقلنا إلى الوجوه الوزارية في العصر البويهي استوقفنا قبل كل شيء « شعر المهلبي الوزير (١) » . والمهلبي هو أبو محمد الحسن بن هارون الذي يقول فيه السري الرفاء (٢) :

أحوالُ مجدك في العلوِّ سَواءُ ... يوم أغرُّ وشيمة غـــرّاءُ

أصبحت أعلى الناس قمةَ سؤدد ... والناسُ بعدَك كلُّهم أُلفـــاءُ

وزر لمعزّ الدولة أحمد بن بويه سنة ٣٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٥١ أو (٣٥٢) « وكان قبل اتصاله بالسلطان سائحاً في البلاد على طريق الفَقْر والتصوف (٣) » وكانت حالته ضعيفة فضجر منها مرة وقال (٤) :

ألا موتٌ يباع فأشتريــه ... فهذا العيش ما لا خَيْرَ فيهِ

ألا موتٌ لذيذُ الطّعم يأتي ... يُخلّصُني من العيشِ الكَريهِ

إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ ... وَدِدْتُ لَو أنني مما يليــه

ألا رحِمَ المهيمنُ نفسَ حُرٍّ ... تصدَّقَ بالوفاة على أخيــه

وهذا المتشائم الذي يفتش مرة عن الموت ليرتاح من فاقته وحرمانه ويسكن مرة أخرى « في حجرة تجَلّ عن الوصف ويَعْمى البصيرُ فيها نهاراً (٥) »

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٢٤ .

(٢) الديوان ٩ .

(٣) زهر الآداب ١ / ١٣٩ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٢٢٤ ، زهر الآداب ١ / ١٣٩ .

(٥) معجم الادباء ٩ / ١٣٥ .

حين ينال الوزارة ، وتتفتح أبواب الدنيا أمام مطامحه ورغباته ينسى همومه السابقة ، وينسى قساوة أيام الفاقة ، ويبرّيء زمنه مما فعله به فيقول (١) :

رَقَّ الزمانُ لفاقتي ورثى لطول تحرقي
وأنالني ما أرتجي وأجار مما أتقي
فلأصفحنَّ عما أتاه من الذنوب السُبَّقِ
حتى جنايتَه بما فعل المشيب بمفرقي

وهذه القطعة تُثبت فقره قبل توليه الوزارة كما تثبت طموحه اليها والبيت الاخير يؤكد نيله لها في كبره .

وحين يستقبل الحياة المنعمة وفي غمرة من نشوانه و« اريحيته » يتمنى لو أنه عاصر زمان عمه « أبي عيينه المهلبي » أيام كان يتشبب بصاحبة له اسمها « دنيا » ليمكنه منها ومن أرضها :

ويا فوزَ نفسي لو بَلَغْتُ زمانَه وبغيته « دنياً » وفي يديَ الدنيا
فمكنتُه من أهلِ « دُنيا » وأرضها ففازَ بما يهوى وفوق الذي يهوى (٢)

واذا كان ما يهواه أبو عيينه هو حبيبته « دنيا » فالذي قصده ابن أخيه «يفوق الذي يهوى » تلك الحياة اللاهية التي يحياها ويغوص في ترفها وصخبها فينسى أثناءها كل علاقاته ومثله ومن المحتمل أنه ينسى عمه وحبيبة عمه .. أليس هو القائل ؟ (٣) :

إذا تكاملَ لي ما قد ظَفِرْتُ به من طيب مسمعَةٍ أو صوت رنّانِ (٤)
وقهوة لو تراها خلتَ رَقّتها ديني ، ومن حاجز إن شئتُ أغناني
فما أبالي بما لاقى الخليفةُ من بغْيِ الخصي ، وعصيان ابن حمدان

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٢٥ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٢٢٧ .
(٣) معجم الادباء ٩ / ١٤٢ .
(٤) في المعجم (وصوت رنان) .

وفضلا عما تظهره هذه الأبيات من رقة دين المهلبي ووَهْنِ علاقته بالخليفة وتنكّره لروابطه وأعرافه توضح ما أصبح عليه خليفة المسلمين من منزلة وضيعة جعلت خصيان داره يجترئون عليه ويتطاولون على مركزه ، كما جعلت ولاة الأمصار يستقلون في ديارهم ولا يحسبون له حساباً .

والمهلبي الذي لا يجد غضاضة في الاعلان عن رقة دينه ، لا يجد بأساً في المجاهرة بلهوه مع جاريته « تَجنّى » فيقول (١) :

رُبَّ ليلٍ لبستُ فيه التصابي وخَلَعْتُ العِذارَ والعذْلَ عني
في محلٍّ يحله لذة العيشِ ويُجْنَى سروره من « تجنّى »

و « تجني » التي ولع بها المهلبي وخلع عذاره في مجلس تحله هي التي يقول فيها أيضاً (٢) :

مرّت فلم تنِ طرفَها تِيهاً يَحسُدُها الغصنُ في تَثَنّيها
تلك « تجني » التي جننت بها اعاذني الله من تجنيها

وهي بعد ذلك للمهلبي « ذاك الصديق والرفيق » والعروس التي زفت اليه فأهدى اليها رِقّاً مكان المهور والحبيبة التي « ترعى الهوى وتواظب (٣) » وهي .. وهي .. لكنها لا تملأ عليه كل فراغه الجنسي فهو لا يقاوم اغراء تيار العصر في « الفسق الغلماني » فنراه ضعيفاً واهناً يخرّ أمام سيادة الغلام ويقول له (٤) :

يا هلالا يبدو فيَزدادُ شَوقي وهزاراً يرنو فيزدادُ عِشقي
زَعَمَ الناسُ أن رقَّكَ مِلكي كَذَبَ الناسُ أنتَ مالكُ رِقّي

ان هذا الولع الغلماني عند المهلبي يجعله عند فراق الغلام الذي يحبه « يبكي

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .
(٤) نفسه ٢ / ٢٣٩ .

عليه طول الطريق (١) » فيبدو لنا وكأنه مراهق منحرف لا يؤثر في انحرافه ظهور لحية غلام أو كبر سنه بل هما يجددان حبه ويولعانه أكثر وهذا ما يدفعه الى أن يقول (٢) :

يا شادناً جَدّدَ حبي لــه ... من بعد حب ، سالف (٣) ساجي
بلحيةٍ قد أُوصلت جُمَّــة ... مثل اتصال الطــوق بالتــاج

وينحرف بغزله الى درك أوطأ فيقول (٤) :

أتانيْ في قميص اللّاذِ (٥) يمشي ... عدوٌّ لي يلقــبُ بالحبيــبِ
فقلت له : فَدَيْتُكَ كيف هذا ... بلا واشٍ أتيتَ ولا رقيبٍ ؟
فقال : الشّمْسُ أهدت لي قميصاً ... رقيقَ الجسم من شفق الغُروب
فثــوبي والمدام ، ولون خدي ... قريــب من قريب ، مــن قريب

ونلاحظ هنا مع المعنى الداعر الذي تضمنه هذا الشعر عادة استعمال الغلمان للثياب الشفافة ذات الالوان المغرية الصارخة .

لقد سجل لنا شعر المهلبي قضايا اجتماعية عديدة منها حادثة تدلل على ما حتله الغلمان من مراكز مرموقة في الجيش ، حتّى صار لهم تأثير كبير في سير الحوادث .. فقد أرسل معز الدولة غلامه التركي الأمرد « تكين الجامدار » على رأس سرية لمحاربة بعض الولاة الخارجين وكان الوزير المهلبي يراه من أهل الهوى لا من أهل الحرب لذلك قال فيه (٦) :

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) السالف : أعلى العنق ، اللسان ٥ / ١٥٩ .

(٤) معجم الادباء ٩ / ١٥١ .

(٥) اللاذ : ثياب حرير تنسج في الصين واحدته لاذة ، اللسان ٣ / ٥٠٨ .

(٦) اليتيمة ٢ / ٢٢٦ ، الوفيات ١ / ٣٩٢ .

ظَبْيٌ الماءُ في وجناته ويرِفُ (١) عودُه
ويكادُ من شِبه العذارى فيه أن تبدو نهودُه
ناطوا بِمعقد خَصْرِه سيفاً ومِنطقةً تؤوده
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضاعَ الرعيلُ ومن يقوده

وتدلنا هذه الأبيات الجيدة في فنها على العقلية الضحلة التي كانت تحكم العراق وعلى الانحراف المزري الذي وصل اليه حكام المجتمع العراقي في القرن الرابع .

ومن المظاهر المترفة التي كانت في حياة الوزراء والكتاب وظهرت في شعر المهلبي استعمالهم للمصايف وتبريدها وفرشها بفرش يجلب الظل والبرودة ويدل على هذا قوله للصابي (٢) :

بَرِّد مصيفك وافرشه بميثَرَةٍ (٣) فإنني لمقام الحل أرتحلُ

ولا تبدو مظاهر الترف في استعمالاتهم المادية فقط فهي تظهر في شعرهم الوصفي الممتليء بعبارات والفاظ نفث فيها قائلوها روح الطبقة المترفة فجاءت مشبعة بالاشارات المادية الميتة كما في قول المهلبي (٤) :

الوردُ بين مضمّخ ومضرّجٍ والزهرُ بين مكلّل ومتوّجِ
فكأن يومَك في غلالةِ فضّة والنبتُ من ذهبٍ على فيروزجِ

---

(١) في اليتيمة ويرق وفي الوفيات ويرف والعجيب أن الكتابين بتحقيق محي الدين عبد الحميد ، والاعجب من ذلك تعليق المحقق في الوفيات وقوله « في أ ، ب ويعني مخطوطتين، ويرق عوده بالقاف وما اخاله الا محرفا عما أثبتنا » والمعروف بعد ذلك أن الوفيات حققت قبل اليتيمة فكيف أبقى (ويرق) في اليتيمة وهو لا يخاله « الا محرفا ؟ ! !

(٢) اليتيمة ٢ / ٢٤٠ .

(٣) الميثرة : ثوب تجلل به الثياب ويعلوها .

(٤) اليتيمة ٢ / ٢٣٨ .

أو في قوله (١) :

بوم كأنّ سماءه مثلُ الحصانِ الابرشِ
فكأنّ زهرةَ روضِه فُرِشَتْ بأحسن مفرشِ
فسماؤه دكنُ الخزوزِ وأرضُه خضرُ الوشي

ولا نحتاج الى افراد الكلمات المترفة المكونة لهاتين المقطوعتين فهي واضحة وتشير الى ما وصل اليه المهلبي وطبقته من النعيم الذي انتقل الى اللغة فصبغها بصبغته .

ولم تكن حياة المهلبي كلها مستغرقة باللهو والابتذال فهناك لحظات يخلو فيها الى نفسه يفكر بحياته فيزهد بالدنيا ويحاول جاهداً تصوير نفسه انسانا مؤمنا لم يترك حق الله وواجباته لذلك يقول (٢) :

أوَ فيَّ كلا وقيَّ قسطَ تألّه وقسطَ هوى لا يستمر لمَحْرَم
ولذة وجدي من لذاذة مطربي أسرّ إلى نفسي وأعذب في فمي

ومع محاولته الجاهدة هذه، يظل المهلبي متعلقا بأذيال الهوى وعالم اللذاذة . ويتضاءل هذا التمسك ، ونكاد نتصوره زاهداً حينما نقرأ قوله :

هَب البعثَ لم يأتِنا نُذْرُه وجاحمةُ النار لم تُضْرَمِ
أليس بكافٍ لذي فكرةٍ حياءُ المسيء من المُنْعِمِ ؟

أو قوله :

يا من يُسَرّ بلذّة الدنيا ويَظُنُّها خُلقت لما يهوى
لا تكذُبَنّ فإنّها خُلقت لينالَ زاهدُها بها الاخرى

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٨ ، من غاب عنه المطرب ٢٦٤. وقد زاد الثعالبي في من غاب عن المطرب قبل البيت الاخير بيتين لطيفين هما :

والشمس تظهر مرة وتغيب كالمستوحش
شبهت حمرة وجهها بخمار عين المنتشي

(٢) اليتيمة ٢ / ٢٤١ .

ويبرز المهلبي ايجابيا في اهتماماته العلمية والأدبية فيقول :

يا عـارفـاً بالـداء مُطرح السؤال عن الدواء
العلمُ عندي كالغذاء فهل تعيشُ بلا غذاء ؟

ويبدو أن هذه المشاعر الدينية والعلمية كانت تراوده حينما يخلو الى نفسه في لحظات تأمل بعد « الاعمال الرسمية » وما يصاحبها من تعب واهانة أو بعد جلسات لهو صاحبة تحزّ في نفسه فيحاول ان يكفر عنها بزهد أو ايجابية مؤقتة تزول بانحسار التأمل .

وما كان المهلبي وحده يقول الشعر بين وزراء آل بويه ومن يجري مجراهم من الكتاب ، فهناك آخرون ممن كانوا بمنزلة الوزير نظموا الشعر في أغراض مختلفة ورسم لنا شعرهم صورا مهمة من حياة الوزراء ومجتمعهم .

فعبدالعزيز بن يوسف اذا وصف السُّكْرَ الذي بشيراز صوّرَ الوضع المشين الذي كانت عليه حالتهم وبيّن لنا كيف كانوا يحيَون حياة لاهية مملوءة بالسُّكر والعربدة .. يقول (١) :

شربنـا ذهبـاً يجري بشاطيء فضّة تجري
وما زلنـا على السُّكْرِ نداوي السُّكرَ بالسُّكرِ
درينـا كيف أصبَحنا وأمسينـا وما نـدري

وأبو القاسم علي بن القاسم القاشاني يبين لنا في شعره علاقات انسانية متحركة تتمثل في الوفاء للصديق والصبر على مكارهه وهذا يدلل على أن حياة هؤلاء الحكام لم تكن خالية من العواطف الاجتماعية الجيدة .. يقول (٢) :

وإني وإن قصّرتُ عَن غيرِ بغْضَةٍ لراعٍ لأسباب المـودةِ حافظُ
وما زالَ يدعوني إلى الصدّ ما أرى وآبى فتثنيني اليكَ الحفائـظُ
وأنتظرُ العُقبى وأُغضي عن القذى ألاينُ طوراً في الهوى وأغالظُ

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٢٥ ، والسكر حجارة نرصف في النهر على شكل سد ، ومثل هذا السكر موجود الآن في اعالي الفرات . (٢) نفسه ٣٣٥ .

واستمطرُ الاقبال بالـود منكـمُ وأصبرُ حتى أوجعتني المغايـظُ
وجرّبت ما يُسلي المحبَ عن الهوى واقصرتُ والتجريبُ للمرء واعظُ

وفي شعر أبي أحمد عبد الرحمن الشيرازي نجد بعض العادات والاستعمالات والعلامات الاجتماعية بارزة قوله وهو يصف سحابة ممطرة (١) :

خرجتُ من عندكـمُ فأدركـتني سحابةٌ ذاتُ منظر صلَـف
غمامةٌ كالعمـامةِ ائتلقتْ فوقَ رؤوسِ المُشاة في السُدَف
تنالُها كفٌ من يزاولهـا تقولُ للمـرء ويْكَ لا تقفِ
يختطفُ الأرضُ وقعَ صَيبِّها مثلَ اختطافِ المخالب العُقَفِ
فوقعُـه والكسـاءُ يدفعُـه وقعُ سهام الاتراك في الهدف
كأنما كلُ قطرةٍ وقعـت عليـه درٌ بداحنَ الصدَف
لو أن ما ذاب منهُ يَتجمّدُ لم يصلح لغير العقود والشنف (٢)
فيها من الرعد كالـدبادب (٣) والصنج (٤) إذا ما ضربن في شرف

وفي هذه الأبيات نلاحظ العمامة اللامعة ، وجودة الاتراك في اصابتهم للاهداف بالسهام ، واستعمال الدر في العقود والاقراط ، وضرب الدبادب والصنج أيام احتفالات الكبار أو تشريفهم بمنزلة متقدمة في الدولة .

القيمة الفنية :

لم يكن غالب شعر الوزراء متفاعلاً مع العواطف الصادقة التي تجيش في صدر الانسان أو الشاعر ، لذلك جاء نظما ميتا فيه كثير من الجناس والتشبيهات

---

(١) نفسه ٣٢٨ .

(٢) الشنف : ما علق في الأذن ... وقيل القرط اللسان ٩ / ١٨٣ .

(٣) الدبداب : الطبل والدبادب صوت كأنه دب ... دب وهي حكاية الصوت ، اللسان ١ / ٣٧٢ .

(٤) الصنج : هو الذي يكون في الدفوف ونحوه ... والصنج الذي تعرفه العرب هو الذي يتخذ من صفر يضرب احدهما بالآخر .. اللسان ٢ / ٣١٦ .

المادية السمجة مما يدلل على جمود قائليه في دائرة محدودة من الحياة الباذخة ذات الوجه غير الانساني .

ان هذا الشعر لا يعدو أن يكون غزلا مكشوفا داعراً بفتاة أو غلام أو وصفا ماديا مترفا لمجالس الخمرة والتهتك ، أو شرحا تقريريا لحالة اجتماعية أو سياسية خانقة ، أو وصفا عاما محشواً بعبارات لا روح فيها ولا حيوية .

ان شعر الوزراء (وهو في الاكثر مقطعات قصيرة) تدفقات آنية ، أو تخيلات كاذبة بعيدة عن الالهام الشاعري ، معدومة الحركة ، فاقدة للانفعالات على أن هذا لا ينفي وجود نبضات شعرية عند بعض الوزراء فقد كان الوزير « المهلبي شاعراً في مرتبة أرقى من مرتبة الطبقة الوسطى (١) » نجد عنده ومضات للشاعر وانفعالاته الصادقة ، ولربما بردت هذه الانفعالات وقل توهجها بعد أن غزاها الترف الحضاري ، واللفظي ، ولكنها لم تفقد نهائيا سمة الشعر واحساساته الرفيعة بعض الاحيان ولنا من الأبيات التي قالها في غلام معز الدولة « ظبي يرق .. الأبيات » خير شاهد على ما يمتلكه من نبض شاعري رقيق .

خاتمة :

نخلص من كل ما ذكرنا الى أن شعر الوزراء دليل واضح على اضطراب العصر ، وسيادة استغلال الانسان للانسان ، فالشعر المترف قيل في مناسبات صنعت أدواتها ومآكلها ومشاربها من جوع الناس البسطاء وعرقهم ودمائهم .

وقد نسي الوزير المهلبي خلال هذه المناسبات مأساته القديمة وفقره الذي دفعه الى تمني الموت فقد انتهت عند تسلمه الوزارة مرحلة كفاحه الاناني وبدأ مرحلة جديدة من الحياة المنتشية بالبذخ والفراغ واللهو ومجالس الفجور الماجنة .

---

(١) الحضارة الأسلامية لمتز ١ / ٤٧٣ .

لقد اتضح أن الوزارة المرتبكة المهزوزة زمن الاتراك قد استقرت في العهد البويهي واتخذت طابعاً جديداً منعماً مطمئناً يدلنا على ذلك غلبة اللهو والترف اللذين يصاحبان الاستقرار دائماً ، كما اتضح لنا أن الوزير استسلم كما استسلم الخليفة الى سلطة الملك البويهي وتحكمه ، وصار عنصراً ادارياً ثانوياً في الدولة وفي حياته أوقات فراغ كثيرة آثر أن يملأها اضافة للهو بالشعر البارد المتحلل .

رجال الدولة :

نقصد برجل الدولة من أتت منزلته بعد منزلة الوزير والى أصغر موظف من موظفي الدولة .

ولقد أفردت لهم كلاماً خاصاً مع أن ذكرهم يأتي في اماكن متعددة من بحثنا ، ذلك لأنهم يمثلون جزءاً مهماً من الطبقة الحاكمة المستغلة .

ولقد كان بعضهم في الثلث الأول من القرن الرابع يلعب دوراً بارزاً في تسيير أمور البلد . ولا يمكن أن ننسى ما فعله مؤنس الخادم أو مفلح الأسود ، أو نصر القشوري وغيرهم من حاشية الخليفة في التطاول على مقام الوزير أو الخليفة أحياناً ، ولا يعني هذا التسلط استقرار أوضاع هؤلاء ، فقد كانت التغيرات السياسية المفاجئة تسحق بعضهم كما حصل لمؤنس وبليق وابنه أو لابن رائق ولبجكم بعده (١) .

وقد ساعد في اضطراب أحوالهم تطلعاتهم الى مناصب أعلى من مناصبهم مما يدفعهم الى التوسل بمختلف الوسائل ومنها التآمر على من هم أعلى منهم منصباً فيؤدي ذلك الى ايذائهم وكل هذا لهزال الخلافة ، وتدهور أمور الوزارة .

وقد أختلف أمر رجال الدولة في العهد البويهي ، فصاروا يتمتعون بنوع من الاستقرار ذلك لأن الملك البويهي أمسك بزمام القيادة العليا وحدّ من

---

(١) وينظر ما فعله المحسن بن أبي الحسن بن الفرات مع علي بن عيسى وما جرى بين المحسن ونصر القشوري من حديث الوزراء ٣٢٣ .

مطامح هؤلاء « الموظفين » ، وحدد لكل منهم مجال عمله ، ومع كل هذا الاستقرار ظلّ الموظفون يعانون في الزمن البويهي خوفاً من قسوة الملك البويهي وغضبه .

ان كل علاقاتهم وأوضاعهم هذه تتفاعل في أغلب الأحيان مع مشاعرهم التي ينفثونها شعرا ، فترتسم على هذا الشعر معالم كثيرة اجتماعية وسياسية ونفسية ..

فاذا عددنا أبا بكر الصولي – مربي الراضي ومربي أخيه – موظفاً في الدولة العباسية استطعنا أن نستنبط من شعره الذي رفعه الى سادته كثيراً من مظاهر علاقاته معهم .

فهو يسجل لنا ما عاناه وهو يقوم على رعاية الراضي وتوجيهه ابان امارته ويبين لنا من خلال ما ذكره وجود أعداء حاقدين على الراضي ، يتمنون زواله عن طريقهم . وبهذا يحيطون من يرعاه بجو مشبع بالرهبة والخوف يدفع الصولي الى أن يقول (١) :

عَلِمَ اللهُ ما الذي كنتُ ألقى   فيكمُ من تألّمَ وامتعاضِ
لم أذق مُذْ ركبتُ راحلةَ الـ   خوفِ إلى الآن لذةَ الإغماضَ
لا أطيقُ الدفاع عنك ولا   أملكُ غير الهموم والارتماضِ
زأرتني أسودُ حقد عليكمْ   لم تُغَيّب بغابة وغياضِ

واذا كان الصولي قد لاقى مثل هذه المتاعب من أجل خدمته (النزيهة) للراضي فلا ندري لماذا كان يغري الراضي أيام امارته بالمتع ، والاخذ بها مما لا يمكن أن يتفق مع وضعه التربوي . فاذا أقبل النيروز نسي الصولي نفسه ونسي منزلته ، ومهنته ، وعاودته طبائع النديم ، فحث (تلميذه) الذي يربيه على الشراب والأنس وقال (٢) :

بارك الله للأمير أبي العبّاسِ خيرِ الملوك في النيروز

---

(١) اخبار الراضي ١٤ . والارتماض : الحزن .
(٢) نفسه ٣٢ .

فاقتبِلْ جدَّةَ الزمانِ بعامٍ بارزٍ باللُّجينِ والابريزِ
واقضِ حقَّ النيروزِ فيه بكأسٍ مزعجٍ ستقيها بكأسٍ وكوزِ
بالزبيديةِ المشهّرةِ الحسنِ وحوزِ اللذاذةِ الماحوزِ (١)

• • •

ويقنع الصولي تلميذه فيمشي في دروب اللهو ، ويرتسم لنا صدق حدس من اتهم الصولي بالاساءة في تعليم الراضي وتهذيبه ، واذا تركنا الصولي وأمسكنا ببعض أبيات من الشعر قالها رجل دولة طمّاح الى نيل الوزارة توضح لنا من خلال هذه الأبيات مدى ما وصل الولاة من طمع في منصب الوزير ، فلقد سعى محمد بن أحمد بن ابي البغل لنيل الوزارة وبذل من ماله للحاشية الكثير ، واذا خاب مسعاه وذهبت أمواله هدراً قال (٢) :

ولي همةٌ تعلو السماكين رفعةً وتسمو إلى الأمر الذي هو أشرفُ
وجَدّي عثورٌ كلما رمتُ نهضة تقاعدَ بي يغتالُني ليس ينصفُ

وتزداد حسرته ، ويزداد ألمه ، حينما تنتهي آماله في الوصول الى الوزارة بالخيبة . فيجلس منفرداً ، يجتر أحلامه التي تتداعى صوراً سرابية يقول فيها (٣) :

أملٌ كان كضوءِ الشمسِ في بُعدِ المكانِ
فإذا صار على قربٍ بلمسٍ وعيانِ
استردته يدُ الدهرِ فعُدنا بالأماني

وندرك أن ابن أبي البغل لم يكن يرى في الوزارة صيداً سهل المنال ، ولكنها وقد هزلت مكانتها ، وصارت سلعة ، اقتربت من ناظره وغدا يراها أملاً جميلاً سهل التحقيق ، يشجعه في الطموح اليه ليونة سماسرة الوزارة (السلعة) وتهاويهم أمام المال .

---

(١) الماحوز : ضرب من الرياحين اللسان ٥ / ٤٠٨ .
(٢) الوزراء ٢٩٧ وتنظر أيضا قصة خيبته .
(٣) الوزراء ٢٩٧ .

ويوم نال الوزارة حامد بن العباس صغرت الدنيا بعين ابن أبي البغل ، خاصة أنه لاقى من حامد الحبس والاهانة والتعذيب ولم يفرج عنه الا بعد وساطة ام موسى القهرمانة .

ويكتب علي بن عيسى الى ابن أبي البغل يبيّن له سروره للافراج عنه فيجيبه ابن أبي البغل قائلاً (١) :

الصّعـو يصفرُ آمناً ومن آجله حُبِس الهزارُ لأنّـه يترنـمُ
لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرّني جهلي ، كما قد ساءني ما أعلمُ
لم أستفد أدبي لدولةِ ظالمـي لكنّه يجني علـيّ ويظلـمُ
ذنبي إليه، على ركاكةِ فَهْمِـهِ ، أنّي لأعلمُ أنه لا يعلـمُ

وهكذا تتضح لنا جوانب من شخصية حامد فيها ركاكة فهمه ، وقلة تدبيره ، وجشعه ، وهذا ما أدى فيما بعد الى انهيار وزارته وغضب العامة وثورتها عليه .

ويمتلىء العصر البويهي بالوجوه الشعرية التي تعتلي مناصب في الدولة ، وتقدم للملك البويهي ضروب الطاعة شعرا وذلة وامتثال أوامر .

فالصابي اذا امتدح عضد الدولة أظهر له ولاء يعج بالدعاء والتمنيات ، ويبتهل ، أو يصطنع المناسبات لكي يرفع له مثل هذه الآيات فاذا صام عضد الدولة قال فيه (٢) :

يا ماجداً يدُه بالجودِ مفطرةٌ وفوه من كل هُجْرٍ صائمٌ أبدا
أسعد بصومك إذ قَضَّيتَ واجبَه نُسْكاً ووفّيتَه من شهرِه العددا
وفُز بعمرِكَ ممدوداً وملكك موطوداً ، ونَلْ منهما الحدَّ الذي بَعُدا
حتى ترى كرةَ الارض البسيطة في يمناك مملوءة أرجاؤها رَشَـدا
وحولَكَ الفَلَكُ الدوّارُ متبعـاً أوطارَ نفسك لا يألوك مجتهدا

---

(١) الوزراء ٣٨٢ ، والصعو : طير صغير يكثر في البراري .

(٢) / اليتيمة ٢ / ٢٧٧ .

وندرك من هذه الأبيات أن الصابي مؤمن بكروية الارض ودوران الفلك ولا أظنه يجرؤ على قول هذه الحقيقة العلمية لو لم تكن فكرتها سائدة ومعروفة .

وفي مديح الصابي لعضد الدولة نستطيع ما آلت اليه حاله في نكبته من ذلة وخنوع فاذا أراد أن يستعطفه كتب اليه متذللا خانعاً (١) :

وحبسك لي جاه عريض ورفعة ... وقيدُك في ساقيَّ تاجٌ لمفرقي
وما موثق لم تَطرَحه بِمُوثَقٍ ... ولا مُطلَق لم تصطنِعه بمطلقِ
خلا أن أعواماً كَمُلنَ ثلاثةً ... تعرّقتِ البُقيا أشدَّ تَعرّقِ
وقد ظَمِئَت عيني التي أنتَ نورُها ... إلى نظرةٍ من وجهِك المتألقِ
فيا فرحتي ان ألقَه قبلَ ميتتي ... ويا حسرتي إن متُّ من قبلِ نلتقي

ونعرف أن الصابي بقي ثلاث سنين ، ونعرف أنه تصاغر كثيراً وتملق كثيراً خلال السنين الثلاث هذه ، ولا نجد سبيلاً لشوق الصابي الى وجه عضد الدولة غير الملق والخوف .

واذا أطلق سراحه وساءت حاله استنجد بالصاحب بن عباد سالكاً اسلوب العصر في الاستعطاف فقال (٢) :

لما وضعتُ صحيفتي ... في بطنِ كفِّ رسولِها
قبّلتُها لتمسّها ... يُمناكَ عندَ وصولِها
حتى ترَى في وجهك الـ ... ـميمون غايةَ سولِها

ونلحظ في مديح الشريف الرضي للطائع انحسار التعصب الطائفي أمام المنصب ، فهو ينسى ما فعله العباسيون بآبائه وأبنائهم العلويين من أفعال موجعة فاجعة ويقول مخاطباً الطائع (٣) :

---

(١) معجم الادباء ٢ / ٤٦ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٢٧٦ .
(٣) الديوان ٢ / ٣٤١ ، اليتيمة ٣ / ١٣٨ .

لله ثم لكَ المحلُّ الأعظمُ — والِيكَ ينتسبُ العلاءُ الأقدمُ
ولكَ التراثُ من النبيِّ محمدٍ — والبيتُ والحجرُ العظيمُ وزمزمُ
تمضي الملوكُ وأنت طودٌ ثابتٌ — ينجابُ عنكَ متوَّجٌ ومعمَّمُ
لله أيَّ مقام دينٍ قمتَه — والأمرُ من دونِ القضيّةِ مُبهَمُ
فكأنما كنت النبي مناجزا — بالقول أو بلسانه تتكلم

ويقرب من ذلك ما قاله القادر بالله (١) :

شرف الخلافة يا بني العباس — اليوم جدده أبو العباس
هذا الذي رفعت يداه بناءها العالي ، وذاك موطد الآساس

لقد كانت علاقة الشريف بالطائع متينة مبنية على حب ووفاء تؤكدهما قصيدته الحزينة التي قالها بعد أن خلع الطائع وأهين وجاء فيها (٢) :

لواعج الشوق تخطيهم وتصميني — واللوم في الحب ينهاهم ويغريني
من بعد ما كان رب الملك مبتسماً — إليَّ أدنيه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه — لقد تقارب بين العز والهون

* * *

هيهاتَ أغترُّ بالسلطان ثانية — قد ضلَّ ولاّجُ أبوابِ السلاطينِ

واذا كان من يعرف وفاء الشريف لمن يصاحبه يعذر له أماديحه للطائع فلسنا نجد ما يبرر ولوجه أبواب السلاطين ثانية ليمتدح القادر أو بهاء الدولة .

واذا كان المديح قد استغرق الكثير من شعر رجال الدولة فلا يدل ذلك على نسيانهم الدنيا وما حولهم منها ، فلقد شهدوا اضطراب الحياة الاجتماعية ، وانهيار قيمها وذموها ، كما ذموا الدهر الذي احتواها رامزين بذلك الى من عاش في هذا الدهر من حكام ومحكومين فالقاضي ابن معروف يفقد ثقته بالناس ، فيحذر من الاصدقاء قبل الأعداء ويطلقها حكمة يقول فيها (٣) :

---

(١) الديوان ١ / ٥٤٦ ، اليتيمة ٣ / ١٤٢ .

(٢) الديوان ٢ / ٤٤٤ ، اليتيمة ٣ / ١٤١ .

(٣) اليتيمة ٣ / ١١٤ ، المحاضرات ٣ / ٢١ منسوبة الى علي بن عيسى . وترجمة ابن معروف ابو محمد عبد الله بن احمد في اليتيمة ٣ / ١١٢ .

إحذر عـدوَّك مـرَّة واحذر صديقَك ألفَ مرَّة
فلربمـا انقلب الصـديـقُ فكـان أعرفَ بالمضرَّهْ

ولم تكن هذه الحكمة وليدة انفعالات ذاتية انما هي وليـدة ظروف اجتماعية قاسية خلقت في طبائع الناس انحرافاً وميْناً .

وسجل لنا القاضي محمد بن عبد الرحمن بن قُرَيْعَةَ انقلاب الوجه الحقيقي للحياة ، وانحرافها عن خطّها القويم حين قال (١) :

يا خالـقَ الليـلِ والنهارِ صَبْراً على الذُلِّ والصغارِ
كم من جوادٍ بلا حمـارٍ ومن حمارٍ على حمـارِ

وهكذا يتكشف لنا على لسان هذا القاضي زمناً منحوساً ، لا يغير فيه مجيء حاكم أو ذهاب آخر . فالبنية العامة له منهارة، لأنه ممتلىء « بالوصولية»، والزيف ، وهو في مسيرته الشوهاء يسحق كل من يحاول الوقوف في وجهه أو يروم تغيير خط سيره .

ولقد مسّ الزمن بضرّه حى اولئك الذين صفقوا لبعض جوانب زيفه أو انغمروا في « حفلات » انسه ولهوه .

فالصابي الذي ساير البويهيين ومالأهم ، وغنّى لسطوتهم ، وكان له حظ في دولتهم ، يفقد – اذ ينكب – ثقته بالدولة والناس فيقول (٢) :

أيا ربّ كلّ الناسِ أولادُ علّة أما تغلطُ الدنيا لنا بصديقِ ؟
وجوه بِـها من مُضْمَرَ الغلّ شاهدٌ ذواتُ أديمٍ في النفاقِ صفيقِ

وكأننا لا نعثر بالحقيقة عند الصابي وأمثاله الا اذا ازدادت الحياة قسوة عليهم وظلماً لهم ، ولهذا نرى الصابي اذا أصيب بمكروه ، شطّ به غضبه ونسي جبروت الحكام وما لاقاه من سجن وحرمان على أيديهم وقال بألم (٣) :

---

(١) المنتظم ٧ / ٩١ ، وترجمة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة ت ٣٦٧ هـ في ، وفيات الأعيان ٤ / ١٧ .

(٢) المحاضرات ٣ / ٢٠ .

(٣) اليتيمة ٢ / ٢٨٦ .

ألا هل لأهلِ الدولةِ النذلةِ التي ... ثوى داؤها فينا وأعيى دواؤها
لقد كبّت الدنيا على أم وجهِها ... فنحنُ لها أرضٌ وأنتم سماؤها
فلا تفرحوا بالحظ منها ، فإنّه ... قليلٌ على هذا المُحالِ بقاؤها

وبهذا يسجل لنا الصابي الوجه الصحيح للحكم البويهي ، ويلغي بكلماته هذه كل أقوال الذلة والدجل التي رفعها الى عضد الدولة أو غيره من رجال الحكم .

ولم يكن الصّابي منفرداً في النكبة ، واقعاً وحده بين أنياب الدهر المسمومة ، فالمحسّن ابن القاضي التنوخي مثله تنوشه يد الدهر ، وتنال منه فيقول (١) :

أما للدهرِ من حكمٍ رضيّ ... يدالُ به الشريفُ من الدنيّ
ويستعلى الرؤوس من الذنابى ... وينتصف الذكي من الغبيّ

وحين لا يجد ما يتمناه لا يركن لليأس والقنوط فبالرغم من قبض السلطة على ضيعة من ضياعه وصرفه عن قضاء الأهواز يكابر ويقول (٢) :

لئن أشمتَ الاعداء صرَفي ورحلتي ... فما صرفوا فَضْلِي وما انصرف المجد
مُقامٌ وترحال ، وقبضٌ وبسطةٌ ... كذا عادة الدنيا واخلاقُها النُكدُ

ولأنه يعرف أن القبضَ والبسطة ، والمقام والترحال مسائل عامة لا يختص بفرد ، ولا تقف ثابتة بباب إنسان ، تسري على غيره مثلما سرت عليه ، لأنه يعرف هذا يقول (٣) :

قُل لِمَنْ أوْدى به الترحُ ... كلّ همٍ بعدَه فرحُ
لا تَضِقْ ذرعاً بنازلة ... وارمها بالصبرِ تنفسحُ
غالط الأحداثَ مُجتهداً ... كل ما قد حلَّ منترح

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢ / ٤٥٤ .

(٢) الفرج بعد الشدة ٢ / ٤٥٤ ، اليتيمة ٢ / ٣٤٧ ، وينظر سبب عزله والقبض عليه عام ٣٧١ ، في الكامل ٩ / ١٥ .

(٣) الفرج ٢ / ٤٦٨ .

وأزح بالـــراحِ طارقهـــا فجـــلاءُ الكربـــة القـــدح

وقد نجد مع التفاؤل نوعاً من الهروب ، أو نجد الهروب نفسه متمثلاً بدعوته للانغمار في الشراب ، ورؤيته القاصرة لحلول المشكلات التي تواجه الانسان .

ولا نعجب اذا سمعنا بقاض مسلم يدعو الى اللهو والشراب ، فقد كان القضاء الى حد ما كالوزارة تختنق بالرشاوي والمظالم والمعاصي .

وإذا كان المحسّن قد قال ما قاله فله في أبيه ودعواته الصريحة الى المجون والشراب أسوة وقدوة .

فقد كان القاضي التنوخي ينسى منزلته الدينية ومركزه الاجتماعي ويقول مجاهراً بدعوته للشرب (١) :

إسقني الراحَ في شبابِ النهـــارِ وانفِ همّي بالخندريسِ العُقارِ

ولا يتوانى هذا « القاضي » أن يزوّقها ويروقّها ويشهّيهَا لسامعيه حينما يصفها ويقول (٢) :

وراحٍ من الشمسِ مخلوقـــةٌ بَدَتْ لكَ في قـــدحٍ من نهارِ

* * *

إذا ما تأملتهـــا وهي فيـــهِ تأملتَ نُوراً مُحاطـــاً بنـــارِ

* * *

كأنَّ المديرَ لهـــا باليمـــين إذا مالَ للسقي أو باليســـارِ
تدرَّعَ ثوبـــاً من الياسمين لَه فَردُ كُمّ منَ الجُلّنـــارِ

وينجرف القاضي مع التيار ، فيغوص في مستنقع الرذيلة ، يستخرج منه ألفاظه الداعرة الماجنة ، فبعد هذا الوصف « اللذيذ » (في مفهوم صاحبه) للخمرة وساقيها يذهب الى الكشف عن موبقاته فيرينا نفسه سكّيراً ماجنا لا

---

(١) الأعجاز والايجاز ٢٥٠ .
(٢) الاعجاز ٢٥٠ ، اليتيمة ٢ / ٣٣٩ .

يحتشم في مجالس أنسه ، وكيف يحتشم من عاشر الوزير المهلبي ، وعربد مثلما عربد ، وكيف يحتشم بعد ذلك من يقول (١) :

باتَ يَسقيني ويشربْ ذَهباً للهَمِّ مذهبْ
شادنٌ يحمل ماءً فيه نارٌ تتلهبْ

• • •

لو أدرناها على ميْـ ـت لكان الميتُ يَطرَب
ليت شعري أسروراً أم مُداماً بت أشْرَبْ
صبّ في الكاسات منها كالشهاب المتصوِّب
فرأيتُ الراحَ أشرقاً ورأيتُ الهم مُغرِب
غصنٌ فوقَ كثيب ونهار تحتَ غيهب
لك منه مطربُ يرضيك إنْ شئت ومضرب
جنة عذّبتُ فيها بتجن وتجنّب
هل رأيتم أحداً قبلي بالجنة عذّبْ

وحين تعبق رائحة الغلمان من هذه القصيدة ، لا يتستر أو ينفي عن نفسه مثل هذه التهمة الفاحشة ، بل يكشف عن ذاته ، رجلاً شاذاً ، منحرفاً نحو أسوأ هوة وقع فيها المجتمع آنذاك .. فإذا لامه بعضهم على عشق غلام أمرد جسيم ، قال متأففا مؤنبا (٢) :

قالوا : عشقتَ عظيمَ الجسم ، قلت لهم : الشمس أعظم جُرم حازه الفلكُ
من أين استرُ وَجْدي وهو منهتكٌ ما للمتيمِ في فتكِ الهوى درك

أو قال مسوغا لنفسه هذا العشق ، الذي سار فيه مواكبا تيار العصر (٢) :

أأعشقُ لا عشقت أخاً نحولِ سوى أني أخو الخُلْقِ الظريفِ
إذا لَمَسَتْهُ كَفّي لم تلامسْ سوى جلدٍ على عظمٍ نحيفِ

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٣٨ .
(٢) نفسه ٣٤٥ .

ان القاضي التنوخي وأضرابه كانوا يعلنون صراحة عن مجونهم وفسقهم ولا يرون في ذلك جناحا ولا عيبا ، فالعصر عصر لهو ، ومن لا يغتنمه منهم ويغترّف من مباذله يندم ! فالصابي على تمسكه بدينه ، وأعرافه ، وعلى تزمته لا يثبت أمام مغريات هذا العصر ، الذي يدّعي الثبات امام صراعه النفسي ولهفته الى المجون كما يظهر في قوله (١) :

حَمَتْنِي لذّتي رتبُ المعالي وضَنّي بالمروة والوَقارِ
ودينٌ ضاق فيه مجالُ فتكي لخوفِ عقوبةٍ وحذار نارِ
فوا شوقاً إلى خَلع العِذار وفعلي ما أريدُ بلا اعتذار
ويا لهفي على حل الإزار صريعاً بين سُكرٍ أو خُمار

ولكن الصابي المرتج في هذه الأبيات المشدود بين مثله وشهواته سرعان ما ينهار أمام اغراء الخمرة والغلمان فيفضح نفسه في قوله (٢) :

فاسقنيها خمرةً تأسو من الهم الجراحا

. . .

يا غُلامي ما أرى فيها ولا فيك جُناحا

ويظل الصابي أسمى من أقرانه رجال الدولة حتى بعد انهياراته الجنسية لأنه لم ينجرف كثيراً مع الغلمان (٣) ، فقد اتجه اتجاها جنسيا طبيعيا لذلك يقول (٤) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٤٣ .

(٢) نفسه ٢٥٨ .

(٣) هذا لا يعني أنه ابتعد عنهم فهناك ما يثبت ميله اليهم كقوله :

طيب عيشي في عناقك ووفاتي في فراقك

او غير ذلك من الاقوال لكنه مع هذا يطغى غزله بالمرأة وحبه لها على غلمانيته . تراجع اليتيمة ٢ / ٢٥٧ وما بعده .

(٤) كتابات الثعالبي ٢٦ . والأحراح : الفروج .

لحاجة المرء في الأدبــار إدبار والمائلون إلى الأحـراحِ أحرارُ
كم من نظيف ظريف بات ممتطياً ظهر الغـلام فأضحى وهو عطّار

انه يعبّر عن نزعة تبدو غريبة ازاء ما كان متعارفا عليه بين رجال الدولة وصدورها من ميل جارف نحو الغلمان .

لقد كان الصابي مولعا – مقابل نفوره من الغلمان – بالمرأة يصرح بذلك دون استعمال ضمير المذكر كما يفعل غيره من الشعراء فتراه يقول واصفا لهوه مع احداهن (١) :

أقولُ وقد جردتُها من ثيابها وعانقتُها كالبدرِ في ليلة التّمّ
لئن آلمَتْ صدري لشدةِ ضمّها لقد جبرت قلبي وإن أوهنَتْ عظمي

أو (٢) :

جرّدتُهــا اعتنَقْنَــا كلٌّ لكلٍّ وشــاحُ
باتت وكل مصــونٍ لي في حماهــا مبــاحُ

واذا كان الصابي مترفعا عن الشذوذ الغلماني فهو لم يكن كذلك مع النساء لقد أخذه تيار الفجور في سيره ولم تحمه منه رتبه ولا مروءته ولا دينه، فوصفه الذي رأيناه لا يدل إلاّ على رجل منغمر باللذات مدمنٍ عليها وعلى عكسه كان القاضي ابن معروف حين يتغزل ويقول (٣) :

فلما تصرّمنا وشطّتْ بنا النوى رَضيتُ بطيفٍ منك يأتي مُسلّما

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٥٩ .

(٢ / اليتيمة ٢ / ٢٥٨ ، كتابات الثعالبي ١٢ . ويبدو أن الصابي مغرم بالعري فتراه يقول « وقد جردتها » ، « جردتها واعتنقنا » أو يقول « يا من بدت عريانة » « فرأيت كل الحسن فيها » أو « وأنت أحسن ما نلقاك عريانا » . وقد تكون هذه الأقوال دليلا على نزعة شاذة في نفس الصابي .

(٣) اليتيمة ٣ / ١١٣ .

أو حين يقول (١) :

لو كنتَ تدري ما الذي صَنَعَ الهوى — والشوقُ في الجَسَدِ النّحيلِ البالي
لهجرتَ هجري واجتنبتَ تجنّبي — ووصلتَ من بعدِ الصدود وصالي

انه يسمو في لفظه مدللاً على نظافة مشاعره وعلوّها فقد كان بإمكانه أن يستعمل لغة العصر أو لغة رفاقه رجال الدولة ، فيصف لهوه ومجونه ، أو ينحط الى درك الأوصاف المادية المبتذلة فيستعملها لغة لشعره وغزله ، ولكنه ترفع فاستعمل لغة مؤدبة توحي بصدق المشاعر ونبلها ، قال مرة يصف علو همته في الحب (٢) :

وما سرَّ قلبي منذُ شَطّت بك النّوى — نعيمٌ ، ولا كأس ، ولا متصرفُ
وما ذقتُ طعم المـاء الاّ وجدتُه — سوى ذلك الماء الذي كنتُ أعرفُ
ولم اشهدِ اللذات الاّ تكلّفاً — وأي نعيمٍ يقتضيـه التكلفُ

ونجد مثل الفاظ الحب والغزل والشوق النبيلة التي استعملها ابن معروف عند الشريف الرضي ، فقد تعفف هذا الشاعر عن موبقات عصره ، فلم ينحرف أو ينجرف ، ولم يشارك أهل ذلك العصر فجورهم ، ولم يجارهم حتى في اللغة التي استعملها في شعره الغزلي أو الوصفي ، فاذا أراد أن يصف أو يتخيل ليلة لهو ارتفع بنفسه ولغته وقال (٣) :

يا ليلةً كـرُمَ الزمـا — نُ بها لو أن الليلَ باقي
كـان اتفاقـاً بيننَـا — جـارٍ على غير اتفـاقِ
فاستروحَ المشتاق في — زفراتِ هَـم واشتيـاق
واقتصَّ للحقَـبِ الموا — ضي بل تَسلّفَ للبواقي
حتى إذا نَسَمَتْ ريـا — ح الصبح تؤذن بالفـراقِ
بـرد السوّارُ بهـا فأحـميتُ القـلادةَ بالعِنـاقِ

---

(١) نفسه ٣ / ١١٣ .
(٢) نفسه .
(٣) الديوان ٢ / ٧٧ ، اليتيمة ٣ / ١٥٤ .

وقد يجاري الشريف الرضي مألوف عصره في استعارة ضمير المذكر عند الغزل فيقول (١) :

حبيبي مــا أزرى بحبّك في الحشى ولا غضّ عندي منك أنّك أعجمُ
بنفسي من يستــدرجُ اللفظ عجمة كما يمضغُ الظبي الأراكَ ويبغم

حتى إذا صدّقنا أنها غزل بغلام أعجمي كما يقول الثعالبي ، فهو غزل عفيف نقي فيه سلاسة ورقة .

إن ما قاله ابن معروف والشريف الرضي وغيرهما من شعر أخلاقي صادق دليل شجاعة وأخلاق سامية في زمن عزّت فيه الأخلاق الحسنة ، والصفات النبيلة ، وسادت فيه المفاحش والمقاذر والمجون .

القيمة الفنية :

لا يختلف شعر رجال الدولة الاجتماعي كثيراً عن شعر الوزراء أو الامراء فهو « مقطعات » أو قصائد قيلت في مناسبات معينة مفروضة ، ولهذا فهو في الاضلب شعر مصنوع لا مطبوع ، لكننا مع ذلك نجد في أشعار رجال الدولة الذاتية كثيراً من الانفعالات الصادقة والومضات الفنية الجيدة بخاصة اذا كان قائل الشعر صادقاً بعيداً عن المؤثرات السياسية .

ففي شعر الصابي والشريف الرضي ، وابن معروف نجد معالم الشاعر بارزة في أغلب ما قالوه من شعر ، وبخاصة ذلك الذي يحكي مشاعرهم الشخصية وانفعالاتهم « الرومانسية » الرقيقة .

انا نجد — بعد ذلك — في شعر رجال الدولة الاجتماعي ذخيرة لغوية تفيد دارسي فقه اللغة ، ففيه الفاظ وعبارات يمكن للباحث أن يلمها ويفتش عن منشئها فيغني الدراسات اللغوية والتراثية ببحث ملذ جديد .

---

(١) نفسه ، اليتيمة ٣ / ١٥٥ .

الخلاصة :

شعر رجال الدولة – كغيره – صورة تبرز فيها معالم حياتهم فهو يحكي علاقاتهم بأسيادهم وما جرته هذه العلاقات عليهم من حزن أو مسرة ، كما يحكي نزعاتهم الفردية وتطلعاتهم الأنانية ويصف بشكل أو بآخر ما كانت عليه حياتهم من مظاهر باذخة مترفة ، وما صاحب هذه المظاهر من انحرافات أخلاقية جرّت معها أغلب رجال الدولة ، لم يسلم منها الا من كان يمتلك نفساً شجاعة أبية استطاعت بقوتها أن تحميه من هذا الاتون الفاجر المستعر .

ان شعر رجال الدولة يفيد دارسي التاريخ والاجتماع كما يفيد دارسي اللغة وفقهها ، ففيه معالم اجتماعية لا يمكن أن نجد مثل صدقها في أي خبر تاريخي لأن مصدرها شعر ذاتي يعبر تعبيرات اجتماعية واضحة المعالم إلى حد كبير ..



الفصل الرابع

المتبذلون والمجّان

المجون قديم قدم المجتمعات البشرية يرافق تغيراتها وتطوراتها مداً وجزراً، والمجتمع العربي الجاهلي عاش فترات استفحل أمر المجون فيها بشكل خطير، وقد أبطل الاسلام العادات الفاحشة التي كانت موجودة في الجاهلية (١) ووضع أعرافاً جديدة والتزامات تحترم كيان الانسان وكرامته، كما أنه فرض على المسلمين عملاً متواصلاً في الفتوحات والفروض الدينية مما استغرق أوقات الناس وكاد أن يقضي على فراغهم، وهذا ما سهل ضمور المجون والفسق أو اختفاءهما.

وحين بردت الالتزامات الدينية، وانتهت الفتوحات، أصبح المسلمون الفاتحون يتمتعون بالكثير من أوقات الفراغ، يضاف اليها وفرة وسائل اللهو من مال، وغلمان وجوار وخدم، وقصور عامرة وتسلط. ولهذا بدأت بذور التبذل تنمو من جديد عند هذا الحاكم أو ذاك، أو عند غير الحكام من تجار، وأصحاب أراضي. وزاد من ظهور هذه البذور ونموها اتساع رقعة المملكة الاسلامية واللامركزية التي يتمتع بها بعض الحكام.

---

(١) يراجع في عادات العرب في الجاهلية، ونظراتهم تجاه المرأة والزواج والفجور، بلوغ الارب للآلوسي ٢ / ٣ - ٨، ٥٢، ٥٥ ط ٣ شرح وتصحيح الاثري، مطابع دار الكتاب العربي - مصر.

ولا ننكر ما للشعوب المتحضرة (الفارسية والبيزنطية) التي اختلط بها العرب من أثر في خلق مثل هذه الأجواء التي كانت تعتبرها هذه الشعوب من مقومات حياتها (١) .

وحين خلقت هذه الاجواء الباذخة ، كان لابد من وصفها بقول نثري أو شعري والحكام مولعون بالوصف والشعر ، والناس المحكومون لم يكن لديهم من اعتراض على هذا البذخ الذي يحصل غير الكلام على هذه المجالس

---

(١) يتساءل الدكتور احمد الحوفي في كتابه « تيارات ثقافية بين الفرس والعرب » وفي حديثه عن الأدب العباسي المكشوف في ص ٢٠٢ فيقول : « فهل كان نتيجة محتومة لتطور المجتمع في نظم ووسائل ترفه وثرائه الواسع ؟ أو كان نتيجة لخلاط الفرس بالعرب وكثرة الموالي والاماء ، وما نقله الفرس من ضروب اللهو والفساد .

ويجيب الدكتور الحوفي :

« الحق كان نتيجة محتومة للأمرين معا ، ذلك أن تطور الحياة وتنوع الترف وكثرة المـال ليست السبب الوحيد في كثرة المجون والخلاعة ، والادب المكشوف ، لأن المجتمع في الاقاليم الاخرى كالشام ومصر وشمالي افريقيا والأندلس قد تطورت حياته لكنه كان أكثر جدا وأكثر حرصاً على التصون من المجتمع العراقي » .

ثم يعود فيجزم :

« واذاً فقد كان الفرس أهم بواعث الخلاعة والادب المكشوف لأن العرب لو لم يخالطوهم لكانت حالهم أشبه باخوانهم في الشام ومصر » .

انتهى كلام الدكتور الحوفي وهو لا يعدو أن يكون خلطا سطحيا ورأيا فيه الكثير من الاتهام والسذاجة .

ان المجتمعات في مصر والشام والأندلس لم تكن أحسن حالا من مجتمع العراق ، والا فكيف نفسر شعر ابن واسانه وابي الرقعمق ، أو رقص وزير اندلسي في مجلس عام أمام الملك ، أو ارتياح ولذة الحاكم بأمر الله وهو يشاهد شيخا يلاط به بأمره .. ثم لماذا نضع الوزر كله على الفرس ، ولماذا لا نقول أن التراكات السياسية والاقتصادية على المجتمع وما تولده من اضطراب اجتماعي واخلاقي قد ولدت عند مثقفيه عامة ، وشعرائه خاصة نزعة الاحتقار للمثل فكان الشاعر يقع في أتون هذه النزعة فينظم الادب المكشوف تعبيرا عن احتقاره للاوضاع الاجتماعية أو احتجاجا عليها أو هروبا منها أو تنفيسا عن ألم مكبوت سببته السلطة الجائرة المستغلة وما رافقها من مظـالم اجتماعية ودعارة اخلاقية وسياسية عمت العراق مثلما عمت الشام أو مصر أو الأندلس .

وما يدور بها من تبذل وشعر متدن ، وبعد أن كثرت هذه المجالس كثر تناقل ما يدور فيها ثم صار الشعر المتداول وكأنه شيء اعتيادي لكثرته وخفته وسهولة حفظه ، فلم يعد يستهجنه « العامة » ، وصار ملحة مجالس الخاصة ثم تطور الأمر حتى بدأ يقلد بعد أن كان يردد ، وغدا قوله مألوفاً ، وعدّ شيئا من الظرف (١) والفكاهة (٢) ، فانتشر في العراق وفي الشام ، ومصر والأندلس في فترات وأشكال متفاوتة .

يمكننا أن نستشف في الشعر الماجن المبتذل كثيراً من مقومات المجتمع بحكامه ومحكوميه ، ونطّلع على عادات غريبة كثيرة بدت بأشكال وصور مختلفة وصارت وكأنها موجودة فيه أصلاً .

ومشاهداتنا لعادات المجتمع وطبائعه خلال الشعر الماجن (الظريف بلغة العصر) نتيجة منطقية لما يملكه هذا الشعر من سلطة عجيبـــة تمكنه من الايغال في هذه العادات والطبائع ووصفها وصفا مجرداً عن أغلب مؤثرات الخوف والدجل .

---

(١) لقد احتلفت مقاييس ومفاهيم الظرف في هذا العصر عما كان عليه سابقافقد قالوا فيه قبل هذا القرن : « الظريف الذي تأدب وأخذ من كل العلوم فصار وعاء لها فهو ظرف » .

وقالت بعض متظرفات القصور : من كان فصيحا عفيفا ، كان عندنا متكاملا ظريفا ، وما كان غنيا عاهرا ، كان ناقصا فاجرا ، وقيل : الظرف في اربع خصال ، الحياء والكرم والعفة والورع . وانشد الشاعر :

ليس الظريف بكامل في ظرفــه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا

فاذا تورع عن محـــارم ربـــه ... فهناك يدعوه الانام ظريفا

ينظر الموشى : ٥٣ .

(٢) يعلق الاستاذ بشار عواد معروف على ما وصلت اليه الفكاهة في العصر العباسي فيقول : « وقد امتزجت الفكاهة عند العرب في العصر العباسي بالمجون واصبحت الصقاعة والرقاعة والحماقة والفكاهة تطلق على كل فكه تقريبا واصبح الماجن احمقا ورقيعا بنفس الوقت » .

« مجلة التراث الشعبي ع ٦ س ١٩٦٤ شباط ص ٥٧ وما بعدها »

وليس الامر بهذا التعميم والا لأصبح الادباء ورجال الدولة الماجنون صقعاء رقعاء حمقى فكهين في الوقت نفسه .

فالحسين بن الحجاج مثلاً « تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه . وقذعه ، ومنهم من يغلو في الميل الى ما يضحك ويمتع من نوادره (١) وهو لا يهاب حين يأتي بنواقص هذا الأمير أو ذاك الوزير أو غيرهما من رجال الدولة خلال مدحه لهم أو وصفه لمجالسهم ، لأنه يعرف كيف يدغدغ مشاعرهم ، ويرضي غرورهم ، يقول واصفاً حالة من يمتدحه (٢) :

قــرمٌ إذا أنشــدتُه شِعــري البديعَ تهلّلا
فحسبتَ أن أبــا عبــادةَ (٣) يمــدحُ المتوكّــلا

وليس هذا التهلل والانشراح الا نتيجة الشعور بالمتعة الحاصلة بسبب سماع الشعر الماجن المملوء بالمقاذر اللفظية والمديح الذي ينبو عنه الذوق لتدني ألفاظه ، واغراقها في الغلو والذلة .

لقد أخذ هذا الشعر مكانه في المجالس والمناسبات وأستعيض به أحياناً عن اللهو والغناء ، وعدّه ابن الحجاج ظرفاً ، وفضله على الغناء حين قال (٤) :

فــان شعري ظــريفٌ من بابَــةِ الظــرفــاء
ألــذّ معنىً وأشهــى من استمــاعِ الغنــاء

ومعنى هذا أن شعراً مثل شعر ابن الحجاج يخدش وجه الحياء ، ويلوث نصاعة المروءة ، صار اعتيادياً ، بل ثميناً ، ولم يعد للاحتشام في تداوله وترديده مكان ، فانتقلت عدواه الى الحكام وبدلاً من أن يستمعوا اليه فقط ، نظموا مثله ، وولعوا بكلماته فهذا ابن عباد وزير آل بويه في فارس يقف

---

(١) اليتيمة ٣ / ٣١ .
(٢) نفسه ٣٢ .
(٣) البحتري ، وقد أكد الشريف الرضي أن شعره نوع من خفة الروح فقال حين رثاه :
ليبــك الزمان طويــلا عليــك فقد كنت خفة روح الزمان
(٤) اليتيمة ٣/ ٣٢ .

بباب الوزير المهلبي ويطول انتظاره فيكتب اليه (١) :

وأُترَكُ محجوباً على البابِ كالخَصيِّ ويدخلُ غيري كالأيور ويخرجُ

أو يقول في مناسبة أخرى (٢) :

من عَمَلِي من عملِي نيكُ الرجال البُزَّلِ
وإنما أنيكُهم لأنني معتزلي

أو (٣) :

فالصّميُ(٤)والمتر(٥)من بعدالقُشام(٦)به طيب الحياة فلا تعدل عن الطيب

ومثل هذه الأقوال ، وأقذع منها نجد عند أبي اسحق الصابي في هجائه(٧) الذي سيأتي في كلام قادم .

وفي هذا أدلة أخرى على أن المجون والتبذل يشترك فيه العامة والخاصة ..

أهم الشعراء :

اذا ذكر شعراء المجون والتبذل تبادر الى الذهن شاعران من شعراء هذا اللون هما : أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكّرة الهاشمي (ت ٣٨٤) وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج (٣٩١) . فقد كاد شعرهما يحصر في اطار السخف والاقذاع فقط ، وصارا يبدوان كأنهما ظاهرة شعرية متميزة اجتماعياً وفنياً .

وحين يتساءل المرء لماذا هذه الظاهرة ؟ ولماذا انغمر هذان الشاعران في هذا النوع من الشعر دون غيره ؟ مع أن اخلاقهما كانت على نقيض ما ورد

---

(١) معجم الادباء ٦ / ٣٠٦ .
(٢) أخلاق الوزيرين ٢١٤ .
(٣) أخلاق الوزيرين ٢١٥ .
(٤) الصمى : الصهباء من الخمرة أو الشرب وهو من الفاظ المكدين .
(٥) والمتر : النيك وهو من الفاظ المكدين .
(٦) القشام : الطعام .
(٧) تنظر اليتيمة ٢ / ٢٨٥ .

في هذا الشعر من سخف ومجون (١) ، حين يلقي المرء هذه الأسئلة يأتيه جواب ابن الحجاج سريعاً واضحاً يقول فيه (٢) :

سَيِّـدي سُخفي الّذي صار يأتي بالدواهـي
أنتَ تـدري أنّـه يدفعُ عن مالي وجـاهـي

أو (٣) :

لو جَدّ شعري رأيتَ فيـه كواكبَ الليلِ كيفَ تسري
وإنمـا هَـزْلـه مجونٌ يمشي به في المعاشِ أمـري

اذاً فالعملية لا تحتاج الى كثير من المسوغات والجدل فهذا الشعر الذي (سخفه لا بد منه) (٤) اختطه ابن الحجاج وغيره من الشعراء، منهجاً في الحياة يدفع به عن المال والجاه ويمشي به في المعاش الأمر فنتبين من ذلك منزلة شاعر المجون والسخف ، ونتبين ما وصل اليه الحكام من ضحالة وانهيار خلقي بحيث احتضنوا ألفاظ السخف والمقاذر وصاروا يدفعون لسماعها المال والمنصب

---

(١) جاء في وصف أخلاق ابن الحجاج قول أبي حيان : «وأما ابن الحجاج فقد جمع بين جد القاضي أبي عمر في جلسته ، وحديثه ، وقيامه ، وتخطئته مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة ، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله .. (الصداقة والصديق ٦٦) .

وكذلك الشأن مع ابن سكرة ينظر هامش الصفحة ٦٦ من الصداقة والصديق ، وينظر الامتاع والمؤانسة ١/ ١٢٧ ، وينظر في ترجمة الحسين بن الحجاج ت ٣٩١ ، المنتظم ٧ / ٢١٦ ، معجم الادباء ٩ / ٢٢٨ ، الوفيات ١ / ٢٤٦ ، العبر ٣ / ٥٠ معاهد التنصيص ٣ / ١٨٨ . وينظر في ترجمة ابن سكرة ، الوفيات ٤ / ٤٠ ، الوافي بالوفيات ٣ / ٣٠٩ ، العبر ٣ / ٣٠ .

(٢) اليتيمة ٣/ ٣٤ .

(٣) نفسه ٣٣ ، وقبل البيت الأخير يقول صريع الدلاء :

فأعذورني إذا تحامقت يومـاً فبحمقي نفقت عند الوزيـر

(٤) نفسه ٣/ ٣٤ . الديوان (١١ ب)

ومثلما كان الحكام يستطيبون هذا الشعر كان أغلب الناس ايضاً بدليل قول ابن الحجاج (١) :

لو لـمْ أشبب بشعر عانتها ما طاب للناس كلهم شعري

ولا بد أن نشير بعد هذا الى أن هناك شعراء آخرين غير ابن سكرة وابن الحجاج ، مبثوثون في بغداد والبصرة وواسط وبقية مدن العراق في شعرهم كثير من الفحش مما يجعلهم محسوبين في عداد شعراء التبذل والمجون ، منهم صريع الدلاء (٢) ، والخبزأرزي (٣) والمفجّع البصري (٤) وأبو عبد الله الحامدي وأبو الورد (٥) ، إضافة الى عشرات الشعراء الآخرين الذين نظموا في السخف بهذا المقدار أو ذاك .

وليس من مسوّغ لكل هؤلاء الشعراء في قول مثل هذا الشعر غير ما ذكره ابن الحجاج اضافة الى أنه غدا من مألوف العصر وأساليب ظرفه ومتعته كما أنه يمنح بما يحمله من رقاعة وتحامق فرصـة للتنفيس عن الهمـوم والمصاعب (٦) .

---

(١) نفسه ٢ / ٧٩ ، ومثله قول ابن الحجاج أيضاً :

ببضائع السخف الثمين تعوم بين الناس سوقي

ينظر درة التاج قطعة ٥٧٦ ، وتلطيف المزاج ورقة ٧١ .

(٢) صريع الدلاء : محمد بن عبد الواحد المعروف بصريع الدلاء وقتيل الغواني ت ٤١٢ ، ترجمته في الاعلام ٧ / ١٣٣ .

(٣) نصر بن أحمد ت٣١٧هـ ترجمته في تاريخ بغداد ٢٩٦/١٣ ،معجم الادباء ١٩ /٢١٨.

(٤) محمد بن احمد بن عبد الله المفجع البصري ت ٣٢٧ هـ ، معجم الادباء ١٧ / ١٩٠ ، المحمدون ٣٢ ، الفهرست ٨٣ ، الوافي بالوفيات ١ / ١٢٩ .

(٥) اليتيمة ٢ / ٣٧١ .

(٦) يؤكد ذلك قول صريع الدلاء :

وليس دواء الهـم الا رقـاعة تميل بادخار الحقود على الحقد

الست بحمـقي للملوك مجـالساً الذ بطيب العيش في حمقي وحدي

الديوان ١٠ أ .

موضوعاته :

حين صار هذا الشعر مستساغاً مستملحاً ، وأبيح قوله في أغلب المجالس والمنتديات ، كثرت موضوعاته ، وتعددت أهدافه وقيل منه في كل غرض ، في المديح ، في الغزل بالمؤنث والمذكر ، في الالحاد والتجديف ، في الدعوة الى اللهو ، في الهجاء وفي كل ما يستدعي القول ويحلو للشاعر أن ينظم فيه ، فهو شعر سائر ، وهو شعر تجاري مربح .

الدعوة للأخذ باللذة ووصف أماكنها :

وعلى رأس الموضوعات التي وردت في شعر التبذلي والمجون الدعوة الى اللهو والأخذ بالملذات ، فالزمن القاسي ، المملوء بالويلات والمحن جعلت ابن التمّار الواسطي يقول (١) :

قم فانتصِفْ من صروف الدهرِ والنوبِ　　واجمعْ بكأسِكَ شملَ اللهو والطرب

ان هذه الدعوة ليست اعتيادية بقولها رجل يريد اللهو فقط فهي تحمل دلالات عميقة أخر ، تفسر بما كان في ذلك الزمن من ولادات لا شرعية لمآسي لا يمكن أن تصدق قساوتها أو غرابتها .

فاذا كان ابن التمار يدعو الى الثأر من مثل هذا الزمن المتحمل بالويلات بوساطة الشرب واللهو فانما يدلل على وسيلة جديدة للهزيمة من هموم العصر ، واتخاذ سفينة المجون واللهو مركبا للابحار عبر الخيالات والاحساسات الآنية التي تبعثها لحظات اللهو والشراب .

ويكاد ابن سكرة يتفق في الدعوة للهروب مع ابن التمّار الواسطي حين يقول (٢) :

خُذْ منَ الدهرِ ما صفا لكَ منه　　ودعِ الفكرَ في بناتِ الطريقِ
أي شيء يكونُ أطيبَ من كأسِ رحيقٍ شيبت بريق عشيقِ

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٧١ .
(٢) اليتيمة ٣ / ٨ .

والكؤوس بضروبها والعشاق بأنواعهم ذكور وأناث تعج بهم مدن العراق المختلفة ، ويكاد الانسان عند مطالعته أحوال المجتمع العراقي آنذاك يتصور هذا المجتمع ومجتمع بغداد بخاصة مؤلفا من عاشق ومعشوق يلفهما جـو صاخب من اللهو والمتعة .

يا مجمعَ الحسنِ يا بغدادَ يا بلــدي ما الصبر عنكِ وعمن فيكِ بالحسنِ
يا خيرَ موطنٍ لهوٍ كنتُ آلفُـــه لا زالَ مغناكِ تُسقى الغيثَ من وطن
كم من حبيبٍ تركناه لديكِ وفي سكان دارك كم لي اليوم من سكنٍ (١)

وليست بغداد وحدها موطن اللهو ومكانه ، فالبصرة وواسط والأنبار وغيرها من المدن العراقية الأخرى كانت تفتح صدرها لكل طارق يروم المتعة ، كما سنرى ذلك في فصل قادم .

البغاء (٢) :

في عصر مثل القرن الرابع بلغ التبذل والاستغلال الطبقي والمجاعات حد قاتلاً ، خانقاً ، لا بد أن ينتشر في وسطه البغاء — والبغاء ينتشر ويستفحل في المجتمعات الطبقية وخلال المجاعات والنكبات — وقد ترك لنا شعر المجون دلائل كثيرة على وجود البغايا داخل القصور وخارجها ، وتشم رائحة البغاء من أشعار ابن الحجاج وأوصافه للنساء المتعهرات ، فاذا أراد أن يصف لنا متعته مع فتاة جميلة صغيرة ، صورها لنا بألفاظ عاهرة وقال (٣) :

---

(١) حكاية ابي القاسم البغدادي ٢٥ .

(٢) يؤكد لنا وجود البغاء ما ذكره الصولي عن قوادين « تغايرا على قحبة » كل منهما يريدها لصاحبه وكان صاحباها من كبار اللصوص فعان هذان اللصان « كل واحد صاحبه فجرت بينهما حرب وأمور قبيحة » ينظر اخبار الراضي ٢٧٧ . ويؤكد لنا وجود البغاء قصة عضد الدولة مع اخت سيف الدولة ، وما كان من محاولته اجبارها على التردد على دار القحاب ، وينظر في البغاء ما ذكره الجرجاني في المنتخب من كتابات الادباء ص ٣٥ .

(٣) الديوان مخ رقم ٤٣٧ / م ورقة ٥٨ .

خَرَجَتْ في قميصها الدُرَباذي   وعلى رأسها وقايةُ لاذِ (١)
وبكورٍ (٢) ولا عِمامة كهلٍ   حسنِ الزيِّ من بني هرّاذ
وثلاثٍ من الخواتيم ِ ما بين   عقيقٍ ومُطبَّق وبجاذي (٣)
فتوهمتُها وقد داخلتني   هيبةُ الكسِّ بنتَ كسرى قباذ
بنت عشر شق استها العذب فيه   عسل من مجاجة النحل ماذ (٤)
ريقها مثل نصف رطل شراب   روّقوه في أسفل الجرذاذ

• • •

وفتاة إذا استها نقرتها   بالمخاصي تطنّ كالفولاذِ
رب يوم حديثها فيه ينسيك أحاديثَ ليلةِ السندباذ

ترتبط الأبيات المتعهرة بلذة العملية الجنسية المختلطة مع الشرب والأنس وما يصاحب ذلك من جو فاحش . وقد ينسى الباحث ما في هذه الأبيات من معان اجتماعية أخرى تبرز في أسماء الملابس والحلى والمسميات الأخرى الموجودة في ثنايا المقطوعة (٥) .

لكن هذه الضجة لا يمكنها أن تغطّي على ملاحظة مهمة تتبين في قول ابن الحجاج (بنت عشر ... البيت) حيث نستدل على أن البغاء بلغ حداً جعل الشاعر يتباهى بمزاولة طفلة (بنت عشر) ، مدربة وخبيرة في هذا الفن (رب يوم حديثها فيه ... البيت) ، فهي اذاً تعرف كيف تسامر المشتري عرضها بطريقة لبقة تسلب العقول وتؤثر في النفوس (٦) ، ومع هذا فهي ليست مثل

(١) لباس من الحرير ، اللسان ٣ / ٥٠٨ .
(٢) الكور : ادارة العمامة على الرأس ، اللسان ٥ / ١١٥ .
(٣) نوع من الحلي .
(٤) الماذي : العسل الابيض ، اللسان ٣ / ٥١١ .
(٥) كالفولاذ الذي يدل على شيوعه ، وليلة السندباد التي تدل على شيوع القصص الخيالية .
(٦) قد يكون تحديد ابن الحجاج للعمر مبالغة ، لكن دربة هذه المرأة على الاغواء والاغراء تبقى بارزة .

عاهرة ابن المطرز مبتذلة تدعو الى نفسها كل أحد (١) :

فقحةٌ مثل عجنــة الحواري حسنُها يترك الصحاةَ سُكارى
لفتــاةٍ لسانهــا أعجمــيّ عبــدة عندَها الملوكُ أســارى
قرّبَتْهــا من العيونِ ومالت فقلوبُ الزنــاةِ فيها حَيارى
أبرزتهــا من الثيابِ وقالت : يا خواجة تشتهي قلت: آري (٢)

انها تشبه الى حد كبير بعيد في لطفها وخفة روحها تلك العيّارة الماجنة الظريفة التي قال عنها أبو الفَضْل الفَضْلي الكُسْكَري (٣) :

يا لعيّارة تقصّر للعاشقِ بالظرفِ والنــوادرِ يومَــه
سئلت عن دواء الخُمار فقالت : كومةٌ ثم نومة ثم عَومَهْ

ولا يقف وصفهن عند الظرف ، والصلافة بل يصل الى حد وصف سهولة الحصول عليهن ، مما يدلل على وفرتهن ، وشدة امتهانهن .

وقد صوّر لنا ابن الحجاج حصوله على واحدة منهن بقصيدة ماجنة نقتطف منها قوله (٤) :

جلستْ وبابي على مدرجــة فمرت بنا ظبية مزعَجَه

• • •

(١) تتمة اليتيمة ١ / ٥٩ .
(٢) آري : كلمة فارسية بمعنى نعم .
(٣) نفسه ٨٦ .
(٤) الكشكول ١ / ١٣٠ ، وينظر في انتشار البغايا ما كتبه ابن الحجاج الى ابن صديق له (يكنى أبا جعفر ، كان مستهتراً بالقحاب) ، اليتيمة ٣ / ٨٣ وما يدلل على وفرتهن أيضا قول ابن الحجاج ، الديوان مخ ٤٣٥ ورقة ١٤ :

فيــا اميرا كثير الغلمان والاصحــاب
وجــه الى سوق يحيى منهم من لا يحابي
فــاي خــان رآه متنكاً بــالقحــاب
وبــالزنا والبــلايــا الكثيرة الاسبــاب
فــاقبضه قبضا حلالا طلقا بغير حساب

يرى خصرها وهو مستحكم على كفلٍ دائمِ الرجْرَجَه
فسلمتُ وارتعتُ من رَدِها وبعض الجوابات مستسمَجَه
فأغضت على حَنَقٍ طرفَها وحيّت بأكحلِه أدعَجَه
وقالت : أتزني بُعَيْدَ الشباب فقلت : فغربُتنا محوِجه

• • •

فمالت كما مالَ غُصن الأراك فجئنا إلى حجرةٍ مسرجه
ودار الشرابُ فظلّت تكيلُ عليّ وتشربُها مزوَجَه
إلى أن لوت جيدها وأنثنت من السكر كالناقة المحدَجَه
وقامت تغنّي على نفسها : متى تركبُ الناقةُ المسرَجه

ان هذه الأبيات تبين لنا أيضاً انهن – ونظراً لكثرتهن – بدأن أسلوباً جديداً في امتهان أنفسهن ذلك هو سيرهن في الدروب مبرزات مفاتن أجسادهن بقصد الاغراء ، مستعملات في الفاظهن الحدة والخشونة أو غير ذلك من الكلمات التي تجلب الانتباه ، وتثير في نفس السامع نوعاً من المشاعر المتباينة التي تدفع الانسان الى التمسك بصاحبة الرد (وارتعت من ردها .. وبعض الجوابات مستسمجة) في محاولة للحصول عليها بأي ثمن .

ومع حصول الرجل على المتع الجسدية ، وما يرافقها من لهو وأنس لم يقنع أو يعتدل في تصرفاته وشبقه الكلامي ، فلقد أسرف في ايراد وذكر أعضاء الرجل التناسلية في الكثير من شعره ، كما فعل مثل ذلك بأعضاء المرأة وعوراتها ، فاذا أراد ابن الحجاج أن يدعو الى اللهو ويحسنه أمام أنظار مريديه ، وصف لهم عضو المرأة وقال (١) :

حرُه في الشتاء إذ وقع الثلـج قريبٌ في الصيف من حرّ آب
تحرق الزبّ نارُه كل يوم فيشم الجيران لحمَ(٢) الكباب

(١) تلطيف المزاج مخ رقم ٤٣٦ / م ورقة ١٤ ، درة التاج مخ قطعة رقم ٥٥٦ ورقة ٣٨١ .

(٢) في درة التاج : ريح .

وان أراد أن يهجو امرأة ويفضحها وينفر الناس منها ويريهم مواطن قبحها جاء الى عوراتها يكشفها فيصف عضوها قائلاً (١) :

يفترّ عن صدغ مهزول، به عجف | وقد تفقأ عنها بظرها سمنـا
يرغو ويزبد شدقاه إذا اختلفا | كأنه شدق مفلوج حسا لبنـا

وهكذا يصل الكلام ارذل مراحله ، ومثلما يكون أصحابه مغمورين بعفن الفجور والفسق يكون هو فاجراً فاسقاً وضيعاً، فيدلل على مرحلة زمنية كثر فيها الشذوذ اللفظي مثلما كثر الشذوذ الاخلاقي .

الغلمانية :

ليست عملية استعمال الغلمان أو اللواط بهم جديدة أو غريبة على المجتمعين العراقي والاسلامي دخلت اليهما «مع الأقوام الدخيلة على العرب من الفرس وغيرهم» كما يدعي بعض الباحثين (٢) ، انها عادة تتحكم بها ظروف المجتمع (أي مجتمع) السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا يغرب عن بالنا اتهام الكثير من سادة العرب ووجوهها — في الجاهلية وصدر الاسلام — بالأبنة أو اللواطة (٣) ، وكذلك لا يغرب عن بالنا وجود المخنثين أيام الرسول أو بعدها ، أو ولع أبي نواس والخليفة الأمين (٤) وغيرهما بالغلمان ولعاً غريبا ظل يلازم تاريخ حياتهم (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ٢ / ١٠٥ ، وفي وصف الاعضاء التناسلية للمرأة ينظر كنايات الثعالبي ص ١٦ .

(٢) تنظر رسالة الشعر الشعبي في العراق في القرن الرابع رسالة ماجستير إعداد حميد الهيتي ص ٨٤ .

(٣) المحاضرات ١ / ٢٠٣ ، لطائف المعارف ٩٨ ، وقد ذكر الثعالبي كثيرا من هؤلاء السادة وقسمهم بين لوطي و مأبون .

(٤) وليس المأمون كما اثبت حميد الهيتي .

(٥) حاولنا أن نذكر أمثلة فقط ممن ولع بالغلمان و لو أننا عددنا من ركض وراء الغلمان لما تمكنا الحصر ولما خرجنا بنتيجة . وينظر في الابنة المنتخب ٣٥ .

ان استعمال الغلمان للخدمة أو المتعة موجود في كل المجتمعات الطبقية وبخاصة تلك التي تستفحل فيها الحروب والمجاعات والمظالم . فقد انتشرت عادة اللواط مثلاً في المجتمع اليوناني زمن حرب طروادة . كما انتشرت في المجتمع الفارسي وبخاصة في جيش أبي مسلم الخراساني حين منع خروج النساء مع الجيش واستعيض عنهن بالغلمان للخدمة أولاً ثم استفحل الامر ففسق بهم (١) .

وكذلك كانت عادة اللواط مشهورة في بلاد الافغان في القرنين الثالث والرابع (٢) . وليس أدل على شهرتها عند العرب من ورودها في القرآن عادة مستفحلة في قوم لوط الذين ارسل لهم الله نبيه « لوطاً » كي يهديهم سواء السبيل فما اهتدوا فعاقبهم الله على عصيانهم عقاباً شديداً (٣) .

واذا كان المجتمع العربي الجاهلي أو الاسلامي يعرفها فانه مع ذلك لم يعرها تلك الأهمية ، لانها لم تستفحل بين أفراده وحدّ من انتشارها واذاعة أسرارها فيه ، قيم وأعراف عشائرية ودينية .

أما وقد ألغي كثير من الأعراف ، والقيم والالتزامات ومال المجتمع نحو التدهور الاخلاقي ـ لتدهوره الاقتصادي والسياسي ـ فانها قد بدأت تبرز بهذا الشكل أو ذاك ، وبنسب متفاوتة تبعاً لتفاوت الاوضاع الاقتصادية والمظالم الاجتماعية .

وحين حل القرن الرابع ، كان المجتمع العراقي قد وصل مرحلة من التناقض والتباين جعلت لكثير من المسائل الشاذة مكاناً بيّناً داخل اطار هذا المجتمع البائس ، وكان من هذه المسائل الشاذة الغلمانية .

وعلى هذا فمن الخطأ أن نلقي تبعة انتشار الغلمانية بما فيها عادة اللواط على الفرس أو غيرهم من الأقوام ، ونحن نملك نصاً يبيّن أن بغداد كانت أكثر

---

(١) الحضارة الاسلامية آدم متز ٢ / ١٦٠ .

(٢) الحضارة الاسلامية لمتز ٢ / ١٦٠ .

(٣) القرآن الكريم : الاعراف ٨٠ ، النحل ٥٤ ، العنكبوت ٢٨ .

تدعراً وغلمانية من منطقة فارسية هي أصفهان .

فقد جاء على لسان أبي القاسم البغدادي في حديثه الى أهل أصفهان موازناً بين مدينتهم ومدينة بغداد قوله (١) : « ما أرى والله على رأس أحدكم غلاماً نظيفاً غنج الحركات حلو الشمائل خنث الاعطاف بابلي الطرف » .

« ذو طرّةٍ قاطرةٍ بالعنبرِ ومَلْثَم يكشفه عن جوهر
وكفل يشغلُ فضلَ المئزر تُخبر عيناه بفسقٍ مضمرِ » (٢)

أما اذا كانت بعض مناطق بلاد فارس ، أو بعض البلدان الاخرى مبتلاة بمثل هذا الشذوذ الاخلاقي فلأنها مبتلاة قبل كل شيء بالمآسي الإجتماعية والإقتصادية التي تخلق الشذوذ الأخلاقي وغيره من أنواع الشذوذ .

وإذا أردنا أن نرى أثر الحالة الإجتماعية في النّاس وشذوذهم استطلعنا ما كان عليه الأتراك أول ورودهم العراق (٣) ثم ما كانوا عليه بعد أن عايشوا مجتمع العراق وتطبعوا وتأثروا بأوضاعه المختلفة ، حيث وصل بهم الأمر مع ما يملكونه من سطوة إلى أن يغدو بعض غلمانهم ممتهناً الدعارة شاذاً أيما شذوذ (٤) .

بعد كل هذا وجب القول بأن وجود الغلمان في مجتمع متهريء متحلل اجتماعياً ، متأزم اقتصادياً وسياسياً مثل مجتمع العراق في القرن الرابع ليس غريباً ، ولا يقع وزره على قوم أو ملّة ، فالوزر كله يقع على عاتق الطبقة المسيطرة المستغلة عربية كانت أم فارسية أو ديلمية أم تركية ، فقد كانت هذه الطبقة ترى من مصلحتها تحلل المجتمعات التي تحكمها « وتمييع » روح التمرد عندها ، لترتع بما يدره عليها هذا التحلل من سقوط اجتماعي يكون حصيلته

---

(١) حكاية أبي القاسم : ٦٥ .

(٢) نفسه ٦٦ .

(٣) تنظر رسائل الجاحظ ، رسالة مناقب الاتراك ص ٧٧ وما بعدها .

(٤) سيأتي ايراد الامثلة على ذلك ، وللتأكد من انتشار عادة اللواط ينظر ما كتبه الثعالبي في كناياته ص ٢٢ ، ٥ و ٢ ، والجرجاني في منتخبه ص ٢٧ .

المال والنساء والغلمان .

كما يجب علينا ألا ننسى أن المجتمعات البشرية بما فيها المجتمع العراقي كانت في طريقها الى تحولات وتبدلات خطيرة من موقع اجتماعي الى موقع آخر لذلك فالتحول الذي حصل في المجتمع العراقي الزراعي العشائري خلق منه مجتمعاً جلبت له الحضارة الجديدة الصناعة ـ على بدائيتها ـ وطورت تجارته ووسعتها ، ووطدت الاقطاع وثبتت أركانه ، كل هذا التحول كان لا بد أن يصاحبه انحرافات خطيرة في مسيرة أخلاقه وطبائعه .

وقد يكون لبعض التقاليد الاجتماعية أثر في الانحراف نحو الغلمان ويؤكد لنا ابن الحجاج(١)في محاورة شعرية مبتذلة وجود عادةالختان بين النساء، مما يسبب برودتهن وملل الرجال من مزوالتهن : جاء في هذه المحاورة لى لسان عضو المرأة :

ولكنّي رأيتُ الحرَّ فينا يسامُ الخَسْفُ حالاً بعد حالِ
فَيُقطَعُ أنفُه طفلاً ، وينثنو كبيراً وهو منتوفُ السبالِ

ولم يكن الأدب بعامة والشعر بخاصة بمعزل عن التشبع بالروح الغلمانية السائدة المألوفة ، بل ان من كان يقول في الغلمان ويقدّمهم على الجواري يوصف بالظرف وخفة الدم وقبل هذا القرن قال «الأدباء الظرفاء» في الغلمان فأحسنوا ، ووصفوهم فأجددوا وقدموهم على الجواري في الجد والهزل (٢)

وفي القرن الرابع فعل الأدباء والشعراء ما فعل أسلافهم ، فأكثروا القول في الغلمان ، وتعددت أقوالهم وتنوعت وصارت نبرة شعرية اجتماعية طاغية ترسم لنا صورة مجتمع ذي اتجاهات وأطوار وعادات لا يصدقها عقل سوي .

فالفرد في هذا المجتمع مثلاً لا يعدم اشباع رغبته الجنسية فاذا فاته تحصيل ظبي مقنع فهمته تحصيل ظبي معمم (٣) .

(١) اليتيمة ٣ / ٧٤ ، والمحاورة بين عضو المرأة وعضو الرجل .
(٢) مفاخرة الجواري والغلمان ٢٧ .
(٣) المحاضرات ٣ / ٢٤٤ .

وتحصيل ظبي مقنع أو معمم لا يكلف في مكان على شاطيء دجلة غير درهمين (١) . :

مجلسٌ في فنـاء دجلةَ يرتـاح اليـه الخليعُ والمستورُ

• • •

ليس فيه الاّ خُمار وخمر وممات من نشوةٍ ونشورُ

• • •

ولك الظبيةُ الغريرةُ إن شئتَ وان عفتها فظبيٌ غريـرُ
فتمتع بما تشـاء نهـارا ثم بت معرساً وأنت أمـير
كل هذا بدرهمين فإن زدت فأنت المبجلُ المحبور (٢)

واذا كان الانسان يستطيع أن يلقي بنفسه المحمّلة بالهموم في مثل هذه الاماكن يرتع بلهوها ويتمتع بمباذلها وفجورها ، فانه يعطينا صورة للبغاء العلني الذي تمتزج فيه صور الفسق والدعارة النسائية والغلمانية .

وحيث بلغ الامر هذا المبلغ فان بعضهم لا يتحرج من التصريح باغوائه الغلمان مستغلاّ العلم والدين والأدب مرة واحدة .

فاذا أراد المفجّع أن يصف مجونه وعبثه داخل جامع البصرة قال بلا حياء أو احتشام (٣) :

ألا يا جامـعَ البصـرة لا خـرّبَكَ اللـهُ
وسقى صحنَك المـزنُ من الغيثِ فـروّاه
فكـم من عاشقٍ فيك يـرى مـا يتمنـاهُ
وكـم ظبي من الإنس مليـحٍ فيـك مرعـاه
نصبنا الفخّ بالعلـم لـهُ فيك فصدنـاه

---

(١) الحضارة الاسلامية ٢ / ١٦٢ .
(٢) الأدب في ظل بني بويه ٢٥١ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٣٦٤ ؛ المحمدون ٣٢ .

بقــرآن قـــــرأنـــــاه وتفســـير روينـــاه
وكـــم من طالـــب للشعـــر بالشعـــر طلبنـــاه
فمـــا زالت يـــد الايـــــام حتى لانَ متنـــاه

• • •

وحـــتى ثُبِّـــتَ الســـرجُ عليهِ فركبنـــاه

واذا دهمه وهو في نشوة التعبير عن أعماله نوع من الحياء أو شيء من الخوف ، وعاد الى وعيه لحظات قصيرة قال محاولاً تكذيب نفسه :

ألا يا طالبَ الامـــردِ كَـــذب مـــا ذكـــرناهُ
فلا يغـــررك مـــا قلنـــا فمـــا بالجـــدّ قلنـــاه

ولكنه وهو يعود شاعراً بالذنب متحسساً نتانة لفظه يسقط ثانية في « مستنقع » الغلمانية ، فيصف لنا طريقة أخرى نرى فيها امتهان الفجور واضحاً جلياً .

فـــزّج الدرهـــمَ الضـــربَ اليـــه يتـــلاقـــاه
فبالدرهـــمِ يُستنـــزل مـــا في الجوّ مأواه
وبالدرهـــم يستخـــرج ما في القفر مثواه (١)

ومهما يكن صدق المفجّع في أقواله الاولى ، ومهما تكن القيمة الفنية لكلماته فانها تظل معبرة عن شيوع الغلمانية بين أهل العلم والأدب والدين .

ولقد أيد لنا التاريخ هذا القول ــ وان كان أنبل مما رسمه المفجّع ــ فقد ذكر أن محمد بن داود الاصبهاني الفقيه ت ٢٩٧ كان يهوى محمد بن جامع ولأجله صنف كتاب الزهرة (٢) .

وعشق أبو بكر محمد بن السري السرّاج ت ٣١٠ مغنياً اسمه إياس وقال

---

(١) المحمدون ٣٢ ، اما اليتيمة فقد أورد محققها هذا الجزء مشوه المعنى .

(٢) تكملة الطبري ١٠ .

فيه الشعر (١) . وكان احمد بن كليب النحوي يهوى غلاماً اسمه أسلم وقد مات حين امتنع أسلم من لقائه (٢) . ومثل ذلك كان أمر الوراق الاديب الذي أحب فتى نصرانياً (٣) .

ولم تكن حظوة الغلمان عند محبيهم أقل من حظوة محمد بن جامع أو أسلم أو غلام الوراق أو غلام معز الدولة أو غلام بختيار ، فالخبزأرزي « وهو الذي » ما كشف قناع العزبة قط لقصور همته على المذكر دون المؤنث (٤) ، يقول بولاية غلامه عليه لأنه جاء اليه يوماً دون سابق وعد أو تنبيه ، يقول الخبزأرزي :

خَليليّ هل أبصرتما أو رأيتما ... بأكرم من مولى تمشّى إلى عبدِ
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي : ... أصونُك عن تعليقِ قلبِك بالوعد (٤)

وبسبب هذا الحب العاصف ، وهذا الولع الغلماني لا يمكننا أن نستغرب اذا تجنى غلامه عليه فلقد « رأى منه ذلة (٥) فراضه بالأمان والتخويف ، وبالخِصر المؤزّر الذي يحكي قوةَ الشوق بالفؤاد الضعيف (٦) » حتى صار يهذي بذكره في الركوع والسجود (٧) ، ولم يعد يفرق حين يرى الهلال ووجه الحبيب أيهما الهلال لأنهما هلالان عند النظر (٨) .

وقد يأخذه وجده « الغلماني » هذا الى عالم لذيذ من الانفعالات الوجدانية الصادقة فيكتب لنا قصيدة يضع فيها كل مشاعره تجاه غلام اسمه (مظفر) يقول (٩) :

---

(١) المحمدون ٣٤٥ . (٢) معجم الأدباء ٤ / ١٠٨ .
(٣) تنظر القصة مع ترجمة احمد بن كليب في معجم الادباء ٤ / ١٠٨ وما بعدها .
(٤) اليتيمة ٢ / ٣٦٧ .
(٥) نفسه ٣٦٨ .
(٦) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٩٧ .
(٧) المحاضرات ٣ / ٥٧ .
(٨) معجم الأدباء ١٩ / ٢٢٠ .
(٩) قصيدة للخبزأرزي مخ في المكتبة الظاهرية رقم (٣٣٢٣ شعر) ولدي نسخة مصورة منها ، وهي تقع في أربعة وثلاثين بيتا أوردت ما رأيته مناسبا منها .

نسيم عبيرٍ في غِلالة مـاء   وتمثالُ نورٍ في أديمِ هواء

• • •

لقد رحم الرحمنُ رقةَ جسمه   فجلّله من نوره بـرداء
بدا(١) ملكوتُ الحسن في جبروتِه   فمن نورِ نورٍ في ضياء ضياء
تسربَلَ سربالاً من الحسن وارتدى   رداني جمال طُرِّزا ببهاء
تحيرتُ فيه لستُ أُحسنُ وصفَه   على أنني من أوصف الشعراء
فلو أنه في عهد يوسف قَطَّعتْ   قلوبُ رجال لا أكفُ نساء

• • •

له حركات تنثر الشكل بينها   اشاراتِ لطف واتقادَ ذكاء
تلألأ كالدر النقي بشاشةً   وشُرِّبَ خداهُ عقيق حياء
له غُرّة من تحت شَعْر كأنه   تبَلّجُ صبح تحت جنح مساء
فأحسبه من حور عين وإنما   أتى هارباً في خلسة وخفاء
فلَمْ أره الاّ التفتُ توقفاً   لرضوانَ خوفاً أن يكون ورائي
سيُؤخذُ منّا ليس رضوانُ تاركاً   على الأرض حُورِيّاً ربيبَ سماء

• • •

فيا ميمَ مولاي ويا ظاءَ ظالمي   ويا فاء فوزي ثم راءَ رجائي (٢)
فديتك من هذي الصفات صفاتُه   من الحسن لِمْ يلقى بقبح لقاء ؟
أمن أجل ذاك الوعد أظهـرت حشمة ومن ذاك حتى تتقي وترائي ؟

• • •

فيا نفسُ صبراً إن يعيش مظفري   وان مت وجدا كنت في الشهداء
إذا ما لقيتُ البؤسَ عند أحبتي   ترى عند اعدائي يكون رجائي ؟
إلى الماء يسعى من يغصّ بأكلةٍ   فقل أين يسعى من يغص بماء ؟

---

(١) في الاصل (بدى) .
(٢) عند جمع الحروف يخرج اسم «مظفر» .

واذا كان غلام الخبزأرزي وهو بهذه الصفات الحسنة من الجمال ينزل عن محله « السامي » فيأتي لزيارة (عبده) بلا وعد فيغمر هذا العبد بالفضل والمنة فان غلام المفجّع البصري أكثر عجرفة من غلام الخبزأرزي فهو لا يلين ولا يرق لحالة عبده – المفجّع – الاّ بعد أن يقول له (١) :

سيدي أنت إن عبدَك أمسى خافقاً قلبه خفوق الجَناح
فاغتنم غفلةَ الرقيب وزره في رداء من الدُّجى ووشاح

ولا تقف هذه العبودية عند الاستعطاف فقط فلقد أوصلت صاحبها العاشق حداً تسلب فيه ارادته وتنتهي قدراته أمام العشق الغلماني . فلقد كان محمد بن الحسن الاقساسي العلوي ت ٤١٥ يقول لغلام اسمه بدر (٢) :

يا بدرُ وجهُك بدرُ وغنجُ عينيك سحرُ
أُمِرت عنك بصبر وليس لي عنك صبر
تأمرني بالتسلي مالي مع الشوقِ أمرُ

وقد يكون كل هذا الذل في العشق، وكل هذه العبودية للمعشوق مسألة فردية ، تبرزها للقاريء هذه الأبيات أو غيرها لكننا لا نراها كذلك فلقد أولع الناس بالغلمان ، ولم يعد غلام فلان الفلاني حكراً عليه ، يتغزل به أو يهواه فالناس الذين يرونه صاروا يحبونه ويتيّمون به ويتشهّونه حتى وان لم ينالوه .

وابن سكّرة حينما يحب غلاماً يعرف بابن برغوث وهو (من مشاهير الملاح) يخاف التصريح باسمه ليلا يتعشقه الناس فهو يغار عليه غيرة تجعله ان أراد أن يتغزل به يلغز فيقول (٣) :

بُليتُ ولا أقولُ بمن لأني متى ما قلت من هو يعشقوه
حبيبٌ قد نفى عنيّ رقادي فان غمّضتُ أيقظني أبوهُ (٤)

(١) اليتيمة ٢ / ٣٦٥ ، المحمدون ٣٨ .
(٢) المنتظم ٨ / ١٩ .
(٣) اليتيمة ٣ / ٩ .
(٤) يعني البرغوث .

أما السلامي فغلامه جميل ، جماله إن برز أضرّ بمن يراه . وجعله مهموماً مشغول البال عاشقاً ، فاذا رام وصله ناشته سهام ألحاظه القاتلة :

ظبي اذا لاح في عشيرته يطرق بالْهَمّ قلبَ من طرقه
سهام ألحاظه مفرقةٌ (١) وكل من رام وصله رَشَقَه (٢)

لم تعد هذه المشاعر الغلمانية التي يترنم بها الشعراء فردية ، ولو كانت كذلك لاقتصرت على شاعر أو عدة شعراء لكنها وهي تحيط معظم الشعراء ، تدلل على ظاهرة اجتماعية وبائية ، تتفاوت في درجاتها بمقدار أخلاقَ الفرد . تبلغ مثلاً عند أبي الفضل عبد الواحد التميمي حدّ النظر الى وجنتي غلامه والتمتع برقتها وجمالها (٣) ، وتبلغ عند ابن المطرّز حداً (عذرياً) يدفع به الى الاحتشام من غلامه ، ولولا هذ الاحتشام لأفناه نظراً (٤) ، واذا كانت هذه الغلمانية تبدو بشكل عفيف فيه شيء من الأحاسيس الوجدانية النبيلة — في ذلك العصر — ، فلقد وصلت بأبي عبد الله الحامدي أن يبيت معه غلامه ساقياً معانقاً .

سقاني وحياني وباتَ معانقي فيا عطف معشوق على ذلّ عاشق (٥)

ولذلك فقد فوّض له أمره لأنه عاشق (خانه الصبر) (٦)

كما وصلت بابن نُباتة السعدي درجة من الذلة قال معها (٧) :

وبدر تمام بتّ ألثم رجلَه وأكبره عن أن أقبلَ خدّه

وتتطور هذه المشاعر الذليلة ، والفاظها بتطور الغلمانية في المجتمع ، واذا

---

(١) أظنه يريد مفوقة .
(٢) تاريخ بغداد ٢ / ٣٣٥ .
(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٦٤ .
(٤) نفسه ٥٧ .
(٥) تاريخ بغداد ٢/٣٧٤
(٦) تاريخ بغداد ٢ / ٣٨١ .
(٧) ثمار القلوب ٤٨٧ ، الكنايات ٣٤ ، المنتخب في كنايات الادباء ٢٨ .

كانت عند من ذكرنا من الشعراء مصبوبة بقوالب لفظية مقبولة فانها تتحول حين يعم الولع بالغلمان وتكثر مجالسهم وتنتشر معهم الرذيلة الى الفاظ وضيعة تهبط بصاحبها الى حضيض الرذائل والشهوات الحيوانية ، وتصل الى الوصف المبتذل لعمليات اللواطة كما في قول أحدهم (١) :

قد حرتُ في وصف صديقٍ لنا مطرّز التكـةِ بالعسجدِ
في الحسن طاووس ولكنـه أسجدُ في الخلوة من هدهدِ

أو في قول ابن سكرة وهو يصف شيخاً مأبوناً (٢) :

لنا شيخٌ يصلي من قعـودٍ وينكحُ حين ينكحُ من قيـامِ
صَمَوتُ فمٍ أخو عِيٍّ ولكنْ له دبرٌ يطفـلُ بالكـلامِ

وحين تصل الغلمانية هذه الدرجة ، وينحط شعرها الى الوصف الهاوي الساقط اللفظ تتضح لنا كثير من المعالم الاجتماعية عند رواد « مستنقع » الغلمانية ، وتبدو لنا أيضاً مجموعة من طبائعهم ونزعاتهم في حبهم للغلمان وتمتعهم بهم فهناك من يشعر بلذة قصوى وهو يعبث بغلامين في آن واحد كما كان يفعل ابن سكّرة الذي يقول (٣) :

من كمثلي وعن يميني شمـسٌ تتجلى وعـن شمالي بـدرُ
بـتُّ يجري عليّ من ريقِ هـذين وكأسي شُهدٌ ومسكٌ وخمرُ

وهناك من يهيم وجداً ، ويلتهب شوقه ، وتتأجج عواطفه الجنسية حين يواتيه الحظ فيتعرف على غلام بدأ الشعر يغزو وجهه ، فيزيده حسناً ، يغري الناظر المحب الذي ينهار أمام صبواته فيقول مثلما قال ابن سكرة (٤) :

وغـزال لولا تميمـة شعر ذكـرّتْه لقلتُ بعض الجواري

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٩ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٥ .
(٣) نفسه ٢ / ٤ .
(٤) تتمة اليتيمة ١ / ٦٣ .

شاربٌ أشربَ الصبابـةَ منّي وعِذارٌ خلعت فيـه عِـذاري

أو مثلما قال أبو الفضل التميمي (١) :

هام قلبي بحسن ذاك العِـذارِ حين لاح اخضراره في احمرارِ

وقد يبلغ الشذوذ بعشاق الملتحين حدّ كتمان هوى الصبي وهو أمرد فاذا التحى أظهر حبه، وبثّ شوقه ولوعته كما كان يجري مع ابن سكرة (٢) :

كتمت هـواه زمانَ الصبـا وصرحت بالحب حين التحـى

وقد يصل هذا الشذوذ مرحلة تجعل جحظة يستمر في مزاولة غلامه حتى بعد أن يصل الى الثلاثين من عمره ، وهو بعد ذلك يقول (٣) :

يقول لي يوماً وقد جئتـه : تلوط بي بعـد الثـلاثينـا

فقلت : ان دمتَ كـذا طيّبا نكناكَ من بعـدِ الثمانينـا

وعلى عكس جحظة كان ابن سكرة ، فمع حبه للملتحين كان إذا كبر غلامه ورأى فيه ما ينفر تركه وانتقل الى غيره مسوغاً هجرانه بقوله (٤) :

مـا تركنـاه وفيـهِ لمحبٍ من طبـاخْ

هـلرَ الطـير ومن عاداتِنا كـل الفـراخ

« والفراخ » بعد ذلك كثيرون ، مرد ، وملتحون ، كبار كما رأينا ، أو صغار لم يبلغوا الحلم يستغلهم طلاّب الشهوات لمتعهم الرخيصة .. ومنهم كان غلام الخبزأرزي :

قالوا : عَشِقت صغيراً قلت : ارتع في

روضِ المحاسـنِ حتى يُدركَ الثمـرُ

---

(١) اليتيمة ٣ / ٥ .

(٢) المحاضرات ٣ / ٢٤٨ .

(٣) اليتيمة ٣ / ٤ ، الكنايات للثعالبي ٢٧ ، نهاية الأرب ٢ / ٨٨ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٣٦٧ ، المنتخب من كنايات الادباء ٣٣ .

ربيع حسنٍ دعاني لافتتاح هوىً
لمّا تفتّح منه النَّوْرُ والزهَرُ (١)

وقد يكون بعض هؤلاء الغلمان مجدّراً يزيده ما خلفه الجدري حسناً ، تزداد معه هموم عاشقه كما كان غلام المفجّع البصري (٢) أو يكون أعرج يبرر صاحبه عشقه له بأنه يريده « للنوم لا للجري في الميدان » كما كان غلام ابن سكرة (٣) .

ومن هؤلاء الغلمان من كان مختصاً بعاشق واحد ، ومنهم من كان يتكسب ويؤجّر نفسه لمن يدفع كالذي يقول فيه ابن سكرة (٤) :

سألتُه الوصلَ فلم يحتشمْ وقال : قدِّم نقدَكَ الوافي

أو الذي يكتب على تكته (٥) :

قفلت يا قوم على تكّتي لكنما مفتاحُها الدرهَمُ

ونستدل بعد ذلك على ما وصل اليه الغلمان من بيع نفسهم بما قاله ابن سكرة فيمن اكتسب مالاً بالإجارة فقطع عليه الطريق (٦) :

وضامن الاقوات والارزاقِ لا أفلحت دراهم البُزّاقِ

وكما كان الغلمان مختلفين في أشكالهم وأعمارهم وطبائعهم كانوا مختلفين في مذاهبهم وانتماءاتهم وجنسياتهم ، فمنهم العباسي العربي الذي « لما التحى أصبحت عمامته السوداء تجلى مخضرة الحبك (٧) » ، فما صبر السلامي على جماله وما قدر أن ينسى حبه والهيمان به ومغازلته ومنهم العربي البدوي الصلب ، الشديد المراس ، الذي يعلق به السلامي أيضاً فما يزال به حتى

---

(١) اليتيمة ٢/٣٦٧ ، المنتخب من كنايات الأدباء ٣٣ .

(٢) نفسه ٢ / ٣٦٥ ، المحمدون ٣٢ ، والابيات التي قالها المفجع في غلامه حين جدر نسبها صاحب « المحمدون » ايضا ص ٣٤٥ لأبي بكر السراج .

(٣) اليتيمة ٣ / ٦ .

(٤ / اليتيمة ٣ / ٦ . ومثل ذلك ما قاله ابن الحجاج ، ينظر المنتخب ٢٧ .

(٥) المحاضرات ٣ / ٢٤٦ .

(٦) المحاضرات ٣ / ٢٤٥ .

(٧) اليتيمة ٢ / ٤٠٥ .

يغويه ويقول (١) :

تعلقتُــه بدويَ اللســان والوجــه والزي ثبــتَ الجنــانِ
أعانــق من قــده صعــدةً ترى اللحظَ منهــا مكان السنانِ
أدار اللثــام على ثغــره فأهــدى الشقيق إلى الاقحوانَ

ومنهم الفارسي الغنج ، الذي يمتهن نفسه ، ويبيعها لقاء دراهم ، فاذا أراد ابن سكرة أن يواصله ، وعجز عن دفع ثمن الوصل وما نفعه شعرُه وغزله أخذته الحسرة ، واشتدت لوعته وهمومه وقال (٢) :

إني بُليــت بشــادنٍ غنــج حسنِ الشمائــلِ وافــرِ الكفلِ
يبغي الدراهــمَ وهيَ معوزةٌ عنــدي فحبلي غيرُ متصــلِ
مستعجم الألفــاظ ، أجهل ما يبدي ويجهل فهمُــه غــزلي
وإذا مدحــت فليس يفهمــه والفارسيــةُ ليس من عمــلي

ومنهم التركي الذي يشرب معه ابن سكرة فيريد مواصلته لكنه يجبن أمام بأس الأتراك وصولاتهم فيقول هامساً (٣) :

ايهــا التركــي مــا عندك للصّــب النحيلِ ؟
هــل إلى مــا يستر القرطقَ عني من سبيــلِ ؟
اشتهــي ذاك وأخشــى صولــةَ الليث الثقيــل

وندرك كيف كانت هيبة الأتراك ، ونعرف ما في نفوس الناس من خوف منهم ، لكننا نرى بعد ذلك ان هذا الجبروت يذهب أمام جرأة السلامي ومقدرته على الصيد فهو لا يتهيب مثلما كان ابن سكرة ، ولا يرتج عليه منطقه الذي اعتاد الكلام في مثل هذه المواقف فاذا رأى (طرة تركي) (بطل حمائله كعارضه ، وحاجبه الازج كقوسه المرنان) ألفها ، ودفعته شهرته بعنف نحو صاحبها فخادعه حتى انخدع وجره بعدذلك الى ميدان الغواية وقال (٤) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ٤٠٣ .
(٢) نفسه ٣ / ١١ .
(٣) نفسه ٣ / ١٠ .
(٤) اليتيمة ٢ / ٤٠٧ .

علقت مفترس الضراغـم فارساً　　رحبَ المـدى والصدرِ والميدانِ
قمرٌ من الأتراك تشهد أنّـه　　الخود الحصان على أقبَّ حصانِ

* * *

حييته فدنا وأمطرَ راحـتي　　قُبلاً فليت فمي مكان بنـاني
وخدعتُه بالكأس حتى ارتاض لي　　ودرأت عنّي الحدَّ بالكتمـان
والمرء مـا شغلته فرصـة لذة　　ناسي العواقب آمن الحـدثان

ونتبين من خلال الأبيات وجود المغامرات الغلمانية ، وما كان يتبعها ، وتتوضح هذه المغامرات أكثر حينما نقرأ عن مغامرة أخرى للسلامي مع نوع جديد من الغلمان المنتمين الى فئات صلبة الشكيمة شديدة البأس ، فهو يصف لنا ما قام به مع غلام عيار بشعر يبين به بعض أحوال العيارين فيقول (١) :

يا مرهفـاً في لحاظه مرهف　　ومخطف القدِّ سهمـه مخطفْ

* * *

ومسرف الحسن لا يـلام إذا　　جار على عاشقيـه أو أسرفْ
عقّـف كلاّبـه وارهفـه　　فقلت : يكفيك صدغك الأعقف
ومال كفـي على سوالفـه　　والموت من دون لمسهـا يسلف
فمرّ مرّ السحاب يسحب فضـل الكُم عُجبـاً وفاضل المطرف
وقال والورد قـد تعصفـر في　　خـديه غيضـاً وآن أنْ يقطف
مثلك يُلقي يداً عليَّ ؟ أمـا　　يخـاف من ناظريّ أن يتلفْ
لو مرّ بي الليث مات خوفاً ولو　　أبصر طيفي في النوم لم يطرفْ

* * *

فقلت : مهلا فلست أولَ من　　اخطـأ جهلاً من قبل أن يعرفْ

* * *

ولا تكلني إلى اليمـينِ فلو　　شئت أكلتُ الزبـورَ والمصحفُ

---

(١) نفسه ٢ / ٤٠٤ .

فافترّ عن لؤلؤ وأسفر عن ... ورد وقبلتُه فما استنكفْ
وقال : ما تشتهي ؟ فقلت له : ... نقصف حدّادَنا بأن نقصف
فمال بي والظلامُ شملتُه ... وفجرُه في يمينِه مرهف (١)
إلى رياض يغازل القطر ما ... دبّج من زهرها وما فوّف
ما بين فتيان لذةٍ عرفوا العيشَ فنالوا نعيمَه الألطف
هذا (٢) يحيّي وذا يغار وذا ... يُلثَم كرهاً وذاك يستعطفْ
بَرْد الثّرى بُرْدُنا وقد زرّر البدر علينا دواجَه المحصف
وبيننا خمرتانِ من ريقةِ الكرمِ وريق أشهى من القرقف
ولطف الله لي بمدرجة ... أمثالها عندَ مثليَ تلطفْ
أنشدته شعرَ مكشف فأتى ... يلثمُ تلك السطورَ والأحرفْ
ومات سُكراً فمتُّ من فرح ... وكادَ سترُ الغرامِ أن يُكشفْ

تظهر لنا هذه المغامرة أن للعامة حياة من اللهو أيضاً تتفق ومواردهم ، فمجالسهم في رياض بعيدة ، وبسطهم الثرى وأغطيتهم دجى الليل ، وغلمانهم من بينهم ، يتمتعون جميعاً بلحظات أنس وطرب وابتذال .

وتبدو لنا من خلال لحظات المجون هذه كثير من النوازع الخنثية عند غلمانهم ، فهذا يرمي التحايا أو ترمى له ، وذاك يغار من علام مثله ، والآخر يقبل كرهاً والرابع لا يلين الا بعد أن تزجى له كلمات الغزل والاستلطاف وهكذا .

وكما تبيّن لنا هذه المغامرة السّلامية جزءاً من حياة اللهو عند العامة فهي تظهر أيضاً أن الشدة والبأس والسطوة ، أو الحسب والنسب والتعالي جميعها لا تقف صامدة أمام تيار التحلل الجنسي والأخلاقي السائد ، الذي عم مختلف طبقات المجتمع العراقي ولم يعد مقتصراً على جنس أو فئة معينة .

---

(١) يعني السيف .

(٢) يحيي يرمي التحايا أي طاقات الورد ، وقد تكون يحيى .

الكفر والتجديف :

حين لا يلتزم شاعر أو انسان بمبدأ اخلاقي يفرضه عليه دين أو عرف ، ينحرف بارادته أو بغيرها الى هاوية تعدّ في شرع دينه الذي يؤمن كفراً وتجديفاً ، كما تعتبر في عرفه شذوذاً وانحرافاً .

وأكثر ما كان يسوء هؤلاء المجدّفين والمنحرفين ويجرهم الى طريق الكفر هو تحريم الخمرة التي أدمنوا عليها وأغرتهم بمجالسها وملحقاتها ، فاذا جاء عيد المهرجان الفارسي ارتفعت أصوات اللهو والصخب والشراب ، وقال ابن الحجاج مجدفاً (١) :

يا خليـلي قد عَطشتُ وفي الخمـرةِ ريٌّ للحـائم العطشانِ
فاسقيـاني محضَ التي نطـقَ الوحيُ بتحريمها مـن القـرآنِ

واذا ما حرمهم رمضان من ملاذهم وشربهم — ظاهرياً على الاقل — أعلنوا عصيانهم له مجاهرة ، ولم يحتشم ابن الحجاج مثلاً حين قال (١) :

فاسقيـاني بين الدنـان إلى أن تريـاني كبعضِ تلك الدنـانِ
اسقيـاني في المهرجـانِ ولو كان لخمسٍ بَقينَ من رَمضـانِ

وقد تتأزم أخلاقهم وأنفسهم لهذه الالتزامات التي لا يؤمنون بها لكنهم مضطرون أحياناً الى الأخذ بها زوراً أو دجلاً فما أن يذهب رمضان حتى يتنفس السرى الرفاء الصعداء ويقول (٢) :

تصرّم شهرُ الصوم شهرُ الزلازلِ وشالَ به شوالُ شهر الفضائلِ

• • •

ودارت علينا الراحُ بين أهلةٍ تضيء وأغصانٍ رضاب موائلِ
فرحنا وفي أجسامِنا سحرُ بابلٍ يدبُّ وفي ايمانّنـا خمرُ بابلِ

ان وجود رمضان لم يكن الا حاجزاً متداعياً بين هؤلاء اللاهين وبين

---

(١) اليتيمة ٣ / ٧ .
(٢) المحاضرات ٤ / ٤٦ . وينسبها الثعالبي أيضا لأبي الدرداء الموصلي تتمة اليتيمة ١ / ٥١

ملذاتهم ، فهم ينتظرون متلهفين نهاية أيامه ليصنعوا ما قاله الشاعر (١) :

ونسكَرَ سُكرةً شنعاءَ جَهراً ونَنقر في قفا شهر الصيام

وعملية الصيام بعد ذلك واحدة من عمليات التزوير التي كان يتقنها الكثير من الناس آنذاك وجريء ابن أبي مرة المكي حين قال عند مقامه ببغداد (٢) :

وأصومُ شهراً ثم أخرُج غادياً نحو المصلى أقطعُ الأميالا
فيجر ذا ثوبي وأجذبُ ثوبَ ذا وأزاحمُ السقّاط والأنذالا
شربي صَبوحاً واستماعي قينةً أولى بأن ألقى به شَوالا

والسقاط والأنذال بمفهوم هذا الشاعر هم الناس المتزاحمون للصلاة ، الناس الذين لا يمتلكون مايمتلكه ابن ابي مرة الذي يريد استقبال شوال سكران منتشياً ، فهي مجاهرة بالعصيان لا تختلف كثيراً عن مجاهرة الخبزأرزي بعصيانه واتيانه ما يأتي به العيارون (٣) :

أرى لي في شهر الصيام إذا أتى لياليَ عيارٍ وأيامَ عابدِ
أناسٌ بعلاّت الصيام تفرّجوا وكانت أمورٌ باعتلال المساجدِ

وما يأتي به العيارون كثير ومتنوع (٤) ، أقله المجاهرة بالمجون والفسق شأنهم شأن غيرهم من الناس ، ومع هذا فالخبزأرزي يسبقهم في هذا الفجور يعلن عصيانه في شهر محرم هو رمضان إضافة الى غمزه الاماكن المقدسة مثل فالمساجد ،

---

(١) المحاضرات ٤ / ٤٦٠ .

(٢) تتمة اليتيمة ١ / ٨٠ .

(٣) نفسه ١ / ٤٦١ .

(٤) ولكن مهما بلغت كثرته فانه لا يوازي ما كان يقوم به السادة الحكام من غسق وفجور تحميهم في ذلك سلطتهم وتسترهم المظاهر الزائفة ، وقد نجد لما يقوم به العيارون عذرا فنرى انه تعبير عن تمردهم على القيم المشوهة والحياة المضطربة والاستغلال الانساني ، لكننا لن نجد عذرا للحكام الذين كان الواجب أن يمثلوا الوجه الناصع للدين والمثل ، غير كونهم يمتهنون الاستغلال الذي يجرهم بطبيعة الحال الى الانحراف .

ولا تقتصر المجاهرة بالعصيان والكفر على شهر رمضان والخمر فقط ، فابن الحجاج يرسم لنا شكلاً عصيانياً الحادياً فريداً حين يخاطب شيوخ الاسلام ويقول لهم (١) :

يا شيوخَ الاسلام دعوةَ نسك · أتوخى بها جزيلَ الثوابِ
شرَّ موت الأعضاء عضواً فعضواً · في حياةِ الشيوخ موتُ الزبّابِ
فعليكم ما دامت الروحُ فيها · بجماعِ المواجداتِ (٢) القحاب
سوّدوا الصُحْفَ بالفجور ليعي · طولُ تحريره على الحُسّاب
واخلطوا بالزنا اللواطَ جميعاً · ليطولَ الحسابُ يوم الحساب
وإذا كان في غدو حشرنا · لثواب يجزى به او عقاب
فعليَّ الذي عليكم وان اد · خِلَ ابوابُكم غداً في بابي

في هذا الخلط الفاجر بين الدعوة الى الأخذ بالملذات الجسدية ويوم الحساب يدلل ابن الحجاجَ على استهانة كبيرة بالدين وبفكرة وجود حياة أخرى (٣) .

وهو اذ يستهين بيوم الحساب تهون عنده الاستهانة بالعيد الاضحى وصلاته فاذا ما حل هذا العيد وأراد ان يهنيء بختيار قال له (٤) :

واستحضر العودَ ووجّه به · حتى نُصلي بالطنابيرِ
الركعةُ الأولى سَريجيةٌ · وركعةُ التسليم ما خُوريَ
وهي صلاةُ العيد لا يستوي · تَجوزّي فيها وتقصيري

---

(١) تلطيف المزاج مخ رقم ٤٣٦ /م ورقة ٤ ، درة التاج قطعة رقم ٥٢٤ ورقة ٣٥٨ .

(٢) في درة التاج الموجزات .

(٣) ويتضح انكار وجود حياة أخرى وانكار وجود الله في قول ابي سعيد العقبري وهو من أهل القدس .

(٤) اليتيمة ٣ / ٧١ . ومن الاستهانة بالاماكن المقدسة قول صريع الدلاء :

كان إن بات في المساجد بخرا · فإذا بال بال بالعتبات

الديوان مخ ٦ أ .

ومثل هذا قال السلامي ايضاً (١) :

ونصلي على أذان الطنابير ونُصغي لنغمة الأوتار
بينَ قوم إمامهم ساجدٌ للكأس أو راكع على المزمار

ومثلما تهون عند ابن الحجاج والسلامي الصلاة فيقرناها والأذان بأصوات الطنابير ، ولذة الكأس وما تحويه ، يهون عندهما القرآن وسوره والكعبة وربها .

فاذا اقسم السلامي بعلو منزلة الشريف الرضي خلط بين رب الكعبة ومشهد النشوات واللذات وقال (٢) :

إني حلفت بربّ أشرف كعبةٍ في مشهد النشوات والأطراب
وبكل مخلوع العِذار مجزَّرٍ فضل الإزار مسحَّب سحّاب
وبمصرع الدّنّ الجريح وحرمة الوتر الفصيح وذمة المضراب
لقد ارتقت تبغي أبا الحسن العُلى يطمحنَ منه إلى الأبيّ الآبي

أما ابن الحجاج فاذا أقسم تجاوز القسم بالقرآن وسوره الى الحلف بأدوات اللذة والمجون فقال (٣) :

فأقسمُ لا بياسينَ وطه ولا بالذاريات ولا الحديدِ
ولكن بالوجوهِ البيض مثل الأهلّة تحتَ أغصانَ القُدودِ
وشرب الرّي من خمر الثّنايا وشَم المِسكِ من وردِ الخدود
وتطفيَي حرارة الوجه يوم الفراق بمصٍّ رُمّان النهود
وبالخمر التي كانت لعادٍ ولكن بَعْدَ مِحنتهم بهُودِ
مُدام في قديم الدهر كانتْ تُعدُّ لكل جبّار عنيد
مدام ليس لي فيها امامٌ أصلي خلفه غيرَ الوليد (٤)

---

(١) نفسه ٢ / ٤١١ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٤١٥ .
(٣) نفسه ٣ / ١٠٣ .
(٤) الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الاموي .

ان هذا القسم الماجن ما هو الا تحلل من كل القيود الدينية والأخلاقية ، وفقدان الارتباط مع أعراف المجتمع وقيمه .

لقد ساعد على هذا التحلل الاخلاقي الحرية التي منحتها السلطة البويهية لاصحاب المجون والدعارة كي تخلق مجتمعاً منهاراً تسهل عليها قيادته وحكمه .

ولست مع أستاذنا الدكتور غناوي « بانها وثنية فارسية قد رفعت رأسها مشت على قدميها في هذا العصر بعد أن كانت تتململ وتحاول أن تنهض فلا يسعها النهوض أيام كان للعرب سلطان في هذه الديار (١) » لأن مسألة الايمان بالله وعدمه نابعة من ذات الانسان وتربيته وطبائع مجتمعه وأخلاقه ، ونحن نسأل هل كان الايمان عامراً حينما كانت الهيمنة للعرب ؟ وهل كان الامويون أكثر تمسكاً بالدين من غيرهم ؟ وما نقول بظلمهم وقتلهم أحفاد الرسول ؟

وما نقول بمجون بعض خلفائهم وبخاصة الوليد بن يزيد ؟ وما نقول بعد ذلك بتمزيق الوليد للقرآن واقتعاده مجالس الشراب ؟...

ولا أريد أن أنصب نفسي مدافعاً عن الفرس وأخلاقهم لكنني أريد أن أكون موضوعياً كما يقتضي المنهج العلمي ، وعلى هذا أجد أن المسؤولية الأخلاقية يتحملها الحكام عرباً كانوا أم فرساً ، فهم وحدهم – آنذاك – القادرون على تغيير بنية المجتمعات التي يحكمونها وأخلاقها .

الهجاء :

لم تصل لغة الهجاء في أي زمن من الازمان الى ما وصلت اليه في القرن الرابع ، فمع أن أسلوب الهجاء القديم قد بقي عند هذا الشاعر أو غيره ، فقد غدت الروح الظريفة أو المبتذلة الفاحشة ميزة هجاء القرن الرابع ، ولم يعد الناس يتداولون شعر الهجاء الا اذا تهاوت الفاظه وتردت معانيه .

وقد كان قسم من الشعراء الهجّائين الماجنين في حماية غريبة يلقيها عليهم شعرهم الفاحش حتى وان تجرأ بعضهم وهجا أو عرض بأمير أو وزير أو حاكم .

---

(١) الأدب في ظل بني بويه ٢٦٣ .

فالوزير المهلبي على كبر منزلته في الدولة والمجتمع ، يسكت على ابن الحجاج وهو يقول فيه (١) :

قيل إن الوزير قد قـال شعراً   يجمـعُ الجهلُ شملَه ويعمّـه
ثم أخفاهُ فهو كالهرِّ يَتخرى   في زوايا البيوت ثم يَطُمّـه
ليتني كنـتُ حاضراً حين يرويـه فأفسو في راحتي وأشمُّه

وليس مستغرباً على إبن الحجاج أن يقول في المهلبي كلاماً مثل هذا ، وليس مستغرباً أيضاً سكوت المهلبي واعتبار هذه الالفاظ نوعاً من الظرف المستملح ، يردد للضحك والتسلية ، فالوزير المهلبي لم يكن وحده الذي تعرض لأقذاع ابن الحجاج وفحشه ، فالملوك البويهيون على سطوتهم لم يسلموا من لسان ابن الحجاج . فاذا أراد أن يقول لهم شيئاً من الشعر أو المديح لم يصبر على لفظ مهذب انما يأخذه تيار الكلام الماجن فيقول لبختيار مثلاً : — (٢)

وقد علمنـا بأنَّ سيدَنـا الأميرَ ممن يقـولُ بالبظـرِ

• • •

إن الملوكَ الشبابَ ما خلقـوا   إلاّ صلابَ الفيـاش والكمَـرِ

وقد يتطاول ابن الحجاج الى مقام الخليفة الطائع فيقول له هاجياً واصفاً عظم أنفه (٣) :

يا رب عبد النحر هوْذا تـرى   ما افظع الأمر الذي جـرى
صلى بنا فيه إمام فسـأ   في اول الصيف كمـا كبّرا
خليفـة في وجهـه روشن   خرْبشتـه قد ظلل العسكرا
عهدي به يمشي على رجلـه   وانفـه قد صعد المنـبرا

---

(١) اليتيمة ٣ / ٣٩ .

(٢) اليتيمة ٣ / ٤٨ ، معجم الادباء ٩ / ٢١١ .

(٣) نكت الهميان ١٩٦ ، والأبيات كلها من قصيدة طويلة أخذتها عن أوراق من مخطوط « كتاب الأنباء من تاريخ الخلفاء » لمحمد بن علي بن محمد بن العمراني ، والمخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة لندن ويقوم الدكتور قاسم السامرائي بتحقيقها البيتان الثالث والرابع فقط .

وقــام يدعو إلى نفســـه وذكـّر العباس واستفخـرا
بخطبـة صنفهـا « باقـلٌ » قد كسر الناس لهـا دفترا
نثرت بعراً من سروري ومـا نثرت لا لوزاً ولا سكرا

ولا يقف في تعريضه وهجائه عند الوزير المهلبي أو غيره ، فلسانه أطول من أن يقصره بالهجاء على واحد أو اثنين ، فما ان يتولى أبو الفضل الشيرازي الوزارة ، حتى يأتي ابن الحجاج ليمدحه ، ويتوقع سامعه أنه لن يتعرض بأحد ، وأن كلامه سيكون للشيرازي فقط لكن طبعه يغلبه فيهجو أبا الفرج بن فسانجس الوزير حين يقول للشيرازي مادحاً (١) :

سَعدُك للحاسدين نحسٌ وهـم ظلامٌ وأنت شمس

• • •

فأنت تحت الظـلام تسعى وذاك تحت اللحـافِ يفسو

واذا ما أراد أن يمتدح القاضي ابن معروف ، وكان هناك من يناوئه من الحكام ، عرض بهذا المناويء بألفاظ مبتذلة وقال (٢) :

يا أيّهـا الحاكم الرقيـعُ ذقنك في سلحتي نقيـعُ
إن ابنَ معروف في محـل مرامُـهُ مُتعِبُ منيعُ
فضّلـه الله واجتبـاه للأمـرِ واختـارَه المطيعُ
هذا له وحـده فقلْ لـِي من أنتَ في الناسِ يـا وضيعُ

واذا كان ابن الحجاج مشهوراً بشعره الماجن ، ولفظه الداعر ، فهناك شعراء عرفوا بألفاظهم العفيفة ، وشعرهم المحتشم نزلوا أيضاً — يجرفهم تيار العصر في هجائهم الى ميدان اللفظ المبتذل ، والشعر الماجن ، فاذا أراد أبو

---

(١) في المخطوطة خربشة ويقول الدكتور حسين محفوظ ان اصلها حربوشه وكلمة خربوش فارسية معناها الخيمة الواسعة .

(٢) اليتيمة ٣ / ٤٢ .

(٣) اليتيمة ٣ / ١١٣ .

اسحق الصابي أن يهجو رئيساً أمرد ، لم يزن لفظه ، ولا نظر الى منزلته في الدولة والمجتمع ، وانما أخذته خفة اللفظ الماجن وقال (١) :

وأرعنَ من سكر الحداثة ما صحا ... دُفعنا إلى تعظيمه وَهْوَ ما التحى
له همة لكنها في حِتاره ... فما يطلب العلياء إلاّ لينكحا
فلو أن ما قاسى من الابر دبرُه ... يقاسيه من سَيْرِ المعلم أفلحا

ولا يقف هجاء الشعراء الفاحش أو تعريضهم عند الحكام وكبار رجال الدولة ، فهو يتحرش بالشعراء والادباء وبالمرأة وبمختلف الناس .

فابن لنكك البصري يفحش في هجائه وينال به من أغلب البارزين في ميدان الادب والشعر من أهل عصره .

فالمتنبي على منزلته الشعرية العالية لا يسلم من هجاء (٢) ابن لنكك وشتائمه وأبو رياش الذي كان « نابغة في حفظ أيام العرب وأشعارها » تناله سهام ابن لنكك ويوغل في هجائه المقذع ، حتى يصل الى القول (٣) :

قل للوضيع أبي رياشٍ لا تبَلْ ... تِه كلُ تيهك بالولاية والعمَلْ
ما ازددت حين وليتَ الا خسّةً ... كالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسَلْ

وربما تكون هذه الكلمات مؤدبة نوعاً ما بجانب هجائه لابي الهيذام كلاب ابن حمزة الذي كان ابن لنكك « يتولع به ويبدع في هجائه (٤)
أو هجائه للشاعر الرملي الذي وصل به التدني الى أن يقول فيه (٥) :

لأم الشاعر الرمليّ صُدغ ... صبور ما علمت على الدبّاغِ
فرغتُ ولم تكن فرَغَتْ ورامت ... إدامةَ نيكها حتى الفراغِ

ورب قائل يدعي أنّ الذين هجاهم ابن لنكك يستحقون الهجاء ، وأنه

---

(١) نفسه ٢ / ٢٨٧ .
(٢) معجم الادباء ١٩ / ١٠٤٩ ، وقد هجاه ايضا ابن سكرة ، ينظر ثمار القلوب ٦٠٤ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٣٥٣ .
(٤) نفسه ٣٥٤ .
(٥) نفسه ٣٥٥ .

ما ظلمهم ، وعلى هذا فهو يبريء ابن لنكك من الفاظه الماجنة التي لا تليق بشاعر مثله وقف أمام الجور فحاربه ، ولقي من وراء ذلك ما بقي من عنت وفقر ..

ونظل بعد ذلك نقول أنها سمة العصر وأن ابن الحجاج اذا عرض بشيخ كبير السن ولم يستحي من أن يقول له (١) :

ولحيــةٍ بيضاء كالقطـــن ... ناعمــة في غايــةِ الحسنِ
سرقتُهــا في الليــل سراً وقد ... نامت عيون الأنس والجــنِ
فجاء شَيخي وهوَ في دهشــة ... عظيمــة ساء لهــا ظَنّــي
يصيح لي ما فعلتْ لحيــتي ... فإنها قد سُرقــت مــني
قلت له بالرفق لا تنزعــج ... فإنهــا مذ أمس في بطــني

اذا قال هذا فانما هو عنده كلام غير مستهجن ، لأنه لغة الهجاء ، وربما كانت هذه الأبيات آدب الفاظ هذه اللغة .

ولا يخجل ابن الحجاج من شتم أهل بغداد ، اذا رأى بعضهم يسعى لنيل الحسبة التي يتقلدها ، ولا ينسى أن يعرّض بنفسه حينما يقول لهم (٢) :

يا أهلَ بغداد كما ترون وجهي فَشِبوا
وعفّروا خدودكم وبصبصوا وذبذبوا (٣)
ترزّنوا توقّــروا تعقلوا تأدّبــوا
لا تخطُبوا الحسبةَ يا ويلَــكم فتتعبــوا
فدَرتــي محشوة فيهــا الحصى والعقبُ
فيــارة فيها الزجاج والنوى والخشــبُ

---

(١) الديوان مخ رقم ٤٣٤ / م ورقة ٣ .

(٢) تلطيف المزاج مخ رقم ٤٣٦ / م ورقة ١٦ .

(٣) الكلمة غير مقروءة وكما اثبتنا يستقيم المعنى ، وقد تكون ودبدبوا اي هرجوا او اضربوا الدبادب .

فليسُ ينجـي أحداً مني ومنها الهربُ
أنــا الذي نــار آسته مضرمة تلتهـبُ
وإنمــا لحاكم لنــار أستي حطب
وان أردتم فابعدوا وإن اردتم فاقربـوا
ومن أين ذاك فمـــا له سوى القردِ أب
وأمــه كلب استها على المخاصي كـَلِبُ
جائعــة على الخصى كما تراها تثب
في سرمها « قرطالة » يلقط فيها الرطب
يا ويلكم لحسبي للدفع (١) عنها سبـب
عنّابة (٢) بالسعـي والحيلـة لا تكتسب

ويتضح لنا مع ابتذال ابن الحجاج ، وسماجة لغته ما جبلت عليه نفوس بعض أهل بغداد من وضاعة ، فهي تسعى في رزق هذا أو تتحايل لعزل ذلك ، وحين ننتهي من تتبع معالم هذه الصورة الاجتماعية نرى صورا أخرى كثيرة عند ابن سكرة وهو يرسم لنا صورة البخيل الخسيس .

عليلٌ لا يعـاد من الخساسة — له نفسٌ تحيدُ عن النفاسه
دخلتُ أعوده فازوّر عـنّي — كأني جئته لأدق رأسه (٣)

أو وهو يرسم لنا صورة الفاسق الفاجر الذي يتأنق في شراء سجادة صلاة ليغطي على فجوره ويدجل على الناس متظاهراً بالورع والتدين :

يا جَوّاً مردَ يا حليفَ البلادة — لك في الفسق عادة أي عادهْ
أنت لا تعرف الصلاة فقلْ لِي — لِـمْ تأنّقت في شِرا سجادهْ (٤)

---

(١) في الاصل وللدفع ومع الواو لا يستقيم الوز ن .
(٢) في الاصل غاية ولا يستقيم الورن معها .
(٣) اليتيمة ٣ / ١٧ .
(٤) اليتيمة ٣ / ١٨ ، وفي طبعة مصر ٩٣٤ يا جو أمرد .

ونرى مثل هذه الصور عند أبي اسحق الصابي وهو يرسمها مجسمة لقاضي يدج الزاني (١) ، وللرجل الذي يعبث بغلمان أبي الفضل الشيرازي الوزير ويغويهم (٢) ، و للأبخر الوسخ (٣) أو لغيرهم .

وكما تعرض الرجال للهجاء تعرض النساء كذلك . فقد رأينا كيف عرّض ابن لنكك بأم الرملي ، دونما وازع من حياء ، بكلام مقذع فاحش ومثله فعل ابن سُكَّرة الهاشمي بجارية اسمها خمرة حلف الاّ يمر يوم الاّ ويهجوها حتى بلغت أبيات هجائه لها عشرة آلاف بيت من مجموع ديوان ضمّ خمسين ألف بيت شعر . وفي الشعر الذي أورده له الثعالبي نجد ابن سكرة وهو يرسم لخمرة صوراً غريبة يبعث بعضها على الضحك والآخر على التقزز :

رُبَّ عجوزٍ مستعينيـــة سلقيـــة اللون سَلُوقِيَّـــة (٤)

* * *

هرمتِ حتى تناسيتِ اللحونَ معاً وصرتُ مُفْرغةَ الألحاظ والمُقل(٥)
قد قلت لمّا لاح لي ثغـرُها ولاح منـــه الخزفُ الاخضـرُ

* * *

وانتشـــر السّوسنُ من صُدغها وثار منهـــا نَفَسٌ أبخـــرُ
وشف قلبي نَتْـــنُ آباطِهـــا يا معشرَ الناس قِفوا فانظرُوا (٦)

ومع التجني الواضح في هذا الهجاء فاننا نستدل على مسألة اجتماعية مهمة ، تعبّر عن قيمة المرأة وأهميتها في المجتمع ، فلو لم تكن خمرة مهمة ، وذات

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٨٧
(٢) نفسه ٢٨٩ .
(٣) نفسه ٢٨٩ .
(٤) نفسه ٣ / ١٤ .
(٥) نفسه ٣ / ١٥ .
(٦) نفسه ٣ / ١٥ .

منزلة بارزة لما حسب لها ابن سكرة حساباً وأقسم أن يستمر في هجائها ، غرضه في ذلك الحط من قيمتها بشعره الممتلىء بالكلام الفاسق ، المنفّر ، والشعر بعد ذلك عند ابن سكرة ومجتمعه آنذاك يرفع ويحط ، فهو ذو سحر وفاعلية يدلنا على ذلك قوله لأحدهم (١) :

تيهتَ علينا ولستَ فينـــا ولي عهـد ولا خليفـه
فَتِـه وزِد ما عليَّ جار يقطـعُ عنيَّ ولا وظيفـه
ولا تقـل ليس فيَّ عيـبٌ قدْ تقذف الحرّةُ العفيفـه
الشعر نـارٌ بلا دُخـان وللقـوافي رُقى لطيفـه
لو هُجِي المسك ــ وهو أهلٌ لكل مدحٍ ــ لصارَ جيفـه

ونعرف منزلة الشعر ، ونستدل على أهميته الاجتماعية فهو نار بلا دخان ، نقذف به الحرة العفيفة زوراً وتجنياً مثلما نقذف به الزانية الفاجرة ، ويرمى به الانسان النبيل مثلما يرمى به الساقط ، والشاعر الذي يتجنى أو يقول الشعر صادقاً لا يضيره شيء ، ما دام مقطوع الرفد والوظيفة .

ومع ما في الشعر من تجن وبهتان ، فهو يظل معبراً دقيقاً في التعبير عن الكثير من المعالم الإجتماعية ، أبسطها هذا الشذوذ اللفظي والاخلاقي الذي رأيناه في الهجاء وغيره .

القيمة الفنية :

حين أصبح الشعر الماجن المبتذل مألوفاً مقبولاً وجب أن تتفق معه ألفاظه ومعانيه من حيث السهولة والعامية والابتذال ليكون سريعاً في تعلقه بالذاكرة ، مندفعاً في تداوله وتنقله من لسان الى آخر ، وقد جاء على شكل مقطعات وقصائد كثيرة ــ في الاغلب ــ ذات أوزان خفيفة الحركة سريعة النقرات ، وابتعد ــ الا ما قل ــ عن النَفَس الطويل والضربات الموسيقية الثقيلة .

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٦ ، الوافي بالوفيات ٣ / ٣٠٩ .

كما جاء سطحياً عامياً ـ بالمعنى اللغوي الاجتماعي ـ يأخذ الكلمات المتداولة ويبتعد عن انتقاء ما سما منها ، لأنه شعر يعتمد المظاهر ، ويتحين السقطات ويسجل العورات ، واذا كان قد أغنانا بكثير من المسائل الاجتماعية السائدة آنذاك ، فانه رسم لنا أيضاً المستوى الفني الهابط للشعر واللغة المتداولة ، فإن وجدنا بعض الأبيات الجميلة فهي تضيع في غمرة هذا الهياج اللفظي الداعر المتحلل الغريب ، ولن يبرر كل هذا السقوط الفني قول ابن الحجاج (١) :

ألا أيها الاستاذ دَعوةَ شاعرٍ طريقتُـــه في الشعر لا تتبهرجُ

فالبهرجة الجديدة التي غزت هذا النوع من الشعر لا تختلف كثيراً عن بهرجة الالفاظ المتقعرة ، المتحجرة ، لأن الفاظاً مثل الفسا والضراط والخرا والكلمات الدالة على الاعضاء الجنسية ، وخواجه وآرى والدرباذي وكثير من الفاظ المتاذر والشتائم ، لا يعقل أن تكون معـــبرة عن احساسات صادقة وانفعالات « رومانسية » جياشة ، انها الفاظ حشرت قسرا ، تعبّر عن معنى آني أو غرض وضيع يريده الشاعر أو سيده أو من يحيط به من مجتمعه .

ان شعر المبتذل والمجون مملوءٌ بألفاظ تشمئز منها النفوس وتعافها الاذواق البشرية النقية ، لما انحدرت اليه من درك واطيء ومستوى رخيص ، وقد دفعنا الى ذكرها بالرغم من صراحتها كونها كشفاً اجتماعياً لا يمكن الاستغناء عنه وبدون ذكرها تظل دراستنا ناقصة تفتقد الموضوعية والعلمية ، لأن من شروط الدراسات الموضوعية عدم ترك أي جانب يمكن أن يغني هذه الدراسة حتى وان كان هذا الجانب يؤذي الذوق العام فلا حياء في العلم كما يقول أسلافنا الطيبون .

وتنفع هذه الالفاظ أيضاً دارسي اللغة وفقهها ، ومنها يمكن أن تنطلق دراسة تبين تأثير هذه الالفاظ في اللغة العربية ونموها ومقدار معايشتها للناس وأحوالهم الاجتماعية خيرها وشرها ، بؤسها ونعيمها .

---

(١) اليتيمة ٣ / ٣٥ .

الخلاصة :

استفحلت روح المجون ، وانتشرت أماكن اللهو وتعددت أساليبه ، فغطى التبذل مساحات كبيرة من مجتمع العراق في القرن الرابع ، ومثلما كان الخلفاء والملوك ورجال دولتهم منغمرين في حياة لاهية ، متشبعة بالفسق والعفونة ، كانت هناك فئات اجتماعية كثيرة تلهو بأساليبها الخاصة ، وتفحش وفق ما تسمح به مواردها ووقتها ، متناسية ، أو منهزمة عن ادراك ما يقع عليها من استغلال ومظالم من الطبقة الحاكمة وخدمها .

لقد وصل المجون ذروته في الربعين الثاني والثالث من هذا القرن خاصة أيام حكم بختيار وعضد الدولة ، ولا يعني هذا انعدام المجون والتبذل أو قلتهما في الربع الاول أو الاخير من هذا القرن ، فالتحلل الاخلاقي مواكب للتحلل السياسي ، والاقتصادي ، وكل من السياسة والاقتصاد مضطرب متدهور ، والذي غطى على المجون — مع وجوده — في هذين الربعين الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية التي كانت تعم البلد بعنف . ونجد صدى اللهو والمجون مع كل هذه الاضطرابات في شعر الراضي أول القرن أو شعر ابن الحجاج والسلامي وغيرهما في الربع الاخير من هذا القرن .



الفصل الخامس

المكـــدون

« أكدى الرجل إذا قل خيره » (١) « والكُدْية شدة الدهر .. والكُدية كل ما جُمع من طعام أو شراب .. أو نحوة .. والكُدية حوفة السائل (٢) « ويقال أكدى أي ألح في المسألة » (٣) .

والكدية بمعناها الشائع المعروف (٤) ظاهرة اجتماعية ترافق مسير المجتمعات الطبقية كلها ، وتكثر أو تقلّ تبعاً لعمق التناقضات الطبقية ، وما تجره من ويلات ومآس .

وفي المجتمع العربي أو الاسلامي ـ وهو مجتمع بدائي لم يتخلص بعد من النظام العشيري إضافة الى وجود الاقطاع المختلط بالقنانة ـ ظهرت الكُدية بأشكال مختلفة نبّهت المجتمع وقادته اليها .

فقد جاء في القرآن وصايا عديدة بأصحاب المسألة منها قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » (٥) وقوله : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (٦) .

---

(١) الصحاح للجوهري ٦ / ٢٤٧١ .

(٢) تاج العروس ١٠ / ٣١٠ ، واللسان ١٥ / ٢١٦ .

(٣) اللسان ١٥ / ٢١٦ .

(٤) تعني المسألة والالحاح بها .

(٥) الضحى ١٠ .

(٦) الذاريات ١٩ .

واتباعاً لهذه الاوامر عالج المصلحون ورجال الدين أول انتشار الاسلام هذه الحالات بروح من العطف وللرأفة والالتزام بأوامر الدين وحباً برضاء الله الذي آمنوا به .

وحين بدأ التأثير الاسلامي ينحسر عن المجتمع وخاصة عن الطبقة الحاكمة ، وحل الاستغلال والظلم محل التعاون والتآزر الذي جاء به أمر الاسلام كثرت حالات الكدية وزاد السؤال ، وأتسعت رقعة سؤالهم باتساع وتطور الاضطرابات السياسية والاقتصادية وما كانت تسببه للبلاد من حروب وأطماع خارجية أو مجاعات .

كان من نتيجة هذه العواصف السياسية والمظالم الاجتماعية افتقار عشرات الالوف من الناس واضطرار قسم كبير منهم الى اتخاذ الكدية والسؤال طريقاً سهلاً للعيش ، ودرعاً حامياً من غوائل الجوع أو المصادرة أو الاغتصاب .

ويمكننا أن نعد الكدية والسؤال عملية انهزام وضعف وتخاذل أمام مصاعب الحياة وظروفها الشاذة القاسية .

كما ويمكننا أن نعد المكدين بعد أن صاروا يمثلون طبقة أو فئة — غير منتمين الى أي من طبقتي الخاصة والعامة (المستغِلة والمستغَلة) (١) فهم فئة اجتماعية طفيلية سرعان ما تنتهي حياتها إذا توفرت الظروف الاقتصادية الجيدة .

حين كثر أعضاء هذه الفئة الجديدة المتنامية . بدأوا يتكتلون فرقاً وجماعات ، يسيحون بالبلدان ، ويبتكرون وسائل الخداع التي تدر عليهم وتحميهم من عوادي الزمن .

وقد أصبحت الكدية شبه مهنة لها أصولها المقننة وشروطها المتبعة وقد سجل لنا الكتاب والمؤرخون كثيراً من هذه الأصول والشروط زيادة على حديثهم عن أحوال المكدين وطبائعهم .

---

(١) لانهم لا يرتبطون بشيء مع وسائل الانتاج السائدة آنذاك .

ففي كتاب البخلاء (١) للجاحظ والمحاسن والمساويء للبيهقي (٢) ونشوار المحاضرة للتنوخي (٣) . نجد أقوالاً وقصصاً تثبت بشكل قاطع أن الكدية ظاهرة اجتماعية خطرة منظمة ، أصحابها ذو خبرة وحنكة ودراية بمختلف الاساليب والحيل ، لهم عالمهم الخاص ونفسياتهم وأفكارهم المتفردة .

وفي الاقوال التي تعم بينهم مثل (٤) « الحياء يمنع الرزق » « ومن لم يحترف لم يعتلف » « والتمييز شومٌ » « والحركة بركة » « وصفاقة الوجه رزق حاضر » « والكُدية ربح بلا رأسمال » « والروز جار (٥) رأس مال المكدي » وفي غيرها من الاقوال نجد تعبيراً واضحاً عن عالم المكدين وأذهانهم ونفسياتهم الخاصة ، المجبولة على الاتكالية والذل .

ومقامات الهمداني بعد ذلك سجل واضح لكل اساليب المكدين وطبائعهم ، ومجتمعهم (٦) ، فالمقامات الكثيرة (٧) التي كتبها بديع الزمان الهمداني تعرض لنا باسلوب قصصي شائق ، مملوء بالمفاجآت الغريبة مدى ما وصلت اليه الكدية من حرفية وانتشار (٨) ، كما تعبر في الوقت نفسه عن سعة الافق الذي يمتلكه أدباء ذلك العصر ، وامكاناتهم اللغوية والادبية التي ساعدتهم على نقل الأجواء الشعبية نقلاً أدبياً يمزج الواقع الاجتماعي بخيال يعطي هذا الواقع صوراً أدبية متحركة تشوق القاريء ، وتدفعه الى متابعتها .

---

(١) ١١٨ وما بعدها .

(٢) ١ / ٥٨٠ .

(٣) ٨ / ١٦٣ .

(٤) التمثيل والمحاضرة ١٩٩ .

(٥) الروزجار – الحرفة والمهنة وهي كلمة فارسية أصلها « روزكار » أي العمل اليومي .

(٦) ينظر كتاب مجتمع الهمداني من خلال مقاماته للدكتور مازن المبارك مطبعة الترقي دمشق ١٩٦٨ ، وينظر في الادب العباسي ٩٤ .

(٧) مثلا المقامة القريضية ، والازاذية ، والبلخية ، والسجستانية ، والكوفية ، والاسدية ، والاذربيجانية ، وغيرها تنظر المقامات : ٥ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣ .

(٨) ينظر كتاب أهل الكدية أبطال المقامات في الادب العربي .

الكدية والشعر :

الكدية في الشعر العربي ليست جديدة وتكاد أساليبها تملأ هذا الشعر ، وما قصائد المديح التي رفعها الشعراء الى مقامات الرجال المتنفذين الا أسلوباً من أساليب الكدية واهدار ماء الوجه بالمسألة (١) .

وقد يكون شعر المديح نوعاً من التجارة ، أو يكون تجارة بالفعل ، لكنه على أية حال تجارة تشبه تجارة المكدين والسؤال ، والا ماذا نسمي تصاغر النابغة الذبياني ، والحطيئة ، وجرير والاخطل ، وبشّار وأبي نواس ، والبحتري وأبي تمام أمام ممدوحيهم ؟

وماذا نسمي تمسح أبي الطيب على أعتاب سيف الدولة أو كافور ؟ ثم ما الصفة التي يمكن أن نطلقها على فقدان القيم والطبائع الانسانية عند السلامي وابن الحجاج ، وعبد العزيز بن يوسف ، حتى الصابي حينما كانوا يهدرون كرامتهم ومثلهم أمام استجداء الرزق والعطف من عضد الدولة بالسجود له أو بتعظيمه ووضعه في مصاف الالهة ؟

أنها الكدية المتخفية ، أو الكدية المموهة ان جاز التعبير .. أن قصائد المديح بذرة من بذور الكدية والسؤال . وقد نمت هذه البذرة وتشعبت حتى وصلت إلى ما أصبحت عليه في القرن الرابع للهجرة ، حيث صار شعراء المديح يمتهنون أنفسهم امتهاناً وضيعاً فيمدحون هذا ويستجدون من ذلك أشياء تبدأ بالذهب والفضة وتصل الى النبيذ ورقع الشطرنج وغير ذلك .

ومع هذه الذلّة وهذا الامتهان يعيش مثل هؤلاء الشعراء وهم محاطون بخوف دائم من غضب أمير أو سقوط وزير أو دسيسة غلام أو غانية ، وهذا ما جعل نفوسهم مشبعة بالتصاغر والانصياع ، وكلماتهم مهومّة في عالم الخداع والدجل .

---

(١) ينظر في الادب العباسي ٩٩ ، وينظر كتاب التكسب بالشعر للدكتور جلال خياط مطبعة دار الآداب بيروت .

واذا أراد أبو بكر الصولي مثلاً مدح الراضي ، هدر ماء وجهه وتنكّب الحياء . ثم قال بكل ما أوتي من روح متمرغة متصاغرة (١) :

مالِي إذا لم أفز منه بمنزلــة وعودة بالرضا في العيش من أربِ
حتى يبيضَ وجهي مُذهباً حزني بالبذْلِ للفضّة البيضاء والذهبِ

ويتصاغر أكثر ، ويحزن أكثر ، ويستجدي أكثر ، حينما يرى الدراهم تنثر في زواج أبن المتقي من ابنة البريدي ولا يحصل هو على شيء منها فينصرف كاسف البال « آسفاً خالياً من الكل صفراً » ويتأسّى بأن يقول للذي نثر الدراهم (٢) :

فأغني كيما عُهدتُ عليه بعطايا أكرمِ الناس طُرّا

وغير الصولي شعراء كثار ، مدحوا فاستجدوا ، وقالوا في الكبراء والاغنياء فتذللوا ، وهذروا بكلام كاذب المشاعر يحمل في ثناياه ذلة الطلب ونغمات أغاني الكدية الغريبة الاصوات .

ان مدح ابن نباتة لصاعد بن مخلد (٣) واستجداءه منه ليتشابك مع أماديح المتنبي ، ومد يده لممدوحه (٤) ، ومع تدني ووضاعة استجداءات صريع الدلاء (٥) وابن سكّرة وابن الحجاج ، ومع تهاوي كلمات مهيار (٦)

---

(١) أخبار الراضي ١٥٢ ، وينظر في استجدائه من الراضي قوله من قصيدة استجدائية ص ١١٦ « فأنلنا ما أنلتهم خمسة توفي على العدد » .

(٢) أخبار الراضي ٢٠٢ ، وينظر في استجدائه من الوزير ابن مقلة قوله من قصيدة يمدحه فيها ص ٩١ وما بعدها :

حرم الله أن يــكون جنابي مجديا من نداكم والحريم
أنصفوني في نظم مـا قلت فيكم هل يدانيه لؤلؤ منظوم ؟

(٣) اليتيمة ٢ / ٣٩٠ .

(٤) تنظر قصيدته في كافور مثلا الديوان ٤٤٦ .

(٥) يكاد يكون كل ديوان صريع الدلاء في المديح الاستجدائي وتكاد القصائد المدحية تنحصر في « فخر الملك » وزير بهاء الدولة البويهي .

(٦) الديوان ١ / ٢١ .

في الصاحب بن عباد فيتولد بعد ذلك ، التراث المخجل من الشعر التكسبي الاستجدائي الذي نستدل منه — وهو ابن المجتمع وصورته — على كساد القيم الروحية وميوعة ذلك العربي « البدوي المتعجرف » وانجرافه في تيار التزلف والدجل والمذلة .

وتصبح صورة التكسب الشعري وضيعة وتافهة حين يفتح باب الاستهداء بالشعر ، فتبدأ مرحلة متميزة من مراحل الكدية العلنية .

فاذا ما ظميء السّلامي الى النبيذ ، بدا له أن خير طريقة يمكنه أن يحصل بها عليه هي أن يستهديه أو يستجديه فيكتب إلى أحدهم بقوله (١) :

أرسلتُ أشكو إليكم غدوةً ظمئي — وما شككتُ بأنّي سوفَ أغتبقُ
أنت امرؤ جودُه غمر ، ونائلُه — همرٌ ، ووبلُ نداه مسبلٌ غَدِقُ
فابعث إليّ بصفو الراح يُشبِهُه — منّي قريضٌ ومنك العرف والخلقُ

أو يكتب إلى عبد العزيز بن يوسف رافعاً له آيات التعظيم والاجلال من أجل أن يجود عليه بالمدام نوصل به التدني الى أن يقول (٢) :

ومن عبد ابن يوسف صارَ إسمي — وصيّرني الندى مولى السّلامي

ومثل السلامي يفعل ابن سكرة ، ويزيد على ذلك بأن يصف نفسه صراحة بالمكدي ، مدركاً أن الاستهداء ماهو الا كدية ، نرى ذلك في قوله ليحيى ابن فهيد (٣) :

رسالةٌ من مُكدٍ — وشاعرٍ وشريفِ
الى فتى مستبدٍ — بكل فعلٍ ظريفِ
اليك يحيى اشتكائي — صحوي بيومٍ طريف

(١) اليتيمة ٢ / ٤١٠ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٤٠٩ .
(٣) نفسه ٣ / ٢١ .

ولستُ مضمرَ نسكٍ كلاّ ولا بعفيـفِ
ولو أسامُ بديني لبعتُه برغيـفِ
فامنن عليَّ بضخمٍ من الدنانِ كثيـفِ

ويكثر ابن سكرة من كديته ، فيطلب من أحدهم (قهوة أنفُ الحبيب بها يعفر (١)) ويقول للآخر :

ان كنت تنشط للمـد يح وللثناء عليك منّي
ما بعث الي مع الرسو ل اذا أتاك بملء دنّ

أو يرجو من فتى الجصّاص ويستعطيه « شربةً من خمره الصافي ومن ندّه قطعهْ » .

واذا عرفنا أن ابن سكرة هاشمي « شريف » أدركنا ما وصلت اليه طبقة الاشراف من فقر ومذلة وتأكد لنا ما ذكره الصولي وغيره من المؤرخين من تفشي المجاعات بين الهاشميين – علويين وعباسيين (٢) – . كما ندرك من شعر ابن سكرة كيف أن الشعر صار وسيلة رديئة ذليلة تستجلب الرغـد والعطف ، فيتهاوى بعد ذلك في درك الكدية الصريحة .. وتبرز صورة الشاعر المكدي جلية في بعض شعر ابن الحجاج مع أنه عاش حياته مدللاً في قصور الامراء والرؤساء .

فان اضطرته ظروف طارئة الى بيع ثيابه في واسط تباكى وأظهر نفسه فقيراً معدماً وبسط يده الى رؤسائه وهو يقول (٣) :

يا سادتي قول ميْتٍ في مثل صورة حيٍّ
لم يبقَ في الخُرج شيءٌ أتـأذنون بشـي

واذا أراد أن يستعطف بختيار ويستدر عطاءه ، خاطبه بلغة المكدّين

---

(١) اليتيمة ٣ / ٢٢ .
(٢ / أخبار الراضي ٦١ ، ٦٦ ، ٧٠ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٦١ .

ووقاحة وجوههم وقال (١) :

نحن سنانير أهل دولتِكم فأنصفونا من صاحب الغُدد
والله لولاك لم تَبِتْ مرق اللحم تروي شحومهُ ثُـرَدي
ولم يحوِّز ليَ الدقيق ولا ، كانت تحوز المسلقاتِ يدي

واذا يصل الامر هذه المنزلة أو المنزلة التي نرى فيها صريع الدلاء يكدي جبة وعمامة(٢) وابن المطرّز يطلب رقعة شطرنج من ممدوحه (٣)،نتأكد من شيوع أنواع جديدة ـ ذليلة ووضيعة ـ من أساليب امتهان النفس ووضعها في مكان لا تشعر فيه بالاحترام لصاحبها ، كما نتأكد من انتشار عادة الكدية الشعرية ، مما يدل على أن المجتمع بدا يألف أو هو يألف وجود فئات تمتهن الكدية ، وتعيش على ما تدره من رزق .

الكديه والاحتراف :

واذا جئنا شعر المكدين المحترفين نستنبط منه أحوال فئتهم ، وعلاقاتها مع الفئات الاجتماعية الاخرى ، وجدنا أن هذا الشعر لم يترك شيئاً من حياة المكدين الا وضّحه ولم يهمل شيئاً من أساليبهم في معاينة الحياة إلاّ وبيّنه .

فلأنهم أناس فقدوا مسوغات الخجل ومعالم الحياء والاحتشام ، همهم الوصول الى غاياتهم الارتزاقية بأية وسيلة كانت ، يقول شاعرهم (٤) :

ليس للحاجات الاّ من له وجه قاوحْ
ولسانٌ ذو بيـان وغـدوٌ ورواحْ

---

(١) اليتيمة ٢ / ٦٢ .

(٢) في قوله :

جـد للصريع بجبـة وعمامـة جرياً على العادات والأخلاق

(الديوان مخ ١٧ ب)

(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٥٨ .

(٤) التمثيل والمحاضرة ٤٦٧ .

ان هذا الوجه الوقح الذي تحمله أرجل لا تكل من السير وينضوي بين أعضائه لسان ذرب يهذي بكلمات الاستجداء ويجحد أفضال الآخرين ويدعي ديمومة الفقر ، واستمرارية الجوع لا ينضح بماء الحياء إن قال (١) :

الحمدُ لله ليسَ لي مـــالٌ ولا للخلق عليَّ أفضـــالُ
الخان بيتي ومشجبي بدني وخـــازني والوكيلُ بقّال

فالمكدي مشرد ومع تشرده يحمد ربه — كذباً — لان الآخرين لا فضل لهم عليه فهو قد اكتفى بما عليه من الثياب حتى صار جسمه وكأنه مشجب لها ، وهو يحصل قوته ومؤونته يوماً بيوم فصار البقال وكأنه خازنه ووكيله ، واذا كان هذا المكدي يجد من الخان بيتاً فإن الأحنفَ العُكبري «شاعر المكدين وظريفهم» «فرد بني ساسان في دار السلام (٢)» يصور لنا نفسه إنساناً مشرّداً يذوب أسى وحسرة لأنه لا يساوي العنكبوت والخنفساء اللتين تمتلكان سكناً تأويان اليه وتعتكفان فيه فهو يقول (٣) :

العنكبوتُ بنتْ بيتاً على وَهَنٍ تأوي إليه وما لي مثله وطنُ
والخنفساءُ لها من جنسها سَكَنٌ وليس لي مثلها إلفٌ ولا سكنُ

ويتحول هذا الأسى إلى ثورة عارمة على الزمان وأهله ، ويتحول ما يلقاه المكدي من صفعة وذِلّة إلى كلمات ساخطة متمردة ينفس العُكبري المكدي عن نفسه آلام ذله ووضاعة مركزه الاجتماعي (٤) ، كذلك يصور لنا ما

---

(١) التمثيل والمحاضرة ٢٠٠ ، المحاسن والمساويء ، كأنه مأخوذ من قول جعفر البرمكي
الحمد لله ليـــس لي كاتـــــب ولا على باب منزلي حاجب
(معجم الادباء ٢ / ٢٥٠) .

(٢) اليتيمة ٣ / ١٢٢ ، وبنو ساسان هم أهل الكدية .

(٣) اليتيمة ٣ / ١٢٣ ، خاص الخاص ١٧٢ .

(٤) يقول صاحب « الفلاكة والمفلوكون » ص ١٢٩ : « اعلم أن الفلاكة اذا استولت على شخص وسلبته القدرة على الافعال انتقل الى الاسترواح والتنفس بالاقوال وذلك لما أن في الكلام راحة وفرجا وتنفيسا من ألم الباطن » .

في مجتمعه من مظالم ومداجاة وكذب ، خلقها التباين الاقتصادي الكبير في هذا المجتمع ، تبدو كل هذه الثورة ، وتبدو معها غربة الانسان الواعي عن مجتمعه في قول الاحنف العكبري (١) :

عشت في ذلّة وقلة مال   واغتراب في معشر أنذال
بالأماني أقولُ لا بالمعاني   فغذائي حلاوة الآمال
لي رجلٌ تقول بالوقف في الرأي ورجلٌ تقول بالاعتزالِ

وفي قوله (٢) :

رأيتُ في النوم دنيانا مزخرفةً   مثلَ العروس تراءت في المقاصير
فقلت : جودي فقالت لي على عجل :   إذا تخلصت من أيدي الخنازير

وقوله (٣) :

قد قسّم اللهُ رزقي في البلاد فما   يُكادُ يدرك إلاّ بالتفاريقِ
ولستُ مكتسباً رزقاً بفلسفة   ولا بشعرٍ ولكن بالمخاريقِ
والناسُ قد علِموا أني أخو حِيَلٍ   فلستُ أنفقُ الا في الرساتيقِ

وان وجدنا في أقوال العكبري حقداً ظاهراً ، وألماً نفسياً متميزاً فقد حصل ذلك بدافع مادي ، وشعور آني بالمأساة الاجتماعية التي ارتضاها المكدّون أو ارتضاها المجتمع لهم ، وبسبب هذا الدافع المادي والمشاعر الآنية كانت مواقف المكدين مذبذبة وسخطهم انفعالياً سرعان ما يفتر أو يبرد حتى يصبح شيئاً تافهاً بجانب الحصول على لقمة العيش ، ولذلك فليس بعيداً أن نسمع شاعراً من شعرائهم هو أبو دلف الخزرجي يأمرهم بالدجل والمخرقة ويقول (٤) :

ويحكَ هذا الزمان زورُ   فلا يغرّنّكَ الغُرورُ
زوّق ومَخْرق وكل وأطبق   واسرقْ وطبلِق لمن يزورُ
لا تلتزم حالة ولكن   دُر بالليالي كما تدورُ

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٢٣ .
(٢) اليتيمة ٣ / ١٢٣ ، خاص الخاص ١٧٢ .
(٣) نفسها .
(٤) المقامات ٩١ والبيت الثاني لم يذكره صاحب اللقامات ، اليتيمة ٣/ ٣٥٨ .

وقد يكون ما قاله أبو دُلف احتجاجاً وربما هو طبع انتهازي عرضه على الناس ودعا للاخذ به لكنه يظل دعوة ذليلة لبيع النفس وهمّتها من أجل لقمة العيش .

واذا ذكرنا هذه الدعوة الذليلة التي وردت على لسان أبي دلف وجب أن نوضح التباين الكبير بين نفسية هذين المكديين مع انهما في منزلة متقاربة من حيث قيمتهما الاجتماعية وحظوتهما عند بعض الرؤساء .

فالأحنف العكبري مرهف المشاعر ، مدرك منزلته ، عارف انها منزلة يأباها الانسان الشجاع لكنه مع ذلك يتجرعها غصصاً ، ويتجشم بسببها عذاباً نفسياً كبيراً ، أما أبو دلف فهو على العكس من صاحبه انسان مهزوز ، فقَدَ مشاعرَه الانسانية ، وأضاع قيم مجتمعه واعرافه الاصيلة .

نجد مثلاً مشاعر الانسان الحزين الذي انهار امام مآسي الحياة ومظالم المجتمع وطبقاته العليا المستغِلّة فسقط مجبراً في دروب الكدية يهدر ماء وجهه أمام كل الناس ، نجد مثل هذه المشاعر عند العكبري وهو يقول (١) :

لائمٌ لامني فطالَ التعدي	لم يرد بالملام – إذ لامَ – رشدي
قال لي: أنت فيلسوفٌ أديبٌ	شاعرٌ حاذق بَحلَ وعقْدِ
هات قل لي، ولا تقل قولَ زور	لِم تُكَدي؟ قلت: من ضعف جَدّي
قد طلبت الغنى بكل ارتياد	واحتيال ما بين هزْلٍ وجَد
فأبى الله أن أكونَ غنياً	ما احتيالي والنحسُ يطرد سَعدي
غير أني لما طلبت لم أظفر بشيء ،	وضعت للدهر خدي

اننا لنكتشف طعم الخيبة في الوصول الى منزلة اقتصادية محترمة ، كما نتذوق الما حاراً ينز من كلمات العكَبري التسويغيّة ، فهو يصارع ذاته ومشاعره الممزوجة باللوعة والحرمان ، وتتوضح وتتعمق هذه المشاعر والانفعالات حين يقول (٢) :

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٣٠١ .

(٢) المنتظم ٧ / ١٨٥ البداية والنهاية ١١ / ٣١٨ .

أقضى عليَّ من الأجل عذلُ العذول إذا عذلْ
وأشدَّ من عذل العذول صدودُ إلف قد وصلْ
وأشدَّ من هذا وذاك طلبُ النوال من السفَلْ

إنه بكاء الانسان على كرامته المهدورة ، وحزنه على فقد ذاته وتلونه حسب الظروف ، ولن نجد بكاءً وحزناً وصراعاً نفسياً أشدَّ مما عند العكبري وهو يعيش مأساته اليومية أثناء عملية الكدية والسؤال فنراه مثلاً يصف لنا هذه المشاعر المتألـّمة بعد أن ينتهي من جمع ما حصل عليه فيقول (١) :

فصرنا في حمى البيت كأنّا وسط تنور
وصرنا من أذى الصفع كمثل العُمي والعُور
لقد أصبحت مخموراً ولكن أي مخمور

انه اذ يستشعر مأساته لا يجد غير الألم الذي يتراوح بين الثورة على الذات والمجتمع وبين الاستسلام القاتل المشوب بالتبريرات والتخريجات الانهزامية التي لا يمكن أن يتستر عليها رجل مثل الأحنف العكبري تزود بعدة المكدين ومشى دروبهم ولهذا نجده يقول (٢) :

من أرادَ الملكَ والراحة من همّ طويلِ
فليكن فرداً من الناس ويرضى بالقليلِ
ويداري مرضَ الوحدة بالصبر الجميلِ
لا يماري أحداً ما عاش في قال وقيلِ
يلزمُ الصمْتَ فإن الصمتَ تهذيبُ العقولِ
يَذَرُ الكبر لا هليه ويرضى بالخمولِ
أي عيش لامرىء يصبح في حال ذليلِ
بين قصدٍ من عدو ومداراة جَهولِ

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٢٤ .

(٢) المنتظم ٧ / ١٨٥ ، البداية والنهاية ١١ / ٣١٨ ، وفي المصدرين اختلاف لفظي لا يؤثر على المعنى كثيرا .

واعتــلال من صــديق وتجــن من ملّول

انه يكشف آلامه هنا على شكل نصائح مستسلمة متوجعة ، لكن استسلامه على أية حال لا يصل الى ما وصل اليه المكدون ذوو المشاعر الميتة ، استسلام العكبري يبدو في دعوته الى القناعة والصبر والابتعاد عن الطموح ، وعن الناس أيضاً ، فالزمن قاس والوصول الى المطامح يتطلب الذلة والمماراة والدجل .

ان في هذا الاستسلام تسامياً وترفعاً قلّما يصل اليه أغلب الناس الذين قال فيهم العكبري نفسه (١) :

دعينا من زمان ليس َ فيه	سوى متشامت أو مستريب
وحاسدِ نعمة وصديقِ وقت	إذا ما غِبتَ ذمَّكَ في المغيبِ
فمن أولاكَ ودّاً من صديق	ومن ذي قُربة أو من غريبِ
فحب خديعة لمكان رفــقٍ	متى ما زالَ ذمّك من قريبِ

ان الأحنف العكبري كما يبدو من خلال أقواله ذو همة عالية ومشاعر مرهفة ونفس أكبر من أن تكون نفس رجل مكدي ، ولا أظنني أجافي الواقع ان قلت أنه أكبر من طبقته وأسمى منها ، فهو في الاقل بقي يشعر بانسانيته ووجوده ، ولم يدع مثلما دعا أبو دلف الى الانسلاخ من عالم الوعي والشعور بالوجود ولبس وجه جديد ، فيه كل معالم المهانة والمخرقة والدجل .

فالفرد الساساني – وأبو دلف في المقدمة – يتوصل بسبل عجيبة للوصول الى مبتغاه ، ولو كان ذلك على حساب كرامته أو انسانيته فكان يتخذ من السخف مطية يصل بها الى هدفه مسوغاً ذلك بسخف الزمان وأهله ، فنراه يبتذل نفسه ويقول (٢) :

سَخفَ الزمانُ وأهلُه	فركبت من سخفي مطيّة

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ٣٠٢ .

(٢) المقامة المجاعية ١٢٩ .

أو يقول : (١)

ساخف زمانك جداً ... إن الزمانَ سَخيفُ
دع الحميّة نَسياً ... وعش بخيرٍ وريفِ

وبسبب سخافة الزمان وسخافة أهله ومظالمهم ، ولأن الزمان نفسه — حسب رؤية أهل الكدية وغيرهم — مشوم غشوم بدأ أهل الكدية يتخذون أساليب عديدة تحميهم من مظالم دهرهم وناسه فصاروا يرون أن :

الحمق فيه مليحٌ ... والعقل عيب وشومُ (٢)

فكان همهم استنباط طرق تؤويهم تشبه في وضاعتها الزمان ، وتجاري ما أمكن مستنبطيها أهل هذا الزمان وجرائرهم ومظالمهم ... فالتلون بألوان مختلفة تتفق والبيئة التي كان يرودها أهل الكدية سيراً على المبدأ القائل : « خير الغناء ما شاكل الزمان (٣) » أو تمشياً مع من يرى أن « الغاية تبرر الواسطة(٤) » هذا التلون كان من صفاتهم المقدمة ، وقد جاء على لسان مكد خبير نصائح كثيرة وأقوال عديدة تدعو الى مثل هذا التلون والتقلب ، يقول هذا المكدي وهو أبو الفتح الاسكندري بطل مقامات الهمداني (٥) :

أنا أبو قَلَمُون (٦) ... في كل لون أكون
أختر من الكسب دُوناً ... فإنّ دهرَك دُون
زَجِّ الزمانَ بحُمقٍ ... إن الزمانَ زبُون (٧)
لا تكذبنّ بعقلٍ ... ما العقل الا الجنون

---

(١) المقامة الحمدانة ١٥٦ .

(٢) المقامة الساسانية ٩٥ . ونسب صاحب الابانة عن سرقات المتنبي ص ٤٩ هذا البيت مع خلاف في اللفظ إلى محمد البجلي الكوفي . تنظر الابلة ط دار المعارف ١٩٦١ .

(٣) خاص الخاص ٥١ .

(٤) الادب في ظل بني بويه ٢١٤ .

(٥) المكفوية ٨١ .

(٦) قلمون : وب كثير الالوان .

(٧) الزبون : الناقة التي تدفع حالبها برجلها .

ويقول أيضاً (١) :

من يصحبِ الدهر يأكلْ ... فيه سميناً وغثّا
فالبسْ لدهرٍ جديداً ... وألبس لآخرَ رَثّا

وأبو الفتح الاسكندري (٢) البطل الذي اختاره بديع الزمان الهمداني لمقاماته نموذج جيد للمكدي الذي يستقطب في شخصه كل صفات طبقته، فهو ذكي يلبس لكل زمان لبوساً، ويتخذ لكل دار فراشاً، متحامق، دجال، مخادع متحلل، مبرر، وهو إذ يدعو دعواته التخاذلية، إنما يصور لنا مأساة مجتمعه وما بلغه من انحطاط اقتصادي وأخلاقي سُلبت معه همم الكثير من أبنائه، فاذا أراد أن يبرر دجله وتقلبه «وانتهازيته» وضعها في قالب اجتماعي وأوقع الذنب بعد ذلك على الأيام وقال (٣) :

الذنب للأيام لا لِي ... فاعتبْ على صرفِ الليالي
بالحُمق أدركتُ المُنى ... ورفلتُ في حُلل الجمالِ

ويبدو من خلال كل «تبريراته» وانهزامه، ووضاعة تصرفه نوع من الألم النفسي الذي يتفاعل مع هذه التصرفات يظهر كأنه ألم نفسي مبعثه المادة وحدها، فالمال ينقصه، ويفتش عنه، ويرهق نفسه في هذا التفتيش الدائب، ويهدر ماء وجهه ومع ذلك يظل يتحسر ويتألم ويقول :

والمال طيفٌ ولكن ... حولَ اللئام يحومُ

ومن هذا الشعور بالغبن ينطلق المكدي للانتقام من مجتمعه، بطريقة جديدة مبتكرة، تشعره بعد ذلك بوجوده، وأهميته، ولو كانت هذه الطرق المبتكرة، والاساليب الجديدة، حيلاً وأحابيل وكذباً، فما دام الانسان

---

(١) الأرمنية ١٨٩ .

(٢) يرى الدكتور البصير ان أبا الفتح هو بديع الزمان الهمذاني نفسه، ينظر في الادب العباسي ٩٥ .

(٣) المقامة القردية .

المكدي ضحية مجتمعه ، فلينتقم وليفعل ما يقوله أبو الفتح (١) :

الناس حُمُرٌ فَجَوّزْ (٢) وابرز عليهم وبرّزْ
حتى إذا نلتَ منهم ما تشتهيه فَفَرْوِزْ (٣)

ان هؤلاء الناس الذين يصورهم أبو الفتح بهذة الأشكال الغبية التافهة هم حصيلة معرفة واعية – وان لم تكن نزيهة كلياً – استخلصها اثناء معاشرته لهم في القرى والرساتيق والمدن ، فهو من طبقة المكدين – المزروعة في مسامات الناس – عبيد الله الذين « أخذوا العمر خليطاً فهم يمسون أعراباً ويضحون نبيطاً » ولذلك فليس كثيراً على ذكي مثله أن يتمادى في استغفالهم ، وسلب أموالهم بالاحتيال والمخرقة .

ولم يقتصر التلون الذي صبغ طبيعة طبقة المكدين على جانب تلوني واحد ، فقد تعددت جوانبه وصار المكدي نموذجاً للحرباء البشرية « فهو ينبوع العجائب » في احتياله ذو مراتب يردد في كل مناسبة (٤) :

أنا في الحق سنـــــامٌ أنا في الباطلِ غاربْ
أغتدى في الديرِ قسيســـــاً وفي المسجدِ راهبْ

« وكذا يفعل من يعقل في هذا الزمان (٥) » .

ويبدو لي بعد كل هذا أنه لم يكن ببعض المكدين حاجة الى المال ، لكن دخوله هذه الحرفة وامتهانه اياها جعلها تتماسك مع كيانه وتصبح ولعاً مادياً يخلق فيه جشعاً مثل جشع التجار والمرابين ، يؤكد ذلك وجود أبي دلف

---

(١) لاصفهانية ٥٤ .

(٢ / جوز : قاد والمعنى أن الناس حمير تستطيع قيادتهم والتفوق عليهم .

(٣) فروز الرجل : مات والمعنى انك يجب أن تفعل شيئا لتتقدم على الناس وتنال مآربك من الحياة منهم ، فإذا ما حصلت على ما ترومه ففارقهم ولو بالموت .

(٤) المارستانية ١٢٦ .

(٥) الخمرية ٢٤٤ .

الخزرجي ، والعكبري (أحياناً) عند الصاحب بن عباد (١) أو عضد الدولة البويهي (٢) واستملاحهما لشعرهما ، ومداعبتهما وايصالهما بالمال . ولا أظن أن هذين المكديين وهما في بلاط أكبر شخصيتين سياسيتين آنذاك يحتاجان الى كد أنفسهما من أجل لقمة العيش .

واذا أردنا أن نتوثق أكثر من استفحال أمر الكدية وصيرورتها تجارة مربحة تحمل معها الجشع وشهوة جمع المال سمعنا أبا الفتح وهو يقول (٣) :

لا يغرنك الذي أنا فيه من الطلبْ
أنا في ثروة تشق لهـــا بردة الطـــربْ
أنـــا لو شئت لاتخذت سقوفاً من الذهب

وإذا صدق أبو الفتح في قوله هذا – ولا أظنه إلا صادقاً بعض الشيء ومبالغاً أيضاً – تأكدنا ، وزاد توثقنا من أن مهنة الكدية مريحة ومربحة للغاية ، ولهذا يصدق من يتهم المكدين في كل الأوقات بخزن الأموال وعدم الحاجة الى السؤال (٤) .

قصيدتا العكبري وأبي دلف :

من أجل استكمال الموضوع وجب الكلام على قصيدتين من قصائد أهل الكدية تعرضان صوراً اجتماعية حقيقية خالية من الانفعالات والعواطف مما يجعلهما تمتلكان قيمة كبيرة في عرض الحقيقة ، هاتان القصيدتان هما دالية العكبري ورائية أبي دلف .

---

(١) تنظر اليتيمة ٣ / ١٢٢ ، ٣٥٦ .

(٢) ينظر لطائف المعارف ٢٣٤ وما بعدها ، حيث ذكر مداعبة من مداعبات ومطايبات عضد الدولة مع أبي دلف .

(٣) عضد الدولة ٢٨ .

(٤) ويبدو لي ان الانتساب للكدية صار اضافة الى الكسب المادي ونوعا من التباهي بالشذوذ يؤكد ذلك استعمال ابن الحجاج وابن سكرة والصاحب لكثير من الفاظ المكدين وتلبسهم بطباتعهم ، ونرى الآن مثل هذا التباهي عند المتأثرين بالموجات الحضارية الغربية الشاذة .

فدالية العكبري تظهر لنا كثرة المكدين وأسلوبهم في جمع المال عن طريق السياحة من بلد الى آخر لا يخافون في سياحتهم هذه غزاة ولا سرّاقاً ، وكثيراً ما احتمى بهم أو باسمهم المسافرون من ذوي اليسار والنعيم أو الجاه والسلطان.
ولهذا السبب قال مفتخراً (١) :

على أني بحمدِ الله — في بيت من المجدِ
باخواني بني ساسانَ — أهلِ الجَدّ والجِدِ
لهم أرض خراسانَ — فقاشانَ الى الهندِ
الى الروم الى الزنجِ — الى البلغارِ والسندِ
إذا ما أعوزَ الطرْقُ — على الطرّاقِ والجُند
حذاراً من أعاديهم — من الأعرابِ والكُردِ
قطعنا ذلك النهجَ — بلا سيفٍ ولا غمدِ
ومن خافَ أعاديه — بنا في الروعِ يستعدي (٢)

ان العكبري في عرضه المتفاخر لأوضاع المكدين وسياحتهم يصور لنا ما وصلت اليه الأمور السياسية من اضطراب ، حيث انقطع حبل الامان على المسافرين جنداً كانوا أم غير جند ، وهذا يوضح بجلاء ضعف الدولة وشلل امكاناتها العسكرية التي تدبر بها أمن الناس وتحافظ على أرواحهم .

واذا كنا مع الدكتور محمود غناوي أن شعر الاحنف العكبري كان من باب الهزل والسخرية اللذين يصدران « عن سخط الشاعر على أنظمة الحياة القائمة التي عبثت بالانسان واستهانت به (٣) » فاننا نرى أيضاً أن العكبري كان جاداً في قصيدته هذه ، لأنه صادق في تعبيره عن سخطه وفي استهزائه

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٢٢ .
(٢) ذكر الثعالبي تفسير الصاحب بن عاد لهذا البيت حيث يقول « ولهذا البيت معنى بديع وتفسيره : يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل اذا وقع احدهم في أيدي قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مكدي ، اليتيمة٣ / ١٢٣ .
(٣) الادب في ظل بني بويه ٢١٦ .

من تفكك مجتمعه ، وانهيار الفئة الحاكمة وضعفها .

ان ما وصل الينا من هذه القصيدة لا يزيد على عشرة أبيات فيها الكثير من الدلائل الاجتماعية ، وقد كانت هذه الابيات باباً واسعاً فتح أمام أبي دلف كي ينظم قصيدته الرائية التي جمع فيها ما جمع من فنون الشحاذة وضروب الحيل ولعل قصيدة العكبري كانت أكثر مما بين أيدينا الآن ضاعت كما ضاعت آلاف القصائد غيرها ، وعلى هذا نكون قد خسرنا سجلاً ربما احتوى على قضايا اجتماعية وفنية غنية .

واذا انتقلنا من دالية العكبري الى رائية أبي دلف المسماة « بالساسانية » تبين لنا أن هذه القصيدة « يمكن أن تعتبر من خير المصادر التي تلقي ضوءاً على أحوال العصر الاجتماعية (١) » وترسم بوضوح متناه صوراً بينة لعادات المكدين وطبائعهم وأنواعهم وشذوذهم ولا يحتاج قارئها إذا فهم مفرداتها الى كثير من الشرح والكلام لأنها بحق « معلقة المكدين(٢) » ومعجم لغتهم وأحوالهم .

وقد ذكر الثعالبي خمسة وتسعين ومائة بيت وقال : اذا هذا هو ما اختاره منها مما يدلل على انها قصيدة طويلة ، وسنجتزيء نحن منها ما يفي ببعض الغرض ، ونكتفي بشرح الألفاظ والتعليق على ما يستوجب التعليق مما يوضح المعنى ويزيل الابهام .

يقول أبو دلف (٣) :

جنونٌ دمعهـا يجري ... لطول الصدّ والهجـرِ
لقد ذقت الهوى طعمين ... من حلو ومن مـرِّ
ولا سيما وفي الغربة ... أودى أكثرُ العُمـرِ

---

(١) نفسه ٢٢٢ .

(٢) الظرفاء الشحاذون ١١٧ .

(٣) اليتيمة ٣ / ٣٥٨ . ولابي دلف قصيدة استجدائية نجدها في اليتيمة ضمن بزذونيات الصاحب .

وشاهدت أعاجيبـاً وألواناً من الدهـرِ
فطابت بالنوّى نفسي على الامساك والفِطرِ
على أني من القوم البهـاليل بـني الغمـرِ
بني ساسـان والحامي الحمى في سالفِ العصرِ (١)
تغرّبنـا الى أنّـا تنـاءينا الى شهـرِ
فظل البين يرمينـا نوىً بطناً الى ظهـرِ
فطبنـا نـأخذُ الاوقـات في العُسر وفي اليُسـرِ
فما ننفكُ من صَمّي وما نَفْتَرَ من مَتْرِ (٢)
فاحلى ما وجدنا العيـش بين الكمـد والخمر (٣)
فنحن الناسُ كل النا س في البرّ وفي البحرِ
أخذنا جزيةَ الخَلْقِ من الصينِ الى مصر (٤)
إذا ضاق بنا قطر نزل عنه الى قطـرِ
لنـا الدنيا بما فيهـا من الاسـلام والكفرِ
فنحـن الميزقـانيون لا ندفـع عن كِبر (٥)
فمنا كل كـمّاذِ اللبوساتِ مع الهرِّ (٦)
ومنـا كـلّ صَلاّجٍ بكَـيْذٍ وافرِ نُكرِ (٧)

(١) بنو ساسان : هم أهل الكدية وفي نسبتهم هذه أقوال كثيرة ، وهذا البيت يثبت ما ذهب اليه المرحوم الشيخ محمد عبده من أن ساسان هو ملك الفرس وانهم نسبوا اليه ، بعد أن غلب على أمر وتشردت عائلته ، تنظر المقامات ٩٢ .

(٢) الصمي والمر : مر معناها في فصل سابق .

(٣) الكمد : العمل الجنسي .

(٤) يصور لنا ما يحصلون عليه من مال ورزق جزية كأنه بذلك ينتقم لوضاعة أسلوب ارتزاقه أو كأنه يرى أن ما يأخذه انما يأخذه رغما عن أصحابه .

(٥) الميزقانيون : المكدون وميزق : كدي .

(٦) الكماذ : الفاعل ، اللبوسات : الفروج والهر : الدبر . ويصور لنا هذا البيت المرحلة الأخلاقية المنهارة التي كان عليها أهل الكدية ، ففي مجتمعهم تجد اللواطة والبغاء معاً .

(٧) الصلاج : الذي يجلد ذكره مستعملا العادة السرية أي أنه يستمني بيده ، والكيذ : عضو الرجل .

قـد استكفى بكفيه عن الثيّب والبِكرِ
ومنا الكاغُ والكاغةُ والشيشَق في النحرِ (١)
ومن دَرْوَزَ أو حَرَّز أو كوّز بـالدغرِ (٢)
ومن رعّسَ أو كبّس أو غلّس في الفجرِ (٣)
ومن شَطّبَ أو ركّب للضربَاتِ والعقْرِ (٤)
ومن مَيْسَرَ أو مَخْطَرَ واستنفر للثَغْرِ (٥)
ومن نـاكذَ في القينـون من جوفِ أبي شمرِ (٦)
ومن دلك أو فلـك أو بلغـك بالحرِ (٧)

---

(١) الكاغ ، والكاغة المتجانن والمتجاننة وهذا يدلل على وجود المرأة ضمن أهل الكدية ، والشيشق ما يوضع من تعاويذ أو رقي على المجنون . قال الجاحظ : « والكاغاني الذي يتجانن ويتصارع ويزبد حتى لا يشك أنه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته » البخلاء ١٣٤ ، وينظر المحاسن والمساوىء ٢ / ٤١٥ .

(٢) دروز : دار على السكك والدروب وسخر بالنساء بوساطة التعاويذ .
حرز : عمل الاحراز (التعاويذ) .

كوز : المكوز الذي يقوم في مجالس القصاص فيأمر القصاص أصحابه بأن يعطوه فاذا تفرقوا قاسمه القاص . والدغر : المقاسمة ، وهذا يوضح مدى استغفال أهل الأدب للناس .

(٣) رعس : اذا طاف على حوانيت الباعة وأخذ من هنا جوزة و من هنا تمرة وتينة.. كبس اذا دار فان رأى رجلا قد حل سفتجته كبسه وأخذ منه قطعة . غلس : خرج عند الفجر ، أي منا الذي يطوف على الحوانيت يكدي الاشياء الصغيرة أو الذي يتحين الفرصة لينهب مما يحمله الآخرون وهذا هو النشال .

(٤) شطب : اذا عقر نفسه بالموسى و جعل يكذب على الاعراب والاكراد واللصوص، وركب إذا طلى نفسه بالشيرج وأدعى أنه جلد أو لطمته الجن وهؤلاء هم صانعو العاهات .

(٥) ميسر : اذا كدى على أنه من الثغر أي من المناطق التي يغزوها الروم بحرا ، مخطر : اذا بلع لسانه وأوهم أن الروم قطعوه وقد جازت هذه الحيلة على الجاحظ وخدع بها (البخلاء ١٣٣)

(٦) المناكذة : مقاسمة الآخرين ثيابهم وسلاحهم بعلة الغزو ، والقينون مكان المقاسمة وأبو شمر أول من كدى بهذه الصورة .

(٧) المدكك : الذي يحتال لتطبيب من به وجع ، فاذا رأى من يشكو من ضرسه وضع دود الجبن بين أسنانه ثم أخرجه وادعى أنه شفاه ، فكك : اذا فك السلاسل على الطرق ، بلغك إذا جر الخواتيم بالابريسم الرقيق أي منا من يستغل الطب أو يستغفل الناس أو ينشلهم .

ومن قص لاسرائيل أو شبرا على شبرِ (١)
ومن بَشْرَكَ أو نَوْذَكَ أو أشرك بالهبرِ (٢)
ومن قدّس أو نمّس أو شَوْلَسَ بالشَعْرِ (٣)
ومنّا المصطبانيون من ميزق بالاسرِ (٤)
ومن كدى على كَيْسان في السِّرِ وفي الجهرِ (٥)
ومنا النائحُ المبكي ومنا المنشدُ المُطري (٦)
ومن ضرّب في حب عليٍّ وأبي بَكرِ (٧)
ومنا سائرُ الانصارِ والاشرافِ من فهرِ
ومنا قَيّمِ الدين المطيعُ الشائعُ الذكرِ (٨)

---

(١) أي منا الذي يروي حكايات الانبياء والحكايات القصار التي تسمى الشبريات ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من وجود بذور للقصة وتطور خيال الناس .

(٢) بشرك : لبس زي الرهبان تزهدا ، نوذج : كدى على أنه من الحجاج . اشرك بالهبر : قاسم رفقاءه ما يحصل عليه..وهذا يدلل على استغلالهم الاديان السماوية من أجل منافعهم الفردية .

(٣) قدس : أكل الكد المجففة في رمضان خاصة وأدعى أنه لا يفطر في الشهر الا مرة أو مرتين .. نمس : من الناموس وهو المكر والخداع ، وشولس بالشعر : أي كدى على أنه من الزهاد الذين يلبسون الشعر ، والشالوسة : الزهاد .

(٤) المصطبانيون الذين يدعون أنهم خرجوا من أيدي الروم بعد أن تركوا عندهم أهلهم رهائن ، فهم يجوبون الآفاق ليجمعوا الفدية ويدللون على ذلك بحمل الشعور والمصطبان الشعر الذي يحمله ذلك المكدي .

(٥) كيسان : الذي تنسب اليه فرقة الكيسانية وهم من الغلاة ولذلك كان المكدون يستغلونهم ويدعون أنهم منهم فيأخذون ما يريدونه .

(٦) أي الذي ينون على الحسين بن علي ويروي فضائله .

(٧) أي منا قوم يحضرون الاسواق فيقف واحد جانبا ويروي فضائل أبي بكر ويقف الآخر جانبا ويروي فضائل علي بن ابي طالب فلا يفوتهما درهم السني أو الشيعي وبعد ان يتفرق الناس يتقاسمان الدراهم . (ينظر قصة مكديين أعميين اتبعا هذا الاسلوب في بغداد ، نشوار المحاضرة ١ / ٢٨١) .

(٨) المطيع : يعني الخليفة المطيع .

يُــكَـدّى مــن معــزّ الدولــة الخبــزَ عــلى قــدرِ

اننا اذ نقف عند هذه الأبيات من قصيدة أبي دلف لا نريد ان نطيل الكلام في فرق المكدين وحيلهم لكننا نشير الى أن هذه الظاهرة الشاذة ، الطاغية قد جرفت في تيار الولع بها وبطرقها كبار رجال الدولة كالصاحب وعضد الدولة وغيرهما ، وهذا ما يدلل على عمق تأثيرها وفاعليتها الاجتماعية .

لقد اتضح لنا في شعر أبي دلف العكبري طبائع كثيرة منحطة ، ووسائل لصوصية استغلالية عجيبة توسل بها المكدون لنيل أهدافهم المادية ، كما اتضح لنا من خلال الأبيات الاخيرة مدى غفلة الناس ، وانغمارهم في التعصب الديني والمذهبي ، والدرك الذي وصلت اليه قيادة هؤلاء الناس متمثلة بالخليفة المطيع الذي صار لعبة بيد السيد البويهي معز الدولة فوصل به الامر الى أن يصبح شأنه شأن المكدين ، فهو يستعطي رزقه من معز الدولة البويهي ، وقد أثبت لنا التاريخ صحة هذا القول فلم يكن الشاعر مبالغاً أو كاذباً ، فلقد ذكر أن « معز الدولة » خصص « للمطيع » مقداراً يومياً من المال يسد نفقاته (١) ثم عاد فقلصه ، ثم قطع عنه المال وأقطعه محله أرضاً تقوم ببعض حاجاته (٢) ، ولم يكن المطيع وحده الذي وقع تحت بلاء السلطة البويهية فكثير من سادة العرب « علويين أو عباسيين » أو غيرهم كانت حالهم اردأ من حال المطيع ، حتى لقد وصل بهم الأمر أن يسألوا أو يثوروا .

بعد كل ذلك فقصيدة أبي دلف سجل حي ناطق بكل ما تتصف به طبقة المكدين من طباع وأحوال (٣) ، وهي أنموذج اجتماعي متحرك يؤدي غرضه بيسر لأنه يعتمد الصدق في تقرير الواقع الذي عاشه الشحاذون والسؤال آنذاك .

---

(١) ينظر البداية والنهاية ١١ / ٣١٤ .

(٢) يظر الكامل ٨ / ٤٥٣ .

(٣) ينظر في أصناف المكدين ايضا المحاسن والمساوىء ٢ / ٤١٣ – ٤٣٦ .

القيمة الفنية :

اذا كان هناك من يمثل طبقته من الشعراء فان الاحنف العكبري عقيل بن محمد ت ٣٨٥ وأبا دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل ت نحو ٣٩٠ هـ كانا يمثلان طبقة المكدين خير تمثيل .

فالأول « شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل فيهم (١) » واما الثاني رجل « مشحوذ المدية في الكدية» « شاعر كثير الملح والظرف (٢) » لكنه في شعره « أبرد من تطرق الهموم فؤاده » سليط اللفظ سخيف العبارة .. واذا كان شعر العكبري فيه شيء من الانفعال والصدق يجعله متحركاً مقبولاً فان شعر أبي دلف لا يعدو كونه مجموعة من الكلمات والالفاظ الغريبة « مُقَوْلَبَة » بشكل قصيدة تقريرية- وهذا يصدق على الساسانية - تشبه الى حد بعيد الشعر التعليمي .

لقد كان شعر الكدية عامة وشعر أبي دلف خاصة بعيداً عن الخيال والانفعالات الذاتية ، انه شعر اجتماعي وصفي يحكي مأساة الانسان وانزلاقه وجبنه .

ولقد حشا أبو دلف قصيدته الساسانية بكلمات كثيرة بعيدة عن روح الشعر ، تعافها الأذن وينبو عنها الذوق ، فجاءت تقريراً اجتماعياً مسهباً لا روح فيه ولامشاعر ، وهذه القصيدة بما فيها من ألفاظ تفيد الى حد ما دارسي اللغة وفقهها .

على أننا يجب أن نتبين قلة اغناء الفاظ المكدين التي وردت في هذه القصيدة للغة العربية ، لأنها ألفاظ وحشية منفرة ، وهي ترتبط بفئة اجتماعية طارئة لا تتعداها ، ولذلك رأيناها تموت وتنعدم بعد أن قلت سورة أهل الكدية ولا نكاد نسمع أنها وردت في لغة الأدباء أو المتأدبين اللهم الا بعض الاستعمالات

---

(١) اليتيمة ٣ / ١٢٢ .

(٢) نفسه ٣ / ٣٥٦ .

الوقتية التي أفاد منها الصاحب بن عباد في اغراباته اللغوية التي اتخذها ابن الحجاج وابن سكرة للتفكه والتندر والارتزاق .

ولا بد أن أبين بعد ذلك أن من أسباب انتشار أشعار ابي دلف والعكبري اهتمام الصاحب بن عباد وعضد الدولة وغيرهما من الرؤساء بشعرهما وولعهم بمفاكهاتهما ونوادرهما ، وحفظهم للالفاظ التي أورداها واجزالهم العطاء لهما .

لم يكن العكبري وأبو دلف هما شاعرا الكدية الوحيدان ، فقد شاركهما بهذا المقدار أو ذاك ابن سكرة وابن الحجاج وبديع الزمان الهمداني لكنهما مع ذلك ظلا الشاعرين البارزين المحترفين ، ولا يمكن أن نضع ابن الحجاج مثلا في موازاة أحدهما لاننا نراه واحداً من أدعياء ومتشاعري الكدية وليس في شعره – وهو الموظف المترف – الروح التي نجدها في شعر العكبري أو أبي دلف ، ولذلك يخطيء من يرى أن « جل شعره في الكدية (١) » ويضعه موازياً لشاعريها المحترفين .

الخلاصة :

ظهر لنا من شعر المكدين كثير من العلامات المتميزة التي تدلل على علاقات اجتماعية مهزوزة وبنيان مجتمع آيل للسقوط أو هو منهار فعلاً .. وليس أدل على هذا من وجود طبقة المكدين المهزومة باطارها الواسع وشكلها المخزي وتنظيماتها المنتشرة .

ولقد درسنا هذه الطبقة بشكل اجمالي فاستقرأنا شعراً لشعراء لم يسكنوا أو يستقروا في العراق كأبي دلف وبديع الزمان ، ولا نتصور هذا خروجاً على مألوف بحثنا انما هو رؤية واضحة لطبيعة هذه الطبقة المتغلغلة في كل المجتمعات المتشابكة جذورها المتشابهة الى حد بعيد بذورها ومسببات وجودها .

---

(١) ينظر الظرفاء والشحاذون ١١٢ .

ويساعدنا رؤيتنا في دراستنا لها بهذا الشكل المطلق كونها غير مقتصرة على بيئة العراق وحدها، وليس لها استقرار دائم في بيئة معينة بعد ذلك ، فالمكدون كالغجر وطنهم الذي يعطيهم الخبز والدرهم والدفء (١) .

على أن منبعهم المصدّر يظل بغداد بخاصة والعراق بعامة ذلك لأن العراق أو بغداد مركز السلطان وبؤرة الفتن والاضطراب ، وعليها يتكالب الطامعون فيقع بسبب ذلك ما يقع من مجاعة وتشرد واذلال تؤدي كلها الى استمرارية توالد وتكاثر المكدين والسؤّال .

---

(١) لقد تخطت هذه الفكرة الغجر والمكدين الى بعض الناس الذين استشعروا ثقل هموم الحياة ومظالم الحكام وارتباك كيان المجتمع وخلقه لذا نسمع محمد بن حماد البصري يقول :

إن كان لا بد من أهل ومن وطن ... فحيث آمن من أهوى ويأمنني
يا ليتني منكر من كنت أعرفه ... فلست أخشى اذى من ليس يعرفني

تتمه اليتيمة ١ / ١٤ .

الفصل السادس

الزهاد والمتصوفون

الزهد :

ينشأ الزهد (١) عادة بسبب ما يكتنف الحياة من تعقد لا يستطيع مواجهته بعض الناس ، لذلك يلجأ اليه في محاولة للهرب (٢) والتخلص من المتاعب التي تنتظر من ينغمر بمثل هذه الحياة الصعبة مغطياً بذلك على هربه أو معلناً عن سخطه (٣) .

وفي الزهد الاسلامي برز سبب آخر لوجوده ، هو الايمان المطلق بالله وبعقابه وثوابه ، ولهذا أراد الزهاد أن يبتعدوا عن الحياة كي لا تصيبهم شرورها أو تنوشهم آثامها فيأخذونها معهم الىالدار الاخرى وينالون جزاءها نار الله الكبرى .

وقد كان الزهد الاسلامي أول أمره محدوداً يوازن بين العمل الدنيوي

---

(١) ينظر في الزهد قوت القلوب ١ / ٤٩١ — ٥٥٠ ، التصوف في الشعر العربي لعبد الحكيم حسان ١٦٩ — ٢٣٩ وفيه دراسة جيدة عن الشعر الزهدي وتطوره .

(٢) ينظر العقيدة والشريعة لكولدزيهر ١٤٧ ، ويقول ان الشعار الذي نقشوه علىلوائهم « الفرار من الدنيا » .

(٣) نفسه ١٤٦ ، ويرى « أن الميل الى الزهد كان مرتبطاً بالثورة على السلطة القائمة» . ويستشهد بحادثة بترها من اسد الغابة ٣ / ٨٨ .

والواجب الديني ويمنع الى حد ما الانغمار في الغيبيات .. قال الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (١) وقال رسوله « انما حبب الي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » (٢) ولا ننسى بعد ذلك الدعوات الكثيرة التي لهج بها القرآن والرسول والصحابة وهي تدعو الى العبادة والعمل الارتزاقي الخيّر أيضاً .

التصوف :

في نشأة التصوف آراء كثيرة ومتعددة منها ما يقول أن الصوفية هم من جملة الزهاد (٣) ومنها ما يرى أن التصوف تطور عن الزهد (٤) ومنها ما يقول أن التصوف كان معروفاً قبل الاسلام ، ومن هذه الآراء ما هو متطرف يرى (٥) « أن التصوف خليق بان يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية .... فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة حين تقوم على مبادىء تتصل بالروح والوجدان » وهناك بعد ذلك آراء ترى ان التصوف لم يكن اسلامياً صرفاً ، فهو قد تأثر بالعقائد الهندية (٦) وقلد طرق الرهبان البوذيين (٧) كما أن العامل المسيحي هو من أقدم العوامل وأبعدها اثراً في التصوف الاسلامي ويشترك مع المسيحية في صفات أهمها التوكل الكلي على الله والحب الالهي ولباس الصوف الذي بالغ فيه متصوفة

---

(١) القصص ٧٧ وتنظر الآيات الآتية في الدعوة للزهد أو العمل المنافقين ٩ ، الاعراف ٢٠٤ ، المائدة ٩٠ .

(٢) وينظر في أحاديث تدعو الى الزهد والعمل أيضاً ، الاربعين في التصوف ص ١٣ .

(٣) تلبيس ابليس ١٦٠ .

(٤) ينظر نصوص في التصوف الاسلامي البير نصري نادر ١٦ وما بعدها ، وينظر فلسفة التصوف .

(٥) التصوف الاسلامي ١/ ١٩ .

(٦) العقيدة والشريعة ١٦١ ، في ذكرى ابي العلاء طه حسين .

(٧) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١ / ٢٩٥ .

الاسلام (١) ، ولا تنسى هذه الآراء تأثير الفلسفة اليونانية (٢) أو المذاهب الفارسية (٣) في الذهنية الصوفية .

ان كل هذه الآراء وغيرها لا يمكنها أن تغير ما نراه من نشوء كيان جديد واطار مستقل للصوفية الاسلامية ، واذا كنا لا ننكر أثر الاقوام الاخرى في التصوف الاسلامي فاننا أيضاً نضيف قائلين بأن ما واكب الحياة الاجتماعية من شرور وموبقات أدى الى خلق العزلة عند بعض الناس ، هذه العزلة نمّت فكر هذا البعض ودفعته الى الاطلاع الواسع ، فنشأ ما تعارفنا عليه بالتصوف الاسلامي ، ونريد بالتصوف الاسلامي ، التصوف المرتبط بالافكار الفلسفية والذهن الواسع .

أصل كلمتي صوفي وتصوف ونسبتهما :

عرف العرب الانقطاع لله وترك الدنيا قبل الاسلام وتمثل ذلك في رجال كثيرين لا يغيب عن ذهن واحد منا اسم ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت وعبيد الله بن جحش وغيرهم من المتحنفين والعرّافين والكهنة (٤) ، وكل هؤلاء لم يطلق عليهم ولا على مذاهبهم اسم يشير الى كلمة صوفي أو تصوف ، ويمكن الشك في أقوال من يرى أن العرب عرفت هاتين الكلمتين قبل الاسلام (٥)

---

(١) ينظر تاريخ الفلسفة الاسلامية ١ / ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، وينظر التصوف الثورة الروحية في الاسلام ٨١ ، ٨٢ .

(٢) تجديد ذكرى ابي العلاء ٧٨ ط ٦ .

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ٧٢ تأليف ج. دي بور .

(٤) ينظر بلوغ الأرب ٢ / ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، واماكن اخرى .

(٥) اللمع ٤٢ – ٤٣ وينقل الاستاذ مصطفى عبد الرزاق آراء الطوسي دون أن يرفضها أو يؤكدها لكنه يرى رأياً لطيفاً في اسم الصوفية والمتصوفة مجمله أن زمن الرسول والصحابة والتابعين لم تكن حاجة لابتداع اسم للعابد غير كلمة صحابي أو تابعي « فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده » سمي من تعبد زاهداً أو عابداً ، « ثم ظهرت الفرق الاسلامية ... فانفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » دائرة المعارف الاسلامية ٥ / ٢٧٥ .

أو أول أيامه (١) ، واذا كانت كلمة صوفي قد قيلت بشكل عرضي لهذا العابد أو ذاك فهذا لا يسوّغ التأكيد المطلق على معرفتها وشيوعها أو تداولها ، لانها لم تأخذ شكلها المتعارف عليه الا قبل المائة الثالثة للهجرة بقليل ، انها « اسم محدث بعد الصحابة والتابعين » (٢) .

ومثلما اختلف الباحثون في تاريخ كلمة صوفي أو تصوف اختلفوا في نسبتها واشتقاقها وتضاربت أقوالهم الى أي أصل ترجع ، أترجع الى الصوف أم الى رجل اسمه صوفة أم الى الكلمة اليونانية « سوفيا » أي المعرفة أم الى الثمرة المعروفة باسم صوفانة أم الى غير ذلك (٣) ؟!

ولقد أبدى أبو الفتح البستي رأيه فقال (٤) :

تنازع الناس في الصوفيّ واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوفِ
ولست أنحل هذا الاسم غيرَ فتى صافٍ فصُوفي حتى لقّبَ الصوفي

ومهما تعددت الاستنتاجات والاقوال تظل النسبة الى الصوف هي الارجح الاعمّ .

ما هو التصوف ، ومن هو الصوفي :

ليس كل من لبس الصوف وأظهر الرقة والتدين صار صوفيا عابداً مؤمناً ، فالصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر (٥) وهو الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه

---

(١) الاربعين في التصوف : ٧ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٥ / ٢٧٥ .

(٣) التعرف ٢١ – ٢٦ ، عوارف المعارف ٥٩ وما بعدها ، الرسالة القشيرية ٢ / ٥٥٠ وما بعدها ، زهر الآداب ٢ / ٨١٠ وما بعدها ، تلبيس ابليس ١٦١ ، ١٦٢ ، دائرة المعارف الاسلامية ٥ / ٢٦٥ ، التصوف الاسلامي ١ / ٤٩ وما بعدها .

(٤) زهر الآداب ٢ / ٨١٣ .

(٥) عوارف المعارف ٥٧ وينظر تعريف التصوف الكشكول ١ / ٨٠ .



سلب (١) لانه من (قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء) فهم عباد مؤمنون (٢) (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (٣) .

قوم همومهمُ بالله قد علقتْ فما لهمْ هممٌ تسمو على أحدِ
فمطلب القومِ مولاهُم وسيدُهم يا حسنَ مطلبهم للواحدِ الصمدِ
ما أن تنازعهم دنياً ولا شرف من المطاعم واللذات والولد (٤)

ان الصوفي يرى التصوف كما قال عنه سمنون : « أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء » (٥) لانه نزع عن نفسه رداء الحياة ولبس ثوب العبادة وانقطع بكله الى الله .

وكل هذه الاقوال وغيرها تبرز لنا طبقة المتصوفة ، وكأنها خالية من الشوائب والشرور ، ولكن الملاحظ ان هذه الطبقة حملت في داخلها تناقضاً عجيباً ولّد أموراً غريبة وشاذة ، وسبب كل هذا اتساع حركة التصوف وتعدد طرقها وكثرة أعضائها وتفاوت نقاوتهم وصدقهم .

ومما يدلل على وجود نوعيات صوفية رديئة برزت بعد هذا التشعب والاتساع قول الطوسي (٦) « واعلم أن في زماننا هذا كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة ، وقد كثر المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون اليها والمجيبون عنها وعن مسائلها » .

ولهذا ظهرت نظرة شك وريبة الى بعض هؤلاء حتى ان قسماً من الناس بات يرى ان التصوف « ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة (٧) » ولذلك

---

(١) اللمع ٤٥ قاله ذو النون المصري ترجمته في حلية الاولياء ٩ /٣٣١ وما بعدها ١٠ / ٣ وما بعدها .
(٢) اللمع ٤٥ القشيرية ٢/ ٥٥٥ قاله ذو النون .
(٣) التوبة ١٠١ ، المائدة ١٠١ .
(٤) التعرف ٢٦ ، عوارف المعارف ٥٧ .
(٥) اللمع ٤٥ ، القشيرية ٢ / ٥٥٢ ترجمة سمنون حلية الاولياء ١٠ / ٣٠٩ .
(٦) اللمع ١٩ .
(٧) نفسه ٢١ .

« يسرف في الطعن وقبح المقال » في الصوفيين « حتى ينسبهم الى الزندقة والضلالة (١) » .

ولقد سجل لنا الحلاج وجود مثل هذه النوعيات حينما نظر الى المتصوفة فعافت نفسه تهويمات وحيل ومخرقة بعضهم فقال (٢) :

ليس التصوفُ حيلةٌ وتكلفاً وتقشفاً وتواجداً وصياحْ
ليس التصوف كذبةٌ وتظالما وجهالةٌ ودعابةٌ ومزاحْ
بل عفةٌ ومروءة وفتوة وقناعة وطهارة وصلاحْ

ان نظرة الحلاج هذه ، زيادة على أنها تبين بوضوح تداخل التصوف مع أعمال الدجل ، تبرز غيرة الحلاج على مذهبه ، وصدق مشاعره الدينية والانسانية (٣) .

ونظر طاهر بن الحسين المخزومي البصري (٤) الى جماعته الصوفية فهاله أن يرى مجموعة بائسة من لبسة المرقعات ، المتظاهرين زوراً ودجلاً بمظاهر الصوفيين ، العابثين في حياتهم عبثاً يبعث في نفس الشاعر الرثاء للتصوف الذي أبتلي بمثلهم لذلك قال معرفاً بالمتصوفين المخلصين ، فاضحاً وجود دعاة مشبوهين بينهم (٥) :

ليس التصوف ان يلاقيك الفتى وعليه من نسج النموس مرقع
بطرائق سود وبيض لفقت وكأنه فيها غراب أبقع
ان التصوف ملبس متعارف يخشى الفتى فيه الإله ويخشع

---

(١) نفسه ، وقد أكثر ابن الجوزي في ذم المتصوفة ونسبهم الى الضلالة والزندقة في مواضع كثيرة من كتابه تلبيس ابليس من ١٥٠ – ٣٩١ .

(٢) الديوان ٨١ .

(٣) تنظر الدراسات الحديثة المهمة التالية عن الحلاج (أ) شخصيات قلقة ٧٠ وما بعدها (ب) الفلسفة الصوفية في الاسلام ٣٢٥ وما بعدها (ج) دائرة المعارف الاسلامية ٨ / ١٧ (د) التصوف في الشعر العربي عبد الحكيم حسان ٣٣٨ وما بعدها .

(٤) ترجمة في تتمة اليتيمة ١/ ٢٠ .

(٥) نفسه ١ / ٢٢ .

ولقد كثرت بوجود مثل هؤلاء الدعاة « الاحابيل الصوفية » وانتشرت حولهم تقولات لا تخدم حركتهم انما تسيء اساءات بالغة لما تعدده من حيلهم والاعيبهم .

وقد تبرّأ ابو بكر العنبري المتصوف من هؤلاء المحتالين ونفى ان يكون كل من لبس الصوف صوفياً فقال (١) :

ليس التصوف بالفوط　　　من قال ذاك فقد غلط
ان التصوف يـا فـتى　　　صفو الفؤاد من السقط

ومن الحيل التي كان يقوم بها بعض الصوفية وعظ الحكام وابتزز الاموال منهم وقد جازت حيلة أحدهم على بجكم « فعضّ على شفتيه وقال : انا لله حيلة تمت عليّ ، كلنا صيادون لكن الشباك تختلف (٢) » .

وقد اورد لنا الثعالبي كثيراً (٣) من التهكمات بالمتصوفة ووصفهم بأنهم « رقصة أكلة » كما أثبت نصوصاً تبين مدى نهمهم وانحطاط تصرفاتهم فقال مثلا: (٤) وقد أفصح بعض الظرفاء عن حقيقة وضعهم وجلية حالهم ،فقال وما قال الا الحق :

صَحِبتُ قوماً يقول قائلهـم　　　نحن على ذي الجـلال متـكـله
فالوقت ، والحال ، والحقيقة والبرهانُ ، والرقص عندهم مسأله
فلم أزل خادماً لهم زمنـــاً　　　حتى تبينتُ أنهم أكـلـه

وقال الثعالبي أيضاً :

« أنشدت لأبي عمر بن عبد الله الهرتد فيهم »

---

(١) نفسه ١ / ٦١ .

(٢) نشوار المحاضرة ١ / ٢٨١ وفي هذا الكلام اعتراف شخصي بفساد الحكام وكثرة مظالمهم .

(٣) المضاف والمنسوب ١٧٤ .

(٤) نفسه ١٧٦ ، وفي المعنى نفسه يورد ابن الجوزي قصيدة جاء فيها :

فلم ازل خادماً لهم زمنـاً　　　حتى تبينت أنهم سفله
ان اكلوا كان أكلهم سرفـا　　　أو لبسوا كان شهرة مثله

ينظر تلبيس ابليس ٣٧٦ .

تبّاً لقوم جعلوا دينا لدنيا مأكلَه
تستّروا بأنهم صوفيةٌ مُحنبلَه
وما يساوي نسلُهم قمامة في مزبلَه
وهم اذا فتشتَهم منافقون أكَلَه

ونجد مثل هذا التحامل القاسي عند أبي العلاء المعري في مواضع عديدة من أشعاره وفي قوله مثلاً (١) :

أرى جيلَ التصوف شرَّ جيل لقد جئتم بشيء مستحيلِ
أقال الله حين عشقتموه كُلوا أكلَ البهائم وارقصوا لي

ويتوضح لنا من خلال هذه الابيات ولع المتصوفة بالاكل وشرههم عليه وانحراف الكثير من رجالهم عن طريق التدين الصحيح الى طريق الدجل والمخرقة والتظاهر الخبيث بأمور بعيدة عن جوهر الحقيقة الصوفية الاصيلة ، فغدا التصوف في القرن الرابع غريباً عما كان عليه أول أمره وهذا ما حدا بالشاعر أن يقول (٢) :

أهل التصوف قد مَضَوا صار التصوفُ مخرقه
صار التصوف ضجّةً وتواجداً ومطبّقه

بعد هذه الأقوال التي قد تصدق كلها أو بعضها ، أو قد تكون تحاملاً وبهتاناً ، يجب أن لا نمسك بالجوانب السلبية من المتصوفة ونترك الجوانب الايجابية التي تمثلت في شجاعة بعضهم وصراحته ووقوفه بوجه التيار الزائف لحركة الصوفية .

يعدّ شعر الزهد المقياس الحقيقي الذي يمكنه أن يبين مقدار تغلغل الايمان في نفس الزاهد ، كما يمكنه أن يوضح مقدار ثبات الزاهد أو ضعفه ازاء مغريات الحياة وصعوباتها .

---

(١) تلبيس ابليس ٣٧٧ .

(٢) اللمع ٤٧ ، تلبيس ابليس ٣٧٦ .

نجد مثلاً زهداً شامخاً ثابتاً قوي الارادة امام الاغراء السافر للحياة عند الحسين الحلاج في قوله (١) :

دنيا تغالطني كأني لستُ أعرف حالَها
حَظَرَ المليكُ حرامَها وأنا احتميتُ حلالَها
فوجدتُها محتاجةً فوهبت لذَّتَها لها

ان في هذا الزهد سمواً وتعالياً وامساكاً شجاعاً بغرائز النفس لئلا تجمح ، فهو استشعار للذة عن طريق الألم حيث ينبعث من خلال هذا الاستشعار سلوان وفرح وكبرياء .

عليك يا نفسُ بالتسلّي العز بالزهد والتخلّي (٢)

وقد نجد عند آخرين استصغاراً للحياة الدنيا يولد بعد ذلك « زهداً وجودياً » ان جاز القول فحينما يستشعر هؤلاء قرب الموت ويتذكر نهاية الانسان وما يؤول اليه بعد العدم ، يغتم وتصيبه سوداوية وتشاؤم ، فينفر من المتشبثين بالحياة ويقول مثلما قال ابو الحسن علي بن محمد البديهي (٣) :

لا تحسدنَّ على تظاهر نعمة شخصاً تبيتُ له المنونُ بمرصَدِ
أوليسَ بعدَ بلوغه آمالَه يفضي الى عَدم كأن لم يوجَدِ
لو كنت أحسد ما تجاوز خاطري حدَّ النجوم إلى بقاء سرمَدي

وبهذه النظرة نفسها يضاف اليها الالم المتولد من رؤية المجتمع وهو نائم لا يحس بوطأة المآسي التي تهبط عليه كل يوم ينظر ابن نباتة فيقول (٤) :

وتأخذ من جوانبنا الليالي كما أخذ المساء من الصباحِ
أما في أهلها رجلٌ لبيب يُحس فيشتكي ألمَ الجراحِ

---

(١) تاريخ بغداد ٨ / ١١٧ ، البداية النهاية ١١ / ٣٢٤ .
(٢) الديوان ٨١ .
(٣) المقايسات ٢٩٨ ترجمة البويهي في اليتيمة ٣ / ٣٤٣ .
(٤) اليتيمة ٢ / ٣٨٥ ، المقايسات ٢٩٦ .

أرى التشميرَ فيها كالتواني وحرمانَ العطية كالنجاحِ
ومن لبس التراب كمن علاه وقد تخدَعْكَ انفاسُ الرياحِ
وكيف يكدّ مهجتَه حريص يرى الارزاقَ في ضرب القِداحِ

ان زهداً مثل زهد ابن نباته هذا أو زهد الوزير المهلبي (١) أو غيرهما مسبب بفعل تسلط عوامل ذاتية ونفسية وخارجية دفعت مثل هؤلاء المتنعمين في الحياة الى التشبث بأذيال الزهد بعد أن اشتد بأس هذا التسلط وأخذ بخناق هؤلاء الناس وضرب مصالحهم وترفهم انه زهد وقتي يزول بزوال مسبباته .

وان أردنا أن نعري نوعاً جديداً من الزهد، وجدنا ذلك عند بعض العلماء والفلاسفة ، ويمكننا أن نطلق على زهد هؤلاء اسم الزهد الحريص الواعي ، ومثل هذا الزهد يتوضح في شعر ابي سليمان المنطقي محمد بن طاهر (٢) ت نحو ٣٨٠ هـ) .

حينما قال (٣) :

بَكيتُ على مفارقةِ الشباب وأيامِ البَطالـةِ والتصابي
وأيامِ التغـازل والدلال وأيام التجني والعتـابِ
مضت فكأنها لمّا تولتْ معقبة نفيساً بالعقـابِ
لتبلي كل ملبوسٍ جديـد وتُخرج كل معسول بصابِ
بياض الشيب أعلامُ المنايا نُشرن نذيرة لك بالذهابِ
هو الكفن الذي يَبلى وشيكاً ويـأتي بعدَه كفنُ الترابِ

اننا نجد مع حرص المنطقي ، ولوعته ، وأسفه على الايام التي قضاها ولم ينتفع منها الا بالامور الدنيوية ديمومة في التفكير بالموت والنهاية ، وفي هذا التفكير دافع آخر للزهد والعبادة .

---

(١) مر الكلام على زهد المهلبي في الفصل الثالث .

(٢) ترجمته في الاعلام ٤١/٧ ويأتي ذكره في أماكن عديدة من المقايسات والامتاع والمؤانسة .

(٣) المقايسات : ٢٩٩ .

ان شعر الزهد كثير وهو بمجموعه لا يعدو أن يكون تعبيراً عن بداية لهزيمة الانسان من الحياة وقد يكون تعبيراً واضحاً عن هذه الهزيمة ومع هذا لم يصل في التهويم والغيبية الى ما وصل اليه شعر الصوفيين الذي سيأتي تفصيل احوال قائليه من خلاله .

أحوال الصوفية ومقاماتهم :

للصوفية أحوال ومقامات يختصون بها لا نجدها عند غيرهم من الناس ، والمقام « معناه مقام العبد بين يدي الله فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع الى الله عز وجل (١) » ومن المقامات التوبة والورع والزهد والتوكل والفقر والصبر والرضا (٢) وهذا يعني ان المقامات تعبير عن « درجات العبادة (٣) » التي يتقنها الصوفي .

أما الحال فمعناه « ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب (٤) » قال الجنيد والحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم (٥) » ومن الاحوال القرب والمراقبة «السكر والصحو والمحبة والخوف والرجاء والانس والطمأنينة واليقين (٦) ، وهذا يعني أن الاحوال تواردت نفسية آنية تأتي الى الصوفي أثناء تخلصه من عالم الواقع وتحليقه في عالم الخيال والتهويم .

اذاً فالحال زائلة والمقام ثابت « والاحوال مواهب والمقامات مكاسب والاحوال تأتي من غير الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود .. وقالوا الاحوال كاسمها يعني أنها كما بالقلب تزول في الوقت وأنشدوا :

لو لم تحل ما سُمّيَتْ حالا وكل ما حلّ فقد زالا

---

(١) اللمع ٦٥ . وتنظر القشيرية ١ / ١٩٩١ .

(٢) اللمع ٦٥ . وتنظر الرسالة القشيرية ١ / ٢٥٣ وما بعدها .

(٣) التصوف في الشعر العربي ٦٣ .

(٤) اللمع ٦٦ . وتنظر القشيرية ١ / ١٩٣ .

(٥) نفسه .

(٦) القشيرية ١ / ١٩٦ وما بعدها .

أنظر الى الفيء إذا ما انتهى يأخذُ في النقصِ إذا طالا (١)

ان هذه الاحوال والمقامات التي ترافق الصوفي أينما كان ، قد تكون تصرفات مفتعلة يموه بها على الناس ليسبغ على نفسه هالة من الرهبة والتقديس ويستدر احترامهم وتقديرهم معوضاً بذلك عما يحس به من ضعف في مقدرته على خلق مكانة اجتماعية لنفسه بأسلوب حياتي طبيعي .

اننا نذكر قسماً من أحوال ومقامات الصوفية التي وجدنا لها ما يمثلها أو يفسرها من الشعر الصوفي أما الاحوال والمقامات التي لم نذكرها فهي كثيرة ومتشعبة وقد أكثر من ذكرها معظم مؤرخي التصوف الاسلامي القدماء ، حتى ان بعضهم أفرد عشرات الصفحات عن مقام واحد أو حال واحدة (٢) .

١ ــ الوجد والتواجد والوجود :

أما الوجد فقد تعددت الاقوال في ماهيته (٣) فقال قسم : انه المصادفة وقال قسم : انه المكاشفة ، وقال قسم : انه « لا يقع على كيفية الوجد عبارة لانها سر الله تعالى عند المؤمنين الموقنين (٤) » وأرى أن أحسن تعريف شامل للوجد هو ما جاء به الكلاباذي حين قال (٥) : « ومعنى الوجد : هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، او كشف حالة بين العبد والله عزّ وجل » .

والشبلي بعد ذلك يرى أن الوجد هو المشاهدة كما في قوله (٦) :

الوجد عندي جحـود ما لم يكن عن شهودي

---

(١) الرسالة القشيرية ١ / ١٩١ .

(٢) ينظر مثالا لذلك ما كتبه صاحب قوت القلوب عن التوكل ٢ / ٣ ــ ٧٥ ، ينظر في شرح الحال والمقام والفرق بينها . عوارف المعارف ٤٦٩ .

(٣) ينظر اللمع ٣٧٥ ، التعرف ١١٢ ، القشيرية ١ / ٢٠١ .

(٤) اللمع ٣٧٥ .

(٥) التعرف ١١٢ .

(٦) التعرف ١١٣ .

وشاهد الحق عنـــدي يغني شهود الوجـود

وأما التواجد فهو أضعف من الوجد لانه اظهاره « فمن ضعف وجده تواجد (١) » .

وربما يكون التواجد على هيئة صياح أو اغماء أو تصرفات أخرى تدلل على فقدان سيطرة العقل الظاهر على المشاعر الروحية المتدفقة .

ذكر ان الشبلي تواجد يوماً فضرب يده على الحائط حتّى عملت عليه يده فعمدوا الى بعض الاطباء فلما أتاه قال للطبيب : ويلك بأي شاهد جئتني ، قال : جئت حتى أعالج يدك ، فلطمه الشبلي وطرده ، فعمدوا الى طبيب ألطف منه فلما أتاه قال له : ويلك بأي شاهد جئتني ؟ قال : بشاهده ، فأعطاه يده فبطـّها وهو ساكت ، فلما أخرج الدواء يجعله عليها صاح وتواجد وترك اصبعه على موضع الداء وهو يقول :

أنبتتْ صبابتُكم قرحةً على كَبدي
بتّ من تفجّعِكم كالاسيرِ في الصفَدِ (٢)

وأما الوجود فهو اعلى مراحل الوجد أو « هو بعد الارتقاء عن الوجد » (٣) وقد أنشد شاعرهم (٤) :

وجودي أن أغيبَ عن الوجود بما يبدو عليّ من الشهـودِ

وأحسن أنواع الوجود وجود ابن عطاء حين قال (٥) :

إذا ما وجود الناس فات علومَهم فعلمي لوجدي صاحب وقرين

ولأن الوجود هو أعلى مراحل الوجد قالوا : التواجد بداية والوجود

---

(١) نفسه ١١٢ .

(٢) اللمع ٣٧٩ ويبدو ان تواجد الشبلي هو اخف انواع التواجد إذا قيس بما فعله ابن الفارض فيما بعد — حين رقص وتعرى في السوق أمام الناس .

(٣) القشيرية ١ / ٢٠٣ .

(٤) نفسه ١ / ٢٠٣ .

(٥) طبقات الصوفية ٢٦٩ .

نهاية والوجد واسطة (١) ويرى ابن الجوزي في هذه الاحوال تلبيساً بالغ فيه ابليس على الصوفية (٢) . »

المحبة والشوق :

المحبة « هي ميل القلوب أي أن يميل القلب الى الله والى ما لله من غير تكلف » (٣) وهي « استهتار القلوب بالثناء على المحبوب وايثار طاعته والموافقة له (٤) » .

وتظهر هذه المحبة في الشعر الصوفي بقالب مادي فتبدو كأنها متوجهة الى انسان لا لإله ، سئل ابن عطاء عن الشوق (٥) فقال : « هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الاكباد من البعد بعد القرب » ، وقد أنشدوا له (٦) :

غرستُ لاهل الحب غصناً من الهوى   ولم يكُ يدري ما الهوى أحدٌ قبلي
فأورقَ أغصاناً وأينَع صبـوةً   وأعقب لي مراً من الثمر المحلي
وكل جميع العاشقين هـواهمُ   اذا نسبوه كان من ذلك الاصلِ

وسئل ابو الحسن علي بن ابراهيم الحصري (٧) (ت ٣٧١) : هل يحتشم المحب أو يفزع ؟ فقال : الحب استهلاك لا يبقى معه صفة وانشأ يقول (٨) :

قالت : لقد سؤتنا في غير منفعة   بقرعك الباب ، والحجاب ما هجعو

---

(١) الرسالة القشيرية ١ / ٢٠٢ .
(٢) ينظر تلبيس ابليس ٢٥٠ وما بعدها .
(٣) التعرف ١٠٩ ، وينظر في المحبة والمحبين قوت القلوب ٢ / ٩٩-١٦٤ .
(٤) اللمع ٨٧ .
(٥) عوارف المعارف ٥١١ .
(٦) القشيرية ٢ / ٦١٧ .
(٧) ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي ٤٨٩ ، القشيرية ١ / ١٨٣ ، الشعراني ١ / ١٤٥ تاريخ بغداد ١١ / ٣٤٠ .
(٨) طبقات الصوفية ٤٩٢ .

ماذا يريبك في الظلماء تطرقنا ؟ قلت : الصبابة هاجت ذاك والطمع
قالت : لعمري لقد خاطرت ذاجزع
حتى وصلت ، فهلا عاقك الجـــزع
فقلت : ما هو الا القتل أو ظفر بمــا يزول به عن مهجتي الهلع

وهو يقول أيضاً (١) :

إن دهراً يلف شملي بسلمي لزمان يهم بالاحسانِ

« وقيل : حبس الشبلي في (المارستان) فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ قالوا : إنّا محبوك يا ابا بكر ، فأقبل يرميهم بالحجارة ففروا ، فقال : ان ادعيتم محبتي فاصبروا على بلائي (٢) » .

وقد أنشدوا له في الحب (٣) :

يا أيها (٤) السيد الكريمُ حبك بين الحشا مقيـــمُ
يـــا رافع النوم عن جفوني أنت بما مرّ بي عليـــمُ

« وقيل شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين » ولهذا أنشدوا (٥) :
وأبرح ما يكون الشوق يوما اذا دنت الخيام من الخيام

اننا نجد في أقوال ابن عطاء والحصري وغيرهما علائم بارزة من العشق المادي ، ولن يغطي هذه العلائم الايحاء بأن هذه الكلمات هي رمز للمحبة الروحية الدفينة وقد نجد مثل هذه المحبة الروحية ظاهرة عند سمنون المحب حين يقول (٦) :

---

(١) طبقات الصوفية ٤٩٣ .
(٢) القشيرية ٢ / ٦٢٠ .
(٣) القشيرية ٢ / ٦٢٠ .
(٤) في الاصل « أيها » ولا يستقيم معها الوزن .
(٥) الرسالة القشيرية ٢ / ٦٣٠ .
(٦) طبقات الصوفية ١٩٧ .

فلما دعا قلبي هواكَ أجابه فلست أراه عن فنائك يبرحُ
فان شئت واصلني وان شئتَ لا تصل
فلست أرى قلبي لغيرك ينزحُ

أو الشبلي حين يقول (١) :

يحبك قلبي ما حييتُ وإن أمت يحبك عظم في التراب رميم

وقد « يفلسف » بعضهم شدة حبه وشوقه وسطوتهما عليه بكلمات وأقوال متداخلة المعاني كما يظهر ذلك في شعر ابي عبد الله بن محمد الراسبي (ت ٣٦٧) (٢) .

ولقد أفارقه باظهار الهوى عمداً ليستر سرَّه اعلانُه
ولربما كتم الهوى اظهاره ولربما فضح الهوى كتمانُه
عِيّ المحبِّ لدى الحبيبِ بلاغةٌ ولربما قتل البليغَ لسانُه
كم قد رأينا قاهراً سلطانُه للناس ، ذلَّ لحبِّه سلطانُه

اننا نستقرىء كل ما قاله الصوفية في المحبة والشوق فنجده معبرا في الاغلب عن مشاعر حالمة تشعرك بصدق الود وقوة الوشيجة بين الحبيبين ، وقد يكون هذا الصدق منبعثاً عن قوة ايمان بالله أو لا يكون ، ولقد ذهب بعضهم (٣) الى ان الايمان هو العشق (فحينما قلت آمنا فكأنما قلت عشقنا) ، لان « الذي يشهد بكلمة لا اله الا الله أصبح عاشقاً (٤) »

ولا يبعد أن تكون هذه المشاعر عواطف انسانية حبيسة اندفعت غزيرة تجاه حب الله الذي استعاض به الصوفي عن الحب الجسدي الملوث .

ان في خيال الصوفي وهو يستشعر هذه المحبة وهذا الشوق ويلتذ بهما

---

(١) الديوان ١٢٣ ، حلية الاليا ٣١٧/١٠
(٢) نفسه ٥١٤ . وترجمة الراسبي في الشعراني ١ / ٤٧ .
(٣) بين التصوف والحياة للندوي ١٤١ .
(٤) بين التصوف والحياة للندوي ١٤١ .

صورة مثالية للعشق الخالي من الشوائب والادران ، وهو بدافع من الغرائز المكبوتة في داخله يظهر هذا العشق على شكل كلمات يفرغ فيها كل ما يحمله من تأزم منفساً بذلك – دون علم أو ارادة – عن كبت جنسي حبيس .

التوكل :

التوكل في المفهوم الصوفي هو « الاستسلام لجريان القضاء والاحكام (١) » وقال صاحب « قوت القلوب » : أنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء (٢) :

ولما رأيت القضا جاريا ولا شك فيه ولا مرْيَةِ
توكلت حقا على خالقي والقيت نفسي مع الجرْيَةِ

وكان الصوفية يرون في التوكل على الله جزءاً من ايمانهم ولذلك قال بعضهم : « من طعن في التوكل فقد طعن في الايمان لانه مقرون به (٣) » .

وقد أحس بعض المتصوفة بما يسببه التوكل من ارتزاق فيه بعض الشعور بالتقصير فقال الشبلي مثلاً : « التوكل كدية حسنة » وقد يبلغ التوكل بأحدهم أحد القول :

أنا حامدٌ أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا نائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين بنصفها فكن الضمين لِنصفها يا باري

كما بلغ الاهتمام بالتوكل درجة قصوى أدت بالمؤلفين أن يضعوا له صفات واحكاماً مسهبة في شرحها والاستشهاد والتدليل على صحتها ، ويكفين ن نذكر بأن صاحب قوت القلوب قد خصص كلاماً للتوكل استغرق أكثر من سبعين صفحة (٤) .

---

(١) الرسالة القشيرية ١ / ٣٧٢ .
(٢) قوت القلوب ٢ / ٧٢ .
(٣) قوت القلوب ٢ / ٥ ، الرسالة القشيرية ١ / ٣٧٣ .
(٤) ينظر قوت القلوب ٢ / ٣ – ٧٥ ، وينظر أيضاً الرسالة القشيرية ١ / ٣٦٧ – ٣٨٢

السكر :

السكر « هو أن نغيب عن تمييز الاشياء ولا نغيب عن الاشياء (١) » « والسكر لا يكون الا لاصحاب المواجيد (٢) » لانه « غيبة بوارِدٍ قوي (٣) فمن يسكر بخمرة الحب الالهي يعيش حالة انفصام عما يحيط به ، فهو في مرحلة طوفان روحي ، وفي هذا غاية التهويم ، ولذلك نرى الكثير من الذين يعيشون حالة السكر هذه يفقدون معها الاحساس الجسدي ، فلا يصابون بأذى بعض ما يصيبهم من العوارض الخارجية أوان انفصامهم عن الوجود (٤) .

قال الشبلي : ما أحوج الناس الى سكرة فقال له أحدهم : يا سيدي أي سكرة ؟ فقال : سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم وافعالهم وأحوالهم وأنشد يقول :

وتحسبني حيا واني لميت ... وبعضي من الهجران يبكي على بعض (٥)

وقد تكون النوازع المادية الدفينة ذات تأثير فعال في نفوس الصوفية فحينما تضطرم لا يسعها ضمير الصوفي فتطفو على شكل كلمات محملة بالرغبات الحبيسة التي ان دلت على شيء فانما تبرز عملية تنفيس وافراغ وتعويض مشروع لكل ما أصاب الفرد الصوفي من حرمان من المتع الحياتية بما فيها شرب الخمر وما يصاحبها من سكر واعمال جنسية أيضاً .

قال شاعرهم (٦) :

(١ – ٢) التصوف ١١٦ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٧ .

(٤) وهذا ما يفسر لنا قابلية بعض الدراويش من مختلف الاديان على ضرب انفسهم بالسيوف أو المشي على النار أو ابتلاع أشياء كبيرة مؤذية أو غير ذلك من الخوارق التي يعجز عنها الانسان العادي ، ويبدو أن هذه الحال احدى احوال التنويم المغناطيسي الناتج عن الجو الصاخب والايحاءات الذاتية الممزوجة بالايمان المطلق .

(٥) حلية الاولياء ١٠ / ٣٧٢ .

(٦) القشيرية ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦٢١ .

فأسكر القومَ دورُ كـأس وكـان سكري من المدير

وكان ابو علي الدقاق ينشد كثيراً قول الشبلي (١) :

لي سكرتان وللندمانِ واحدةٌ شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقال صوفي آخر (٢) :

كفاك بأن الصحو أوجدَ أنني فكيف بحال السكر والسُكر أجدرُ
فحالاك لي حالان : صحوٌ وسكرة فلا زلت في حاليَّ أصحو وأسكرُ

وانشدوا أيضاً (٣) :

سكران : سكرُ هوىً وسكر مُدامة فمتى يفيقُ فتى بـه سكران

ان هذه الاقوال تظهر من يفقد وعيه وعقله الظاهر ويغيب في عالم من الخيال وكأنه قد شرب مدامة حب الله وهي تؤكد ظاهرة موجودة عند الكثير من الناس الذين يؤمنون بوجود قدرة خفية تمكنت من خلقهم ووجب عليهم عبادتها ، ولا تقتصر هذه الحالة على المسلمين فقط فمثلما نجدها عند صوفية المسلمين نجدها عند بعض الرهبان البوذيين أو الفقراء الهندوس أو غيرهم وهذا يؤكد القول الذي يرى أن هذه الحالات ما هي الآ عملية تنويم مغناطيسي عن طريق الايحاء الذاتي .

آداب المتصوفة :

آداب المتصوفة كثيرة ومتنوعة ، فهي تشمل آداب الديانة بأنواعها وأركانها ، وآداب الصحبة ، والطعام والضيافة ، والسماع والوجود ، والسفر واللباس ، والجلوس والمجالسة والجوع ، وآداب المرضى في حالات مرضهم وغيرها من التصرفات التي يفترض أن يتأدب بها الصوفي المتنزه عن الاحوال الدنيوية .

---

(١) القشيرية ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦٢١ ، ٦٥٨ .
(٢) التعرف ١١٧ .
(٣) القشيرية ١ / ٢١٨ .

ويغنينا عن استعراض كل هذه الآداب ما سجله لنا الطوسي في لمعه (١) عنها وما فصله السهروردي بعد ذلك منها (٢) . على اننا نثبت هنا أنموذجين من هذه الآداب هي السماع والصحبة يوضحان بعضاً من تصرفات الصوفية واخلاقهم وهذا الاثبات لا يغني على أية حال عن قراءة بقيـة الآداب واستخلاص ما فيها من روح متسامية عن الكثير من الامور المادية .

السماع :

« السماع استجمام من تعب الوقت ، وتنفس لا رباب الاحوال ، أو استحضار الاسرار لذوي الاشغال (٣) » ، والتجاء الصوفية الى السماع يدلل على رقة في مشاعرهم ورهافة في احساساتهم ، ويبدو أن عزلتهم عن الناس وانغمارهم في الغيبيات واستمرارهم على تلاوة القرآن والحديث وما قيل في الله والرسول من الشعر ، كل ذلك أدى الى هذه الرهافة الحسية والشفافية الروحية الزائدة ، ولهذا صاروا يهتزون لاية نقرة موسيقية أو ترنيمة غنائية أو شعرية .

ولقد سجل لنا التاريخ حوادث وتصرفات كثيرة وغريبة للعديد من مشايخ الصوفية ورجالها يقومون بها لمجرد سماع أبيات أو ألفاظ فيها كلمات منغمة رتيبة ، فذو النون مثلاً حين سمع أحد القوّالين (٤) ينشد (٥) :

صغير هواكَ عذّبـني ... فكيف به إذا احتنكـا
وأنت جمعْتَ في قلبي ... هوىً قد كانَ مشتركـا
أما ترثي لمكتئـبٍ ... إذا ضحك الخلي بكى

قام وتواجد ، ثم سقط على وجهه .

---

(١) اللمع ١٩٤ وما بعدها .

(٢) عوارف المعارف ٢٨١ – ٤٤٣ .

(٣) التعرف ١٦٠ .

(٤) القوال : هو الذي ينشد في حلقات الذكر .

(٥) اللمع ٣٦٢ ، عوارف المعارف ١٧٩ .

أما الشبلي فانه كان يرقص على قول جحظة (١) :

ورق الجوّ حتى قيلَ هذا   عتابٌ بين جَحظةَ والزمانِ

وسمع الشبلي قائلاً يقول :

أسائل عن سلمى فهل من مخبر   يكون له علم بها أين تنزلُ

فزعق الشبلي وقال : لا والله ما في الدارين عنه مخبر (٢) .

« وكان أبو الوزير الصوفي القاطن في دار القطن عند جامع المدينة يطرب على (قلم القضيبية) » اذا غنت (٣) :

شبيهك قد وافى وحانَ اقترابُنا   فهل لك في صوت ورطل مروّق

وكان ابو سليمان المنطقي على جلالة قدره يطرب لغناء الصبي الموصلي العيار الذي افتضح به أصحاب النسك والوقار (٤) ، وكان المعلم غلام الحصري شيخ الصوفية يطرب اذا سمع ابن بهلول يغني في رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خف الزحام (٥) :

وقال لي العذولُ تسلَّ عنها   فقلت له أتدري ما تقولُ

هي النفسُ التي لا بدّ منها   فكيف أزول عنها أو أحولُ

وكان أبو عبد الله البصري يطرب على ايقاع ابن العصيبي اذا وقع بقضيبه وغنّى بصوته وبسبب هذا ونظائره عابه البعض وقدح في دينه (٦) .

اما ابن فهم « الصوفي » اذا سمع « نهاية » جارية ابن المغني تشدو (٧) :

---

(١) الاعجاز والايجاز ١٣٥ .

(٢) عوارف المعارف ١٨٤ .

(٣) الامتاع ٢ / ١٦٧ .

(٤) نفسه ٢ / ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٥) نفسه ٢ / ١٧١ .

(٦) نفسه ٢ / ١٧٥ . وترجمة أبي عبد الله محمد بن احمد بن سالم في حلية الاولياء ١٠ / ٣٧٨ .

(٧) نفسه ٢ / ١٦٦ والبيتان في القصيدة المشهورة لابن زريق البغدادي .

استودع الله في بغداد لي قمرا ... بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعتـه وبودي لو يودعني ... صفو الحياة واني لا أودعه

ضرب بنفسه الارض وتمرغ في التراب ، وهاج ، وأزبد ، وتعفر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه ومن يجسر على الدنو منه ، فانه يعض بنابه ، ويخمش بظفره ، ويركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة في ساعة (١) .

وتروى غير هذه الحكايات ، حكايات أخرى كثيرة عن تجانن أو موت بعض الصوفية أو دعاتها – لمجرد سماعه كلمات منغمة أو غناء عذباً .

حكي أن أحدهم سمع منادياً يقول « سعتر برّي (٢) » فوقع مغشياً عليه فلما أفاق سئل عن ذلك فقال كنت أحسبه يقول اسع تر برّي (٣) .

وحكي أن شاباً مر بقصر فسمع جارية تغني (٤) :

كبرت همةُ عبدٍ ... طمعت في أن تراكا
أو ما حسبٌ لعين ... أن ترى من قد رآكا

فشهق شهقة ومات ...

وقد حلل السهروردي (٥) ذلك وقال انه « يتفق لبعض الصادقين وقد يكون ذلك من البعض تصنعاً ورياء ، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل ممزوج بهوى يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه » .

---

(١) الامتاع ٢ / ١٦٦ .

(٢) سعتر بري : نبات طيب الرائحة قصير الساق يشبه طعمه طعم البهار ينبت في باطن الوديان والقرويون والبدو يخلطونه بعد أن ييبس ويدقونه ناعماً مع الملح ويأكلونه مع الخبز .

(٣) القشيرية ٢ / ٦٥٣ .

(٤) نفسة ٢ / ٦٥٩ .

(٥) عوارف المعارف ١٩٠ .

ويصف لنا ابو بكر العنبري حالة بعض الصوفية المدجّلين عند سماعهم الغناء فيقول (١) :

وذو كَلَف باستماعِ السما ع بين البسيطِ وبين النشيدْ
يئن إذا أومضت رنــةٌ ويزأر منها زئير الاسودْ
يخرّق خلقــانه عامــدا ليعتاض منها بثوب جديــدْ
ويرمي بهيكلِه في السعيرْ لقلع الثّريد وبلع العصيــدْ

لقد اتخذ بعضهم من السماع أسلوباً يوحي به لنفسه كي تغيب في حاله من حالات السكر ، ويظهر بعد ذلك تصرفاته الغريبة التي تخلق منه فيما بعد انساناً مهيباً ، محترماً .

الصحبة :

عرّف أحدهم الصحبة فقال (٢) :

« الصحبة مع الله بحسن الادب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول بملازمة العلم واتباع السنة ، والصحبة مع الاولياء بالاحترام والخدمة والصحبة مع الاخوان بالبشر والانبساط وترك الانكار عليهم ما لم يكن خرق شريعة أو هتك حرمة » .

وفي هذا التعريف جمع شامل لآداب الصحبة وأخــلاق المصاحب والمصاحب ، وبخاصة في صحبة الاخوان ، وقد أكثر السلمي في كتابه « آداب الصحبة وحسن المعاشرة » من ايراد الشواهد الشعرية التي توضح آداب الصحبة وتصف نوعية الصاحب وأخلاقه وقد أورد — متمثلاً — ما قاله احمد بن يحيى (ثعلب) في صفات الصديق (٣) :

ثلاثُ خصال للصديق جعلتُها مضارعة للصومِ والصلواتِ

---

(١) تلبيس ابليس ٣٧٥ .

(٢) آداب الصحبة ٤٣ .

(٣) نفسه ٦٢ ، وترجمة ثعلب في مقدمة كتابه « مجالس ثعلب » ونزهة الالباء ١٩٣ ، وتاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ ، معجم الادباء ٥ / ١٠٢ وبغية الوعاة ١٧٢ .

مواساتُه والصفحُ عن كل زلة　　وتركُ ابتذالِ السرّ في الخلواتِ

وفي الخصلة الثانية وهي الصفح عن زلات الصديق والاغضاء عن مكارهه كان يظهر جوهر الصوفي لأن من آدابهم « التغافل عن زلل الاخوان (١) » « واحتمال الاذى منهم » وقد قال في ذلك عبد الحميد بن عبد الرحمن القاضي (٢) :

صبرت على بعض الأذى خوف كلّه　　ودافعت عن نفسي بنفسي فعزّتِ
وجرّعتها المكروهَ حتى تجرعتْ　　ولو جملة جرّعتُها لا شمأزتِ
فيا رُبَّ عز ساقَ للنفس ذلةً　　ويا ربَّ نفسٍ بالتذللِ عزّتِ

ومن آداب الصحبة عندهم أن يقبلوا دعوة الصاحب ، وينهضوا لمؤازرته والاخذ بيده وهم بعد ذلك :

لا يسألون أخاهمْ حينَ يندبُهم　　للنائبات على ما قال برهانا (٣)

واذا كان الصديق الجيد والمصاحب الخيّر عند الصوفية يتغاضى عن زلات صديقه ويساهم في حمل الاعباء عنه فهو جدير اذاً أن يتصف بصفة نبيلة أخرى هي قبول اعتذار المعتذر اذا أخطأ ، صادقاً في اعتذاره أو كاذباً ، وقد انشدوا قولاً لأبي الحسن ابن أبي العباس البيهقي (٤) :

قيلَ لي قد أساء اليك فلان　　ومقام الفتى على الذلّ عارُ
قلت : قد جاءنا وأحدث عـــذراً　　ديةُ الذنب عندَنا الاعتذار

وغير هذه الآداب كثير ذكرها السلمي في كتابه « آداب الصحبة » كما ذكرها غيره من الكتاب الصوفيين مبثوثة في كتبهم أو ملمومة في فصل أو أقل أو أكثر (٥) .

---

(١) عوارف المعارف ٤٣٧ .
(٢) آداب الصحبة ٤٠ .
(٣) عوارف المعارف ٤٤٠ .
(٤) آداب الصحبة ٦٧ وقيل الشعر لابن المعتز .
(٥) ينظر الرسالة القشيرية ٧٤/٢ وما بعدها ، عوارف المعارف ٤٣٧ .

ويؤلف لنا مجموع هذه الآداب انموذجاً انسانياً لتعامل الصوفيين فيما بينهم أو مع غيرهم .

التفاعل الحياتي عند بعض الصوفية :

اذا كنا قد بينا أن للصوفية طبائع ورغبات مكبوتة يظهرونها على شكل كلمات منظومة أو منثورة تكون مجالهم لتفريغ كبتهم والتنفيس عن تأزمهم ، وان التصوف في الأساس عملية سلبية وهروب واضح من مواجهة الحياة ومشكلاتها ، فلا بد من أن نؤكد نقطة مهمة وهي أن التصوف قد يكون عند بعض من اعتنقه رد فعل لما كان سائداً في المجتمع من فجور وتحلل ، ولكننا لا يمكن أن نجعل هذا القول قانوناً ثابتاً يشمل كل من اعتنق التصوف ، وحتى ان كان رد الفعل هذا من عوامل التصوف فانه يعني أيضاً هروباً وتخاذلاً أمام مصاعب الحياة ، فقد أعرض الصوفية عن واجبهم الديني الذي يفرض عليهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانغمروا بالغيبيات والبحث عن اسرار الوجود وطرق الاتحاد بالذات الالهية ، ولكن هذا لا يعني اننا نفتقد وجود الصوت الشجاع الذي أحس بوطأة الاستعباد الانساني السائد آنذاك .. فقد ظهرت شخصيات صوفية وقفت بوجه المظالم ونددت بالمظاهر الزائفة التي كانت تغطي حياة المجتمع ، فرابعة العدوية ، و الحلاج ، وابن عطاء « وأحياناً الشبلي » كانوا نماذج صوفية تتفاعل مع الحياة وتنظر اليها نظرات عميقة مدركة

ولكن الحلاج يظل رمزاً للشجاعة والثبات على الرأي – أكثر من أي صوفي آخر – ومن أقوى المسائل التي دللت على شجاعة الحلاج ، تصريحه بعدمية جدوى الحج الى الكعبة ، وان كانت رابعة العدوية قد سبقته الى مثل هذا القول (١) على أن الحلاج يبقى أكثر جرأة وأقوى مجاهرة وهذه المجاهرة هي أهم الاسباب التي أدت الى قتله .. يقول الحلاج (٢) :

---

(١) رابعة شهيدة العشق الالهي ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الديوان ٨٥ .

للناس حجٌ ولي حج الى سكني تُهدى الاضاحي وأهدي مهجتي ودمي
تطوف بالبيت قوم لا بجارحةٍ بالله طافوا . فأغناهم عن الحَرَمِ

وليس هذا هو المظهر الوحيد لشجاعة الحلاج ، فقد تمرد على الصوفية ورمى الحرقة « كيما يتكلم بحرية مع أبناء الناس (١) » حول شؤونهم المعاشية مما حرض عليه رجال الدولة وبخاصة الوزير « الاقطاعي » المحتكر حامد بن العباس وحاشيته الذين ملوا نصائح الحلاج وارشاداته (٢) .

ويأتي أبو العباس احمد بن محمد بن عطاء (٣) بعد الحلاج شجاعة ، فلقد شايع الحلاج في آرائه وأصر على عدم تكفيره فأدى به هذا التأييد والاصرار الى التعذيب والموت ، كما ان علو همته وسمو نفسه وتواضعه تدلل على أنه انسان ابتعد عن طريق الخنوع والمذلة .. يبدو هذا في قوله (٤) :

أسامي بنفسي ذِلةً واستكانة الى الخلة العلياء من جانب الكبرِ
اذا ما أتاني الذل من جانب الغنى سموت الى العلياء من جانب الفقرِ

فهو يتخذ اذاً من التصوف طريقاً لحفظ كرامته وصيانة ماء وجهه من الاهدار فيسمو بذلك الى علياء ركائزها مثبتة في نفس مرهفة شاعرة .

العمق الفكري عند الصوفية :

من عادة بعض الصوفية وبخاصة مشايخهم الاطلاع الواسع على الكتب الدينية والفلسفية ، وهذا ينمّي عندهم سعة الافق وقوة التفكير وعمق الادراك ، ولذلك كان يخالط أقوالهم وأشعارهم كثير من الالفاظ المعماة والرمزية وكان أبرز قضاياهم الفكرية هي قضية الله ووجوده وحلوله ووحدانيته وقدراته ، فقد كانوا يجمعون « على ان القرآن كلام الله وأنه ليس

---

(١) شخصيات قلقة ٦٦ .
(٢) شخصيات قلقة ٧٨ - ٨٠ وفي هذه الصفحات تعليل جيد لمقتل الحلاج .
(٣) ترجمته طبقات الصوفية للسلمي ٢٦٩ ، القشيرية ١ / ١٣٥ تاريخ بغداد ٥ / ٢٦ ، المنتظم ٦ / ١٦٠ ، الفلاكة والمفلكون ١٢٧ .
(٤) طبقات الصوفية ٢٦٩ .

بمخلوق ولا محدث ولا حدث » (١) كما يجمعون « على أن الله يرى بالابصار في الآخرة ، يراه المؤمنون دون الكافرين » (٢) ويجمعون على « الايمان بكل ما يجري لهم من خير وشر وانه من الله ولا يحق لهم الاعتراض أو التأفف» (٣) « كما يجمعون على مقدرة الله وهيمنته » (٤) .

وكما شغلهم هذا الاجماع شغلهم الاختلاف على قضايا كثيرة فقد اختلفوا في أن « الله لم يزل خالقاً » (٥) « وفي المعرفة وتفسيرها » (٦) « وفي أيهما أفضل الرسول أم الملائكة » (٧) وغير ذلك من الامور التي لا تمت الى الحياة المعاشية بصلة قوية .

وكانت هذه المسائل الالهية تخلق لديهم تهويمات فكرية ممتدة ترسو بهم تارة في بر الايمان وتدفعهم تارة أخرى الى الابحار وسط أمواج الشك القاتلة .

قال بعضهم في مسألة التفكير بالله (٨) :

من رامه بالعقل مسترشداً   سرّحه في حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره   يقول في حيرته هل هو

وتبدو هذه الحيرة التي يرتمي الصوفي في أتونها واضحة في قول الحلاج(٩) :

يا موضع الناظرِ من ناظري   ويا مكان السرّ من خاطري
يا جملة الكل التي كلها   أحبّ من بعضي ومن سائري
تراك ترثي للذي قلبُه   معلقٌ في مخلَبيْ طائرِ

---

(١) التعرف ٢٩ .
(٢) التعرف ٤٢ .
(٣) التعرف ٥٠ .
(٤) التعرف ٤٤ ، ٤٦ .
(٥) نفسه ٣٧ .
(٦) نفسه ٦٦ .
(٧) نفسه ٦٨ .
(٨) نفسه ٦٣ .
(٩) الديوان ١٨ .

مدلّـــه حيران مستوحش يهرب من قفر الى آخـرِ
في لجّ بحر الفكر تجري بــه لطائفٌ من قــدرةِ القادرِ

اننا نجد في هذه الأبيات فكراً مرتبكاً وصراعاً متشابكاً بين الشك والايمان فالحلاج في البيتين الاولين يحكي ايمانه بتوحده مع الذات الالهية وتداخلها في جسده وفي البيتين اللذين يليانهما يعود الشك فيهز فكر الحلاج ويرجه ، فيبدو لنا انساناً شاكاً محتاراً ، أما البيت الاخير فعودة الى الايمان بقدرة الله وبلطائف هذه القدرة التي تمكنت من أن تقود سفينة ايمان الحلاج في لجج بحر فكره الهائج .

وقد يجنح الحلاج في أقواله وأفكاره الى القطع بتأله الانسان والقول بأن الظن في وجود الله تهويس وخروج عن الدين فهو يقول (١) :

جنوني فيك تقديسُ وظنّي فيك تهويـسُ
فمـــا آدمُ الاّك ومن في البينِ إبليسُ

وكان لهذا السبب ، يرى نفسه متوحداً بالله غارقاً في بحر الوهيته ممتزجاً مع كليته يقول مؤكداً هذا التوحد (٢) :

جُبِلَت روحُكَ في روحي كما يجبل العنبر بالمسك الفتـــقْ
فاذا مسّك شيءٌ مسّـــني واذا أنت أنـــا لا نفـترقْ

ويقول : (٣) :

يا كلّ كلي ويا سمِعي ويا بصري يا جملتي وتباعيضي وأجـزائي

ويقول (٤) :

---

(١) نفسه ٦٥ .
(٢) الديوان ٧٧ . البداية والنهاية ١١ / ١٣٣ .
(٣) الديوان ١٤ .
(٤) الديوان ٩٣ ، اللمع ٤٣٨ ، عوارف المعارف ٥٠٨ .

أنا من أهوى ومن أهوى أنــا   نحن روحــان حللنــا بدنــا
فــاذا أبصرتني أبصرتــــه   واذا أبصــرتــه أبصرتنــا

ومثل الحلاج في تألهه كان بعض الصوفية أيضاً أنشدوا لاحدهم (١) :

يا منيةَ المتــمــني   أفنيتني بــك عنّي
أدنيتَني منك حتى   ظننتُ أنــك أني

وقد يتصور البعض أن هذه الاقوال الناتجة عن شطحات تحدث للانسان الصوفي لا يدرك فيها ما يقول ، وقد يتصور بعض آخر انها اقوال نابعة عن فكر سطحي ساذج انها في الحقيقة انسيابات فكرية عميقة تدلل على سعة أفق صاحبها وقوة ادراكه ، فالحلاج مثلاً عرف بثاقب بصره أن الانسان بقدراته الخارقة وحدة متمكنة من خلق أشياء تنفع وتضر ، وبما أن الله متمكن خالق ، فالانسان جزء من هذا الإله الخفي الذي يسيّر الكون ويخلق الكائنات .

القيمة الفنية :

يحس قارىء الشعر الصوفي ـ في الاغلب ـ بثقل وطأة هذا الشعر وتحجر كلماته لما فيه من تكلف صبابة واغراق في الرمز ، ولما لوضع الشاعر النفسي من تأثير بالغ في جعل التناول الشعري لدى الصوفي متقعراً جافاً .

ولا يمنع هذا القول وجود أبيات رقيقة صادقة مبثوثة في ثنايا هذه القصيدة أو تلك القطعة الشعرية ، تأتي للشاعر الصوفي متدفقة معبرة عن مشاعر دفينة ، لكن هذه التدفقات الشعرية سرعان ما تكم بهالة من الرهبة اللفظية يسحبها الشاعر مبرقعاً بها احاسيسه خوفاً من كلام المجتمع ، أو محاولة لكبح جماح النفس وعصمها عن الانجراف وراء العواطف الانسانية .

وحين نجد شعراً صوفياً محملاً بالمعاني المادية، يرفض الصوفيون الا

---

(١) اللمع ٤٣٨ .

تأويله بالمعاني الروحية ، ولكننا – أحياناً – (لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احداهما يتغنى صاحبها بالحب الانساني والاخرى بالحب الالهي) (١) لأن مادتهما اللفظية واحدة .

لقد أكثر الصوفيون من لغة الحب ورموز المحبين في شعرهم لا لانهم (لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أقدر على التعبير عن مواجدهم وأحوالهم من الشعر) ولا هو (شوق الروح الى الله قد عبر عنه الصوفية بهذه العبارات) (٢) ولكن لان هذه الالفاظ والعبارات ترضي حاجة غير مشبعة في نفوس الصوفيين المأزومة بالكبت والحرمان ، اي ان هذه الكلمات والعبارات المادية افراغ لمثل هذه الأزمات العنيفة التي يعيشها معظم الصوفية ..

وبمثل هذا التعليل يمكن أن يفسر اكثارهم في ذكر الفاظ الخمرة والسكر والصحو في أشعارهم وتأملاتهم .

واذا كان في هذا التعليل بعض الجرأة فان فيه علمية لم يستطع نيكلسون مثلاً أن يصرح بها ، وقد تهرب منها حين تكلم على الرمز في الشعر الصوفي وقال (٣) :

« ويتوقف نوع الرمزية التي يفضلها الصوفي على خلقه وجبلته ، فان كان ديناً فناناً – أعني شاعراً روحياً – فأفكاره كذلك .. تتشح تلقائياً ثياب الجمال والصور المشتملة للحب البشري ، فوجنات الحبيب الموردة تمثل عنده ذات الاله منكشفة في صفاته ، وغدائره الليلية تصور (الواحد محجوباً بالكثرة) .

ولو أيدنا نيكلسون في منطقه القائل بتوقف الرمزية على خلق الفنان وجبلته ، فاننا نعترض عليه اضفاءه المعاني على المفردات المادية فما دام الشعر الصوفي يمثل جانباً في نفس صاحبه الظاهرية فلا بد أن يكون ايضاً صريحا للمخزون من الرغبات في عقله الباطن .

---

(١) في التصوف الاسلامي ٩٠ .
(٢) نفسه .
(٣) الصوفية في الاسلام ١٠١ ، ١٠٢ .

ومهما يقل أصحاب الصوفية بأن شعرهم يؤدي الأغراض الحقيقية الّتي يرمون اليها يظل شعرهم يدور في محور من التكلف والصنعة ، لان الشاعر الصوفي يحاول دائماً صوغ افكاره وآرائه بقالب فلسفي ، وإذا دخلت الفلسفة الشعر قتلته ، وجردته من قيمه الفنية ، الّتي من مقوماتها مقدرة الشعر على اثارة شيء حسّي انفعالي في نفس السامع أو القاريء .

الخلاصة :

حين ابتعد معظم الزهاد والمتصوفة عن الحياة واتخذوا المواقف السلبية طريقاً لهم ، أغرقوا أنفسهم في عالم الروحانيات والتهويمات العقلية والفلسفة المثالية .

لقد أخذوا ينظرون إلى الحياة علىانها بؤرة مملوءة بالموبقات تلوث من يقترب منها ولم يحاولوا أن يجدوا البديل الحسن لهذه الحياة بالأسلوب الطبيعي ، أسلوب المجابهة الشجاعة لانحراف الحياة ، انما اختارو لانفسهم طريقاً فيه كثير من معالم الهروب والمخاتلة ، فابتعدوا عن الناس وسكنوا ، الربط ، وبدأوا يبتدعون طرقاً للعبادة لا تمت الى الاسلام بأية صلة .

وكان ابتعادهم عن الناس واتخاذهم الدين لباساً يتسترون به على ما في نفوسهم قد أكسبهم نوعاً من الهيبة والاحترام ، ورأى الناس فيهم رجالاً ورعين قد زهدوا في الدنيا وملاذّها ، فكانوا يتبركون بهم ويرفعون مشايخهم الى مصاف القديسين والاولياء ، وهذا ما دفع الصوفية الى مزيد من الجنوح الى عالم الغيبيات ، والبحث عن حياة جديدة يملؤها الحب المثالي الذي رأى فيه الصوفية تجانساً أو تماسكاً مع حب الله ...

وقد جربوا أنواعاً عديدة من أساليب الترويض النفسي ، فاتخذوا لهم غلمان مرد يصاحبونهم ، وبدأوا يستشعرون لذة من خلال هذا التعذيب النفسي ، ولم تكن هذه اللذة الاّ التعويض الطبيعي لما في نفوس الصوفيين من كبت ..

وكان من الطبيعي أن تنحرف بعض فئات الصوفية عن هدفها الذي جاء به الصوفيون الاوائل وهو الزهد في الحياة والانقطاع لله ، بعد أن كثر المريدون وتعددت الطرق .

وقد انغمر بعض الصوفية في مختلف الملاذ وبدأوا يستغلون صفاتهم الدينية من أجل متع دنيوية رخيصة .

ولم يمنع ابتعاد الصوفيين عن مشكلات الحياة وانغلاقهم على أنفسهم ومذاهبهم ، ظهور بعض الآراء الصوفية الشجاعة ، أو وقوف بعض الصوفيين بصمود أمام انحراف القيم الاخلاقية والاجتماعية ، ولكن هذه الاصوات لم يتردد صداها مدة طويلة ، فسرعان ما تغلبت عليها القيم الفاسدة الطاغية على مجتمع الحكام ومن شايعهم من رجال الدين فحكم عليها بالاختناق والموت .

الفصل السابع

الساخطون والمتمردون

اذا ارتفعت طبقة من طبقات المجتمع وامتلأت خزائنها فمعنى هذا أن طبقة أخرى وقع عليها الحيف والجور وأن حالتها الاقتصادية والاجتماعية قد تدهورت ، ويحصل لذلك خلل اجتماعي وتخلخل طبقي يؤديان في أحيان كثيرة الى تمرد الطبقة المستغلة على مستغليها ، ويكون هذا التمرد نسبياً يتفاوت بمقدار وعي الطبقة المستغلة لحالتها وبؤسها بمقدار المظالم الواقعة عليها .. كما أن هذا التمرد يكون فردياً أو جماعياً حسب مواتاة الفرص واتساعها أمام الأفراد والجماعات .

لقد برز في العراق عهد من أسوأ عهود الاستغلال وظهر بصورته المجسمة الرهيبة خلال القرن الرابع للهجرة .

فالاضطرابات السياسية والاقتصادية وما رافقها من ويلات ومآس اجتماعية عمقت — ملتحمة — التناقض الطبقي في المجتمع العراقي وزادت من اظهار الروح الاستغلالية للطبقات المتسلطة والمنتفعة .

ولقد رافق هذا الاستغلال وهذه المظالم مظاهر سخط وتمرد نراها عند من لم يبع نفسه للسلطان من الشعراء الذين أحسوا بعظم نكبة مجتمعهم ، فصاغوا آلامهم كلمات سخط وانتقاد لاذعة ، تناقلها الناس لشعبيتها وصدقها في محاكاة أوضاعهم وأحوالهم .

ان بعض هذا الشعر كان نابعاً من احساسات فردية ومشاعر ذاتية أنانية ، فلأن الشاعر لم يصب من المنافع ما أصابه غيره ، يستجمع غضبه ويرميه على الزمان وأهله ، ويصدق هذا القول على أغلب الشعراء ممن ربط نفسه بالسلطان ووضع له خده ، لكنه على أية حال لا يشمل الشعراء الذين تمردوا على تطلعاتهم الذاتية ومنافعهم الخاصة ، فلم يطرقوا باب خليفة ، ولم يتمرغوا على عتبة أمير أو وزير .

وتبدو هذه الظاهرة واضحة متميزة عند قسم من شعراء البصرة وأفرد منهم ابن لنكك الذي يعتبر ظاهرة نادرة في جرأته وشجاعته ، ومشاعره الغاضبة .

ويبدو لي أن جرأة ابن لنكك وبعض شعراء البصرة وشجاعتهم في مجابهة السلطة بحقيقتها وحقيقة المجتمع الذي تُسَيِّره يرجع الى قرب البصرة من « هجر » مركز القرامطة وأول بلد في التاريخ يضع الاشتراكية موضع التطبيق (١) .

فالخوف من السلطة العليا في بغداد أو من ممثليها في البصرة يزيله عند شعراء هذه المدينة وجود عدالة اجتماعية في (هَجَرْ) يستطيع الانسان البصري اذا ما ضايقته هذه السلطة اللجوء اليها والتفيؤ بظلها .

قيل أن الخبزأرزي بعد أن هجا « البريدي »، « هرب من البصرة ولحق بهجر والاحساء بأبي طاهر بن سليمان بن الحسن صاحب البحرين (٢) » وقد يؤكد لنا هذه العدالة التي تنعم بها « هجر » ما سجله له المؤرخون القدماء والمحدثون — برغم تحامل بعضهم — للقرامطة من ذهنية عالية وسعة افق حربي واجتماعي يظهر في مروءة قادتهم وعدم استئثارهم بالسلطة والرأي ..

---

(١) ينظر ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري عن اشتراكية القرامطة في العراق وهجر (دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٢٦ ، ١٧٨) .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٣٥٣ .

يقول أحد زعمائهم وهو الحسين بن احمد بن سغيد الجَنّابي (ت ٣٦٦هـ) (١)

اني امرؤ ليس من شأني ولا أربي ... طبلٌ يرن ولا نايٌ ولا عـودُ
ولا اعتكافٌ على خمرٍ ومَخْمرةٍ ... وذات دِلٍّ لها غنجٌ وتفنيدُ
ولا أبيت بطين البطن من شبعٍ ... ولي رفيق خميص البطن مجهودُ
ولا تسامت بيَ الدنيا الى طمـع ... يوماً ولا غرّني فيهـا المواعيدُ

انها القيم الاجتماعية العالية التي نشأ عليها هذا الزعيم القرمطي فجعلته بهذا التسامي الاخلاقي ، وبهذه الروح الشاعرة بمسؤولياتها تجاه الرعايا (٢) .

ولا تعني أشعار ابن لنكك أو هزيمة الخبزأرزي الى البحرين أو وقوف أحد رجال البصرة أمام ولاتها مدافعاً عن أبناء مدينته (٣) ، إن أهل البصرة يعتمدون كلياً في شجاعتهم على قربهم من دولة القرامطة فقد كان « للامركزية » التي تتمتع بها البصرة لضعف هيمنة السلطة في بغداد على أطراف الدولة تأثير بالغ في تنمية شجاعة هذه المدينة .

وتركيزنا على البصرة وشجاعة أهلها لا يلغي وجود أناس ساخطين أو بمتمردين في بغداد أو واسط أو الأنبار فلقد تأثر مجمل أهل العراق بالحركات

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ٨٧ وأين هذا القول من أقوال الراضي أوعز الدولة أو عضدها ؟

(٢) واذا كنا في ذكر القرامطة وشعور قادتهم بالمسؤولية لا بد أن نثبت شعراً فيه الكثير من التحدي والثورية جاء على لسان ابي سعيد القرمطي في كتاب وجهه الى مؤنس أواخر سنة ٣١٥ أو أوائل ٣١٦ هـ عند ورود القرمطي الكوفة وانتصاره على ابن أبي الساج .. يقول أبو سعيد :

قولوا لمؤنسـكم بالراح كن أنسـا ... واستتبع الراح سر نايـا ومزمارا
وقد تمثلت عن شوق تقـاذف بي ... بيتا من الشعر للمـاضين قد سارا
« نزوركم لا نؤاخـذكم بجفوتكم ... ان الكـريم اذا لم يستزر زارا
ولا نـكون كـأنتم في تخلفـكم ... من عالج الشوق لم يستبعد الدارا »

تكملة الطبري ٥٥ ، وقد ذكر صاحب قوت القلوب البيتين الاخيرين ونسبها للعباس بن الاحنف وأجدها ديوانه .

(٣) ينظر الهفوات النادرة ٢٩٦ .

الثورية التي توالت في بلدهم أو بالقرب منه ، كثورة بابك الخرمي ، أو ثورة الزنج أو ثورة القرامطة ، أو تحركات العيارين والعامة ضد مظالم السلطة أو استقلال عمران بن شاهين في البطيحة (١) واستعصائه على البويهيين وارغامهم على مصالحته .

يضاف الى ذلك تدهور الحياة المعاشية والاجتماعية واستفحال المظالم واحساس الانسان العراقي بثقل تراكمها حتى لقد أصبح العراق « بيت الفتن والغلاء وهو كل يوم الى وراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء (٢) » .

لقد تجمعت هذه العوامل فولّدت السخط والتمرد الذي سنعرضه مرتسماً في شعر أهل العصر .

المشاعر الذاتية :

أول مظاهر السخط والتمرد تلك الآلام الفردية الموجعة التي انبعثت عن حيف يُحس به الشاعر بسبب حرمانه من تطلعاته في الحياة ورغائبه الخاصة :

والدهرُ من جفائه يلبس لي جلد النّمِرِ
فماء عيشي كدرٌ ونجم حالي مُنكَدِرِ (٣)

هذه المشاعر مع كونها فردية في مظهرها العام فهي ذات دلالات اجتماعية أيضاً ، لأن الحيف الفردي من الممكن اعتباره حيفاً إجماعياً في ظروف مملوءة بالقهر الاجتماعي والاهتزاز السياسي كما هو حاصل في عراق القرن الرابع للهجرة ..

ان الاشعار الفردية وحتى الانانية منها يمكن أن تُعبّر عن وجهة نظر اجتماعية ، ربما تكون سارية على المجتمع كله أو على جزء منه .

فاذا خاب الشاعر في بلوغ مآربه – وكثيراً ما يخيب الآخرون أيضاً – يقول (٤) :

---

(١) ينظر في عصيان عمران بن شاهين ، الكامل ٨ / ٤٨١ ، ٦١٠ .
(٢) احسن التقاسيم ١١٣ .
(٣) ثمار القلوب ٣٩٩ .
(٤) ثمار القلوب ٢٧٤ .

سَئِمتُ العيشَ حين رأيت صرف الدهر يرهقني
صعوداً والصعودُ اليه يُعجزني فيقلقني

والصعود في مثل هذا الزمن لا يحالف الا من داجى ودجّل ، لأن الحياة صعبة وقاسية، والامور بيد غير جديرة بأن تمسكها، والذي يقف بوجه هذا الواقع المر يكون نصيبه من الحياة الكفاف ان سلم من التشريد أو الموت .

فأبو حيان وهو من هو في عالم الأدب والفلسفة يبلغ به الجوع والتشرد حدّ أكل الحشائش مع هوام البرية ، والاستنجاد الذليل بأبي الوفاء المهندس لينقذه من هذا الوضع البائس فتراه يقول له : « خلّصني أيها الرجل من التكفف ، انقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان .. اكفني مؤونة الغداء والعشاء .. الى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع ... الخ » (١) .

ولهذا كان من حق هذا الانسان الذي غدر به صدقه وصراحته وأحياناً صلافته أن يتشاءم وأن يحرق كتبه وأن يقول في دنياه (٢) :

دُنيا دَنَت من عاجز وتباعَدت عن كلّ ذي لب له خطرُ (٣)
سلمتْ (٤) على أربابها حتى إذا وصلتْ اليّ أصابها الحَصَرُ

ويبلغ اليأس والتشاؤم بأبي حيان حداً يتمنى معه أن يجد في زمانه واحداً يؤكل خبزه فاذا ردد قول جحظة (٥) :

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣ / ٢٢٦ .

(٢) معجم الادباء ١٥ / ٥١ ، أبو حيان التوحيدي لعبد الرزاق محي الدين، شخصيات القدر .

(٣) في هامش محقق معجم الادباء حجر وكذلك نقلها الدكتور عبد الرزاق محي الدين وفعل مثل ذلك اصحاب شخصيات القدر .

(٤) ذكرها الدكتور عبد الرزاق محي الدين سلحت لأن المعنى فيها يستقيم ، ولا يستقيم مع سلمت كما لا يستقيم الوزن مع سلحت .

(٥) البصائر والذخائر ١/٥٤ .

أنا في قوم أعاشرهم ما لهم في الخير عائده
جعلوا أكلي لخبزهم عِوَضاً عن كل فائده

إذا ردد هذا القول علق متأسفاً « ليت في زماننا من يؤكل خبزه » .

واذ يرد اسم جحظة هنا فلا بد من الاشارة الى تألمه من زمنه الذي لم ينصفه ووضع أناساً ضحلين قصيري النظر في أماكن أكبر منهم ، فهم لقصورهم العقلي يتباهون باشياء زائلة لا تحقق مجداً ولا فخاراً ، فحين يرى جحظة أحدهم يفخر ببناء مسناة يهزأ منه ويتألم ثم يقول (١) :

لقد أصبحتُ في بلد خسيس أمصُّ به ثمارَ الرزق مَصّاً
إذا رُفِعَتْ مسناةٌ لوغدٍ توهّمَ جودَه ما ليس يُحصى
رأيتُ المجد احسانا وجوداً فصار المجدُ آجرا وجَصا (٢)

وبدافع مما يصيب جحظة من أوقات عسر يتأثر ويزداد ألماً وحزناً ، وقد يستفحل هذا الالم فيكاد يصل حد الانفجار حينما يظل القصور العقلي ملازماً لاصحاب المناصب ، والترف ، فاذا أبصر جحظة مثل هذه المشاهد الاجتماعية المعيبة ضربه سوط المأساة وقال (٣) :

قلتِ لما رأيتُه في قصور مشرفات ونِعْمة لا تعابُ :
ربَّ ما أبينَ التباين فيه منزلٌ عامر وعقلٌ خرابُ

ولم يكن جحظة أو أبو حيان أسوأ حالا من الآخرين فابن نباتة السعدي « حظه من العيش أكل كله غصص مرّ المذاق وشرب كله شرق (٤) »

---

(١) البصائر والذخائر ١ / ٦١ .

(٢) تتبين استعمال الآجر والجص مادتين رئيسيتين في البناء .

(٣) الاعجاز و الايجاز ٢٦٠ وفي أدب الدنيا و الدين ذكر البيت الثاني فقط ١٤٤ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٣٨٣ ، يؤكد ذلك ما ذكره صاحب الوفيات ٤ / ١٩٠ من أن ابن نباتة قصد ابن العميد ومدحه وأطال الوقوف ببابه فما منحه شيئاً ، وحين نفد صبره دخل اليه وكلمه كلاما فيه حدة ومطالبة بالجائزة فامتنع ابن العميد فما كان من ابن نباتة الا أن خاطبه بكلام آخر أكثر خشونة وصراحة «فثار ابن العميد مغضباً وأسرع في صحن داره الى أن دخل حجرته =

وقد تكون مشاعر هؤلاء وغيرهم ناتجة عن الشعور بالغبن الفردي الآني ومع هذا تظل دلالة اجتماعية بارزة .

ذم الزمان :

لقد كثر القول في ذم الزمان ، وتعداد سؤاته ، ومظالمه حتى ان هذا القول لو وقع على « ظهر جبل لقصمه » ، ولا بد أن يكون ذلك ظاهرة اجتماعية تستحق الاهتمام والتسجيل ، فهي تعبير رمزي عن امتلاء الزمن بالمظالم ، حتى كأن الزمان غدا هو الظالم الجائر .

فإن أراد ابن لنكك أن يعبر عن سخطه على الحياة ومآسيها قال منددا بالزمان رامزا بذلك الى وضع هذه الحياة المنحرف (١) :

نحن والله في زمان غشوم ... لو رأيناه في المنام فزعنـا
يصبح الناس فيه من سوء حال ... حق من مات منهم أن يهنّا

ولقد كان هذا الزمان يقف وقفة قاتلة بوجه المطامح النبيلة التي كانت تملأ نفوس بعض أهل العلم والأدب ، وتدفعهم الى أن يجدوا سبلا نظيفة للحياة ، فهو كما قال جحظة « لمن تقدم في النباهة منقلب » (٢) لا يرتفع فيه غير الممخرقين الدجالين الذين يبذلون كرامتهم ويتذللون أمام أصحاب السلطان ليصلوا بعد ذلك الى أماكن لا يستحقونها أو ليحصلوا على أموال

= وتقوض المجلس وماج الناس وسمع ابن نباته وهو في صحن الدار مارا يقول: والله ان سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا ، فلعن الله الادب اذا كان بائعه مهينا له ، ومشتريه مما كسا فيه » . ينظر أيضا الفلاكة والمفلوكون ٩٦ . وينسب أبو حيان هذه الحكاية الى شاعر آخر من الكرخ شاهده بنفسه يدعى « مويه » . ينظر أخلاق الوزيرين ٣٣٤ .

(١) اليتيمة ٢ / ٣٥٠ .

(٢ معجم الادباء ٢ / ٢٥٦ والابيات التي جاء فيها هي :

لا تعجبي يا هند بـــن ... حالي فما فيها عجب
ان الزمان بمـــن تقـــدم في النباهـــة منقلب
فالجهل يضطهد الحجـــى ... والرأس يعلوه الذنب

ليست من حقهم وقد سبق ابن جرير الطبري غيره الى وصف هذه الحال فقال (١) :

ولو أني سمحتُ ببذل وجهي   لكنت الى الغنى سهلَ الطريقِ

وعلى هذا فليس هناك محل للعجب من أفعال هذا الدهر ، فهو دهر شاذ غريمه الانسان الذكي النزيه ، والاديب انسان ذكي حتماً ، فاذا وجّه ذكاءه نحو الحق وقف له الزمن موقف العدو ، وابن لنكك واحد من هؤلاء الأدباء ، ولهذا كان عليه أن يعرف زمنه والآن يقول (٢) :

عجبتُ للدهر من تصرفـه   وكل أفعالِ دهرنا عَجَـبُ
يعاند الدهرُ كلّ ذي أدب   كأنمـا نـاك أمّه الأدبُ

ان من الطبيعي لزمن مثل هذا أن يرفض وجود وعي بين أبنائه ، يخلق منهم عملة حسنة خالصة ، فزمن هذا شذوذه لا بد أن تسود فيه العملـة الرديئة . والرجال الدجالون أو الاغنياء هم عملة القرن الرابع التي غمرت أيامه ، وراجت في قصور أصحاب السلطة ، لقد شذت الحياة حتى صارت الامور فيها مثلما قال جحظة (٣) :

فالجهل يضطهد الحجى   والرأسُ يعلوه الذنـب

والحجى السليم يمتلكه أكثر من أي واحد آخر أهل العلم والأدب ، ومن أحاط بهم ممن تنزه عن موبقات الحياة وسفسافها ، فاذا كان الزمان آنذاك مثلما وصفه ابن لنكك (٤) :

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ٣٣٢ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٣٥٠ .

(٣) معجم الادباء ٢ / ٢٥٦ ومثل ذلك قول المتنبي :

(ذو العقل يشقى في النعيم بعقلـه   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم)

الديوان ٢١٨ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٣٥٠ ، معجم الادباء ١٩ / ١٧ ، بغية الوعاة ٩٤ .

زمـــانٌ قـــد تفرّغ للفضول يسوّد كل ذي حمق جهول

فلا بد بعد ذلك ، أن يكون ديدنه « حرمانَ ذي أدب وحظوةَ جاهل » وأن يكون فيه :

الأرذلون بغبطة وسعادة والأفضلون قلوبُهم تفطرُ (١)

واذا كان التعجب من أفعال الزمان دليلاً على نوع من المخاتلة والخوف فانه يغدو أحياناً سجلاً رسمياً لأحداث كانت تجري فتجلب معها المآسي والمجاعات ، فاذا أراد ابن الحجاج ـ في لحظة من لحظات شعوره بالحياة الانسانية ـ أن يسجل ما كان يجري في ذلك الزمن من المصادرات والسلب قال مقنعاً كلامه بالتعجب (٢) :

عجبتُ من الزمانِ وأي شيء عجيب لا أراه من الزمان

يصادر قوتَ جِرذان عجاف فيجعله لأوعالٍ سِمـــان

وتتأكد لنا هذه الحقيقة اذا استعرضنا ما سجله لنا المؤرخون من مصادرات كثيرة عجيبة وقعت في القرن الرابع يكون الرابح فيها أبداً القوي الغني .

ولا يقف الزمان عند المصادرة والافقار أو معاندة أهل الحجى والأدب فهو كذلك ضد كل حر يشعر بنفسه ويحافظ على كرامته ، وقد وقف له ابن لنكك وقفة شجاعة ـ وان كانت مقنّعة ـ فقال له متهماً مقرعاً (٣) :

دنيا تأبت على الاحرار عاصية وطاوعت كل صفعان وضرّاط

• • •

يا زماناً ألبس الأحـــ رارَ ذُلاً ومَهانـــهْ

لست عندي بزمان إنما أنتَ زمانـــه

كيف نرجو منك خيراً والعُلا فيك مُهانهْ

---

(١) بغية الوعاة ٩٤ .

(٢) معجم الادباء ٩ / ٢٢٦ .

(٣) اليتيمة ٢/٣٥٠ ، معجم الادباء ٧/١٩ .

أجنوناً ما نراه منك يبدو أم مَهانه (١)

ان اتخاذ الفاظ الزمن والدهر ستاراً للحقد المعتمل في النفوس كان درعاً يحمي هؤلاء الذين ينفسون عن همومهم ومآسيهم بهذا الشعر الساخط .

انهم يدركون جيداً ان ما يرونه في هذا الزمن ليس جنوناً او مهانة منه ، ولعلهم حاولوا ان يفسروا هذه الظاهرة التي حيرتهم فلم يستطيعوا ايجاد جواب مقنع ، ولم يتمكنوا من تحديد معالمها ومسبباتها تحديداً علمياً شافياً ، ولذلك وضعوا اللوم كله على الزمان وقالوا بكلام تغلب عليه السذاجة (٢) :

الدهر دهر عجيبُ فيه الوليد يشيبُ
العيرُ فوق الثريا وفي الوهاد الأريبُ

ان ثقافة العصر – وكذاك ثقافة الشعراء – لم تكن من الشمول والعمق بحيث تساعدهم على وضع تفسير علمي للمظالم الاجتماعية يبين ان مسبباتها الرئيسة تلك التراكمات الاقتصادية السياسية المضطربة .

وعدم رؤية هذا التفسير العلمي لم يمنع الاحساس بثقل وطأة هذه المظالم التي جعلت الزمن ينحرف شاذاً عن مسيره الحقيقي يقوده في سيره اناس غريبون عن الوجه الطبيعي للحياة ، وقد تمكن ابن دريد ان يجد تفسيراً لفساد الزمان ولكنه جاء به مقلوباً مشوشاً حين قال (٣) :

الناس مثل زمانهم قدُّ الحذاء على مثالِه
ورجالُ دهرِك مثلُ دهـرك في تقلبه وحالِه
وكذا إذا فسد الزمانُ جرى الفسادُ على رجاله

ولقد كان ابن لنكك ، وهو الشاعر الذي تلبّسه الألم ، فحمل راية التمرد ، أكثر ادراكاً ووعياً من ابن دريد لاسباب شذوذ الزمان وانحرافه عن الصواب فلقد رأى في زمنه العجائب، ورأى كيف «أصبحت الأذناب فوق

---

(١) خاص الخاص ١٤ ، معجم الادباء ٧/١٩ . والزمانة الافة .

(٢) بغية الوعاة ٩٤ .

(٣) أدب الدنيا والدين ١١٣ .

الذوائب » (١) فأحس ان ما يحصل في الزمن لا لقصور منه ، لكنه ناتج عن خطأ كبير في المجتمع نفسه ، لذلك لم يصبر على هذا الهذر الكثير الذي حبه الناس على الزمان فقال بشجاعة من يعترف بالذنب (٢) :

يَعيب الناس كلهم الزمانا   وما لزماننا عيبٌ سوانـا
نعيب زماننا والعيب فينا   ولو نطقَ الزمانُ اذاً هجانا (٣)
ذئاب كلنا في خلق ناس   فسبحانَ الذي فيه برانـا
يعافُ الذئبُ يأكل لحمَ ذئب   ويأكل بعضُنا بعضاً عِيانا

انها الصراحة المتناهية والصرخة الباسلة تلك التي هدر بها ابن لنكك ماسكاً خيطاً سميكاً من خيوط انحراف الزمان ، مسجلاً في شجاعة نادر شذوذ مجتمعه فكان بذلك علامة مضيئة من علامات الكفاح الانساني في زمن عزّ فيه الشجاع ، وندر فيه الغيور ونجد من الشعراء من يقف موقف ابن لنكك من اهل زمانه ، فلا يضع وزر الانحراف على الزمان رامزاً ، إنما يجاهر بشكواه من اهل الزمان ، فأبوا احمد بن حماد البصري يقول بصريح اللفظ (٤) :

لا أشتكي زمني هذا فاظلمـه   وإنما اشتكي أهل ذا الزمـن
وقد سمعت أفانين الحديث فهل   سمعت قط بحرٍ غير ممتحن

هذا صوت واضح يؤيد ما قلناه من ان الشكوى من الزمان كانت عملية مخاتلة ورمز ، وان الشجاع وحده هو الذي يستطيع مجابهة اهل الزمان او

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٤٩ .
(٢) بغية الوعاة ٩٤ ، معجم الادباء ١٩ / ٨ .
(٣) ذكر صاحب المحمدون البيتين الاولين في ترجمته للامال الشافعي واثبتها بهذا الشكل :

نعيب زماننـا والعيب فينـا   وما لزماننا عيب سوانا
ونهجوا ذا الزمان بغير جـرم   ولو نطق الزمان اذا هجانا

ينظر المحمدون ١٤٠ .
(٤) تتمة اليتيمة ١ / ١٤ .

حكامه بحقيقة زيفهم، وقسو مظالمهم لذلك جازت له الاشادة بابن لنكك ومن تبعه من الشعراء الساخطين .

السخط والسلطه :

نظلم المجتمع العراقي اذا نظرناه بمنظار قاتم لا يظهر الا الجانب السلبي منه ، وقد نكون ــ الى حد ما ــ مع من يرى فيه مجتمعاً مفككاً ، تسوده الشكوك ويعضه اليأس ، لكننا نؤمن ابداً أن المجتمع لن يموت وأن « بؤراً ثورية » واصواتاً شجاعة لا بد أن تظهر معلنة سخطها وتمردها على من كان السبب في صنع الظروف الشاذة التي اوصلت المجتمع الى هذه المرحلة .

ولقد كان ابن لنكك وبعض من شعراء العصر أصواتاً منبهة ، وعلامات كبيرة من علامات السخط والتمرد .

فاذا ما أحس أحد هؤلاء الشعراء بوطأ الظلم ولم يجد في نفسه شجاعة كافية تجعله يواجهها اختزن مشاعره وقال (١) :

كم نفحة لي على الايام من ضجر تكاد من حرّها الايام تحترق

أما اذا كان شجاعاً ، مغامراً بحياته او رزقه كبن لنكك فانه يتمرد ويعلن يأسه من صلاح الامور الفاسدة لذلك فهو يقول (٢) :

مضى الاحرارُ وانقرضوا وبادوا وخلّفني الزمانُ على علوجِ
وقالوا : قد لزِمتَ البيتَ جِدا فقلت : لفَقْدِ فائدةِ الخروجِ
فمن ألقى إذا أبصرتُ فيهم قروداً راكبين على سروج ؟

ولا بد ان يكون القرود والعلوج ، هم اهل السلطة او من تبعهم وانتفع منهم ، ويكون قريباً من هذا الوصف ، متفقاً معه الى حد بعيد في المعنى والقصد مــا قاله محمد ابن عبد الواحد التميمي عن بعض متقدمي مجتمعه من حكام او اغنياء (٣) :

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٥٠ .
(٢) نفسه ٢ / ٣٤٩ .
(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٦٥ .

كم حمار هـو أولى بشهيق ونهيـق
يكتسي في الشتـوة الحرّ وفي الصيف الدبيقي

واذا كان رؤساء الزمان واهل سلطته جهالاً ، او اغبياء ، يسحبون بأذيالهم مظالمهم ، كان من الطبيعي أن يفقد الناس الثقة بهم ، فالسلطان – وقد يقصد بهذه اللفظة الخليفة او الملك البويهي لم يكن مؤتمن الجانب ، حتى لقد نظره رجاله نظرات كلها ريبة وتشكك فقال الصاحب بن عباد احد وزراء آل بويه (١) :

اذا أولاكَ سلطانٌ فزده من التعظيم ، واحذره وراقبْ
فما السلطان الا البحرُ عِظماً وقرب البحر محذور العواقبْ

وأسوأ من هذه النظرة ، نظرة العامة الى السلطان ومن يوليه السلطان ، فلقد كانت تراه وباءاً يجب الابتعاد عنه وعمن يمسه حتى بلغ بها الامر الى ضرب الامثال فقالت : « من ولاّه السلطان فقد صبّعه (٢) الشيطان » (٣) والى مثل هذا المعنى اشار الشاعر بقوله (٤) :

قد كنتَ ألزمَ صاحب وأبرّه حتى دهتك أصابعُ الشيطـانِ
حذّ الإلهُ بنانها فأبانهـا كم غيرت خُلقاً من الانسان

وعلى هذا الاساس ، وانطلاقاً من هذه النظرة المتشككة سحب الناس ثقتهم بأصدقائهم وقطعوا صلاتهم باخوانهم حالما رأوهم من اصحاب السلطان وولاتهم مؤمنين ايمانـاً قاطعاً بالمثل الشعري السائر آنذاك والذي يقول (٥) :

وكل ولايةٍ لا بـد يومـاً مغيّرة الصديقِ على الصديقِ

---

(١) التمثيل والمحاضرة ١٤٣ .
(٢) صبعه : مسه بأصابعه أو أشار اليه باصبعه .
(٣) التمثيل والمحاضرة ١٥١ ، ثمار القلوب ٧٤ .
(٤) نفسها .
(٥) التمثيل والمحاضرة ١٥١ .

هذه الثقة الميتة بالسلطان وولاته هي حاصل منطقي لما كان يقوم به هؤلاء من ظلم وتجن وتكبّر حالما تأخذهم نشوة السلطة والحكم .

ان هذه الثقة من النوازع البشرية التي تتعرض للضمور والموت ، ولا بد أن تموت ثقة الناس بحكامهم عموماً وبملوكهم خصوصاً ، فالملوك – وهم عماد السلطة – لم يعودوا ذلك الرمز الخيّر الذي يقتدي بسيرته لأنهم بدأوا يلعبون لعبة الزيف والدجل ، فاتخذوا لأنفسهم قضاة وولاة مشبوهين في اخلاقهم قاصرين في افكارهم وعلمهم ، وقد ابعدوا في الوقت نفسه عن مسامعهم نصائح رجال العلم والخير وسدّوا ابوابهم بوجوههم في حين فتحوها امام اهل الرقاعة والسخافة والمخرفة ، وقد ادى كل ذلك الى تشوية معالم الحقيقة وتدنيس الصورة النبيلة للحياة وهذا ما جعل ابن لنكك يغضب ويردد بشجاعة (١) :

يا طالباً بالعلمِ حظا مُسعداً ... من ذا الزمان ، رأيتَ رأيُ مخرنق(٢)
انفاق علم في زمان جهالة ... ترجو ، ودهر عمىٌ ، وسخفٍ مطبقِ
كن ساعياً ومصافعاً ، ومُضارطا ... تنلِ الرغائبَ في الحياة وتنفقِ
او ما رأيت ملوك عصرك أصبحوا ... يتجملون بكل قاضٍ أحمقِ
لا تلق أشباه الحميرِ بحكمة ... موّه عليهم ما قدرت ومخرق

ان كلمات ابن لنكك هذه تحدّ لأكبر واقوى عناصر السلطة ، وهو الملك وقد يقصد بالملك الخليفة ، او الملك البويهي ، وأرى أنه قصد الثاني وفي هذا غاية الشجاعة لأنها اول مواجهة صريحة ابيّة لآل بويه الذين اخذوا يضمنون القضاء لأناس لا يمتلكون من مقوماته غير المادة ، وهي غاية في الشجاعة لأن آل بويه قساة لا يهمهم – في سبيل مصلحتهم – ان يقتلوا او يشرّدوا او

---

(١) اليتيمة ٢/ ٣٥٢ .

(٢) يقول محقق اليتيمة ان هذه الكلمة ربما تكون « مخرق » . وهذا هو الاصوب ، ينظر لسان العرب ١٠ / ٣٣٩،٧٨ .

يسجنوا ، وتبلغ شجاعة ابن لنكك حدها المثير حين لا يتردد في قوله لحكام زمانه (١) :

لُعنتم جميعاً من وجوه لبلـدة   تكنّفهم جهل ولؤم فأفرطا
وان زماناً أنتُم رؤسـاؤه   لأهل بأن يُخري عليه ويُضرطا
الى كم تعيبون اللئام وأنـني   أراكم بطرق اللؤم اهدى من القطا

وهو حين يشتمهم بهذه الجراة فلأنه مدرك صدق قوله وواثق من ان هؤلاء الحكام ما هم الا صورة مشوهة للانسان و هم كما قال فيهم (٢) :

لا تخدعنك اللّحى ولا الصورُ   تسعةُ أعشار مَنْ ترى بقرُ
تراهم كالسحاب منتشراً   وليس فيه لطالب مطرُ
في شجر السرو منهمُ مثل   له رُواء وماله ثمـرُ

وعلى هذه الرؤية الجيدة لحكام عصره ، القى براقع الخوف عن نفسه ، وواجه هذه العناصر الطارئة الشاذة التي تحكمت برقاب الناس وليس لها في الحكم معرفة ولا دراية .

الوزراء والسخط :

اذا لم يسلم الملك او السلطان من التعرية وتبيان النقائص فلا يمكن للوزير ان يتخلص من السن التشهير والتنديد ، وقد كان الكلام على رذائل السلطان ولؤمه وجدب تفكيره يأخذ طابعاً شاملاً ولكنه حين وصل الى الوزراء بدأ يحدد ، ويشير ويشخص بالاسماء .

وفي الثلث الاول من القرن الرابع اشتدت حملة التنديد بالوزراء بشكل يلفت النظر ، يعود ذلك الى كون امور الدولة كلها بيد الوزراء ، ولهذا فهم

---

(١) اليتيمة ٢ / ٣٥١ ، خاص الخاص ١٤٠ ، ثمار القلوب ٤٨٤ . وفي هذه المصادر احتلاف في بعض اذلفاظ لا يغير المعنى كثيراً .
(٢) اليتيمة ٢ /٣٥١ .

الجدار الذي تتجمد على صفحته نظرات كل المتطلعين الى المال أو المنصب أو الجاه أو الحياة المستقرة المطمئنة .

واذ مر العراق في عهد وزراء هذه الفترة بأسوأ وضع اقتصادي وسياسي كان من الطبيعي أن نجد تذمراً وتأففاً وسخطاً يصل حد الشتيمة يصدر من هذا الشاعر أو ذاك في حق أغلب هؤلاء الوزراء .

وحين ينظر ابن بسّام ، وهو شاعر صريح مرهف ، الى أوضاع المجتمع ويلتفت الى الوزارة المسؤولة عن هذه الاوضاع فيراها حكراً على بني الفرات ، يستغلونها ويملؤون خزائنهم من عطائها ورشاواها وينهبون بحمايتها الأقطاع والعقار فيذلوا الانسان بعد أن يسلبوه ، حين يرى كل هذا يقول (١) :

يا ربّ انك عــدل	على البريّةِ شاهــد
بنو الفرات ثقــال	وكلهم لك جاحــدٌ
ثلاثةٌ ليس فيهــم	الاّ ثقيـلٌ وباردٌ
يــا ربّ ان كان لا بــدّ	من ثقيلٍ فواحدٌ

ومثلما كان هؤلاء الثلاثة (الابناء) يرمون بثقلهم على كاهل المجتمع العراقي جاء الى الوزارة في فترة متداخلة مع فترة آل الفرات حامد بن العباس وزير اقطاعي تاجر يحمل معه كل غباء الاقطاع (٢) وجشع التجار ، فسام الناس ظلماً ، واحتكر خبزهم فنشر المجاعة والموت ، وما قدر بعد ذلك على تدبير أمور الوزارة فأوكلت الى رجل حصيف هو علي بن عيسى ،وظل حامد يجمع المال ، ويسلب الناس فهجي وشتم ، وقال الشاعر يخاطب علي بن عيسى (٣) :

---

(١) الوزراء ٨٦ .

(٢) ينظر عن بلادة حامد بن العباس ما روى عنه في الهفوات النادرة .

(٣) الفخري ٢٦٩ .

قل لابنِ عيسى قولــــة يرضى بها (ابنُ مجاهدِ)
أنت الوزيــــر وانمـــــا سخروا بلحيـــة حــامدِ
جعلوه عنــدكَ ستــرة لصـــلاح أمرٍ فــاسدِ
مهما شككت فقل له : كم واحداً في واحد ؟

ومن خلال هذه الكلمات المستهزئة بالوزير حامد يظهر لنا مقدار انهيار السلطة وفساد أمرها ، واذا سخر من جعل ابن عيسى وكيلاً للوزارة بلحية حامد ، فقد سخر الناس أيضاً بصاحب هذه اللحية فتناقلوا أخبار مطامعه ونوادر غبائه، وثاروا عليه ورجموه بالحجارة سلاحهم العتيد في كل أزمان غضبهم ، فسقط حامد ، وانتهى كما ينتهي أي غبي ظالم مخادع ، لكن الوزارة لم تتنزه ، فلقد صعد اليها وزراء كثيرون أغلبهم ضعيف أو غبي أو دجال مرتش .

ومن الطبيعي ألاّ يسكت بعض الناس على وجود الوزراء غير الشرعي ، فحين يتولى الوزارة الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وهو رجل «لم يكن بارعاً في صناعته ، ولا شكرت سيرته في وزارته» (١) يتذمر جحظة البرمكي من وجوده واختلال الامور في زمنه ويقول هاجياً (٢) :

إذا كان الوزير أبا الجمـــالِ ومحتسب البلاد «الدانيالي»
فعدّ عن البلاد ، فعن قليلٍ ترى الأيامَ في صورِ الليالي
تقضت بهجةُ الدنيـــا وولــت وآذَن كلُّ شيء بارتحـــالِ

وقد يكون مبعث هذه الأبيات مشاعر أنانية فردية مؤطرة بالغيرة والحسد لكنها مع ذلك تسجل وقفة جريئة أخرى لجحظة وشهادة واضحة على انحطاط الوزارة والمناصب الادارية الاخرى .

---

(١) نفسه ٢٧٤ .
(٢) نفسه .

ومثل جرأة جحظة في نقده اللاذع كانت جرأة أبي الفرج الأصفهاني وهو يهجو البريدي حين تولى الوزارة ويقول (١) :

يا سماء اسقطي ويا أرض ميدي ... قد تولى الوزارةَ ابنُ البريدي

ومهما تبلغ شجاعة نقّاد الوزارة ووضوح صورهم عنها فانهم لا يستطيعون أن يعبّروا مثلما عبّر ذلك الشاعر الذي هزّه الالم وهو يرى الخيول الكثيرة في اصطبلات وزير المستكفي الضعيف ابي الفرج محمد بن علي السامريّ (٢) تعامل معاملة لا يحلم بها كثير من بني الانسان آنذاك ، كما أحزنه أيضاً أن يجد مثل هذا الوزير الابله وهو يملك الخيول والترف والسلطة بينما لا يجد غيره ممن يملكون العقول المفكرة مركوباً أو أجرة ركوب ، وبهذه الدوافع الذاتية المتفاعلة مع المشاعر المتألمة لما تجده من شذوذ ينطق الشاعر فيقول : (٣)

الآن إن كفَرَ المُقتّرُ رزقَه ... قالوا : كفرت فخفْ عذابَ النارِ
أأكونُ رجلي مركبي وجَنيبتي ... خُفّي على ذُل بـذاك وعـارِ
والسرّ من ورائي في إصطبلـه ... مائتا عتيق فاره مختـارِ
كلبٌ حمارٌ بالخيول ، وكاتبٌ ... فَطِنٌ يضيقُ بهِ كِراءُ حمار
أنا قد دَهِشتُ فعرّفوني أنتُم ... هذا من الإنصافِ في الاقدارِ ؟

وهكذا كانت المشاعر الفردية الحاقدة تتلاحم مع الامتعاض السائد من الوزراء بخاصة والسلطة بعامة فتتكون لنا من هذا التلاحم صور نقدية لاذعة تبرز أهم المعالم الاجتماعية والسياسية التي عمت العصر .

---

(١) نفسه ٢٨٥ .

(٢) ابو الفرج أحمد بن محمد وترجمته في الفخري ٢٨٧ . وذكره ابن الاثير في الكامل ٨ / ٤٢١ ، ٤٤٧ ، ٤٦٨ وفي تعبه قال الساري والسرمرائي والسرمن رائي ، أما صاحب المروج فقال السامري وقد ذكر ميخائيل عواد أن اسمه احمد بن محمد السامري ، ينظر أقسام ضائعة من الوزراء ص ٢٥ .

(٣) الفخري ٢٨٧ .

ما قيل في القضاة :

حين بلغ الامر بالقضاة أن صار يضمّن لمن يبذل مالا أكثر كان من المتوقع أن تنهار كل الاعتبارات الأخلاقية التي كانت متمثلة في القضاة (١) .

فبعد أن كان القاضي شخصية مستقلة مهيبة لها سمعتها الطيبة ، وحرمتها لمصونة ، نزل به الامر ، وصار جزءاً من كيان الدولة العباسية المتحور الممتلىء بالعيوب والجهل والتردي الأخلاقي (٢) .

وكان لا بد للقاضي — وهو يشتري منصبه بمبالغ طائلة — أن يغدو سوطاً قاسياً ويداً غاصبة ، فبدأت نفسيته تهبط ولعبت بأهوائه الرشوة ، حتى وصل ظلمه حداً لايطاق فاستغاث الناس من القضاة ورجالهم ومظالمهم وقال شاعرهم مبيناً ما بين القضاة الاوائل وقضاة القرن الرابع من فرق (٣) :

كنا نفِرُّ من الولاة ... الجائرين الى القضاةِ
فالآن نحنُ نفِر من جورِ القضاةِ الى الولاةِ

واذا كثر النهب واستمرأ القضاة أسلوب الرشوة في تقرير الاحكام ، وحرفها الى جانب الراشي ضج الناس من هذه الافعال الدنيئة التي بدأ القضاة يجترئون بها على مقام العدل والانصاف وكثرت الاقوال الناقدة والالفاظ المستهزئة ، وصار اسم القاضي مرتبطاً بلفظ الرشوة والظلم ، ووصف الشعراء هؤلاء القضاة المرتشين بصور شعرية واضحة حادة فقال شاعر هضم حقوقه أحد القضاة (٤) :

إذا ما صُبَّ في القنديل زيتٌ ... تحولتِ الحكومةُ للمقندلْ

---

(١) من الشروط التي يجب أن تتوفر في القاضي ان يكون صادق اللهجة ، ظاهر الامانة عفيفا عن المحارم متوقياً المآثم ، بعيداً عن التريب ، مأموناً في الرضا والغضب ، ينظر في شروط القضاء الاخرى الاحكام السلطانية ٦٥ وما بعدها ، نهاية الارب ٦ / ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) ينظر في أمية بعض قضاة هذا القرن الهفوات النادرة ٣٢٧ .

(٣) التمثيل والمحاضرة ١٩٣ .

(٤) التحف والهدايا ١١٩ .

وعند قضاتِنا حكمٌ وعدل وبَذر حينَ ترشُوهم بسنبل

وقال آخر يصف أساليبهم المحبوكة في استلاب أموال الناس بالقوة والرشوة (١) :

فلا تجعلنّي للقضاة فريسة فان قضاة العالمين لصوص
مجالسهم فينا مجالس شرطة وأيديهم دون الشصوص شصوص

• • •

أو :

قضى لمخاصم يومـاً فلمّا أتاهُ خصمه نقض القضاءا

• • •

أو :

إذا كان القضاء الى ابن آوى فتعديل الشهود الى القرود

انها نغمات تحمل مع طابعها الاستهزائي روحَ تحدٍ لقضاة شذّوا ـ مثل بقية رجال الحكم ـ عن الاسلوب الصائب في معالجة أمور الناس وقضاياهم الدينية والدنيوية .

ويبلغ التحدي مرحلة شجاعة حينما يواجه فلان بن فلان من القضاة فيهزأ به ويبين عيوبه وشذوذه فاذا ما مات الراضي عزل ابو نصر يوسف بن عمر الأزدي عن القضاء وعيّن محله محمد بن عيسى المعروف بابن موسى الضرير تألم غاية التألم وشدته مصلحته الشخصية المضروبة الى جانب الحق فقال (٢) :

يا محنة الله كُـفي إن لم تكفي فخفّي
ما آن أن ترحمينا من طولِ هذا التشفي
نورٌ ينال الثُريـــا وعــالم متخفـي

---

(١) التمثيل والمحاضرة ١٩٣ .

(٢) نزهة الالباء ٢٠٩ .

واذا كان في هذه الأبيات كثير من الالم الذاتي ، والمشاعر الانانية فان ذلك لا ينفي صدق تعبيرها عن زمن ضاعت فيه معايير الحياة ومنها معايير القضاء .

وقد يكون ابن سكرة اكثر شجاعة وجراءة حينما انتقد القاضي أبا السائب وأظهره مرتشياً جائراً لا يرعى للحق حرمة، ولا للعدل منزلة أمام المال .. يقول ابن سكرة (١) :

ان شئت أن تبصرَ أعجوبة ... من جور أحكام أبي السائبِ
فاعمد من الليل الى صُرَّةٍ ... وقرِّرِ الأمرَ مع الحاجبِ
حتى ترى مروانَ يُقضَى له ... على عليِّ بن ابي طــالبِ

ولم يكن أبو السائب منفرداً في أخذ الرشوة والانحراف عن طريق القضاء الصائب ولم يكن وحده الذي ساقه ابن سكرة بلاهب النقد ولاذع الكلام ، فلقد واجه ابن سكرة مثل هذه الجراءة والصراحة قاضياً آخر أكثر من أبي السائب شذوذاً وانحرافاً ورشوة ، ذلك هو ابن أبي الشوارب واحد ممن كان يضمن القضاء (٢) ويتهم بالرشوة ، ولقد رسم ابن سكرة صورة مخزية تدلل على خسة هذا القاضي ووضاعته، وتشير الى مدى ما وصلت اليه سلطة آل بويه من انحراف اخلاقي وديني ، هذه الصورة تظهر ومعها علامات اجتماعية أخرى في قوله (٣) :

نُوَبٌ تَنُوبك بالنوائب ... وعجائبٌ فوقَ العجائبْ
وغرائبٌ موصولــــــة ... في كلِّ يوم بــالغرائــبْ
مما جنى قاضي القضــــا ... ة حد ندلُ بنُ أبي الشواربْ
قاضٍ تولّى بالصّبـو ... حِ وبالطبول وبالدبادبِ

---

(١) المنتظم ٧ / ١٨٦ وابو السائب هو عتبة بن عبد الله الهمذاني ت ٣٥٠ ولي القضاء في بغداد ٣٣٤ هـ وصار قاضي القضاة ٣٣٨ هـ ، المنتظم ٦ / ٣٤١ .

(٢) هو محمد بن الحسين ترجمته في المنتظم ٦ / ٣٨٩ والبداية والنهاية ٨ / ٣٣٣ توفي ٣٤٧ هـ

(٣) تكملة الطبري ١٨٤ .

ومناديـــان ينـاديـــان عليه في وسط الكواكب (١)
هذا الذي ضمن القضـا ء مع الفروج بغير واجب
هذا قدار زمانـنـــا وأخو المثالث والمعائب (٢)

انها صورة ساخرة تظهر مع معايب هذا القاضي وجناياته حداثة انحراف القضاء عن طريقه القويم (٣) وما جلب هذا الانحراف معه من المظالم العجيبة والافعال الشاذة الغريبة، والاستغراب ليس مبعثه انفعالاً وقتياً أحس به ابن سكرة بل هو ناتج عن انسلاخ القضاة من لبوس الحق والصواب واتخاذهم شذوذ بقية حكام العصر ملبساً ومجاهرتهم بوضعهم الرديء الجديد .

في منصب يلفه الشذوذ ويستحصل بالضمان والرشوة لا بد أن يحدث الاهتزاز الدائم والتغيرات المستمرة السريعة ، ولذلك غدت الوجوه التي تذهب وتجيء الى مركز القضاء كثيرة ومتعددة ، وصار اسلوب العزل والتولية في القضاء مبعث تندر واستهزاء وضحك فاذا صرف أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن قضاء البصرة عام ٣٥٦ هـ وولي مكانه رجل لم يكن عند أهل البصرة بمنزلة محترمة اكثروا من الضحك عليه والنقد له وللقضاء الذي يتولاه . وقد رسم له ابو القاسم ابن بشر الآمدي صورة (كاريكاتيرية) مضحكة حين قال (٤) :

رأيت قلنسية تستغيـــث من فوق رأس تنادي خذوني
وقد قلقت فهي طورا تميـ ـل من عن يسار ومن عن يمين
فقلت لها أي شيء دهــاك فردت بقول كئيب حزين :
دهاني أني لست في قالبي وأخشى من الناس أن يبصروني

(١) أظن أن هذه الكلمة في (المواكب) وهذا ما يقرب به المعنى .

(٢) الصحيح معايب .

(٣) يذكر التوخي أن أول من وضع منه وأدخل فيه قوماً بالضمانات هو ابن الفرات . ينظر نشوار المحاضرة ١ / ١١٤ .

(٤) نشوار المحاضرة ١ / ١٨٥ ، وفي الكناية للثعالبي ص ٤٥ نسب بعض هذا الشعر لابن سكرة قاله في القاضي ابن قريعة والتنوخي أثبت لأنه أقدم .

وأن يعبثوا بمزاح معـي وان فعلوا ذاك بي قطعوني
فقلت لها : مرض تعرفين من المنكرين لهذي الشؤون
ومن كان يشهق اما رآك ويخرج من جوفه كالرنين

• • •

ويسلح ملأك كيل التمام إمّا على صحة أو جنون
ففارقهـا ذلك الانزعاج وعادت الى حالها في السكون

واذا كنا قد رأينا من خلال هذه الصورة ما عليه هذا القاضي من صغر وتفاهة فاننا نرى أيضاً لباس رأس القاضي قلنسوة كبيرة تبعث على الهيبة لو أن صاحبها كان يملك زمام نفسه وأطماعها وكرامتها .. ولا تنتهي مرحلة التقلب والتبدل (القضائي) كما لا تنتهي معها كلمات الهزء والسخرية ، فاذا حلت سنة تسع وتسعين وثلثمائة صرف قاضي البصرة ابو عمر بن عبد الواحد وتقلّد مكانه أبو الحسن بن أبي الشوارب فقـال فيها الشاعر العصفري متندراً (١) :

عندي حديث طريف بمثلـه يتغـنى
من قاضيين يعزى هذا وهذا يهنـا
فـذا يقول اكرهونا وذا يقول استرحنا
ويـكذبان ونهذي فمن يصدق منا ؟

وهكذا نجد أن القضاء منذ السنوات الاولى للقرن وحتّى سنواته الاخيرة يبقى ملتصقاً بالشبهات والمظالم والرشاوى ، ويظل القاضي الجيد في هذا العصر نوعاً من الاعجوبة ، لا يصدق مجيئوه وينظر الناس سرعة عزله ان تسلم مثل هذا المنصب .

ويشبه القضاء في فساده ورداءة حاله الفقه أيضاً ، فلم يكن حال بعض

---

(١) المنتظم ٧ / ٢٤٤ ، الكامل ٩ / ٢١٢ وابن ابي الشوارب هذا هو احمد بن محمد ابن عبد الملك بن أبي الشوارب ت عام ٤١٧ هـ وترجمته في المنتظم ٨ / ٢٥ والبداية والنهاية ١٢ / ٢٠ .

الفقهاء ومدّعيه بأحسن من حال القضاة في ابتداع أساليب السطو والاحتيال وبهذا يقول ابن لنكك (١) :

أقول لعصبة بالفقه جالت — وقالت ما خلا ذا العلم باطل
أجل لا علم يوصلكم سواه — الى مال اليتامى والارامل
أراكم تقلبون الحكم قلبا — اذا ما صب زيت في القنادل

وقد يقصد ابن لنكك هنا أهل الفقه فعلا ، وقد يقصد القضاة الذين يستغلون الفقه الاسلامي لسلب الناس ، وهذا فهو يسجل صورة مظلمة لاستغلال الشرع الاسلامي من أجل المصالح الفردية والاطماع الانانية التافهة .

السخط السلبي :

مثلما كان هناك شجعان ذوو ارادة وصراحة يقولون ما يستشعرونه من آلامهم أو آلام الآخرين بكلمات تفيض بالسخط أو التمرد وتمتليء بالعزم والثبات كان بالمقابل — وهو الأغلب الأهم — أناس يئسوا من الحياة وعدّوا مجابهة العنف بالعنف شيئاً لا يجدي الانسان نفعاً في زمن رخصت فيه قيمة الانسان وأبتذلت كرامته وقد يكون قسم من هؤلاء المنهزمين غير مفكر على الاطلاق بالمجابهة مقتنعاً اقتناعاً كلياً بوضعه المزري المشين .

على أن بعض هؤلاء سجل لنا مع انهزاميته الجانب المظلم لحياة المجتمع ، ووضع اشارات واضحة لما كان يسوده من أجواء مشحونة بالرعب والموت فالشاعر الذي يقول (٢) :

قد أصبح الناس في غلاء — وفي بـلاء تداولـوه
من يلزم البيت يود جوعا — أو يشهد النـاس يأكلوه

---

(١) معجم الادباء ١٩ / ٨ والبيت الاخير كأنه مأخوذ من قول الشاعر (اذا ما صب في القنديل ... البيت) .

(٢) الادب في ظل بني بويه ٤٨ .

أو الذي يقول :

لا تخرجن من البيـوت لحاجة أو غير حاجـة
والبـاب اغلقـه عليك موثقاً منه رتاجـه
لا يقتنصك الجائعـون فيطبخـونك شور باجه

هذا الشاعر وان لم يقدم لنا حلاً لهذه الأحوال والأهوال والمجاعات وان يبين لنا ضعفه وهروبه فانه سجل جانباً من حياة المجتمع العراقي عاشها وقتاً ليس بالقصير ، فلقد تراكمت عليه المجاعات حتى اضطر بعض الناس الى أكل الجيف والكلاب والقطط والاطفال .

ومثل هذا الشاعر في هزيمته وسخطه السلبي كان الكثير من ابناء بلده واترابه الشعراء ، وقد كان منهم من يقابل الأوضاع الشاذة هذه بالحسرة والأسف ويغمر إحساسه بوضاعة مركزه الاجتماعي واندحار مبادئه الاخلاقية بجو من اللهو ينسى فيه هموم زمنه ، مثل هذا الانسان كان يقول (١) :

أصبحت من سفل الانام اذ بعت عرضي بالطعام

الى أن يقول :

حي القدور الراسيات وان صممن عن الكلام
لهفي على سكباجة تشفي القلوب من السقام
يا عاذلي أسرفت في عذل الخليع المستهـام
دع عذل من يعصي العذول ولا يصيخ الى الملام
خلع العذار وراح في ثوب المعاصي والأثام
سلس القياد الى التصابي والملاهي والحرام

اننا نجد في الأبيات الأولى سخطاً وحرماناً وألماً ونجد في الأبيات الأربعة الاخيرة بخاصة تغليفاً بارزاً للهزيمة أمام مسببات هذا الالم والحرمان .

وان كان هذا الشاعر يعوض عن تصاغره ومذلته بالهروب « اللهوي » ان

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٢ / ٥٠ .

جاز التعبير فهناك من يهرب بصورة أكثر اتزاناً وحفظاً للكرامة بأن يبتعد عن الناس ، ويقتعد بيته أو يشل فاعليته في المجتمع ولا يشترك بأية عملية من شأنها أن تؤثر على مركزه أو تقلق باله فيرتاح أبو حيان لنغمة الهروب وهو يسمعها شجواً في لبيب كره المقام في هذه الدار التي قد امتلأت بالذئاب فقال (١) :

نظرت فلم يعلق بقلبي سوى القذى — وجلت فلم أجلب لنفسي سوى الأذى
ولم أر وجهاً مستحقاً « لمرحبا » — ولا وجه أمر مستحقاً ل « حبذا »
رأيت شرار الناس يمضون حكمهم — على الجانب الادنى الى الشر منفذا

• • •

فحــد نائيا عن سمتهم متحرزا — وسر بينهم من شرهــم متعوّذا
وعش هكذا طول الحياة فربما — سلمت عن الاشرار ان عشت هكذا

ولم يسلم أبو حيان مع تحرزه وتعوذه من شرور الحياة ومآسيها ولهذا فان محمد بن عمر العنبري (٢) حين يرى اختلال الزمان وتدهور القيم عند أهله يقبع بعيداً بعد أن ينسل من زحام الحياة خوفاً من أن ينوشه ضرره مثلما فعل بأبي حيان ثم يقول مسوغاً هذا الابتعاد (٣) :

اني نظرت الى الزمـــان وأهله نظرا كفاني
فعرفتــه وعرفتهم — وعرفت عزّي من هواني
فلذاك أطرح الصديق — فلا أراه ولا يراني
وزهدت فيما في يديه — ودونه نيل الاماني
فتعجبوا لمغالب (٤) — وهب الاقاصي للأداني
وانسل من بين الزحام — فما له في الغلب (٥) ثاني

---

(١) الاشارات الالهية ٨٨ .

(٢) ت ٤١٢ ترجمته في المنتظم ٨ / ٤ ، البداية والنهاية ١٢ / ١٢ .

(٣) نفسها .

(٤) في المنتظم لمقالة ولا يستقيم معها المعنى .

(٥) في المنتظم الخلق .

لقد أصبحت الهزيمة علنية وأسبابها واضحة وأخذ الناس يحسبونها نوعاً من الشجاعة ، فما كان يتسنى لكل واحد أن ينهزم لأن في الهزيمة آنذاك حفاظاً على الكرامة الذاتية والقيم الفردية وهي كشف عن الجوانب السيئة التي دعت الى سلوك سبيلها ، ولهذا يمكن ان نعدها نوعاً من الشجاعة « المهزوزة » التي تخدم المجتمع بما تقدمه له من صور مظلمة لقساوة الزمان ومن أمسك بزمام الزمان .. نجد مثل هذه الهزيمة الساخطة في قول ابي النضر الهزيمي الابيوري(١) :

أما رأيت الزمـان نكسا وفيه للرقعة اتضـاع
كل رئيس بـه مـلال وكل رأس بـه صـداع
لزمت بيتا وصنت عرضا به عن الذلة امتناع
أشرب مما اقتنيت راحا ومن قراقيرهـا سماع
وأجتني من عقول قوم قد اقفرت منهم البقاع

ان في هذه الابيات والتي قبلها أكثر من دليل صريح يشير الى أن المجتمع بات مرتجاً مهزوزاً ، الانسان الشجاع فيه من يستطيع ـ وهذا يحصل نادراً ـ أن يحافظ على كرامته ويصون عرضه ولو كان ذلك باقتعاد البيت أو الابتعاد عن الناس ، ومن ثم وأد المشاعر والاحساسات الانسانية بالشرب والسماع واللهو .

ان مثل هذا الشاعر يمثل بالقياس الى الطبقات الاعتدائية أو الذليلة وجهاً انسانياً ايجابياً من وجوه الحياة آنذاك « ففساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شرّه مقطوعاً وان كان خيره ممنوعاً (٢) » .

وقد يعلل مثل هذا الانسان في القرن الرابع عدم ايجاد الحل الشجاع لمثل انحرافات زمنه بعدم جدوى الحياة وبفناء عمر الانسان السريع يسير بعد ذلك

---

(١) خاص الخاص ١٨٠ وتنسب هذه الأبيات أيضاً الى ابي نصر الفارابي ينظر عيون الانباء في طبقات الاطباء ٣ / ٢٢٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين ١٥٠ .

على قول سعيد التستري (١) :

مالك قد هيمك الهم وضل منك الحزم والفهم
لو رمت أن يبقى الأذى ما بقي لا فرح دام ولا هـم

وعلى هذا الاساس ، يغرق أغلب أهل العصر أنفسهم بالشراب لينسوا همومهم ومآسي عصرهم وكأنهم في ذلك يقتدون بابن نباته السعدي حين يقول (٢) :

يا خليلي ليس للهم شاف نجم القبح واستسر الجميل
وأرانا من الشقاء خلقنا في زمن تضر فيه العقول
فاسقياني مفيد الجهل حتى تریاني ما السفاه أميل
علاني فكل جد وهزل وعناء وراحة تعليل

وقد نجد نوعاً آخر من الهزيمة الناقدة أو الهروب الساخط ان صح القول متمثلاً بالدعوة للقطيعة الكلية ، فحين تشتد أزمات الحياة وتتعدد نكباتها يتشاءم الشريف المرتضى وييأس فيقول (٣) :

شد غروض المطي مغتربا فلم يفز طالب وما طلبا
لا در في الناس در مقتصد يأخذ من رزقه الذي قربا
وما مقام الكريم في بلد ينفق فيه الحياء والادبا

وقد يتألم بعضهم اذا اضطرته الظروف الى مثل هذه الهزيمة والمقاطعة ، وقد يحس ان في عمله هذا اضراراً ومعرة له ولبلده يفعله ويقول مثلما قال ابن نباتة السعدي (٤) :

ونبت بنا أرض العراق فما محناها بمحنة
غير الرحيل كفي البلاد بنقلة الفضلاء هجنة

ان كل هذا التخاذل والانهزامية تسجيل وتعداد لمعايب الحياة آنذاك ،

---

(١) شعراء النصرانية ق ٣ و ٩ / ٢٥١ .

(٢) مختارات البارودي ٤ / ١٣٨ .

(٣) الديوان ١ / ٥٥ ، تتمة اليتيمة ١ / ٥٦ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٣٨٤ ، نهاية الارب ٣ / ١٠٥ .

وهو بالتالي سخط « متفاوت السلبية » .

ان حياة محزنة عاشها المجتمع العراقي خلال ثلاثة قرون لم يتنفس في سنة منها عدلاً الا انهارت عليه سنون كثيرة محملة بالمظالم والموت ، لا بد أن تبعث اليأس من الصلاح وبالتالي الهزيمة ، وشيء كبير أن نجد في مثل هذا المجتمع رجالاً غاضبين ، أو ساخطين ايجابيين أو سلبيين يبرزون بهذا الشكل أو ذاك جوانب هذه الحياة الشريرة ويشيرون في أغلب الاحيان الى المسؤولين عن التسبب في خلق مثل هذه الحياة .

القيمة الفنية :

يختلف شعر التمرد والسخط اختلافاً كبيراً عن الشعر الذي تناولناه في فصول سابقة فهو شعر وجداني صادق في التعبير عن مشاعر قائله واحساساته المتألمة ، ولهذا فقد جاء خالياً من التقعر والتكلف ، سلساً ، قصير الجملة لا يحتاج من يقرؤه الى سبر أغوار الفاظه أو الشعور بغرابتها .

لقد كان يحكي مأساة الفرد أو المجتمع ، وكانت هذه المآسي طافية على سطح الحياة ، فجاء الشعر الذي يعبر عنها مفتوحاً ليس فيه ما يوحي بالملل والضيق .

انه شعر عاطفة حزينة — في الأغلب — لذلك وجدنا كثيراً من الفاظه وكلماته تدور في قالب الالم والظلم ، والفساد ، والزور والبكاء والموت ولا تختلف بقية الالفاظ في معانيها عن هذه الكلمات والالفاظ الكئيبة .

ولا تعني عاطفية هذا الشعر ووجدانيته علوه الفني أو خلوه من الكلام التقريري الجامد فكثيراً ما نجد هبوطاً فنياً وكلاماً نثرياً متلاصقاً على شكل قطعة منظومة كما نرى ذلك في قول الشاعر :

(لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... الابيات)

أو قول الآخر :

(قل لابن عيسى قولــة ... الابيات)

أو في أقوال شعراء آخرين يمكن ملاحظة هبوط الجانب الفني في شعرهم . ان الشاعر الساخط آنذاك لم يكن يشغله الجانب الفني بقدر ما كان يهمه أن ينفعل مع الأحداث ويعبر عنها بما يتسنى له من الفاظ وكلمات وردت في ذهنه ولذلك تأرجحت القصائد بين جيدة تارة ورديئة تارة أخرى ..

الخلاصة :

سادت مجتمع العراق في القرن الرابع قيم تعدّ في العرفين الديني والاخلاقي شاذة ، وسيادة القيم الشاذة منطق طبيعي للشذوذ الاقتصادي وما يتبعه ويرتبط معه من شذوذ سياسي .. على أن هذا المجتمع الذي هزمته مثل هذه القيم لم يكن خالياً من عناصر ناهضة واعية جابهت أو نقدت شذوذ الحياة بأشكال وصور مختلفة ، ولو وصلت الينا أشعار ابن لنكك كاملة لكانت كافية لتبعث في نفوسنا الثقة بحيوية بعض العقول آنذاك ولتجعلنا بعد ذلك نضع مثل هذه الاشعار في منزلة اجتماعية أعلى من كل ما قاله « الشعراء الفحول من مديح ودجل .

ان شعراً مثل شعر ابن لنكك وأصحابه يجب أن يقرن الى الحركات التي وصفها الدارسون المحدثون بالتقدمية ، كانتفاضة الحلاج على قيم عصره المنحرفة وثورة القرامطة وحركات العيّارين وحركة الشعوبية من حيث كونها ضد العنصرية فهي على هذا الاساس حركة تقدمية وعودة الى ثورة الاسلام نفسه على العصبيات (١) .

اننا نقرأ كتب التاريخ قديمها وحديثها فلا نجد الا اهتماماً بجمع النصوص النثرية والاشارة الى النصوص الشعرية دون النفاذ الى ما تبصمه من أحوال سياسية واجتماعية واقتصادية .

---

(١) قال ذلك الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه الحركات التقدمية في العراق ٢٤ .

وحتى الدكتور عبد العزيز الدوري حين كتب عن هذا القرن بروح عامية وموضوعية ودرس الحركات « التقدمية » آنذاك لم يشر الى مثل هذه النصوص الشعرية ، ومثله فعل كثير من الدارسين المحدثين وإن لم يصلوا موضوعيته (١) ، وكأن لم يكن الشعر مادة للمؤرخ أو مصدراً للتاريخ .

ان نصاً شعرياً واحداً مما أوردناه يتأكد الدارس من صحته ونزاهته يغني عن كثير من الكلام السردي والتهويم بين النصوص التاريخية التي كتبت مشبعة بالاهواء والخوف .

---

(١) ينظر في دراسات الدكتور عبد العزيز الدوري كتاب الحالة الاقتصادية في العراق في القرن الرابع ودراسات في العصور العباسية المتأخرة .

عن القرامطة ٢٦ — ٢٨ ، ١٥٥ — ١٨٢ ، والاسماعيلية ١٢٦ — ١٥٥ والعيارين ٢٨٢ — ٢٨٦ وغيرها من الحركات .

الفصل الثامن

مظاهر حضارية واجتماعية

اللهو .. أماكنه ومجالسه :

لم تكن حصيلة اضطراب المجتمع العراقي مظالم اجتماعية واقتصادية فقط ، مما أدى ذلك إلى انهيار في القيم الخلقية لهذ المجتمع فانتشر اللهو والمجون بين طبقاته المختلفة ، وهذا أمر متوقع جداً ففي المجتمعات الطبقية عموماً وتحت ثقل الاستغلال الطبقي تتحلل القيم والاعراف الاجتماعية والدينية فتفسد كثرة المال عند الطبقة المترفة أخلاق أفرادها ، وتحمل الفاقة والحرمان افراد الطبقات المعدمة على الشذوذ الخلقي اما لكسب القوت اليومي أو تسييراً عن السخط وتنفيساً عن الهموم ، او تقليداً للطبقات الحاكمة والمترفة وتشبهاً بها .

ولقد انتشر اللهو والفساد في العراق وعم مختلف مدنه ، ولكن بغداد — وهي مركز الثقل — وضواحيها كانت أكثر أماكن اللهو ازدحاماً وشيوعاً .

لقد أحصى ابو حيان وجماعة معه في الكوخ المغنين والمغنيات الذين عرفوا في بغداد فوجدوا « اربعمائة وستين جارية في الجانبين ، ومائة وعشرين حرّة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور » سوى من لم يظفروا به ولم يصلوا اليه « لعزته وحرسه ورقبائه (١) » .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٢ / ١٨٣ .

وكان في بغداد صبي موصلي «فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة وأفتضح به أهل النسك والوقار (١) » .

وكانت في الكرخ ومناطق اخرى تردد كثيراً على السنة الناس حينما يحنون الى أماكن اللهو ، ومواخير الشراب والغناء ، فاذا غاب أحدهم عن حياة بغداد الصاخبة هزه الحنين اليها وردد في وله واشتياق قول الشاعر (٢) :

يا لياليَّ بالمطبرة (٣) والكرخ ودرب السُّوسيِّ (٤) بالله عودي
كنت عندي انموذجات من الجنة لكنها بغير خلودِ

وإذ يتذكر هذه المناطق لا يهزه الحنين اليها لانها منتجع صباه ومواطن أهله انما يذكرها ويحن اليها لان فيها متطلبات الانسان الفاحش ، اللاهي لذلك يردد مرة أخرى (٥) :

وسلام على مواخير بصرى(٦) وأوانا(٧)والقفص(٨)والبردان(٩)
ليت شعري مذ غبت عنها على كم قرر البائعون سعر الدنان
بين خمر تباع في دار روم كل يوم بأوفر الأثمان
وقيان لها جذور ثقال مفردات بالحسن والاحسان

---

(١) نفسه ٢ / ١٧٤ .

(٢) حكاية ابي القاسم ٧٥ وفي معجم البلدان ينسب هذا الشعر لا بن المعتز ٢ / ٦٧٢ .

(٣) المطبرة قرية في نواحي سامراء كانت من متنزهات بغداد وسامراء ، معجم البلدان ٨ / ٩٠ .

(٤) في معجم البلدان دير السوسي وهو بنواحي سامراء بالجانب الغربي ، معجم البلدان ٢ / ٦٧٢ .

(٥) حكاية ابي القاسم ٤٨ . والأبيات لابن الحجاج قطعة من الديوان رقم ٤٤٢ / م ورقة ٩٥

(٦) بصرى من قرى بغداد قرب عكبرا ، معجم البلدان ١ / ٤٤١ .

(٧) أوانا : بلدة كثيرة البساتين والشجر من نواحي دجيل بغداد . وكثيراً ما يذكره الشعراء الخلفاء في أشعارهم معجم البلدان ١ / ٢٧٤ .

(٨) القفص : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد وكانت من مواطن اللهو والطرب ، معجم البلدان ٤ / ٣٨٢ .

(٩) البردان من قرى بغداد ، معجم البلدان ١ / ٣٧٤ ، تقويم البلدان ٣٠٠ .

ونعرف من خلال هذا الكلام كثرة المواخير والحانات في هذه المناطق، ونعرف أيضاً ان خصور هذه الحانات قد تسلم أمرها نصارى الروم وأن القيان والمغنيات قد كثرن وتنوعن ، وتتضح المسألة أكثر حينما يقول عن أوانا (١) :

حفـظ الله أوانـاً كنـت فيهـا « بأوانـا »

* * *

بلـدة تجمـع خمـراً وقِحاناً وقِيـانـا

وهنا نجد دليلاً آخر على شيوع البناء ، وكثرة البغايا ، واتساع رقعة وجودهن .

ومثل بغداد وضواحيها كانت الاماكن الاخرى من العراق ، فحين يشرب ابن سكرة « بالغمر » من واسط يقول (٢) :

ليلتي « بالغَمْـر » دهري أو يقضّي العمـر عمري
مـرّ بي في العمـر يوم لا أجـازيه بشكـر
بين غِـزلان النصـارى أمـزج الريق بخمـر

وفعل ابن الحجاج في « عُمر واسط » الذي يبعد عن واسط مقدار فرسخ مثلما فعله ابن سكرة فقال « وقد خلا قوله من الفحش » ذاكراً متعه متذكراً أحبته (٣) :

في العُمْر (٤) من واسط والليل ماهبطت فيه النجومُ وضوء الصبح لم يلمح
بيني وبينَكَ ودٌ لا يغيّـرُه بعدُ المزار وعهدٌ غيرُ مطّرَح
فمـا ذكرتك والأقداح دائرة إلاّ مزجت ، بدمعي باكياً قدحي

---

(١) حكاية ابي القاسم .

(٢) اليتيمة ٣ / ١٩ واظن أن المقصود هو (العمر من واسط لا « الغمر ») كما أثبت محقق اليتيمة .

(٣) ينظر معجم البلدان ٤ / ١٥٥ وعمر واسط هو عمر كسكر .

(٤) العمر : الدير .

و مثل بغداد وأوانا وواسط وغيرها كانت الاديرة وملحقاتها ، فلقد كانت هذه الاديرة مبثوثة في الكثير من مناطق العراق ، وكان لكل منها يوم يخرج فيه الناس اليه ، لا يفرقهم في الانس ، واللذة دين أو قومية ، يلبسون أجد الثياب ويتمتعون أطيب المتع .

من هذه الاديرة كان دير أشموني الذي يقول فيه جحظة (١) :

سقياً لأشمُوني ولذاتِها والعيش فيما بين جناتها

• • •

إذا اصطباحي في بساتينها وإذ غبوقي في دياراتها

ومنها دير الثعالب الذي يقول فيه الشاعر (٢) :

دير الثعالبِ مألفُ الضّلالِ ومحل كلّ غزالة وغزالِ

ومنها في الحيره دير (حنّة) ودير (حنظلة) الذي يقول فيه الشاعر (٣)

بساحةِ الحيرةِ ديرُ حَنْظَلَه عليه أذيالُ السرور مسبله

ومنها دير (سمالو) في رقة الشماسية والذي يقول فيه احمد بن عبد الله البديهي (٤) :

الدير دير سمالو للهوى وطر بكر فان نجاح الحاجة البكر

وهناك أديرة خاصة بالنساء (٥) منها دير (الخُوات) ـ جمع أخت ـ وهو بعكبرا وأكثر أهله نساء وعيده الاحد الاول من صوم النصارى « وفي

---

(١) ينظر الديارات ٤٦ ، معجم البلدان ٢ / ٤٩٨ ، مراصد الاطلاع ٥ / ٥٥٢ ، الاوراق ٦٥ .

(٢) الديارات ٢٤ ، معجم البلدان ٢ / ٥٠٢ ، مراصد الاطلاع ٢ / ٥٥٥ ويقع هذا الدير على بعد ميلين أو أقل من بغداد في قرية تسمى الحارثية (ينظر الاوراق ٤٤) وأظن أن هذه القرية هي الحارثية التي صارت ضمن بغداد الآن .

(٣) معجم البلدان ٢ / ٥٠٧ ، مراصد الاطلاع ٢ / ٥٥٧ ، الاوراق ١٤٥ .

(٤) الديارات ١٤ ، معجم البلدان ٢ / ٥١٦ ، مراصد الاطلاع ١٤/ ٥٦٣ ، الاوراق ٦١ .

(٥) ينظر في أديار النساء كتاب الديارات النصرانية في الاسلام ٢٤ .

هذا العيد ليلة الماشوش وهي ليلة يختلط فيها الرجال والنساء فلا يرد أحد يده عن شيء » وفيه يقول ابو عثمان الناجم (ت ٣١٤ هـ) (١) :

آحِ لقلبي من الصبابـــة آح من جواري مزينـــاتٍ ملاحِ
أهلَ دير الخُوات بالله رَبّي هل على عاشقٍ قضى من جُناحِ

وهناك عشرات من الاديرة تبدأ من سامراء وحتى مشارف البصرة لهج الشعراء والمؤرخون بذكر أيام لهوها ، ونوادر أنسها ومجالس شرابها .

ويرى حبيب (٢) زيات أن الحاق الحانات بالديارات النصرانية كان بعد الاسلام فقد « انبشئت على أثر اعتياد المسلمين ابتياع الخمور من الرهبان « والنزول عليهم في أماكن عباداتهم فلم يكن لهؤلاء الرهبان والقسسة مجال للرفض لان الاسلام « أوجب على النصارى في جملة الرسوم الا يمنعوا كنائسهم من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار ... فلم يكن من ثم بد من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل ، ثم كثر الاضياف والمتنزهون في الديرة لمعاقرة الخمر والتبسط في القصف والطرب ، وتفاقم الداء بصحبة الجواري والغلمان والحظايا لفريق من الأمراء والمتطرفين وأهل البطالة .

وتأذى الرهبان بمثل هذا الاختلاط ، فأعزت الحال الى بناء دور وحجر لهم خاصة الى جانب الاديار ينزل فيها كل من يغشاها من الناس والمسافرين وتقام لهم الضيافات على أقدار كل منهم (٣) » .

ومهما تكن قوة دفاع حبيب زيات عن أسباب وجود أماكن اللهو والانس ملحقة بالاديرة ، فالذي شاع عن هذه الاماكن انها كانت مواطن لهو ولا يتبادر الى الاذهان غير أنها مخصصة لذلك فقط لان كثرة ما روي عن أعيادها

---

(١) تنظر الديارات ٩٣ ، معجم البلدان ٢ / ٥٠٨ ، الأوراق ٨٣ ، ويكذب حبيب زيات ما روى عن ليلة الماشوش هذه ، ويبدو انها قصة مختلقة وهي تلصق بفرق دينية كثيرة كالنصيرية والدروز وغيرهم .

(٢) ينظر الديارات النصرانية ٦٢ .

(٣) الديارات النصرانية ٥٨ .

وأيام لهوها طمس الصفة الدينية التي وجدت الاديار من أجلها .

ولا بد أن نذكر في حديثنا عن اللهو واماكنه محلا مهماً من محلاته ذلك هو دجلة وشواطئها ، وقد سجل ذلك ابو القاسم في حكايته (١) حين بين كيف كانت تشحن دجلة أيام اللهو وساعات الأنس بالمراكب والزواريق تحف بالقصور والجواسق « يرتفع ما بينها أصوات الأغاني وخفقات النايات والسواني وأصوات الملاحين » وعلى هذا قال حين تذكر في ذلك غربته (٢) :

يا أهلَ بغداد فرقتي لكـم ‏ ‏ ‏ يا سادتي غربتي عن النـاسِ
يهنئكـم لـذةُ النعيـم علـى دجلـةَ بين السّمـاع والكاسِ

الدعوة للهو :

في مثل هذه الاجواء الصاخبة ، تعالت مشاعر مادية ضالة تدعوا الى الاخذ بمتع الحياة والتلذذ بمباذلها ، وتجسم فوائدها ومباهجها .

ولقد تطوع ابن بسام (وهوشاعر توفي في بداية القرن) فقال داعياً الى اللهو والشراب (٣) :

ألا بادر فلا تـأن سوى ما ‏ ‏ ‏ عهدت الكـأس والبدر التمام
ولا يكسل برؤيتـه ضبابا ‏ ‏ ‏ يظـن به الحديقـة والمـدام

أما الوزير ابن مقلة فقد صور لنا العقلية الحاكمة كما فعل خليفته المقتدر فقال (٤) : « أمهات لذات الدنيا أربع ، لذة الطعام ، ولذة الشراب ، ولذة النكاح ، ولذة السماع » وبهذا المعنى قال شاعر العصر (٥) :

---

(١) حكاية ابي القاسم ٢٣ . وينظر في اماكن اللهو قصيدة صريع الدلاء التي قالها في مديح فخر الملك . الديوان مخ ٧٦ أ ، ٧٦ ب .

وقصيدته الطويلة في المفاضلة بين بغداد والبصرة والتي بلغت أبياتها مائتين وسبعة وثمانين بيتاً . الديوان ورقة ٦٣ أ وما بعدها .

(٢) حكاية أبي القاسم ٢٤ .

(٣) مطالع البدور ١ / ١٥٣ .

(٤) برد الاكباد للثعالبي ١٣٠ .

(٥) خاص الخاص ٦٣ .

وجـدت رئيسـة اللـذات أربعـة إذا تُحسـبْ
فمنهـا لـذةُ المنكـح والمطعمِ والمشرب
ويبقـى بعدَهـا أخرى من الصوت الذي يَطربْ
وهذي قد تُفيـد النفس ابهاجاً ولا تنصَبْ

وتغدو هذه التشهيات دعوة ناضجة صريحة على لسان ابن الحجاج حين يقول (١) :

اعـدل إلى الكـأس والندامى والأكـل والشراب والسّماعِ
وأمردٍ حامـع لشرط العنـاقِ والبـوسِ والجِماعِ

أو يقول داعياً لشرب الخمرة (٢) :

ويحكم يـا كهول أو يا شيـوخ الفسـق أو يا معاشرَ الفتيانِ
اشربوهـا خمراً مما اقتناها آلُ « دير الفنون» للقربان (٣)

• • •

في ليـال لو أنهـا دفعتني وسط ظهري وقعت في رمضان

وتظل الدعوة الى اللهو تدور على الالسن ، حتّى تصل المجالس فترى أحدهم داعياً الى التمتع بجميع اللذات ضارباً بالاعراف والالتزامات لصاحبه قول الشاعر (٤) :

كل دَجاجا وفراخـا وجِدا واشوِ حِملانا صغاراً رُضّعا
واشرب الراحَ التي في دنّهـا شاهدتْ عـاداً ولاقتْ تُبّعا
والغِنـا الطّيب فاسمع منه ما يحضر التحصيـل ألا تسمعا
وتمتـع بالصبايا لا تكـن من أناس يحظرون المتعـا

---

(١) اليتيمة ٣ / ٨٤ .

(٢) مطالع البدور ١ / ١٦٠ .

(٣) صدر البيت غير موزون ويمكن أن يصلح باضافة واو أمام « مما » .

(٤) حكاية ابي القاسم ٢٠ .

ان الدعوات الى اللذات كثيرة ومتنوعة ، صريحة ومرموزة ، داعرة فاحشة ولبقة خبيثة وكلها تعطي دلالات بينة على انتشار اللهو وشيوعه وتعدد أساليبه .

مجالس اللهو :

كانت تقام مجالس اللهو استجابة لدعوات اللهو ومغرياته ، ومن اجل التنفيس عن الآلام السياسية والاجتماعية أو قتلا للفراغ « وكان للعامة كما كان للخاصة مجالس غناء وشراب يحضرها الناس ويغني فيها الغلمان والقيان (١) »

فقد كان هناك مغنون ومغنيات يختصون بأماكن معينة من بغداد ويجتمع عليهم الناس (وسيأتي الكلام على ذلك في حديثنا عن الغناء) .

وعلى شواطىء دجلة كان العامة والخاصة يلهون ، ولكل جماعة مجلس خاص بها يتفق وقدراتها المادية وكان باستطاعة الفرد أن يتمتع في مجالس العامة بدراهم معدودة يبين ذلك قول الشاعر (٢) :

مجلس في فناء دجلةَ يرتاحُ اليهِ الخليع والمستورُ

ليس فيه الا خُمار وخمرٌ ومماتٌ من نشوة وحبورُ

وحديثٌ كأنّه زهر المنـ ـثور حُسناً أو لؤلؤٌ منثورٌ

وجريح من الدِّنان تسيل الرا حُ من جُرحه وقدرٌ تفورُ

ولكَ الظبية الغريرة إن شئـ ـتَ وإن عفتَها فظبيٌ غريرُ

كل هذا بدِرْهَمين فـإن زد تَ فانتَ المبجّـل المحبورُ

أما بيوت الخاصة ومنتزهاتها فقد كانت عامرة بمجالس اللهو والشراب والانس (٣) ، وفي هذه المجالس كانت تدور زيادة على مسببات المتعة ، الاحاديث الادبية والمسامرات الطريفة ، ومجالس الراضي الخليفة شاهدة على ذلك (٤) .

---

(١) الوصف في القرن الرابع ٢٢٤ .

(٢) الادب في ظل بني بويه .

(٣) ينظر في وصف مجالس اللهو ، زهر الآداب ١ / ٤٥٦ .

(٤) ينظر اخبار الراضي ٥٥ ، ٥٦ ، مروج الذهب ٤ / ٣٢٨ .

وقد تتخذ مجالس اللهو عند بعض الخلفاء أسلوباً للتسرية والترويح عن النفس من الهموم السياسية التي تحيط بالخليفة والخلافة كما كان يحدث في مجالس الراضي والمتقي والمستكفي .

فاذا رأى الراضي تسلط « بَجْكَم » على الحكم عمل مجلساً للأنس والمسامرة الادبية (١) واذا ضاقت الدنيا بالمتقي ، وتبين هبوط قيمته السياسية طلب رجلاً اخبارياً يتفرج اليه في خلواته ويستريح به في الاوقات وعمل مجلساً لذلك (٢) . واذا فزع المستكفي من أن يلي المطيع الخلافة ويوقع عليه المكروه ضاق صدره ، وشكا همومه لاصحابه وعمل مجلساً تناشد فيه مع جماعته أشعار كشاجم الكثيرة في الاكل وأحضر الطعام الذي يرد في قصائد كشاجم ، فأكله مع جماعته ونفّس عن همومه ، ودلل على جبنه ، وانهيار خلافته (٣) ، ومظاهر الترف الزائفة التي احاط نفسه بها .

ومثلما كـان الخلفاء العباسيون (قبل البويهيين) يقيمون المجالس كان وزراؤهم وامراء جندهم .

ومن هذه المجالس مجلس أقامه أبو الحسن علي بن الفرات أحضر فيه من المغنيات ما لا يحصى كثرة ، واستعمل أواني الذهب والفضة ، وقد حضرت هذا المجلس (بِدْعة) المغنية وغنت فيه ، فعمل فيها بيتين من الشعر قال فيهما (٤) :

إذا « بِدعةٌ » جوّدت عودَهـا تدلّل في ضربهـا كل صعبْ
تغنّى فتجني ثمار القلـوب وتهدى سروراً إلى كل قلبْ

وكانت هذه المجالس اللاهية تؤثر بعد ذلك في فاعلية ادارة شؤون الدولة ،

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٣٢٨ .
(٢) نفسه ٤ / ٣٤٣ .
(٣) نفسه ٤ / ٣٦٢ .
(٤) ينظر الوزراء ٢١٤ .

فحامد بن العباس يأتي بعد ليلة ساهرة ، مخموراً الى ديوان وزارته فيحاول أن يحول الديوان الى حديث عن الخمر والخمار (١) .

وفي العهد البويهي كانت المجالس تأخذ طابعاً متميزاً عما كانت عليه في السابق ، فاذا كانت مجالس الخاصة قبل البويهيين تعمل بسبب من هموم الخليفة وقلقه أو ملل وزيره من عمله، ولم تكن تحدث بانتظام واستمرار فقد أصبحت في الزمن البويهي من الكثرة والاستمرار كأنها عادة من عادات المجتمع الحاكم .

فأمراء آل بويه كانت لهم مجالس خاصة بهم يحضرها الندماء وتحاط بكل مظاهر الترف والأبهة وقد دلل على هذه المجالس شعر آل بويه أنفسهم (٢) .

وقد وصف الشعراء الذين عاشوا في قصور البويهيين وتحت حمايتهم مجالس أسيادهم وتفننوا في تصويرها وذكر ما يستعمل فيها من أدوات ، وشراب ، وآلات ، وزينات ، ولقد ذكر لنا عبد العزيز بن يوسف احد هذه المجالس في شعره فقال (٣) :

فيا مجلساً عز الخلافةِ محدقٌ ... بأقطاره والند والنَّورُ والخَمرُ
وقد أرجتْ أرجاؤُه وتعطّرت ... بساطعِ نَشرٍ ما يقاس به نَشرُ
وفتّح فيه النرجس الغضّ أعيناً ... محاجرُها بيضٌ وأحداقُها صفرُ

وكان من شدة تعلق البويهيين بالمجالس اللاهية اذا هزّتهم أبيات شعرية معينة تركوا ادارة دولتهم وعملوا مجالس الشراب والغناء ، وقد حدثنا ياقوت عن مجلس من هذه المجالس أمر به عضد الدولة بعد أن سمع بيتين من الشعر قالهما الصابي في غلام (٤) .

ولم تكن هذه المجالس وقفاً على ملوك آل بويه وأمرائهم ، فقد كان

---

(١) تنظر القصة في لباب الالباب ٣٣٩ .

(٢) ينظر الفصل الثاني من هذا البحث .

(٣) اليتيمة ٢ / ٣٢٥ والمجلس كان من مجالس عضد الدولة .

(٤) ينظر معجم الادباء ٢ / ٥٦ .

وزراؤهم (وبخاصة الوزير المهلبي) مولعين بها مكثرين منها .

وقد ذكر الصاحب بن عباد كثيراً من هذه المجالس ، ووصف ما كان يحدث فيها من مسامرات وغناء وشراب .. قال يصف مجلساً من مجالس الوزير المهلبي (١) :

« قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض مستدير ، ينصَبُّ اليه الماء من دجلة بالدواليب ، وقد مدت الستارة ، وفيها (حُسن العكبراوية) فغنت :

سـلام ايهـا الملك اليمـاني   لقد غلب البعاد على التداني (٢)

فطرب الاستاذ أبو محمد أيده الله تعالى بغنائها واستعادها (٣) الصوت مراراً وأتبعته أبياتاً هي :

هلاّ أقمت ولو على جمـر الغضا   قلّبت أوحدَ الحسامِ الصارم

وتبعتها جارية ابن مقلة ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يا مـن له رتبٌ ممكـّنـةُ القواعـد في الفؤادِ
أيحـل أخذ المـاء من متلهـّبِ الأحشاء صادي ؟

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا في الشرب ، واشتُغِل في الشدو ، وارتفع الامر عن الضبط ، والاصوات عن الحفظ ، واتفقت في أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات ومجاوبات وافترقنا » .

ويصف مجلساً آخر فيقول (٤) :

---

(١) ينظر معجم الادباء ٢ / ٥٦ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٢٢٩ .

(٣) يلوح لي أن هذه المجالس كانت تعويضاً عن الاهانات والاستصغار الذي يعامل به هؤلاء الموظفون من قبل الملوك البويهيين ، ففي هذه المجالس يجد الموظف والوزير التعظيم الذي يسليه وينسيه احتقار ذاته .

(٤) اليتيمة ٢ / ٢٣٠ .

«وعلى ذكر عُكبرا حضرنا مع الاستاذ أبي محمد – أيده الله تعالى – بها فاستدعى دناً للوقت ، وخَماراً من الدير ، وريحاناً من الحانة ، واقترح غناء من الماخور وأخذنا في فن من الانخلاع عجيب ، بطريق من الاسترسال رحيب ورسم أن يقول من حضر شيئاً في اليوم فاستنظروا ، وركبت فرسي ، فاتفقت أبيات لم تكن عندي مستحقة لأن تكتب لكن رضاء القوم حمّل لدي صورتها ، ولولا حذري من توبيخ مولانا لطويتها وهي (١) :

تَركتُ لسافي الريح بانةَ عَرعرا ... وزرتُ لصافي الراح حانة عُكبرا

وقلت لعاجٍ يعبد الخمرَ : زفّها ... مشعشعةً قد شاهدتْ عصرَ قيصرا

فَناولَنيها لَو تفـرّقَ نورُهـا ... على الدهر نال الليلُ منها تَحَيُّرا

وأوسعني آساً ووردا ونرجسـاً ... وأحضرني ناياً وطبـلا ومزهرا

هنالك أعطيتُ البطـالةَ حقّها ... والفيتُ هتكَ السّتر مجداً ومفخرا

كأني الصِّبا جرياً إلى حومة الصِّبا ... أُناغي صبياً من (جلندا) مزنّرا

فعانقتُه والراح قد عقرت بنـا ... فكررت تقبيلا وقد أقبل الكرى

...

فكـان الذي لولا الحياء أذعته ... ولا خير في عيشِ الفتى إن تَستّرا

وهكذا نجد أنفسنا أمام مسائل اجتماعية مهمة ، فالانخلاع العجيب كان عند رواد المجالس فناً ظريفاً ، والصبيان المزنرون يناغون رجال الدولة الكبار بلا احتشام ولا تهيب ، وسهولة الحصول على مقومات مجالس اللهو تدلل على انتشار أسباب الفساد كما تدلل على وجود الخمارين في الاديرة ، وشيوع الحانات والمواخير وانبثاثها في اماكن النزهة مثل عكبرا وأوانا وغيرهما .

ولا تقاس المجالس التي وصفها الصاحب بن عباد بالمجالس الاخرى التي كان يقيمها الوزير المهلبي نفسه بانتظام (في الاسبوع ليلتين) ويحضرها

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٠ .

كبار رجال الدولة ومنهم قضاة معروفون يجتمعون على اطّراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة فاذا عملت فيهم الخمرة رقصوا ، وغمسوا لحاهم في الخمرة ورش بها بعضهم على بعض (١) وقد وصف السري الرفاء هذه المجالس فقال :

مجالسٌ ترقص القُضاةُ بها ‏ ‏ إذا انتشوا في مخانقِ البُرمِ (٢)
وصاحب يخلطُ المجونَ لنا ‏ ‏ بشيمةٍ حلوة من الشيمِ
تخضّب بالراحِ شيبه عبثاً ‏ ‏ أناملٌ مثل حمرة العَنَمِ
حتى تخالَ العيونُ شيبتَه ‏ ‏ شيبةَ فعلان ضرجت بدم

واذا كان حديث الرقص في المجالس قد جرنا الى الانغمار في الخيال فيجب ألاّ ننسى مجالس صاخبة غير مجالس الوزير المهلبي وملوك آل بويه .

فالوزير ابن بَقيّة كانت له مجالس يحضرها رجال الأدب أيضاً يدلنا عليها قول ابن الحجاج حين حجب عن أحدها (٣) :

بحقْ رأس الامير مثلي ‏ ‏ يظمأ في دولة الأمير
فما لكمْ تشربون دوني ‏ ‏ ولست في جملة الحضورِ

ومثل مجالس ابن بقية كانت مجالس أغلب رجالات الدولة الكبار وقد تكون مجالس ابي اسحق الصابي أنموذجاً واضحاً يدلنا على شيوعها بينهم وولعهم بها ويؤكد الصابي في وصفه لمجلس من هذه المجالس ما ذهبنا اليه من أن بعض هذه المجالس كانت مجالاً واسعاً لتفريغ الهموم الكثيرة التي كانت تحيط برجال الدولة بسبب التقلبات السياسية العنيفة . يقول ابو

---

(١) تنظر اليتيمة ٢ / ٣٣٦ .

(٢) مخانق البرم : اطواق تؤخذ من نوع من النبات ويطوق بها اثناء الشرب وقد أخطأ محقق ليتيمة بقوله ان البرم نوع من الثياب ، وقد انتقل الرقص الى الأندلس وفي مجالس ملوكها تنظر الخزانة الشرقية ١ / ٦٨ .

(٣) اليتيمة ٣ / ٩٣ .

اسحق مشبهاً مجلس الانس بالمعركة (١) :

ألاقي همـومي في جحفـل ... لهـا من مقامي فيه قرارُ
دبادبـه من طوال القيان ... والنـايُ بوق لـه مستعار
ومجلسنـا حومة ارهجت ... لزحف الندامى اليها بدارُ (٢)
كأن الكؤوس بأيدي السقـاة ... سيوفٌ لها بالدماء احمرارُ
كـأن مناديلَ اكتافهـم ... حمائلُهـا إذ عليهم تـدارُ
كأن رجومَ تحاياهـم ... سهامٌ على الجيش منهـا نِثارُ
كأن المجامـر خيـل جرت ... وقد ثـار للندّ منهـا غبـارُ
كأن السكارى رجـال الوَغى ... وقد عقـرتهم هناك العُقـارُ

• • •

فيالك من مأقطٌ لي به ... بـلاءٌ وقول اليـه يشـارُ
ولمـا برزت إلى الهم فيه ... ولي بالسرور عليـه اقتدارُ
جرى الضرب مختلفـاً بيننا ... فمات وعشتُ وقد نِيلَ ثـارُ

ويبدو أن رجال الدولة كانوا ينهزمون من مواجهة مشكلاتهم باغراق أنفسهم في بحر من اللذات والموبقات ، ينتقمون لأنفسهم من أنفسهم ويحسبون أن الانسان ابن يومه وكل امر مستعص (موصول به الفرج القريب) .

وزيادة على ما في أقوال الصابي من مسائل ذاتية نجد وصفاً كاملاً لما يجري خلال المجالس فالغناء والشراب من مقومات المجلس ، ولمثل هذا المجلس آداب يجب ان تراعى فعلى من يحضره أن يلبس ملابس خاصة فيضع المنديل على كتفه ويتقلد مخانق البرم ، ويرمي بالتحايا (٣) ،

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٦١ .

(٢) البدار : السرعة .

(٣) التحايا : الورود يستعملها المترفون في مجالسهم ويرمي بها أحدهم الآخر (وأكثر ما تطلق على الطاقة من الأزهار والرياحين التي يحيا بها الندمـاء وتزين بها مجالس الشراب) ينظر فصل التحايا في كتاب الديارات النصرانية ٤٤ وما بعدها .

وغير ذلك من المسائل التي تعرف الآن (بالاتكيت) .

وكانوا يشربون في هذه المجالس والارض ملأى بالزهور وعلى رؤوسهم أكاليل الورد وفي ذلك يقول السلامي (١) :

أقنطرةَ النوبندَجان وديرَها وحور مهى لا تألفُ الحورُ غيرَها
شَرِبنا بها والروضُ يخلع زهرَه على الشَرْبِ والأشجار تنثر طيرَها

واذا أردنا ان نستكمل صور هذه المجالس ونؤكد استمرارها وتجاوزنا المجالس التي وصفها ابو اسحق الصابي وجدنا في وصف مهيار لمجلس قامه احد اصدقائه في بيته خير دليل على ذلك . يقول مهيار (٢) :

نديمي وما الناسُ الاّ السُكارى أدرها ودعني غـداً والخُمارا
وعطّل كؤوسَك الا الكبيرْ تجد للصغير أناساً صغـارا
وقـرّب فتى مائة أو يزيـ ـد قد أكمل الشيب الا الوقارا

• • •

وبيتٍ إذا الدهـر ضام الشتاء تعوّذَ فيـه به فاستجـارا
صحبتَ الخريـفَ به في المصيف وذكـّرني الليـلُ فيه النهارا

ويستمر في هذه القصيدة التي تستغرق ثمانية وسبعين بيتاً وهو يصف الدار وما حوت والانس وما جرّ من مداعبات وملاعبات ، فيوضح لنا في قصيدته هذه صورة للبيوت المترفة المشبعة باللهو والفجور ، الغارقة في مجالس الشراب والغناء والعهر ، ونتبين من هذه القصيدة أيضاً ما كانت عليه هذه البيوت من فن عمارة وتصميم .

وبسبب من انحسار سلطة الخليفة في العصر البويهي لم تصل الينا اخبار مجالسه ، ولربما لم تكن هناك مجالس للخليفة ، لان ظروفه المعاشية ـ وقد رتب له معاش قليل ـ لا تساعده على اقامة مثل هذه المجالس ، الباذخة .

---

(١) اليتيمة ٢ / ٤٠٩ .
(٢) ديوان مهيار ١ / ٣٤٨ .

الخمرة :

تدخل الخمرة في المجالس التي ذكرناها وفي الحياة اليومية عنصراً رئيساً مهماً ، فلا نكاد نفتقد ذكرها في قصيدة شاعر ما جن حتى تبرز لنا واضحة في قصيدة ناسك صوفي ، وهذا يدلل على أن وجودها أصبح مؤثرا في حياة الناس يستغرق العابد والخليع ، ورجل الدولة وابن العامة .

فالصابي لا يتحرج على هيبته من القول (١) :

ما زلت في سكري ألمَعُ كفّها   وذراعَها بالقرص والإثار

ولم يكن هذا السكر ناتجا إلاّ عن خمرة عراقية ذات مفعول ساحر مغر أسالت مرة لعاب ابن سكرة وجعلته يصرّح بشهواته ويقول (٢) :

أربعةٌ ما مثلها أربعهْ   النومُ في الصيف على البردَعهْ

والشرب بالكأسِ على مزرعهْ   وقينةٌ مُحسِنَةٌ مُمتِعه

وأغرت مرة أخرى ابن الحجاج ، فنزهت نقاوتُها لسانَه من الفحش والاقذاع وقال (٣) :

قوما اسقياني قهوةً روميةً   من عهد قيصرَ دنُّها لم يُمسَسِ

صرفاً يُضيف إذا تسلّط حكمُها   موتَ العقول إلى حياةِ الأنفس

وهي التي كان قليل منها يصرع « سيدوك الواسطي » ، فاذا شرب أثر فيه الشراب ، وقد يبالغ فيقول (٤) :

فديتُك لو علِمت بضعف شُربي   لما جرّعتَني إلا بمسعطْ (٥)

وحسبك أن كَرْماً في جواري   أمرُّ ببابِه فأكادُ اسقطْ

---

(١) أخلاق الوزيرين ٤١٥ ، معجم الادباء ٢ / ٩٠ .

(٢) برد الاكباد للثعالبي ١٣٥ ويبدو ان ابن سكرة أخذته النشوة فنسي اللذة الرابعة .

(٣) الاعجاز والايجاز . ٢٢٤ .

(٤) نفسه ٢٠٨ ، وينسبها الثعالبي نفسه في كناياته ص ٥١ لابن لنكك .

(٥) المسعط : إناء يوضع فيه السعوط .

وهناك دلائل عديدة على شيوع الخمرة بشكل يوحي بإباحيتها ، فلقد غرق شعر العصر بوصفها وامتداحها ، وامتلأت كتب الادباء بذكر أوصافها وما قيل فيها ، وقد صارت مسألة طبيعية جداً ان يستهديها من لا يملكها من اصدقائه ليقدمها للضيوف والزوار والاحباء .

كتب ابن الحجاج الى صديق له يقول (١) :

يا سيدي قد جاء زوّاري   فَظَلْت في نارٍ وفي عارِ
فامننْ بخمر أو فوجِّه بمنْ   يخرجُهم بالصفعِ من داري

وقال جحظة لصديق له (٢) :

قد زارني اليوم نورُ عيني   وكان بالأمس صَدّ عنّي
وليس عندي له نبيذٌ   وليس يرضى بذاك منّي
فجد علينا بنصفِ دنٍّ   بربع دن بثلث دنِّ
لا تنكرنْ كُديتي وشحي(٣)   فإنني شاعر مُغَنّ

وهكذا تكثر الدلائل على شيوع الخمرة حتى لتدخل أحياناً ضمن الوجبات اليومية ولا سيما لدى افراد الطبقة المترفة .

ان الاشعار التي تفننت في وصف الخمرة وفعلها وانواعها وصفت أدواتها وآلاتها فوضحت جانباً آخر من جوانب الاستعمالات اليومية :

ومن آلاتها المهمة : الدن الذي يقول فيه السري الرفاء (٤) :

---

(١) المحاضرات ٢ / ٦٩١ .

(٢) مطالع البدور ١ / ١٥٠ .

(٣) في الكتاب كذني وسحي .

(٤) المحاضرات ٢ / ٧١٢ وما بعدها . ومن أدوات الشراب ، والمزير والراووق والباطيه والجام وغيرها وكلها مذكورة في شعر ابن الحجاج وصريع الدلاء وغيرهما من شعراء العصر . وقد أجمل ابن الحجاج بعضها في هذا البيت :

وخلفك عن يمين الدن عس   وبين يديك باطية وجام

قطعة من الديوان رقم ٤٤٢ / م ورقة ٤٢ ، ٩٠ ، ٩١ ، وينظر أيضاً درة التاج ورقة ٣٣٢ وما بعدها .

وشعث دِنان خاليات كأنّها صدورُ رجال فارقتهـا قلوبُها

الابريق : وفيه يقول ابنُ بسام :

ابريـق صفر كـأنه قبس يشبـه لوني بفرط صفرته

الكؤوس بأنواعها : فمنها الزجاجية التي يقول فيها الصاحب :

« رقّ الزجاج وراقت الخمر » .

والمزينة بالرسوم التي يقول فيها الرفّاء :

وموسومة كاساتُها بفوارس من الفرس تطفو في المدام وتَغرقُ

الغناء :

وكما انتشرت الخمرة في أجواء العراق انتشر الغناء أيضاً فهما مثلاً زمان لا يكاد يفارق احدهما الآخر ، وقد رأى عشاق الطرب أن الغناء يستكره بلا شراب ولذلك كانوا يرددون قول ابي نواس (١) :

وليس الشربُ إلاّ بالمـلاهي وبالحركاتِ من بم وزيـرِ

وكان الغلمان يتعاطون الغناء كما يتعاطاه الجواري ، فهناك « المطرب المعرب الرخيم الصوت الذي يأخذ بمجاميع القلوب اذا غنى » (٢) :

يا نسيم الشّمالِ من نحو بُصرى بأبي أنتَ لا نسيم الجنوبِ

أنت لـمّا اعتللتَ داويتُ قلبي يا نسيمَ الصّبا بريحِ الحبيبِ

وهناك المطربة البغدادية التي (كأنها شمس الضحى (٣)) تعجب من يراها وتطرب من يسمعها ، وقد قال في مثلها ابن الحجاج (٤) :

إذا تثنت وغنت خلت قامتَها غصناً عليه قبيل الصبح شحرورُ

---

(١) ديوان ابي نواس ، المحاضرات ٢ / ٧٢٦ . ويقول ابن الحجاج : (صحيحة الاسماع تستنطق الأوتار بين البم والزير) ، درة التاج ١٦٤ .

(٢) حكاية ابي القاسم ٤٩ .

(٣) حكاية ابي القاسم ٥٠ .

(٤) مطالع البدور ٨ / ٢٥٨ .

والغناء بعد ذلك أنواع فمنه الغناء الحلو الذي (يهزم جيش الكروب) (١) ويستطاب معه الشراب فيقول الخبزأرزي في مُنشده (٢) :

ولو ان البحور خمر لدينـا   وتغنيتِ لارتشفنـا البحورا

ومنه الغناء الذي نشزت نغماته فعافته النفس ، وهرب منه السامع ولما يستكمل انسه كالذي يقول فيه جحظة (٣) :

وانصرفنا لمّا تغنتْ عِطاشـاً   والقناني كمـا دخلنـا مـلاء

أو الذي يحشو له أبو الفضل بن العميد مسامعه صمماً ، لنبوه وقبح مخرجه (٤) .

وللمغنيات الجيدات سجل بارز عند أبي حيان التوحيدي فقد ذكر لنا ن كل مغنية لها درب أو محلة تغني فيها وقد يكون لها شخص تختص بالغناء عنده أو له .

(فعَلْوَة) كانت تطرب الناس اذا تغنت في (درب السّلق) ببغداد (٥) :

بالوردِ من وجنتيكَ مَن لطمكْ   ومن سقاكَ المدام لِـمْ ظلمك ؟

وكانت (رَوْعة) تغني في الرّصافة (٦) و (دُرّة تغني في درب الزعفراني) ولا تقعد في السنة الاّ في رجب (٧)، وكان ابن صبر القاضي قبل توليه القضاء يطرب عليها أيما طرب حينما تشدو :

---

(١) نهاية الأرب ٥ / ١١٩ ولابن الحجاج في المغنيين الجيدون شعر نجده في درة التاج ورقة ١٦٣ وما بعدها .

(٢) المحاضرات ٢ / ٧١٩ .

(٣) المحاضرات ٢ / ٧٢٠ .

(٤) المحاضرات ٢ / ٧٢٠ . ولابن الحجاج شعر في ذم المغنين غير المجيدين نجـده في درة التاج ورقة ٦٢٠ ، ٦٢١ .

(٥) الامتاع ٢ / ١٦٥ .

(٦) الامتاع ٢ / ١٧٦ .

(٧) الأمتاع ١/ ١٧٢ .

لستُ أنسى تلكَ الزيارةَ لـمّا   طرقتنـا   وأقبلتْ   تتثنّى
طرقتْ ظَبية الرصافة ليـلا   فهي أحلى من جَسَّ عوداً وغنى
كم ليالٍ بتنا نلذّ ونلهـو   ونُسقّى شرابَنـا ونُغنّى
هجرتنا فما إليها سبيـل   غير أنّـا نقول : كانت وكنّا

فاذا بلغت (كانت وكنا) زلزلت الارض فرأيت الجيب مشقوقاً ، والدمع منهملاً ، ومكتوم السر بادياً (١) .

ومثل هذا الطرب كان يحصل لابن الحجاج حين تغنيه معشوقته ومطربته (قنوة البصرية) (٢) . ولابن نباتة حين يسمع غناء (الخاطف) (٣) ولغيرهما من رجال الادب والدولة .

ويرتضي أصحاب الجواري غناء جواريهم في المحال العامة أو في بيوتات غيرهم أو في بيوتهم أمام حشد من الناس المدعوين .

ولعل هذا يعود إلى ضآلة قيمة الجارية ،وعدم إحساس صاحبها بالغيرة التي يستشعرها تجاه محرماته ..

وقد يكون لكثرة المغنيات والمغنين وامتهانهم الدعارة مع الغناء أثر كبير في الحط من قيمة المغني أو المغنية الاجتماعية ، فان حاول المغني اظهار مشاعره أو برّز نفسه عيّر بكونه مغنياً واستُخِف به . قال أحدهم لمغن حاول ن يتطاول عليه (٤) :

من استخفَّ بقـدري   قُـمْ يا مخنثُ غنِّـي
ولا تَطـاولْ عَـليَّ   تطـاولَ المتغنـي
فلـو بلغـتَ الثريـا   مـا كنتَ الاّ مُغنّـي

كما يمكن أن يعود هذا الاحتقار الى ارتباك الحياة الاجتماعية والفكرية

---

(١) نفسه ١٧١ .
(٢) نفسه ١٧٠ .
(٣) نفسه ١٧٢ ، والخاطف اسم جارية .
(٤) حكاية ابي القاسم ١٣٤ وينظر في الغناء وجماله وفي صفات القيان زهر الآداب٢/ ٦٠٩ ، ٦١١ .

وتشابك الغز والحضاري مع الروح البدوية .

آلات الغناء :

ومثلما سجل لنا شعراء القرن الرابع ما كان عليه الغناء والمغنون والمغنيات ومستمعيهم سجلوا ايضاً اسماء الآلات الموسيقية التي استعملت لترافق عملية الغناء، والاشعار التي ذكرتها كثيرة نقتصر في ايراد بعض الابيات التي اشتملت على اكبر عدد منها .

فمن الآلات الموسيقية المشهورة والتي تتكرر على السنة الشعراء العصر :

١ ـ الطبل والبوق :

يقول صريع الدلاء : (١)

ومهرجان زائر ... وافاك يشكو السفرا
في عسكر من الشتا ... ء حوله قد عسكرا
اصوات بوقاتهمو ... وطبلهم إذ نقرا

٢ ـ العود والرباب والطنبور : قال صريع الدلاء (٢) :

اصبحاني بها ثلاثاً رحيقاً ... قبل ان تصبحا بماء الشعير
بين عود مدمدم لاصطخاب ... ورباب تمرٌ مع طنبور

٣ ـ الدُفَ والمزمار ، يقول صريع الدلاء (٣) :

انا بوق السرور طبل الحماقا ... ت ودُفّ اللذات والمزمار

٤ ـ الناي ، يقول ابن الحجاج (٤) :

قينة طنبورها مستعمل ... طيب الصوت صحيح الهندمه

• • •

ولها زامرة حاذقة ... أحسدُ الناي إذا ما باست فَمه

---

(١) الديوان ورقة ٢٦ ب .
(٢) نفسه ورقة ٩٢ أ ، والطنبور :(آلة طرب ذات عنق طويل لها أوتار من نحاس) .
(٣) نفسه ٩٠ ب .
(٤) درة التاج ورقة ١٦٦ .

ويقول صريع الدلاء (١) :

خالطوا الهم - ان تعرّض - بالرا ح ورهج النايات والتطبيل

هذه هم آلات الموسيقى آنذاك و هناك آلات أخرى ليست بأهمية ما ذكرنا آثرنا عدم ايرادها (٢) .

المآكل :

كان القرن الرابع يعج بأنواع عديدة من المأكولات تبرز التباين الاجتماعي والاقتصادي ، وتبدأ هذه المأكولات بالخبز اليابس ، ولا تنتهي عند نوع جيد معين ، لان الاطعمة الجيدة دائمة الابتكار والتجدد ما دامت موادها متوفرة وما دام طلاّبها راكبين .

ولقد سجلت لنا اشعار القرن الرابع (٣) العديد من هذه الاطعمة كما رسمت صورا كثيرة لآكليها ، فكما نجد الانسان الملتزم بآداب المائدة الذي يصغر اللقمة ويتجامل عن الشره (٤) والنهم نجد الانسان الأكول الذي هو (٥) :

مصمّمٌ إن رأى خِـوانا شدّ على جانب الخِوانِ
فأنـزلَ الويل بالقَلايا وبالجِدا الرضَّعِ السمـانِ

ولا يكتفي بذلك لأنه :

آكلُ خلقِ الله للغَضايـدِ ويمضغُ اللحوم بالترايـدِ

ومن أبسط انواع الاطعمة الخبز وهو انواع عديدة منها خبز الخشكار

---

(١) الديوان ٣٠ ب .

(٢) منها الصنج و الدبادب و المزامير و غيرها .

(٣) ورد في شعر صريع الدلاء أنواع كثيرة من المأكولات نجدها في الاوراق ١٨ ب ، ٣٤ ب ٦٦ أ ، ب ونجد أنواعاً أخرى عند ابن الحجاج في ٤٤٢ / م ورقة ٦٣ وما بعدها . وفي درة التاج في أماكن عديدة لا تحصى .

(٤) ينظر الموشى ١٦٧ ، ١٧١ .

(٥) حكاية ابي القاسم أو والخوان : المائدة ، مطالع البدور ٢ / ٣٧ .

الذي جاء في قول جحظة لابن مقلة الوزير (١) :

قل للوزير أدامَ اللهُ دولتَــه ... أذكرْ منادمتي والخبزُ خشكار

ومنها خبز الابازير الذي ورد في قول ابن الحجاج (٢) :

يا سيدي هذي القوافي التي ... وجوهُها مثـلُ الدنانـير
خفيفةٌ من نضجِهـا هشةٌ ... كأنّها خـبزُ الأبازيـرِ

ومن أطعمتهم الحارة (الجزورية) (٣) وهي انواع جيدة ورديئة مثلَ أي مطبوخ آخر . قال ابن سكرة في جزورية لم تعجبه (٤) :

أكلتُ بالأمس جزوريةً ... تُخـبر عن خسّـة أربابِها
اللحمُ فيها أثـرٌ دارسٌ ... كأنما مرَّ على بابِهـا

ومن المأكولات الاخرى (المضيرة) (٥) وهي متنوعة فمنها الرديء الذي تأذى بأكله جحظة البرمكي في بيت أحد البخلاء فقال (٦) :

ولي صاحبٌ لاقدّس اللهُ سرَّه ... بطيءٌ عن الخيرات غيرُ قريبِ
أكلت عصيباً عندَه في مضيرةٍ ... فيا لكَ من يومٍ عليَّ عصيبِ

---

(١) المحاضرات وينظر في انواع الخبز التلخيص ٣٦٥ ، والخشكار نوع من الخبز فيه بعض الحرارة وهو أسرع انحدارا في المعدة لاجل النخالة التي فيه لان فيه جلي المعي وهو يولد الحكة واكله بالادام الدهن يدفع ضرره ، مطالع البدور ٢ / ٤١ .

(٢) اليتيمة ٣ / ٣٣ وخبز الابازير من جملة الاطعمة التي أخذها الصليبيون عن الشرقيين وقد ترجموا اسمه بالحرف الواحد وهو عجين يتخذ من الدقيق والعسل وبعض الابازير غاية في الحسن والطيب ... تنظر الخزانة الشرقية ٢ /١٢٢ ، وينظر الطبيخ ٧٩. ومن أنواع الخبز ما ذكره صريع الدلاء في قوله (قد نسيتّ خبز الذراري والدخن وخبز الشعير والهرطمان) الديوان ٦٦ أ .

(٣) وهي أكلة حارة رطبة تحرك الباءة وتدرر البول ، واصلح ما كانت باللحم السمين والخل والخردل (ينظر مطالع البدور ٢ / ٥٣٠) .

(٤) مطالع البدور ٢ / ٥٣٠ .

(٥) المضيرة : خليط من اللحم السمين والبصل والتوابل واللبن (الطبيخ ٢٣)، مطالع البدور ٢ / ٥٤ .

(٦) بخلاء البغدادي ١٤٨ ، تنظر المقامات المقامة المضيرية .

ومنها الجيد الذي يقدم مع المأكولات الفاخرة كالذي يقول فيه الهمداني(١) :

عنـدي فديتُك جَدْيٌ شوبتُـه ومضيرهْ

ومن الاطعمة الاخرى (الطّباهُجَة) (٢) التي تعد من الأكلات الدسمة وقد وصفها الشاعر فقال (٣) :

قد أقبلت دولـةُ القـلايا في عسكرِ اللحـم والبنودِ
تسير زحفـاً على المقـالي بين بـرامٍ إلى حديـدِ
قد أنضجوهـا حتى تهرّتْ وهـا هُنَا موضعُ السجودِ

وهناك اطعمة أخرى أجملها الشاعر فقال (٤) :

إن الهريسة (٥) أهواها وتُعجبني وبالبَهَطّة قلبي جدُّ مفتونِ
وللأرزّة (٦) عندي موقعٌ عَجَب إذا قَصَدْتَ لنا بيضاء في لينِ
والزيرباجُ (٧) طعامٌ ليس ينساه من البريـةِ إلا ٓكُلُ مجنونِ

وهناك أنواع أخرى من جيد الطعام وردت على لسان كشاجم الشاعر الطباخ وقد أمر المستكفي الخليفة بعملها واحضارها في أحد مجالسه .

قال كشاجم يذكر هذه الاطعمة المختارة (٨) :

متى تنشـطُ للاكـلِ فقد اصلحتِ الجُونهْ (٩)
فجاءت وهـي من أطيـب ما يؤكـل مشحونَـهْ
فمـن جـدي شوينـاه وعصبنّـا مصـارينَه

---

(١) الديوان ٣٩ .
(٢) الطبيخ ١٤ ، تاج العروس ٢ / ٧٠ .
(٣) حكاية ابي القاسم ١٠١ .
(٤) نفسه ١٩٢ .
(٥) الهريسة أكلة معروفة ، الطبيخ ٥٢ .
(٦) الارزة أظنها هريسة الارز ، ينظر الطبيخ ٥٢ .
(٧) الزيرباج أكلة حمضية يخلط فيها لحم سمين وحمص وخل وسكر ولوز ، الطبيخ ١٣
(٨) مروج الذهب ٤ / ٣٦٢ وما بعدها .
(٩) الجونه : المائدة اللامعة .

ونضدّنا عليه نعنعَ البقل وطرخونه (١)
وطَيهوجٍ وفروج أجدنا لك تطجينه (٢)
وسنبوسجة مقلوة في إثر طردينه (٣)

• • •

وبا ذنجان بوران به نَفسُك مفتونَه
وهِليَوْن وعهدي بك تستعذب هليونَه (٤)
ولوزينجةٍ في الدهن والسُكّر مدفونه (٥)
وعندي لك رستيجة مطبوخ وقنينه (٦)
وساقٍ وعدت بالوصل منه عطفةُ النونه (٧)

وكانوا فضلاً عن تمتعهم بهذه المأكولات ، يأكلون انواعاً عديدة من الفواكه والخضروات وهي بمجموعها لا تتعدى ما نعرفه الآن ، وكان من أهم هذه الفواكه والخضروات التمر بأنواعه والعنب بأصنافه والمشمش والخوخ والقثاء والبطيخ والنبق والاترج والنارنج ، وقد وصفوا كل ذلك في اشعارهم (٨) .

---

(١) طرخونه : من الطريخ وهو السمك المقلي ينظر الطبيخ ٦٣ ، النعنع : نبات ينظر شرح أسماء العقار ٢٨ . ومن أنواع المشويات « الكباب » وقد ورد في شعر ابن الحجاج أكثر من مرة .

(٢) طيهوج : طائر ، اللسان ٢ / ٣١٧ ، تاج العروس ٢ / ٧٠ وتطجينه : طبخه .

(٣) السنبوسج : نوع من الحلويات ، الطبيخ (٥٨) .

(٤) هليون : الهليون نبات طبي ذو منافع مختلفة كان يحمل الى المعتصم من دمشق ، ينظر رسوم دار الخلافة ١٨ ، وينظر شرح أسماء العقار ١٤ .

(٥) اللوزينج والفالوذج نوعان من الحلوى الطبيخ ٧٦ .

(٦) رستيجة : لم أجد لها معنى ، وأظن انها تصحيف لكلمة « دستجة » وتعني الاناء الكبير من الزجاج ، ينظر الامتاع والمؤانسة ٣ / ٨ .

(٧) دليل آخر على استعمال الغلمان للواط بهم ، والعطفة رقى تؤخذ من عروق الشجر الملتوي وترمى على المرأة الفارك فتحب زوجها .

(٨) ينظر نهاية الارب ١١ / ١٤٣ وما بعدها وأماكن أخرى متعددة ، نشوار المحاضرة ٨ / ١٠٥ ، وينظر في مختلف الاطعمة كتاب التلخيص ٣٦٥ - ٣٨٢ .

الملابس والحلى :

في المجتمعات الطبقية يقاس الانسان ببريق مظهره الخارجي كلما كان زيه مترفاً ، ومظهره أنيقاً ، كان أجدر بالتقدير والاحترام ، ولفت انظار الناس اليه .

لقد كان الناس في القرن الرابع يهتمون بمظهرهم الخارجي لينالوا الحظوة والوجاهة عند اصحاب السلطة والاحترام والتقدير عند العامة .

وكان لكل فئة من الفئات الرسمية ، والشعبية زي تختص به (١) ، فللخليفة لباسه ، وللامير لباسه ، وللوزير لباسه ... وكذلك لكل فئة من العامة لباسها الخاص بها .

وللظرفاء لباس يميزهم ويستحسنون به عند سروات الرجال (٢) وللمتظرفات لباس مخالف لزي الظرفاء في التكك والخفاف والنعال والخواتيم (٣).

وقد أولع الظرفاء والظريفات بالكتابة على تككهم ونعالهم ومناديلهم وبسطهم ومرافقهم ومقاعدهم وخواتيمهم ، وعلى الستور والجدران والابواب وعلى أماكن معينة من اجسادهم (٤) .

وقد أمر عضد الدولة أن تنقش على خواتيم الجواري أبيات السلامي (٥):

مرقومة الجنبات بالبدع التي ... لم يُهدها قطُّ الربيعُ لروضةِ
كتمتْ روائحها فلما عُذِّبت ... بالنارِ فاح نسيمُها فأقرَّتِ
وكأنما الملكُ الأجلُ السيد ... المنصورُ عضدُ الملك تاجُ الدولةِ
أذكى مجامرَها بنار ذكائه ... وغدا الدُّخانُ على علو الهمة

وقد حفظ لنا الشعر اسماء الكثير من ملابس القوم آنذاك ومن أهمها كانت العمامة .

---

(١) ينظر رسوم دار الخلافة للصابي ٩١ وما بعدها فيما يلبسه الخلفاء في المواكب ويلبسه الداخلون عليهم من الخواص وجميع الطوائف .

(٢) الموشى ١٦٠ .

(٣) الموشى ١٦١ - ١٦٥ .

(٤) نفسه ٢٢٦ .

(٥) اليتيمة ٢ / ٤١٨ .

والعمامة تختلف باختلاف مركز الشخص الرسمي أو الاجتماعي .
فهناك العمامة الجميلة المطرزة التي يقول فيها السلامي (١) :

حسناءُ صافيـة بيضـاء ضافية   كأنّ رونقَها في صارمٍ ذكرِ
يَزينُ أطرافَها طرزٌ كما رُقمت   على المجرة طُرزُ الأنجمِ الزُهرِ

وهناك العمامة القبيحة المنظر ، المضحكة التي يقول فيها الشاعر (٢) :

في رأسِه عمـامةٌ   ملفـوفـةٌ مرفلـهْ
كأنّهـا في رأسه   قدر على سفرجلهْ

ومن البسة الرأس التي عرفت في العراق ايضاً الطرطور وقد جاء ذكره على لسان ابن الحجاج عندما قال يهجو المتنبي (٣) :

يـا شاعراً لا يساوي   طرطوره نصف جبّـه

وعن الالبسة الاخرى الدّراعة ، التي تلبس معها عمامة الخزّ لزيادة الأبهة والوجاهة وفي ذلك يقول السلامي بعد ان ارتطم فتلوثت ملابسه (٤) :

لبست درّاعـتي وعمـتي الخزّ فصارا كما ترى حبرا

ومن الالبسة الرجالية الاخرى السراويل والقمصان والقلانس والملابس الزاهية الاخرى (٥) .

ويصف لنا ابو القاسم جارية بلباسها وزينتها فيغني عن الكثير من الكلام على البسة الجواري المتقدمات في القصور ، يقول (٦) :

« تدخل المجلس تعطره من نسيمها   بالمسك الأذفر والكافور والعنبر
يَفضُـل عنها قميصُ لاذٍ   معصفرُ اللون جُلّنـاري

---

(١) اليتيمة ٢ / ٤٢٠ .
(٢) حكاية ابي القاسم ٩ .
(٣) تلطيف المزاج ورقة ١٠ .
(٤) اليتيمة ٢ / ٤٢٠ .
(٥) الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع ١١٣ .
(٦) حكاية ابي القاسم ٥٣ ويلاحظ استعمال الملابس الشفافة .

نحت عطـــاف بنفسجيّ سكبٌ حفيفٍ مثل الغبـارِ

أو تجيء عليها غلالة جري الماء وسراويل شق المرارة ، وتكة ابريسم خضراء سلقية ... وهي معتمرة برداء قصب عودي دقيق الاعلام والطرز ، عليه تزايين أحسن والله من تحاسين الصين ، مطوياً اربع طاقات ... وفي عنقها سبحة عنبر شحري ، وصندل مقاصيري ... والجواري يحملن ثيابها ويشلن ذيولها وهي كالمبهورة .

ومن الاشياء التي استعملها الناس في بيوتهم وخارجها ، الستور المطرزة وغير المطرزة وقد ذكر المؤرخون كيف كانت قصور الخلفاء تحوي الآلاف الكثيرة من مختلف انواع الستائر (١) ، كما نقل لنا الشعر عادة بعض الاغنياء في استعمال الستائر اثناء خلواتهم ، يقول جحظة واصفاً حياة أحد هؤلاء الاغنياء البخلاء (٢) :

دخلتُ على باخـلٍ مرة وجناتُ بستانهِ زاهـره

وقد قابل النّوارُ نقشَ الستور فأعين زوّاره حائره

جنـان تعجـل للباخلين ونحن نؤجـل للآخـره

العطور وأدوات الزينة :

ومثلما تفنن الناس في البستهم وأقمشتهم تفننوا يضاً بزينتهم وعطورهم فاستعملوا مختلف أنواع العطور وأدوات الزينة ، وقد وصف هذه الاشياء شعراء العصر ، فقال الصابي في شمامة كافور (٣) :

---

(١) ينظر تجارب الامم ١ / ٥٣ في الكلام على قصر الشجرة المقتدري .

(٢) بخلاء البغدادي ١١٦ وينظر في الألبسة والمفارش وما ينتقل به في التلخيص ١ /١٩١ – ٢٤٨ . وقد وردت اسماء البسة عديدة في شعر صريع الدلاء اهمها العمامة والبزة والبرنس والجبة والقميص والصدرة والوقاية ، ينظر الديوان الاوراق ٦ أ ، ١٤ ب ، ٢٠ ب ، ٢٦ أ ، ٨٠ أ أما شعر ابن الحجاج فاسماء الالبسة مبثوثة في ثناياه وبخاصة شعر الهجاء والاستهداء ينظر مثلا درة التاج ورقة ٤٤٨ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، وقطعة الديوان ٤٤٢ / م ورقة ١٨ ، ٤٠ .

(٣) اليتيمة ٢ / ٢٦٤ .

كافـورة جعلتهـا لأسودِ العينِ غـرضْ
حتى وددتُ أنهـا من أبيض العين عـوض

ويقول في عتيدة الطيب (١) :

وعتيدة للطيب إن تستدعهـا تبعثْ اليك أمامها ببشيرها
يلقاك قبل عيانها أرجٌ لهـا فكأنـه مستأذنٌ لحضورها

وفي الغالية يقول السلامي واصفاً أساليب التزيين الاخرى (٢) :

مذ نقبوه وزرنفوا أصداغه ختموا بغاليـة على اقفـاله

وفي الكحل يقول السلامي أيضاً (٣) :

يغضَ الغـزالُ جفونَ الغزَلْ وقد فضح الكحلُ فيها الكحَلْ
ولا وجنَى الوردِ من وجنتيـه ما أوجبَ اللثمَ ذاك الخجَلْ

وفي استعمال الحنّاء يقول ابو الغوث بن نحرير المنبجي (٤) :

كأن حنّاءهـا براحتِها دمـاءُ من قتلتْ بهجرتِهـا

وهناك أنواع أخرى من أدوات الزينة كالزعفران والمسك والرامك والعبير وغير ذلك (٥) .

الطبيعة والمدن والاستعمالات البيتية واليومية :

لقد كثر الشعراء في وصف الطبيعة وما فيها من جمال وقبح ، فاذا آذاهم حر الصيف ، ومجيء رمضان وسط أشهره قالوا مثل قول ابن لنكك (٦) :

حزيرانٌ وتمـوزٌ وآبُ ثلاثةُ أشهرٍ فيها العذابُ

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٦٤ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٤٠٦ . والغالية مسك وعنبر يعجنان بالبان التلخيص ٣٨٥ .
(٣) نفسه ٢ / ٤٠٦ .
(٤) تتمة اليتيمة ١ / ٧٤ .
(٥) ينظر في أنواع الطيب التلخيص ٣٨٣ — ٣٩٠ .
(٦) برد الاكباد ١٢٤ ، الوصف في القرن الرابع ١٢٦ .

فان قُرنت بشهر الصوم صِرنا سبائكَ في بواتِقِهـا تذابُ

وحين يريد ابن لنكك هذا أن يصف لنا جو البصرة يقول (١) :

نحن بالبصرة في لـــو ن من العيشِ ظريـــف
نحن ما هبّت شمـــالٌ بين جنـاتٍ وريــفِ
فإذا هبّـت جَنـوب فكـأنّا في كنيـفِ

ولا تقتصر اقوال الشعراء على الجو وتقلباته ، فهي تصف الريـاض والمتنزهات (٢) وما فيها من أوراد وأزهار (٣) ، وحيوانات وطيور(٤) وأثمار متنوعة .

ويتعدى الوصف هذه الاشياء فيبرز لنا المدن الكبيرة بجمالها وحيويتها ، وتناقضاتها وما فيها من منغصات ايضاً .

لمدينة مثل بغداد ، عظيمة واسعة ، تحتضن الخير والشر ، الغنى والفقر ، الترف والكدية ، لا بد أن تستأثر باهتمام الشعراء ، فيصفها كل شاعر بحسب تفاعله مع جانب من جوانبها .

فهناك من حب بغداد ورضي عنهـا مثل بي سعد محمد بن علي بن خالد الهمداني : (٥)

فدى لك يا بغداد كلّ قبيلة من الارضِ حتّى خطّتي وداريا
فقدطفتفي شرقِ البلاد وغربِها وسيّرت رحلي بينَهـا وركابيها

---

(١) اليتيمة ٢ / ، معجم البلدان ١ / ٤٣٧ .

(٢) الامثلة على ذلك كثيرة نجدها في من غاب عن المطرب ٢٤١ ، نهاية الارب ١ / ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، المحاضرات ٤ / ٥٧٠ ومن الامثلة وصف السلامي لشعب بوان اليتيمة ٢ / ٤١٣ وكذلك وصف المتنبي له ، ينظر ديوان المتنبي .

(٣) مثل وصف النيلوفر ديوان الشريف الرضي٢/ ٨ ، ديوان مهيار ١ / ٨ ، ينظر أيضا من غاب عن المطرب ٢٤٧ ، المحاضرات ٤ / ٥٧١ ، ٥٧٥ .

(٤) ينظر وصف أبن نباته للفرس في مختارات البارودي ٤ / ١٣٨ ، اليتيمة في وصف الطيور ٢ / ٢٦٩ والبراغيث ، معجم البلدان ١ /٤٦١ .

(٥) تاريخ بغداد ١ / ٥٢ .

فلم أرَ فيهــا مثلَ بغدادَ منزلا　　　ولم أرَ فيها مثلَ دجلــةَ واديا
ولا مثل أهليهــا أرقَّ شمائلا　　　وأعذَبَ ألفاظاً وأحلى معانيــا

أو مثل ابن زريق الكوفي الذي يقول (١) :

سافرت أبغي لبغداد وساكنهــا　　　مِثْلاً ، فحاولت شيئاً دونَه الياسُ
هيهات بغداد الدنيا بأجمعهــا　　　عندي ، وسكان بغدادٍ هم الناسُ

ومنهم من ينظر الى بغداد بعين الناقد النزيه البصير فيراها بغداد الطبقية الحانية على الغني ، الجائرة على الفقير يقول (٢) :

سقى الله بغدادَ من جنــةٍ　　　غدت للورى نزهــةَ الأنفُسِ
على أنهــا منيةُ الموسريــنَ　　　ولكنّهــا حسرةُ المفلسِ

وبسبب هذا ومع معرفة أبي نصر المالكي بحسن جانبيها يخرج عنها فلقد ضاقت عليه برحبها «ولم تكن الارزاق فيها تساعف» (٣) .

أما السري الرفاء فانه يتمنى العيش فيها على تناقضاتها فيقول (٤) :

يا حبّذا صحبــة العلومِ بها　　　والعيش بينَ اليسارِ والعَدمِ

وهناك من يجد بغداد المؤذية ، فلا يصف غير حرهــا وبعوضها ، وبراغيثها وترابها (٥)

قال أحدهم (٦) :

هل الله من بغدادَ يا صاح مخرجي　　　فأصبح لا تبدو لعيني قصورُها
ومَيدانُها المذري علينا ترابَهــا　　　إذا سَحجت أبغالُهــا وحميرُها

---

(١) لطائف المعارف ١٧١ ، معجم البلدان ١/ ٤٦١ .

(٢) لطائف المعارف ١٧٢ . وشبيه بهذا قول ابن المطرز ببغداد . تنظر التتمة ١ /٥٦ .

(٣) تنظر دمية القصر ١/ ٢٩٧ ، ينظر الفلاكة والمفلوكون ٦٣ .

(٤) الديوان ٢٤٦ ، تاريخ بغداد ١ / ٥٢ .

(٥) مثل ابن المعتز ينظر الديوان ٢٩٣ ، معجم البلدان ١/ ٤٦٥ .

(٦) معجم البلدان ١ / ٤٦٥ وينظر المنتخب من كنايات الادباء ١٢٠ ، ١٢١ ، ففيه أشعار كثيرة في بغداد وأهلها .

وقال بعض الأعراب (١) :

لقد طال في بغداد ليلي ومن يبت ببغداد يصبح ليله غير راقد
بلاد إذا ولى النهار ، تنافرت براغيثها من بين مثنى وواحدُ

ومع كل هذه الصفات تظل بغداد اذا ما قورنت بالبصرة جنة طيبة الجو والمسكن فاذا ذهب الصابي الى البصرة ، وشرب من مائها تذكر ترفه وترف طبقته وتفننهم في تبريد مائهم فيقول (٢) :

لهفَ نفسي على المقام ببغداد وشربي من ماء كوز بثلجِ
نحن بالبصرةِ الذميمةِ نسقى شرَّ سُقيا من مائها الأترجّي
أصفرٍ منكرٍ ثقيلٍ غليظٍ خاثر مثل حقنةِ القولنجِ
كيف نرضى بمائها وبخير منه في كنف أرضنا نستنجي

والبصرة الذميمة بجوّها ، والتي ملها ابن لنكك فلم يعد يرى فيها غير « نشاب ونخل وسماد » (٣) كانت لا تعدم محبين وعشاقاً شأنها شأن أي مدينة أخرى في العراق .

وكما وصف الشعراء البصرة وبغداد وصفوا غيرهما من المدن ثم انتقلوا من وصف المدن الى ذكر استعمالاتهم البيتية واليومية من ذلك ما فعله الصابي حين وصف المدخنة التي توضع فوق مجمرة البخور (٤) :

ومحرورةِ الاحشاء تَحسَبُ أنها متيمة تشكو من الحب تبريحا
تُناجيك نجوىً يسمع الانف وحيها وتجهله الأذنُ السميعةُ إذ يوحى

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٦٩ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٣٥٨ . وفي المقارنة والمفاضلة بين بغداد والبصرة تنظر قصيدة صريع الدلاء الطويلة التي أشرنا اليها في صفحة سابقة الديوان ٦٣ أ وما بعدها . وفي هذه القصيدة قضايا اجتماعية ومظاهر حضارية عديدة .

(٣) نفسه ٢ / ٢٦٥ .

(٤) نفسه ٢ / ٢٦٧ .

ومنه وصفه الشمعة قال (١) :

غُصْنٌ من الذهب الابريز أثمر في أعلاه يا قوتـــة صفراء تستعر

ومن ذلك أيضاً وصف ابن نباتة للسكين (٢) :

مرهفــةٌ تَعجزُ وصفَ اللسانْ للسيفِ معنىً ، ولها معنيـــانْ
تخلفــه في حدهِ تـــارة وتارة تخلف حدَ السّنـــانْ
مـــا أبصرَ الراؤونَ من قبلهـــا ماءً ، وناراً جمعا في مكان

ومنه وصف ابن سكرة الهاشمي لحمّام دخل اليه فسرقت نعله (٣) :

اليك أذُمُ حمّامَ ابنِ موسى وإن فاقَ المُنى طيباً وحَـــرّا
تكاثرت اللصوصُ عليـــه حتىّ ليحفى من يطيف به ويعرى
ولمْ أفقِد به ثـــوباً ولكـــن دَخلتُ محمداً وخرجتُ بشرا

وهناك أوصاف عديدة لكل ما يستعمله الانسان آنذاك كالسيف (٤) ، والدفتر (٥) ، والشطرنج (٦) والاسطرلاب (٧) والقوس (٨) والمنشار (٩) ، والقوارب والزبازب والسميريات وغير ذلك (١٠) .

المرأة :

تحولت المرأة في العراق وبخاصة في مدنه الكبيرة منذ العصر العباسي

---

(١) نفسه ٢ / ٣٩٣ .

(٢) نفسه .

(٣) المنتظم ٧/ ١٨٦ ، وخرجت بشراً ، أي بشر الحافي ، وينظر في حمامات بغداد رسوم دار الخلافة ١٩ .

(٤) ينظر ديوان مهيار ٢ / ٢٨١ .

(٥) ديوان مهيار ١ / ٥٣ .

(٦) نفسه ٢ /١٠٣ .

(٧) نفسه ٢ / ١٢٧ . زهر الآداب ١ / ٣٩٠ .

(٨) نفسه ٢ / ١٥٧ .

(٩) نفسه ٢ / ١٤٥ .

(١٠) ينظر في اسماء المراكب النهرية ما ورد في شعر ابن الحجاج قطعة الديوان ٤٣٥ /م ورقة ٢٤ ، ٢٦ ، ٨٠ وينظر ديوان صريع الدلاء ورقة ٧٣ ب .

الأول الى عنصر خامل لا يسهم الا في تقديم المتعة الجسدية والخدمة البيتية للرجل ، وصار الرجل السيد المطلق ، وانزوت المرأة في بيته يحميها ويحيطها برقابة شديدة وبخاصة اذا كانت حرة أو أمة أم ولد (١) .

ان انتشار رقعة الدولة الاسلامية وكثرة وارداتها من الغلمان والجواري وامتلاء أسواق النخاسة بأجناس مختلفة من الرقيق ، وتداخل الحياة الحضرية بالطبائع البدوية ، أرخص قيمة المرأة وجعلها مبذولة ، مهانة ، ولهذا صان الغيور حريمه ، وأغلق المترمت الباب على أهله ، وانعدمت الثقة بالمرأة عموماً .

على أن رخص المرأة وسوء الظن بها لم يمنعا ارتفاع منزلة بعضهن السياسية أو بروز بعض آخر في ميادين الادب والغناء والدين .

فلقد برز في القرن الثالث وأواخره الكثير من الجواري وكانت لهن جولة في عالم الغناء والسياسة والشعر منهن عنان بنت عبد الله جارية الناطقي (٢) وفضل الشاعرة اليمامية جارية المتوكل (٣) ، وبنـان جارية المتوكل (٤) وجاريته الاخرى « محبوبة » التي ضرب بها المثل في الوفاء لسيدها بعد مقتله (٥) ، ومنهن (نبت) جارية المعتضد وغيرهن (٦) .

أما في القرن الرابع فقد ظهرت على مسرح الحياة السياسية « شغب » أم المقتدر وقهرمانتها أم موسى ، وقهرمانتها الاخرى « ثمل » التي أجلستها للقضاء عام ٣٠٦ (٧) .

---

(١) والأمة اذا كانت ام ولد لا يجوز بيعها وتصبح حرة بعد موت زوجها متز ١ / ٢٧٨

(٢) جهات الأئمة ٤٧ .

(٣) جهات الأئمة ٨٤ .

(٤) نفسه ٩١ .

(٥) نفسه ٩٢ .

(٦) نفسه ١٠١ .

(٧) كانت أم موسى تؤدي الرسائل من المقتدر وامه الى الوزير ، وقد خافها ابن خاقان ، وتدخلت بشؤون الوزارة أكثر من مرة ، ينظر الكامل ٨ / ٦٢ ، ٦٤ .

أما «خمرة» مولاة المقتدر وام ولده عيسى فقد كانت خاملة الذكر «كثيرة البر والمعروف والعطاء للفقراء والمحاويج» (١) .

ويبدو ان هذه السلطات التي حصل عليها بعض الجواري دفعت بنساء أخريات الى المطالبة بمناصب ادارية كبيرة في الدولة مما حدا بابن بسام الى أن يقول (٢) :

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهن منا أن يبتن على جنابه

ومن النساء البارزات في الميادين الادبية والدينية ظهرت عائدة بنت محمد الجهينة زوجة عم الوزير ابن شيرزاد وهي «امرأة فاضلة ، كاتبة ، كانت تناشد الاشعار وتنشد لنفسها كل شيء جيد» ويبدو أنها كانت ذات هيبة ومشورة قالت تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي لما تولى الوزارة وتعيبه بقصر قامته (٣) :

شاورني الكرخيّ لما بدا النيروزُ والسنُّ له ضاحكه
فقال : ما نُهدى لسلطاننا من خيرِ ما الكفّ له مالكه
قلتُ له : كلّ الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه
أهدِ له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دوباركه (٤)

ومن العالمات بالفقه وتدريسه والحديث امة الواحد ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن اسماعيل المحاملي توفيت سنة ٣٧٧ وكانت تفتي مع

---

(١) نساء الخلفاء ١٠٦ – ١٠٨ .

(٢) صبح الاعشى ١/ ٦٤ نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ١٩٦٣ القاهرة .

(٣) ينظر نشوار المحاضرة ١ / ٢١٦ .

(٤) الدوباركه: لفظة أعجمية . وهي لعبة كبيرة يجعلها أهل بغداد على سطوحهم ليالي النيروز المعتضدي ويخرجونها في زي حسن من فاخر الثياب وحلي يحلونها بها كما يفعل بالعرائس وتخفق بين يديها الطبول والزمور .

العلماء وكُتب عنها الحديث (١) . ومنهن أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف توفيت ٣٩٠ هـ (٢) وغير هاتين كثيرات جمع تراحمهن الخطيب البغدادي في آخر جزء من كتابه تاريخ بغداد .

والشيء الملاحظ ان الحرائر من النساء لم يبرزّن في ميادين السياسة ولم تكن لهن سطوة في بيوت الوزراء ودار الخلافة كما كان للاماء والجواري ، وسبب هذا عزوف الخلفاء عن الزواج بالحرائر واقتصارهم على التسري بالاماء .

ويبدو أن سبب هذا التفضيل يعود الى سهولة الحصول على الجارية الجميلة وسعة أفق الجواري ومعرفتهن بمتطلبات الازواج وأمزجتهم لاهتمام النخاسين بهن ولكثرة اختلاطهن بالمجتمعات المختلفة ، ويرجع الجاحظ سبب علو حظ الامة على الحرة عند الرجال الى أن الرجل قبل أن يملك الامة قد تأمل كل شيء فيها « ما خلا حظوة الخلوة » فاقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه ، اما الحرة فانما تتحصل بمشورة النساء والنساء لا يعرفن ما يعرفه الرجال من مواطن الجمال ودوافع الرغبة (٣) .

على أن هذه الحظوة ، وهذا الارتفاع الاجتماعي للجواري ، قد آذى المجتمع ، فقال الشاعر (٤) :

إذا لم يكن في منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

وغدا هذا القول حقيقة بينة بعد أن بدت بشكل واضح أعمال الجواري وتدابيرهن الخطيرة فلقد صرن مصدر مؤامرات عزل وموت لأقرب الناس لهن ، وهذا أمر متوقع جداً من هؤلاء النساء المملوءات « عقداً » واحقاداً بسبب تكوينهن التربوي والنفسي . انهن يفتشن عن السبل المختلفة

---

(١) تاريخ بغداد ١٤ / ٤٤٢ .

(٢) نفسه ١٤ / ٤٤٣ .

(٣) ينظر ما نقله متز عن كتاب الفصول للجاحظ ٢ / ١٧٤ .

(٤) المحاضرات ٣ / ٢٠٠ .

للانتقام من هؤلاء الناس الذين استعبدوهن وأذلوهن في سوق النخاسة والعبودية .

ولهذا نرى الجواري يحاولن ارتقاء أسوار ذهن للوصول إلى مراكز أعلى في المجتمع ، وليعوضن ان وصلن بتسلطهن عن ماضيهن المؤلم ، ولا يهمهن بعد ذلك ما يبذلنه للوصول حتى ولو كان شرفاً وكرامة أو حياة الآخرين .

لذلك خافهن الرؤساء ، وحاذر منهن أصحابهن ، وتملقهن الكثير واطاعتهن رجال الدولة ، وبسبب هذا قال الشاعر (١) :

شيئان يعجزُ ذو الرياسة عنهما   رأيُ النساء وإمـرةُ الصبيانِ
أما النساء فميلهن إلى الهوى   وأخو الصِّبا يجري بغير عنـانِ

وقد نظر الشريف الرضي الى المرأة فرأى أن الرجل لا يمكنه أن يتخلى عنها وهذا ما دفعه الى القول (٢) :

معاداة الرجال على الليـالي   أطيق ولا معاداة النسـاء

ومن هذه النظرة انطلق يهنيء أخاه بمولودته ويرثي أمه عند وفاتها ويقول (٣) :

لو كان مثلك كلُ أم بـرّةٍ   غني البنون بها عن الابنـاء
كيف السلوّ ، وكل موقع لحظة   أثرٌ لفضلك خالد بأزائي

ان هذه المشاعر النبيلة التي يحملها الشريف الرضي للمرأة لم ترفع قيمتها أو تعطيها منزلة تستحقها .. وبالرغم من كل ما كانت تحاط به المرأة من بهرجة وما وصلت اليه بعض النساء من سلطة ظلت المرأة عموماً ذلك الجانب الضعيف الذي خلق ليداري الرجل وليكون متاعاً حلالاً له .

---

(١) التمثيل والمحاضرة ٤٦٩ .

(٢) الديوان ١/ ٣٩ .

(٣) الديوان ١ / ٢٦ .

الأعياد :

كان العراقيون يحتفلون بأعياد كثيرة منها ما هو اسلامي ومنها ما هو أجنبي ، فلقد تأثر المجتمع العراقي بحضارتين مهمتين هما حضارة الروم المسيحيين وحضارة الفرس المجوس ، ويبدو هذا التأثر بارزاً في الاعياد الدينية للنصارى والقومية للفرس ، وفي مشاركة أغلب الناس فيها .

ومن أبرز الاعياد « الاسلامية التي وردت بها الشريعة » (١) ويحتفل بها المسلمون أجمعهم عيد الفطر وعيد الاضحى ، وهما عيدان ما زال يحتفل بهما المسلمون في كل أصقاع الدنيا .

وفي القرن الرابع أفسد رجال الدولة المظهر الديني لهذين العيدين فقد كانوا يجلسون لتقبل التهاني في مجالس خمر وشراب كما كان يفعل مثلاً عز الدولة بختيار .

قال ابن الحجاج يخاطب بختيار ويهنئه بعيد الاضحى (٢) :

قد صَخَبَ البَمّ مع الزير فقم قليلا غير مأمورِ

• • •

فاسعدْ بيوم العيدِ ، واجلسْ له في خلوة جلسةَ مسرورِ
وضح فيه بالدنان التي تخر بين البَم والزيرِ

وكتب ابو اسحق الصابي يهنيء الوزير المهلبي بقوله : (٣)

أسيّدنا نعماك هُنِّئْتَ بالفطرْ ووقّيتَ ما تخشاه من نوبِ الدهرِ

• • •

وللفطرِ رَسْم للسرور وسنّة ومثلك من أحيا لنا سنّة الفطرِ
ولا بدّ فيه من سماع وقهوةٍ نُقضّي بها الأوطار من لذّة السكرِ

---

(١) نهاية الارب ١ / ١٨٤ .
(٢) اليتيمة ٢ / ٧١ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٢٧٨ .

وهناك أعياد استحدثها أصحاب المذاهب الاسلامية أهمها عيد الغدير وهو خاص بالشيعة « شعارهم فيه لبس الجديد وعتق الرقاب وبر الاجانب والذبائح » (١) وأول من عمله معز الدولة البويهي وقد صنع السنة نظيراً له وقالوا : « هذا يوم دخول ابي بكر والرسول الغار وأظهروا هذا اليوم الزينة » (٢) .

أما أعياد النصارى فعديدة وكان الناس أيامها يخرجون الى ضواحي بغداد والاديرة والمدن التي تختص بذلك العيد .

ففي عيد الفصح كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو (٣) فلا يبقى واحد من أهل الطرب واللهو الا حضره ، وهناك يدور الشراب ويصدح الغناء ، وفي هذا الدير ولهوه قال الشاعر (٤) :

فتلاعبت بعقولنـــا نسوانُه ... وتوقـــدت بخدودنـــا نيرانُه
حتى حسبت لنا البساط سفينة ... والدير ترقصُ حولَنا حيطانُه

وكان لدير الثعالب عيد يسمى باسمه يقع في آخر سبت من أيلول ولا يتخلف عن حضور يومه نصراني أو مسلم (٥) وفي اليوم الثالث من تشرين الاول يقع عيد القديسة أشموني (٦) ويقام في دير هذه القديسة يقول فيه الشاعر :

---

(١) نهاية الارب ١/ ١٨٤. وفي عيد الغدير يقول صريع الدلاء من قصيدة يهنىء بهـــا فخر الدولة :

قد أتـــاك الغديرفاسعد هنيئـــاً ... بأمور تجري على المـــأثـــور
انت فخر الموك يـــا غرة الدهـــ ... ـر ، وفخر الأعياد عيد الغدير

(٢) نهاية الأرب ١ / ١٨٥ .

(٣) الديارات ١٤ .

(٤) الاوراق ٦١ .

(٥) ينظر الآثار الباقية ٣١٠ ، معجم البلدان ٢ / ٥٠٢ .

(٦) الآثار الباقية ٣١٠ ، الديارات ٤٧ ، الاوراق ٦٥ . وأظن أن في البيت تصحيفاً فقد يكون اراد « بتغليس » بدلا من « بتفليس » لأن تفليس بلد في أرمينيا .

اشرب على قرع النواقيس   في دير أشمــوني بتفليس

وهناك أعياد مهمة أخرى منها عيد الميلاد (١) وعيد رأس السنة وغيرهما من أعياد القديسين والقديسات (٢) .

وفي عيد الميلاد كان من عادة النصارى ايقاد النار واللعب بالجوز لاعتقادهم بأن السيدة العذراء ولدت المسيح في ليلة باردة فأكلت عشر جوزات .

وكان المجتمع العراقي يحتفل بالاعياد القومية للفرس باندماج تام يزيد على اندماجه باعياده ومن أعياد الفرس : ليلة الوقود أو عيد السذق وفي هذه الليلة تعمل نار عظيمة تسمى نار السذق . وكان من عادة كبار رجال الدولة في هذا العيد وغيره الجلوس لقبول التهنئات والهدايا .

قال ابن الحجاج يصف ليلة الوقود (٣) :

ليلتُهــا حسنُهــا عجيبٌ   بالقَصْفِ والعزفِ قد تحققْ

لنارهــا في السما لســانٌ   عن نور ضوء الصباح ينطــقْ

ودجلــةُ أضرمتْ حريقــاً   بألفِ نــار والف زورقْ

فماؤهــا كأنّهــا حميمٌ   قد فار مما غلَى وبَقْبَــقْ

وقد وصفها شعراء كثيرون وأشاروا الى أنها ليلة شتوية . ومن هؤلاء الشعراء عبد العزيز بن يوسف وابن نباتة السعدي والسلامي (٤) .

---

(١) ينظر أحسن التقاسيم ١٨٢ .

(٢) ينظر في أعياد النصارى الآثار الباقية ٣١٠ وما بعدها ، نهاية الارب ١ / ١٩١ وما بعدها .

(٣) نهاية الارب ١/ ١٩٠ . ومثل هذا يقول صريع الدلاء في هذه الليلة :

اهلا وسهــلا بليــلة الدق   والشرب فيهــا على الفسق

واللهو والقصف والمجون بهــا   بين خليع وبين منخرق

الديوان ٧٣ أ .

(٤) اليتيمة ٢ / ٣٢٥ ، ٣٩٢ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .

ويقع النيروز « أول الربيع » ومعناه اليوم الجديد ويرجع أصله الى البابليين (١) ، وقد أكثر الشعراء تهنئة رؤسائهم بهذا العيد ، من ذلك تهنئة عبد العزيز بن يوسف لعضد الدولة (٢) وتهنئة المطرز (٣) لاحد الرؤساء وتهنئة مهيار لاحد الوزراء والتي يقول فيها (٤) :

يزوركم النيروز مقتبل الصبا　　وقد دب في رأس الزمان مشيب
تصوّح أغصان الاعادي وغصنكم　　من السعد ريان النبات رطيب

ويقع المهرجان في السادس والعشرين من تشرين الاول ويستمر ستة أيام آخرها يسمى المهرجان الاكبر (٥) .

وسبب تعظيم الفرس لهذا اليوم زعمهم أن فريدون أدرك ثأر جده من الضحاك الملك الظالم « وقيل أن مهر هو اسم الشمس وأنها ظهرت في هذا اليوم للعالم فسمي بها والدليل على ذلك أن آئين الأكاسرة في هذا اليوم التتوج بالتاج الذي عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها » (٦) وكان الملوك يظهرون فيه أفراحهم ويتقبلون هدايا رعاياهم .

ومن الادلة على مجيئه أول أيام نزول المطر قول الشاعر (٧) :

أحبّ المهرجان لأن فيه　　سروراً للملوك ذوي السناء
وباباً للمصير إلى أوانٍ　　تَفَتّحُ فيه أبوابُ السماء

---

(١) الآثار الباقية ٢١٧ ، نهاية الارب ١ / ١٨٥ .

(٢) اليتيمة ٢ / ٣٢٣ .

(٣) تتمة اليتيمة ١ / ٧٤ .

(٤) الديوان ١ /١١٣ .

(٥) نهاية الارب ١ / ١٨٧ .

(٦) الآثار الباقية ٢٢٢ .

(٧) نهاية الارب ١ / ١٨٧ والمستطرف ٢ / ٥٤ وينظر ديوان الشريف المرتضى ٣ / ٢٨٥ ، وينظر في النيروز مقال الدكتور حسن علي محفوظ العدد الثاني من مجلة التراث الشعبي نيسان ١٩٦٤ وينظر في الاعياد الساسانية مجلة المعلم الجديد الجزء الاول شباط ١٩٥٧ المجلد العشرون ص ١١ .

ومن الادلة على اشتقاق اسمه من الشمس قول مهيار الديلمي متفاخرا (١):

وعـــاد المهرجان بخفض عيش ... يَرِف على طلائله الصفـــاقِ
هو اليوم ابتناه أبوكَ كسرى ... وشيّد من قواعِدِه الوثـــاقِ
وشق له من آسم الشمس وصفاً ... يطول به صحيحُ الاشتقاقِ

ويمكن أن تكون مشاركة المسلمين في أعياد النصارى والفرس تنفيساً عن كبت سياسي واجتماعي وديني ومحاولة لقتل الفراغ والتمتع بالحرية ولو للحظات ، ومشاركة المسلمين هذه « تدل على مقدار رقة المظهر الاسلامي الذي يحيط بالحياة العامة » (٢) .

التعصب :

من المظاهر الاجتماعية البارزة الي أخذت جانباً من وقت الناس وفكرهم مظاهر التعصب الطائفي والقومي (٣) والفكري ، على ان التعصب الطائفي أو المذهبي كان ابرزها وأعمها .

فلقد استغلت سذاجة العامة ، وسطحية وتبعية بعض الشخصيات الفكرية والسياسية من أجل اذكاء نار الفتنة بين الشيعة والسنة ، أو بين السنة أنفسهم كما حصل حين اشتد أمر الحنابلة على مخالفيهم من أهل المذاهب الاخرى (٤) .

---

(١) الديوان ٢/٣٥٢ ، وفي التهنئة بعيد المهرجان نظم صريع الدلاء لفخر الملك قصائد عديدة طويلة ، ينظر الديوان ورقة ٢١ أ ، ٢٢ ب ، ٢٤ ب ، ٢٦ ب ، واماكن أخرى .

(٢) الحضارة الاسلامية ٢ / ٢٧٦ .

(٣) من علائم التعصب القومي قول مهيار :

وابي كسرى عـلى ايوانـــه ... أين في الناس أب مثل ابي

الديوان ١ / ٦٤ . وقول المتنبي :

وانمـا النـاس بالملوك ومـا ... تفلح عرب ملوكهم عجم

الديوان ٨٤ .

(٤) ينظر الكامل ٨ / ٣٠٨ .

وظهر هذا الاستغلال من أغلب الفئات المتسلطة التي تدعي السنية أو تميل الى الشيعة .

فكلما أحس وزير أو أمير أو ملك بوجود تذمر شعبي أو اهتزاز في كرسيه افتعل فتنة مذهبية تمتص حقد الناس على السلطة وتلهيهم لفترة معينة عن متابعة مظالم الحكام . فحين أحس معز الدولة باستياء الناس من تسلط جنوده وأعوانه أمر بأن تخرج النساء لاطمات الصدور نافشات الشعور وأن يخرج الرجال لاطمين باكين في مواكب كبيرة تبدأ في اليوم الاول من محرم تعبيراً عن حزن الشيعة على مقتل الحسين الشهيد (١) ، وبذلك ألهى الناس ، وتبعه في ذلك خلفاؤه من آل بويه حتى صار الامر عادة سنوية جارية .

وكانت الفتن بين السنة والشيعة دائمة مستمرة والسلطة تناصر أهل المذهب الذي يدين به رؤساؤها (٢) .

وكان للشعر دور في مثل هذه المعارك والفتن بتأكيد ما تقوله هذه المذاهب والاصرار على افكارها .

ومن أهم الافكار التي يعتنقها الشيعة وتناولها شعرهم أحقية على بن أبي طالب بالامامة ، والولاء له ، والاغراق في حبه وحب آل بيته ومن الذين قالوا بامامة علي بن أبي طالب ، محمد بن احمد بن عبد الله المتوثي ، وهو يؤكد ذلك في قوله (٣) :

قد صحّ قولُ النبي عندي   أنّ علياً هو الامامُ
فان توالبته بحقٍ   ليس على مثله ملامُ
بفضله فاقَ كلَّ فضلٍ   يعجز عن مثله الأنامُ
ذا مذهبي ليس لي سواه   إنقطع القولُ والسلامُ

ويبلغ ألم مهيار الديلمي لمقتل الحسين بحيث يجعله قاعدة فاصلة في

---

(١) ينظر النجوم الزاهرة ٣ / ٣٣٤ ، العبر ٢ / ٢٩٤ .
(٢) ينظر الكامل حوادث سنة ٣٦١ مثلا و ينظر المنتظم ٧ / ٨٨ .
(٣) المحمدون ٧٨ .

الصداقة والصديق لذلك يقول :

وليس صديقي غير الحزين لفقد الحسين وغير الأسوف(١)

وقد يكون الولاء ادعاء من غير ايمان ، أو يكون ولاء متطرفاً يجعل من الناس الذين لا يتفقون مع الشاعر خارجين على الدين لذلك دعى من لا يقول به ناصبياً ووصم بالقبح والكذب .. يقول الخوارزمي (٢) :

ربّ ليلٍ كطلعةِ الناصبيّ ذي نجومٍ كحجّة الشيعيّ

ويقول الناشيء الاصغر ابو الحسن علي بن عبد الله (٣) :

لك صدغٌ كأنّما لونُه وجهُ ناصبيّ

ويقول كشاجم (٤) :

حبّ عليٍّ علوُّ همه لأنه سيدُ الأئمه
ميّزْ محبيه هل تراهم إلاّ ذَوي ثروةٍ ونعمه ؟
بينَ رئيس إلى ظريف قدأكمَلَ الظرفَ واستتمه
فهم إذا حُصّلوا ضياء والعصبُ الناصبيّ ظُلمه

ومع ركاكة هذا الشعر بناء ومعنى نستدل على ان ادعاء التشيع صار يوصل الانسان زمن كشاجم المتوفي ٣٩١ الى الغنى والجاه ، ونتبين أيضاً ان التشيع أو التسنن لم يكن بدافع الحرص الديني بقدر ما هو دافع مصلحي ذاتي .

وحين ننتقل من الشيعة اتباع علي الى ابنائه نجد اللوعة الصادقة والحزن الكبير على الشهداء الذين راحوا ضحية الغدر والحقد ، وهذا يظهر في شعر الشريف الرضي حين يقول (٥) :

---

(١) الديوان ٢ / ٢٦٣ .

(٢) المضاف والمنسوب ١٧ وترجمة ابي بكر محمد بن العباس الخوارزمي ت ٣٨٣ في وفيات الاعيان ٤ / ٣٣ .

(٣) المضاف ١٧٣ ، وترجمة الناشيء في الوفيات ٣ / ١٥١ الديوان ١٦٠ .

(٤) المضاف ١٧٣ ، الديوان ١٦٠ .

(٥) الديوان ١ / ٤٤ .

كربلا لا زلت كرباً وبلا ما لقي عندك آلُ المصطفى
كم على تربك لما صُرِّعُوا من دَمٍ سال ومن دمعٍ جرى

الى أن يقول عن قتل الحسين :

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به عُمَدَ الدين وأعلامَ الهُدى
قتلوه بعد علم منهمُ أنه خامسُ اصحابِ الكِسا
غسّلوه بدمِ الطعن وما كفنوا غيرَ بوغاء الثرى

• • •

ربّ إني اليومَ خصمٌ لهم جئت مظلوماً وذا يوم القضا

وعندما يستكين حزن الشريف الرضي على القتلى من آبائه ، ينظر الى الخلافة نظرة أي شيعي آخر ولذلك يرتفع بفخره ويقول للقادر بالله (١) :

عطفاً أميرَ المؤمنين فاننا في دوحةِ العلياء لا نتفرقُ
ما بينَنا يومَ الفَخَار تفاوتٌ ابداً كلانا في المعالي معرقُ
الاّ الخلافة ميّزتك فإنني أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّقُ

ولربما كان الشريف الرضي يقول في نفسه أكثر من المساواة في النسب ، فهو يرى في القادر مغتصباً لحقٍ هو أجدر به منه ، ولذلك رأينا أخاه الشريف المرتضي يؤكد مثل هذا التطلع فيدعو الى الثورة لاسترداد حقوق العلويين المغصوبة حينما يقول (٢) :

يا آل احمد والذين غدا بحبهم نجاتي

• • •

حتى متى أنتم على صهوات حدبٍ شامصات
وحقوقكم دونَ البرية في أكفٍ غاصباتِ

---

(١) الديوان ٢ / ٤٢ ، اليتيمة ٣ / ١٤٤ .

(٢) الديوان ١ / ١٤٥ .

قل للألى حادوا وقد ضلّوا الطريق إلى الهداةِ

• • •

نامت عيونُكمُ ولكن عن عيون ساهراتِ
وظننتمُ طُولَ المدى يمحو القلوبَ من التِّراتِ
هيهات ان الضغن توقده الليالي بالغدات
لا تأمنوا غض النواظر عن قلوب مرصدات

• • •

حتّى يعود الحق يقظانا لنا بعد السبات

وكان ظهور شعر معاكس نتيجة حتمية لهذا التعصب والغلو احياناً على أننا وفي كل الفترات لا نجد تعصباً مذهبياً يوازي تعصب كشاجم أو الخوارزمي ، أو النامي .

ويبدو أن حب علي وابنائه من قبل كل المسلمين جعل ذلك حداً يقف عنده من يحاول الرد على مدّعي التشيع .

أما التعصب بين الاقوام الكثيرة التي كانت تعيش في العراق فقد كان يحدث غالباً بين الديلم والاتراك وهو لا يعدو أن يكون صراعاً على مراكز السلطة ، وقيادة الجيش ، ولم نجد لهذا الصراع ذلك التأثير الكبير بحيث ينطبع على الشعر .

أما الصراع بين العرب وغيرهم من الاقوام فلم يظهر له وجود لان الصراع الطائفي والطبقي غطى عليه ، واذا وجدنا بعض النزعات القومية عند مهيار أو غيره ، فهي من قبيل الفخر ليس الا (١) .

---

١ — ينظر مثلا ديوان مهيار ١/ ٦٤.

الخلاصـــة :

هذه نماذج من الشعر تجلو لنا صوراً من الحياة الاجتماعية في بغداد وغيرها وتبرز لنا ما كان عليه مجتمع العراق من تناقض طبقي ، وتباعد بين غني وفقير وزاهد وعابد وسني وشيعي ، وهي تعين المؤرخ في اغناء دراسته ويمكن ان تكون أحد مصادره النادرة ، لما فيها من تسجيل ذاتي ، وصدق في نقل الحقيقة .

أما قيمتها الفنية فليست بشيء الا أن الباحث اللغوي أو المؤرخ الادبي لا يمكنه أن يتركها لانها ظاهرة واقعة دخلت اللغة والشعر ويمكنه أن يفيد مما ورد فيها من الفاظ ومفردات ومصطلحات فيحدد معالمها ودلالاتها ويتتبع تطورها التاريخي .

وحين عرفنا هذا جيداً بذلنا الجهد للم أجزاء هذا الفصل من هنا وهناك ايفاءاً بحق البحث واتماماً للصورة الموضوعية ، لان كلامنا على المجتمع يبقى ناقصاً ان أهملنا هذه الاشارات الشعرية الاجتماعية .

ان المظاهر الاجتماعية كثيرة ومتعددة وقد آثرنا أن نسجل ما هو بارز منها وما اهتم به الشعر وبين معالمه .

خاتمـــة :

مر العراق منذ بداية القرن الرابع للهجرة حتى مجيء البويهيين في شبه فوضى سياسية كانت ذات منبع اقتصادي ونتائج اجتماعية خطيرة ، فحدثت المجاعات وتخلخل البنيان الاخلاقي للمجتمع العراقي وكثر السلب والنهب والرشوة والزور والدجل .

وحين جاء العهد البويهي واستقرت الامور السياسية نوعاً ما لم تتحسن أحوال المجتمع فالسلطة الجديدة لم تكن أقل جوراً من سابقتها ، ولربما زادت عليها قساوة وتجبراً ، واشتد أمرها على المجتمع حين بدأت تفتعل الفتن المذهبية والطائفية والعنصرية وتستفيد منها في تفتيت قوة الناس وقيمهم ، وزيادة على ذلك افتعل رؤساؤها المناسبات ، والالعاب الرياضية ،

والاعمال اللاهية الاخرى لكي (يمتصوا) حقد الناس على مظالمهم وجبروتهم .

واذا كان أول عهد البويهيين فترة تبدل سياسي أعقبها استقرار نسبي دام حتى وفاة معز الدولة ، فان عهد بختيار بن معز الدولة كان مضطرباً مرتبكاً وقد انعكس اضطرابه على أحوال الناس ، فكثرت في أيامه الفتن الطائفية والعنصرية ، وحين أمسك عضد الدولة الامور عاد الاستقرار السياسي ثانية لكنه لم يكن هذه المرة طويلاً كما في أيام معز الدولة ، فلم يدم أكثر من خمس سنوات أعقب ذلك ، وبعد وفاة عضد الدولة مباشرة ، هزات سياسية عنيفة تأثر بها كيان المجتمع وبنيته .

ولم يسكت الناس على هذه الاوضاع المضطربة التي (أكلت) أجزاء كبيرة من اصالة هذا المجتمع وأعرافه ورزقه ، فلقد كانت لهم مع السلطات الظالمة جولات وثورات وكان أبرز مظاهر سخط الناس على حكامهم ، حركات القرامطة ، والعيارين والشطار والمظاهرات والحركات الشعبية المتعاقبة التي قاد قسماً منها الهاشميون أنفسهم .

كل هذا كان سببه الصراع الطبقي والتباين الاقتصادي الناتج عن سوء النظام الاقتصادي للدولة العباسية ، وعن الاطماع المتزايدة للحكام الذين صار همهم فرض الضرائب ومصادرة الناس ونهب أموالهم .

ولقد انقسم المجتمع العراقي الى طبقتين متباينتين رئيستين هما أساس بنيان هذا المجتمع ودافع حركته : الطبقة الحاكمة المستغِلة والتي اطلق عليها اسم طبقة الخاصة ، والطبقة المحكومة المستغَلة والتي اطلق عليها اسم طبقة العامة ، وهي الاكثر نفوساً (وفاعلية) .

ولا يفوت القاريء اننا نركز على المجتمع المدني لأن الشعراء كانوا أكثر التصاقاً به فالمدينة استقطبتهم بما تدره عليهم من مال وجاه وترف ، لذلك كادت البادية والارياف ان تفتقدهم .

وفي هذا المجتمع كان الشاعر عضواً بارزاً ، تربطه بالفئات الاجتماعية الاخرى علاقات عديدة .

فمع الحاكم يرتبط بعلاقات اقتصادية ذات أثر كبير في وجوده وفكره وتصرفه . وهو بالنسبة للحاكم شيء مهم يؤثر في حياته ووجوده فمثلما هو لسانه وسوطه هو نديمه وعشيره . وكان يفيد مقابل هذا ثروة لا تبقى كثيراً في يده فهو سرعان ما يبددها على موائد اللهو وفي مجالس الشراب بالرغم مما كان يلاقي في سبيل جمعها من اهانات ومشقة سفر وهجرة .

أما رابطة الشاعر مع الناس فبمنية — في الاغلب — على أساس من رابطة الحاكم معهم .

وهناك شعراء ربطوا أنفسهم بمصير أبناء بلدهم وضربوا الملاذ التي يحصل عليها من يرتبط بالحاكم عرضاً ، فأثبتوا شجاعة وسجلوا ثورة على الذات وعلى الفساد .

اما علاقات الشاعر مع أصحابه الشعراء فكانت ذات صيغ تجارية لذلك كثر الحسد والمنافسة والدس الرخيص ، ولا يعني هذا انعدام العلاقات الحسنة بين شاعر وشاعر ، فلقد سجل لنا الزمن أنبل العلاقات بين الصابي والشريف الرضي وبين الشريف وابن الحجاج أو بين شعراء آخرين غير هؤلاء .

ومثلما تأثرت الحياة الاجتماعية بالسياسة والاقتصاد تأثر الشعر والأدب، فكان حصيلة التباين الطبقي تبايناً ثقافياً نلاحظه في شعر كل فئة من فئات المجتمع لما هو معروف من أثر البيئة في الشعر ، فلقد عكس شعر الطبقة الحاكمة طبيعة المجتمع المترف الذي عاشه رجالها ، واتضح لنا من خلال شعر الخليفة الراضي — مثلاً — كيف كان مجتمع الخلفاء متحللاً ذليلاً لا حول له ولا سلطة .

ثم اكتشفنا اعترافاً شعرياً على لسان الراضي يقول بانحراف هذا الخليفة

الى الغلمانية والدعارة ، وكذلك كان الأمر عند آل بويه ، والوزراء ورجال الدولة الآخرين .

ونتيجة لهذه البنية غير الاخلاقية لمجتمع الحكام شاعت الرذائل والفواحش في المجتمع على أساس المبدأ الرديء القائل (الناس على دين ملوكهم) فتهرأت القيم الخلقية ، وانحسرت اللغة المؤدبة ، وحلت محلها لغة ضالة مسفّة ، فكان الهجاء الماجن ، والوصف الخليع ، والغزل العاهر ، والممازحة الممجوجة السمجة لغة تداولها الشعراء ، واستظرفها الخاص والعام .

وقد وصل اللفظ الفاحش الى وصف الاعمال الجنسية والاعضاء التناسلية وصفاً فاضحاً ، والى ترديد كلمات الفجور في كل مناسبة ، وقد أكدت لنا هذه الاشعار والمنظومات شيوع الغلمانية والبغاء بشكل واسع حتى ليتصور الانسان أن الانحراف الاخلاقي قد تركز في كيان المجتمع العراقي وصار أمراً اعتيادياً لا يعاب مريدوه ، ولا يعاقب فاعلوه .

وفي هذا المجتمع الذي انحرف بالقيم ، وصار حكامه آلات سطوة وسلب عاشت فئات لم تتحمل قساوة الحياة ولا استطاعت الوقوف أمام مآسيها فوضعت خدها واستصغرت نفسها ، وصغرت هممها ، فكبت بها السبل القويمة وشذت عن خط الحياة الواضح ، واتبعت أساليب وضيعة للحصول على قوتها ومسببات وجودها .

تلك هي فئات المكدين والسؤال التي توسعت وانتشرت بسبب الظروف الاقتصادية القاسية حتى صار لها شعراؤها ومتكلموها ، وعاداتها وتقاليدها .

وقد عكس لنا شعر المكدين الصراع النفسي عند بعض رجالها ، كما صور لنا مجمل حياتهم تصويراً يكاد يكون تاماً بيناً .

ومثل هذه الفئة من حيث الهروب أمام مشكلات الحياة كانت فئات المتصوفة التي آثر أغلب أعضائها الانزواء في الصوامع والانعزال عن الناس والغرق في لجج الافكار الغيبية أو التهويم بين ضباب الخيالات والشطحات

والصرعات . ولم يعد لهم هم إلاّ الحصول على لقمة العيش براحة بال وبلا كد ، وصارت لهم ممزوجة بشيء من الهيبة والاحترام يعوضهم عن قيم فقدوها .

على أن هذه الفئات لم تخل من ايجابية بلغت أحياناً حد العنف والمواجهة فجوبهت بالموت والتعذيب كما حصل للحلاج وابن عطاء مثلاً .

وتعد فئة المتصوفة بالقياس الى الفئات التي باعت نفسها للسلطة أو انحرفت الى طريق الشذوذ الاخلاقي والكدية ايجابية ، لانها ـ عموماً ـ ظلت تحافظ على ماء وجهها ، وكان في افرادها من كسب من عمل يده أو ارتزق بعلمه .

ويبدو أن هذه الفئة قد انحسرت فاعليتها ـ وقد كانت فيما سبق ذات أثر في التوجيه الاخلاقي ـ في الاقل ـ بعد أن قُتل الحلاج ومُثّل به وعذب ابن عطاء حتى الموت .

لقد آثر معظم أفرادها في هذا القرن الركون الى الجانب الغيبي من الدين ولم يتعرض للجانب الذي يمس حياة المجتمع اليومية .

من هؤلاء كان الشبلي والكلاباذي وأبو طالب المكي ، والطوسي ، والسلمي وقد اتجه هؤلاء الذين ذكرناهم ـ عدا الشبلي ـ نحو التأليف في النواحي الصوفية وآدابها ، فأدوا بذلك خدمة لا تقدر لدارسي عادات هذه الفئة وطبائعها ، وكأني بهم قد عوضوا بتآليفهم عن سكوتهم تجاه مظالم الحياة الاجتماعية وقسوة حكام أزمانهم .

ولم يعدم المجتمع جماعات أخرى التزمت بقيمها ، وترفعت عن التمسح بالاذيال ، وصانت نفسها من الابتذال ، فما استكانت لذل ، ولا هادنت ظلماً ولا سكتت عن جبروت طاغية .

لقد كانت هذه الجماعات الساخطة أو المتمردة متباينة في عمليات مواجهتها للمظالم الاجتماعية ، فهناك من سخط ووقفت به جرأته عند ذم الزمان رامزاً بذلك الى ذم الحكام والمتسلطين وهناك من سخط وأعلن

سخطه في صراحة تامة وجرأة كبيرة .

ولقد تمثل لنا كل ذلك في اشعار الكثير من أهل العصر ، خاصة شعراء البصرة الذين نرى أن من أسباب جرأتهم تأثرهم بالافكار القرمطية وقربهم من دولة القرامطة في البحرين اضافة الى بعدهم عن مركز القوة « بغداد » .

وكان ابن لنكك وأشعاره أنموذجاً لا يوازيه من حيث الجرأة غير ابي العلاء المعري في الشام ، ولابن لنكك السبق في هذه الانتفاضات الشعرية .

ومن خلال هذا التناقض الاجتماعي برزت مظاهر حضارية اجتماعية عديدة ، بيّنت مقدار تأثر المجتمع العراقي بالحضارات الاجنبية المجاورة أو الوافدة بواسطة الغزو والاحتلال .

وكما كانت هناك مظاهر انفردت بها هذه الطبقة أو تلك ، كانت هناك أيضاً مظاهر اشتركت بها معظم الطبقات والفئات الاجتماعية .

فلقد لـّها أغلب الناس بمقادير متباينة ووسائل عديدة ، وتعددت وسائل اللهو وأماكنه ، فانتشر في بغداد ، وعُكبرا وبُصرى وأوانا ، وسامراء ، وتكريت وواسط والبصرة ، والاهواز وغيرها من المدن والمتنزهات والاديرة .

وفي أماكن اللهو هذه شاع الفساد ، والغناء وشرب الخمور ، بشكل انفرادي أو على صورة مجالس صاخبة .

وفي مجتمع الرق والجواري والاقطاع يسود الرجل سيادة مطلقة وتصبح المرأة متاعاً رخيصاً لهذا السيد المطلق ، ولقد ظلت المرأة العراقية في القرن الرابع في موقع اجتماعي متأخر جداً ، وبخاصة المرأة الحرة ، فلقد نافسها الجواري والغلمان وأخذوا المراكز المهمة في دور الخلفاء والملوك ، ووصلوا الى مرحلة بلغت فيها سطوة بعض الجواري أدرجة أعلى من سطوة الوزير .

ولم تكن عادات وتقاليد المجتمع العراقي وليدة حضارة مستقلة خاصة بهذا المجتمع فلقد كان لحركة التجارة بين العراق وغيره من الامم وللاحتلال الفارسي للعراق اضافة الى عشرات الآلاف من الجواري

والغلمان الروم أثر كبير في خلق تلاحم حضاري وفكري بين العرب والفرس والروم، لذلك رأينا عادات مشتركة كثيرة بين هذه الاقوام تشكل مجموع المظاهر الحضارية للمجتمع العراقي .

لقد كان الناس يحتفلون باعياد النصارى الدينية وأعياد الفرس القومية كما يحتفلون بأعياد المسلمين ، وكانوا يتفننون في أزيائهم ومآ كلهم ومجالس شرابهم وأنسهم بتأثير من هذا التلاحم الحضاري والتزاوج الفكري .

لقد حصلنا من خلال الكشف عن معطيات النصوص الشعرية على صورة بينة لمجتمع العراق في القرن الرابع بطبقاته وتأثراته وعاداته ومظاهر حياته ، وكان لنا في دراستنا هذه أكثر من نتيجة ، فمن الاسلوب العلمي في تحليل النصوص الشعرية ذات الدلالات الاجتماعية ، توضح لنا المدى العميق لانهيار القيم الاخلاقية والدينية في المجتمع العراقي ، واستنتجنا بعد رؤية نزيهة محايدة أن هذا الانهيار الاجتماعي لم يكن مقصوداً أدخلته أقوام أخرى أو فئات شعوبية بقصد تحطيم الدين أو العروبة — كما يدعي بعض الباحثين — فقد كان نتيجة طبيعية للبنية الاقتصادية الاستغلالية التي ارتكزت عليها الدولة العباسية ، ولم ننكر ما للغزو الحضاري وصراعه مع القيم العربية البدوية من تأثير في انحراف الاعراف والاخلاق .

وقد تأكد لنا من خلال النصوص الشعرية ان الانهيار الاخلاقي بدأ من القمة ثم سار حثيثاً نحو القاعدة أي بدأ من دار الخليفة ثم انتشر في بغداد ومدن العراق الاخرى بين الطبقات الوسطى والفقيرة .

وكان من نتائج تحلل المجتمع تحلل لغة ابنائه وانحدارها نحو الرذيلة اللفظية ، فلم تعد اللغة السامية المترفعة هي لغة الشعر السائدة ، انما أصبحت اللغة العامية المبتذلة لغة أغلب الشعراء ، وحتى هذه اللغة العامية كانت تختلف في قيمها الفنية لانها كانت تحمل مفردات والفاظاً تمثل المنطلق الاجتماعي لكل فئة من فئات المجتمع ، ولهذا السبب درسنا القيمة الفنية لكل فصل بصورة منفردة وبشكل مكثف مبتعدين عن لغة الحشو والانشاء .

المصادر والمراجع

الآثار الباقية عن القرون الخالية محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠ هـ) ليدن (مطبعة بريل) ١٩٢٣ .

آداب الصحبة وحسن العشرة أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ت ٤١٢ تح. ي. قسطر – منشورات الجمعية الشرقية الاسرائيلية – أورشليم (مطبعة الحكومة – يافا) ١٩٥٤ .

أبو حيان التوحيدي (سيرته – آثاره) . عبد الرزاق محي الدين نشر مكتبة الخانجي مصر (مطبعة السعادة) ١٩٤٩ .

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي (ت بعد ٣٧٥) ط ٢ . ليدن (مطبعة بريل) ١٩٠٦ .

الاحكام السلطانية . أبوالحسن علي بن حبيب البصري الماوردي (ت٤٥٠) ط ١ القاهرة (شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي) ١٩٦٠ .

اخبار الراضي والمتقي ابو بكر محمد بن يحي الصولي ت ٣٣٥ او ٣٣٦ تح هيورث دن القاهرة (مطبعة الصاوي) ١٩٣٥ .

أخلاق الوزيرين أو (مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وأبن العميد) : أبو حيان علي بن محمد التوحيدي (ت نحو ٤١٤) – تح محمد بن تاويت الطنجي مطبوعات المجمع العلمي العربي – دمشق (المطبعة الهاشمية) ١٩٦٥ .

أدب الدنيا والدين : أبو الحسن الماوردي بعناية أحمد ابراهيم – وزارة المعارف العمومية – القاهرة (المطبعة الاميرية) ١٩٢٥ .

الادب في ظل بني بويه : الدكتور محمود غناوي الزهيري – مصر مطبعة الامانة ١٩٤٩ .

الاربعين في التصوف (كتاب) : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (ت ٤١٢) حيدر آباد الدكن (دائرة المعارف العثمانية) ١٣٦٩ .

الاشارات الهية والانفاس الروحانية : أبو حيان التوحيدي – تح الدكتور عبد الرحمن بدوي – القاهرة (مطبعة جامعة فؤاد الاول) ١٩٥٠ .

أشعار أولاد الخلفاء : أبو بكر الصولي تح هيورث . دن. مصر (مطبعة الصاوي) ١٩٣٦ .

الاعجاز والايجاز : أبو منصور عبد الملك الثعالبي ت ٤٢٩ ، مصر (المطبعة العمومية) ١٨٩٧ .

الاعلام : خير الدين الزركلي ط ٢ (مطبعة كوستاتس وشركاه) من ٩٥٤ ــ ١٩٥٩ .

الاقاليم : أبو اسحاق الاصطخري طبع بالاوفست عن المخطوط د. ج. ا. ج مولر (كوتيه).

أقسام ضائعة من تحفة الامراء وأخبار الوزراء : لابي هلال الصابي . جمع وتعليق ميخائيل عواد ، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٨ .

الامتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي تح أحمد أمين ، أحمد الزين القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٩ ــ ١٩٤٤ .

الاناقة في معالم الخلافة : أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) الكويت (سلسلة التراث العربي) ١٩٦٤ .

الاوراق ، أخبار الراضي ، أشعار اولاد الخلفاء .

الاوراق : كتاب يبحث في أشهر ديارات العراق ، أحمد محمد السقاف ط ١ لبنان ــ عاليه ١٩٥٤ .

أهل الكدية أبطال المقامات في الادب العربي : عبد النافع طليمات ــ دار الوليد ــ حمص ــ سوريا ١٩٥٧ .

البخلاء : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥) تح أحمد ظافر كوجان ــ دار اليقظة العربية ، دمشق (مطابع فتى العرب) ١٩٦٣ .

البخلاء : أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) تح الدكتور أحمد مطلوب والدكتور أحمد ناجي القيسي والدكتورة خديجة الحديثي ــ بغداد (مطبعة العاني) ١٩٦٤ .

البداية والنهاية : أسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٨٧٤) ، مصر (مطبعة السعادة) .

برد الاكباد : أبو منصور الثعالبي ضمن أربع رسائل أخرى طبعت في كتاب واحد على مطبعة الجوائب ـ قسطنطينية ١٣٠١ هـ .

البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدي ، تح الدكتور ابراهيم كيلاني ، دمشق (مكتبة أطلس ومطبعة الانشاء) ١٩٦٤ .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، مصر (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ .

بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الالوسي البغدادي تح محمد بهجة الاثر ط ٣ ، مصر (دار الكتاب العربي) .

بين التصوف والحياة : الشيخ عبد الباري الندوي ، نقله الى العربية محمد الحسيني الندوي ، دمشق (مكتبة دار الفتح) ١٩٦٣ .

تاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) نشر دار ليبيا للنشر ، بنغازي . طبع دار صادر ـ دار بيروت ـ بيروت ١٩٦٦ .

تاريخ أبي الفداء (كتاب المختصر في أخبار البشر) : أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ) ، بيروت (دار الكتاب اللبناني) د . ت .

تاريخ الامم والملوك : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠) بيروت (مكتبة خياط) .

تاريخ بغداد : الخطيب أحمد بن علي البغدادي ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٣١ .

تاريخ الحكماء : وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ـ لايبزغ ١٩٠٣ ـ أوفست مكتبة المثنى ـ بغداد .

تاريخ الخلفاء : الامام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

(ت ٩١١ ﻫ) محي الدين عبد الحميد ط ٣ ، القاهرة (مطبعة المدني) ١٩٦٤ .

تاريخ الشعوب الاسلامية : بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ط ٣ ، بيروت ، دار العلم ١٩٦١ .

تاريخ الفلسفة العربية : حنا الفاخوري ، وخليل الجر ، بيروت (دار المعارف) ١٩٥٧ .

تاريخ الفلسفة في الاسلام ت. ج. دي بور ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٣٨ .

تتمة اليتيمة : أبو منصور عبد الملك الثعالبي تح عباس اقبال ، طهران (مطبعة فردين) ١٣٥٣ ﻫ .

تجارب الامم : أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ، تصحيح أمدروز ، مصر (شركة التمدن الصناعية) ١٩١٤ — ١٩١٦ .

التحف والهدايا ، الخالديان : محمد وسعيد ابنا هاشم (ت ٣٨٠ ، ٣٩٠) تح الدكتور سامي الدهان . مصر (دار المعارف) ١٩٥٦ .

تحفة الامراء في تاريخ الوزراء : أبو الحسن الهلال بن المحسن العباس (ت ٤٤٨) تح عبد الستار أحمد فراج ، مصر (عيسى البابي وشركاه) ١٩٥٨ .

التصوف الاسلامي : الدكتور زكي مبارك ط ٢ ، القاهرة (دار الكتاب العربي) ١٩٥٤ .

التصوف الثورة الروحية في الاسلام : الدكتور أبو العلا عفيفي ، مصر (دار المعارف) ١٩٦٣ .

التصوف في الشعر العربي : عبد الحكيم حسان ، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٥٤ .

التعرف لمذهب أهل التصوف : أبو بكر محمد الطلاباذي (ت ٣٨٠) تح الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سزور ، مصر (عيسى

البابي) ١٩٦٠ .
تقويم البلدان : الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء صاحب حماه ، باريس (دار الطباع الطباعة السلطانية) ١٨٤٠ أعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ، بغداد .

تكملة تاريخ الطبري : محمد بن عبد الملك الهمداني (ت ٥٢١) تح البرت يوسف كنعان ط ٢ ، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٦١ .

تلبيس ابليس : عبد الرحمن بن الجوزي ، (ادارة المطبعة المنيرية) ١٩٢٨ .

التلخيص في معرفة أسماء الاشياء ، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) تح الدكتور عزة حسن (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) دمشق مطبعة الترقي ١٩٧٠ .

تلطيف المزاج : من شعر ابن الحجاج مخ مصور في المجمع العلمي رقم ٣٤٦ — م .

التمثيل والمحاضرة : أبو منصور الثعالبي تح عبد الفتاح محمد الحلو ، مصر (عيسى البابي وشركاه) ١٩٦١ .

التمدن الاسلامي ، جرجي زيدان ، علق على حواشيه ، الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة (مطابع دار الهلال) ١٩٥٨ .

التنبيه والاشراف ، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ ه) القاهرة (مطبعة عبد الله الصاوي) ١٩٣٨ .

تيارات ثقافية : الدكتور أحمد الحوفي ، مصر (دار نهضة مصر) ١٩٦٨ .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، أبو منصور الثعالبي تح محمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة (دار نهضة مصر للطباعة) ١٩٦٥ .

الحركات التقدمية في العراق حتى غزو التتار : الدكتور صلاح الدين المنجد ، بيروت (دار العلم للملايين) ١٦٢ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع للهجرة : آدم متز ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٥٧ .
حضارة الاسلام : جوستاف ا. فون جرونيباوم ، القاهرة (دار مصر للطباعة) ١٩٥٦ .
حكاية أبي القاسم البغدادي : محمد بن المطهر الازدي باشراف آدم متز هايدليرج (مطبعة كارل ونتر) ١٩٠٢ .
(يرى الدكتور مصطفى جواد أن هذا الكتاب من تأليف أبي حيان التوحيدي وله على ذلك عدة دلائل ، مجلة الاستاذ مجلد ١٢) .
حلية الاولياء وطبقات الاصفياء : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني (ت ٤٣٠) ، مصر (مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة) ١٩٣٢ — ١٩٣٨ .
الحمقى والمغفلون : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي تح علي الخاقاني — بغداد (مطبعة البصري) ١٩٦٦ .
خاص الخاص : ابو منصور الثعالبي ، قدم له حسن الامين ، بيروت (منشورات مكتبة الجباة) ١٩٦٦ .
الخزانة الشرقية : حبيب زيات ، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ج ١ ١٩٥٢ ، ج ٢ ١٩٣٧ .
دائرة المعارف الاسلامية : الترجمة العربية ، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين .
دراسات في العصور العباسية المتأخرة : الدكتور عبد العزيز الدوري ، (شركة الرابطة للطبع والنشر) بغداد (مطبعة السريان) ١٩٤٥ .
درة التاج : من شعر ابن الحجاج ، نسخة مخطوطة محققة من قبل د. علي جواد الطاهر ومعدة للطبع .
دمية القصر وعصرة أهل العصر : الجزء الأول ، أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي (ت ٤٦٧ هـ) تح عبد الفتاح الحلو (دار الفكر العربي)

مصر (مطبعة الترقي) ١٩٦٨ .
الدولة الحمدانية في الموصل وحلب : دكتور فيصل السامر ، بغداد (مطبعة الايمان) ١٩٧٠ .
ديوان ابن الحجاج : الحسين بن أحمد (ت ٣٩١ هـ) مخ منه نسخ مصورة بالمجمع العلمي تبدأ من رقم ٤٣٤ ـ م الى ٤٤١ ـ م .
ديوان ابن دريد : أبو بكر محمد بن دريد الازدي (ت ٣٢١ هـ) تح وجمع السيد محمد بدر الدين العلوي ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٤٦ .
ديوان ابن المعتز : عبد الله بن المعتز (ق ٢٩٦) ، بيروت (دار صادر ـ دار بيروت) ١٩٦١ .
ديوان أبي نواس : الحسن بن هانيء (ت ١٩٨ هـ) تح أحمد عبد المجيد الغزالي ، بيروت (دار الكتاب العربي) ١٩٥٣ .
ديوان البحتري : الوليد بن عبيد الطائي (ت ٢٨٤ هـ) ، بيروت (دار صادر ـ دار بيروت) ١٩٦٢ .
ديوان الحلاج : أبي منصور الحسين (ق ٣٠٩) تح لويس ماسينيون ، باريس ١٩٥٥ .
ديوان السري : بن أحمد الكندي الرفاء (ت ٣٦٠) ، القاهرة (مكتبة القدسي) ١٣٥٥ هـ .
ديوان الشبلي : دلف بن جحدر (ت ٣٣٤) جمع الدكتور كامل مصطفى الشيبي ، بغداد (مطبعة دار التضامن) ١٩٦٧ .
ديوان الشريف الرضي : أبو الحسن محمد بن الحسين بن الطاهر (ت ٤٠٦) ، بيروت (دار صادر ـ دار بيروت) ١٩٦١ .
ديوان الشريف المرتضى : علي بن الحسين بن الطاهر (ت ٤٣٦) تح رشيد الصفار مراجعة الدكتور مصطفى جواد ، مصر (عيسى البابي الحلبي) ١٩٥٨ .

ديوان صريع الدلاء : ابو الحسن محمد بن عبد الواحد او علي بن عبد الواحد كما في بعض المصادر المتوفي سنة ٤١٢ هـ والديوان مخطوط يزمع تحقيقه السيدان أحمد النجدي وطلاق عيد عون وقد اعتمدنا نسختهما المصورة .

ديوان المتنبي : أحمد بن الحسين (ق ٣٥٠) تح الدكتور عبد الوهاب عزام ، مصر (مطبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٤٤ .

ديوان مهيار الديلمي : القاهرة ط (دار الكتب المصرية) ١٩٢٥ .

ديوان الهمداني : بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين (ت ٣٩٨)، مصر (مطبعة الموسوعات) ١٩٠٣ .

رسائل الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥) تح عبد السلام هارون ، مصر (مكتبة الخانجي) ١٩٦٤.

(رسائل الصابي والشريف الرضي : تح محمد يوسف نجم ، الكويت (مسلسلة التراث العربي بالكويت) ١٩٦١ .

رسوم دار الخلافة : أبو الحسن هلال بن المحسن الصابي (ت ٤٤٨ هـ) تح ميخائيل عواد ، بغداد (مطبعة العاني) ١٩٦٤ .

الرسالة القشيرية في علم التصوف : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥) تح الدكتور عبد الحليم محمود ، عبد الباقي سرور ، مصر (مطبعة لجنة التأليف والنشر) ١٩٦٦ .

زجر النابح : أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (ت ٩٤٩) تح أحمد الطرابلسي مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق (المطبعة الهاشمية) ١٩٦٥ .

زهر الآداب وثمر الالباب : أبو اسحق ابراهيم بن علي الحصري (ت ٤١٣) تح عدلي محمد البجاوي ، مصر (مطبعة عيسى البابي وشركاه) ١٩٥٣ .

شخصيات فلقة : الف بينها وترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي ،

ط ٢ ، القاهرة (دار النهضة العربية) ١٩٦٤ .

شرح أسماء العقار : الشيخ أبو عمران موسى بن عبيد الله الاسرائيلي ، تح الدكتور ماكس ماير هوف طبعة أوروبا ١٩٤٠ (أوفست مكتبة المثنى) بغداد .

الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي : الدكتور علي جواد الطاهر ، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٥٨ .

شعراء النصرانية : لويس شيخو ، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٢٦ .

شهيدة العشق الالهي رابعة العدوية : الدكتور عبد الرحمن بدوي ط ٢ مصر (مكتبة النهضة) ١٩٦٢ .

الصحاح : اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣) تح أحمد عبد الغفور عطار ، مصر (دار الكتاب العربي) ١٩٥٦ .

الصداقة والصديق : أبو حيان التوحيدي ، تح الدكتور ابراهيم الكيلاني ، دمشق (دار الفكر) ١٩٦٤ .

الصوفية في الاسلام : تأليف نيكلسون ، ترجمة نور الدين شريبة ، مصر (مكتبة الخانجي) ١٩٥١ .

طبقات الصوفية : لأبي عبد الرحمن السلمي تح نور الدين شريبة ، مصر (دار الكتاب العربي) ١٩٥٣ .

الطبقات الكبرى ، المسمى لوفح الانوار في طبقات الاخبار : لابي المواهب عبد الوهاب بن احمد الشعراني (ت ٩٧٣) القاهرة (مصطفى البابي الحلبي) ١٩٥٤ .

الطبيخ : تأليف محمد بن الحسن بن محمد بن الكريم الكاتب البغدادي (ت ٦٢١) تح الدكتور داود الجلبي ، الموصل (مطبعة أم الربيعين) ١٩٣٤ .

الظرفاء والشحاذون : الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط ٢ ، بيروت (المؤسسة الاهلية) د. ت.

ظهر الاسلام : أحمد أمين ، ط ٣ ، مصر ١٩٥٢ .

العبر في خبر من غبر : للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨) تح صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد ، الكويت (١٩٦٠ – ١٩٦٣) .

العقيدة والشريعة في الاسلام : للمستشرق كولد زيهر ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر وآخرين ، ط ٢ ، مصر (دار الكتاب العربي) ١٩٥٩ .

عوارف المعارف : عبد القاهر بن عبد الله السهروردي (ت ٥٦٣) بيروت (دار الكتاب العربي) ١٩٦٦ .

الفخري في الآداب السلطانية : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩) ، بيروت (دار بيروت) ١٩٦٦ .

الفرج بعد الشدة : القاضي أبو علي المحسّن التنوخي (ت ٣٨٤) ، مصر (مطبعة الهلال) ١٩٠٣ .

الفلاكة والمفلوكون : احمد بن علي عبد الله شهاب الدين الدلجي (ت ٨٣٨) ، مصر (مطبعة الشعب) ١٣٢٢ هـ .

الفلسفة الصوفية في الاسلام : الدكتور عبد القادر محمود ، مصر (مطبعة المعرفة) ١٩٦٦ .

في الادب العباسي : الدكتور محمد مهدي البصير ، ط ٢ ، بغداد ١٩٧٠ .

في التصوف الاسلامي : نيكلسون ترجمة ابي العلاء عفيفي ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترحمة والنشر) ١٩٦٥ .

الفهرست : محمد بن اسحق بن النديم (ت ٣٨٥) اشراف غوستاف فلوجل وجونسن رودجر ط أوروبا ، أوفست (مكتبة خياط) بيروت ١٩٦٤ .

قصيدة للخبزأرزي : مخ (دار الكتب الظاهرية) رقم ٣٣٢٣ ولدي نسخة مصورة عنها .
قوت القلوب في معاملة المحبوب : أبو محمد بن علي المكي (ت ٣٨٦) مصر (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده) ١٩٦١ .
الكامل في التاريخ : عزالدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ) ، بيروت (دار صادر – دار بيروت) ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ، وهذه الطبعة منقولة عن طبعة أوروبا الواقعة ما بين ١٨٥١ – ١٨٧١ .
الكشكول : بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي الهمذاني (ت ١٠٣١ هـ) ، مصر (دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه) ١٩٦١ .
الكناية والتعريض : ابو منصور الثعالبي تصحيح محمد بدرالدين النعساني الحلبي ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٠٨ .
لباب الآداب : أسامة بن مرشد بن منقذ (ت ٥٨٤) تح احمد محمد شاكر ، مصر (المطبعة الرحمانية) ١٩٣٥ ، أوفست (مكتبة المثنى) بغداد .
لسان العرب : ابو الفضل محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ) ، بيروت (دار صادر – دار بيروت) ١٩٥٥ – ١٩٥٦ .
لطائف المعارف : ابو منصور الثعالبي تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل ، القاهرة (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه) ١٩٦٠ .
لزوم ما لا يلزم أو اللزوميات : ابو العلاء احمد بن عبد الله المعري (ت ٤٤٩) ، بيروت (دار صادر – دار بيروت) ١٩٦١ .
المحاسن والمساويء : ابراهيم بن محمد البيهقي ، كان حياً أيام المقتدر تح محمد ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة (مطبعة نهضة مصر) ١٩٦١ .
محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء والبلغاء : ابو القاسم حسين بن

محمد الراغب الاصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، بيروت (منشورات دار مكتبة الحياة) ١٩٦١ .

محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية : محمد الخضري ، ط ١٠ ، مصر (مطبعة الاستقامة) د . ت . .

المحمدون من الشعراء : علي بن يوسف القفطي (ت ٤٤٦) تح حسن معمري مراجعة حمد الجاسر (منشورات دار اليمامة ــ الرياض ، المملكة العربية السعودية) ، بيروت (مطبعة المتنبي) ١٩٧٠ .

مختصر التاريخ : ظهير الدين علي بن محمد المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧) تح الدكتور مصطفى جواد ، سلسلة كتب التراث ، بغداد (المؤسسة العامة للطباعة والصحافة) ١٩٧٠ .

مختارات البارودي : محمود سامي البارودي (ت ١٩٠٤ م) ، القاهرة (مطبعة الجريدة) ١٣٢٧ هـ .

مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع : صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩) تح علي محمد البجاوي ، مصر (دار احياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه) ١٩٥٤ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : علي بن الحسين المسعودي تح محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٦٤ .

المسالك والممالك : ابن اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري عاصر القرن الرابع ، سلسلة تراثنا ــ وزارة الثقافة في ج . ع . م . ، القاهرة (دار القلم) ١٩٦١ .

مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغرولي ، القاهرة (مطبعة ادارة الوطن) ١٢٩٩ هـ .

معجم البلدان : ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، بيروت (دار صادر ــ دار بيروت) ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ .

معجم الادباء أو ارشاد الاريب الى معرفة الاديب : ياقوت الحموي

اشراف الدكتور احمد فريد رفاعي ، مصر (مطبوعات دار المأمون) ١٩٣٦ .

معجم الشعراء : محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٧٠ هـ) تح عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٦٠ .

مع المتنبي : الدكتور طه حسين ، مصر (دار المعارف) ١٩٦٠ .

معالم القربة في احكام الحسبة : محمد بن محمد بن احمد القرشي المعروف بابن الاخوة تح وين ليوي كمبرج (مطبعة دار الفنون) ١٩٣٧ .

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص : الشيخ عبد الرحيم بن احمد العباسي (ت ٩٣٦) تح محي الدين عبد الحميد ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٤٧ .

مفاخرة الغلمان والجواري : الجاحظ تح شارل بلاّ ، لبنان (دار المكشوف) ١٩٥٧ .

المقابسات : ابو حيان التوحيدي تح حسن السندوبي ، مصر (المطبعة الرحمانية) ١٩٢٩ .

مقامات بديع الزمان الهمذاني : تح محمد عبده .

المنتخب من كنايات الادباء واشارات البلغاء : القاضي ابو العباس احمد بن محمد الجرجاني الثقفي (ت ٤٨٢) ، ط ١ ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٠٨ .

المنتظم في تاريخ الملوك والامم : ابن الجوزي ، حيدر آباد (دار المعارف العثمانية) ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩ هـ .

من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام : بندلي جوزي ، بيروت (دار الروائع) د. ت. .

من غاب عنه المطرب : الثعالبي ، ملحق مع التحفة البهية والطرفة الشهية ، القسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٣٠٢ هـ .

الموشى أو الظرف والظرفاء : ابو الطيب اسحق بن يحيى الوشاء (ت

٣٢٥ هـ) ، تح كمال مصطفى ، مصر (مطبعة الاعتماد) ١٩٥٧ .

النبراس في تاريخ بني العباس : أبو الخطاب عمر بن الشيخ حسن بن رحية (ت ٦٣٣) تح عباس العزاوي ، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٦ .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) ، مصر (مطبعة دار الكتب) ١٩٢٦ أوفست وزارة الثقافة والارشاد القومي ج. ع. م. .

نزهة الالباء في طبقات الادباء : ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن الانباري (ت ٥٧٧) تح الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٥٩! .

نساء الخلفاء أو جهات الأئمة : ابو علي بن أنجب المعروف بابن الساعي (ت ٦٧٤) تح الدكتور مصطفى جواد ، مصر (دار المعارف) .

نشوار المحاضرة أو جامع التواريخ : القاضي ابو علي المحسن بن علي التنوخي ،مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ح ٨ ١٩٣٠ ج ١ ، مصر (مطبعة هندية) ١٩٥١ .

نكت الهميان في نكت العميان : صلاح الدين خليل بن يبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) وقف على طبعه احمد زكي ، مصر (المطبعة الجمالية) ١٩١١ .

نهاية الارب في فنون الادب : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣) ، مصر (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٢٣ وما بعدها أوفست وزارة الثقافة والارشاد القومي ج. ع.م .

الوافي بالوفيات : صلاح الدين الصفدي ج ١ اعتناء هـ . ريتر استانبول (مطبعة الدولة) ١٩٣١ ، نشر جمعية المستشرقين الالمانية المانية ، فسبادن (دار النشر فرانزشتايز) ، ج ١٢ اعتناء س. ديدرينغ ، استانبول (مطبعة وزارة المعارف) ١٩٤٩ ، ج ٣ ، ٤ اعتناء س. ديدرينغ ، دمشق (المطبعة الهاشمية) ١٩٥٣ ، ١٩٥٩ .

الوصف في شعر القرن الرابع : الدكتور جميل سعيد ، بغداد (مطبعة الهلال) ١٩٤٨ .

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان : شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١) تح محي الدين عبد الحميد ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٤٨ .

الهفوات النادرة غرس النعمة : ابو الحسن محمد بن هلال الصابي (ت ٤٨٠ ﻫ) تح صالح الاشتر ، دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) ١٩٦٧ .

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ابو منصور الثعالبي تح محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مصر (مطبعة السعادة) ١٩٥٦ .

المجلات :

مجلة التراث الشعبي س ١ ع ٢ ١٩٦٣ .

مجلة سومر ج ٢ سنة ١٩٥٤ .

مجلة كلية الآداب ع ١ حزيران سنة ١٩٥٩ .

مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٤ سنة ١٩٥٦ .

ملاحظة :

هناك مصادر ومراجع استعملنا قليلاً ولم نذكرها في هذه القائمة ، واكتفينا بالاشارة اليها في الهوامش .

فهرس الأعلام

ش

ص

ن

فهرس الأشعار

قافية الهمزة والالف

قافية الباء

قافية التاء

قافيــة الثــاء

قافيــة الجيــم

قافيــة الحـــاء

قافيــة الخـــاء

قافيــة الــدال

قافيـة الـذال

قافية الراء

قافية الزاي

قافيـــة السين

قافيــة الكاف

قافيــة الــلام

قافيـة الميـم

قافيــة النون

قافية الهاء

قافية الواو

قافية الياء

فهرس الطوائف والأقوام والفئات

الطبقة المستغلة : ٢٨ واماكن عديدة من التمهيد : ٢٤٧

ملاحظة :

هناك فئات لم نشأ ادخالها في هذا الفهرست لأنها ترد كثيراً وبامكان القارىء ان يجدها في اي فصل من الفصول من ذلك الخلفاء الوزراء ، الأمراء ، القواد ، والجند الكتاب ، الأدباء ... الخ .

فهرس الاماكن

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

جدول الخطأ والصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
٦	١٦	وتحمق	وترك
٧	١٥	مشمر	تــر
١٣	٤	وحده متميزاً	وحدة متميزة
—	١١	الوزير العباسي بن الحسن	الوزير العباس بن الحسن
—	١ه	مروج الذهب ٣٠٢	مروج الذهب ٤ — ٣٠٢
—	—	اليتيمة	التنبيه
—	—	العصور العباسية المتأخرة ١٨	١٨٧
١٤	٩	ام موسى في شؤون	ام موسى تعبث في شؤون
١٦	٥	بالراضي	بالراضي (٥ ثم تتغير الأرقام التي تليها تبعاً لذلك
—	١ه	والمنتظم ٦ — ٢٤٩ بليق	والمنتظم ٦ — ٢٤٩ يلبق
١٧	١ه	نفسه ٨ — ٣١٢	ينقل إلى ص ١٦ ويصبح ٩ه
—	٢ه	٢	١
—	هامش	سقط هامش رقم ٢ ويكون :	تجارب الأمم ١ — ٥١٥ ، الكامل ٨ — ٣١٥
١٨	٥	كتقلدها	فتقلدها
١٩	١٤	أيام	بأيام

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١	٢هـ	٢ ـ ٣٤	٢ ـ ٢٣٤
٢٥	٩	الاقتصاديه يقول	الاقتصادية ويقول
٣٠	٥هـ	بحلم ... الدراهم	بحكم .... الدراهم
٣٢	١٥	الاهاب	الاسهاب
٤٠	١٢	نافذ	نافد
٤٥	٣	ابي جني	ابن جني
٤٦	٥هـ	ونلاحظ فلسنه	ونلاحظ فلسفته
٥٠	١	احسن	أحسّن
٥٤	١هـ	فسانحس	فسانجس
٥٥	٢هـ	وزر بهاء	وزلبهاء
ـ	ـ	صريع الهلاء	صريع الدلاء
٥٨	٢ ٤	الجرجاني	الجرجرائي
٥٨	١هـ	الامتاع والمؤانسه ٣ ـ ٣١٧	الامتاع والمؤانسه ٣ ـ ٢١٧
ـ	٥	لانه نعم	لانه نغم
٥٩	١٢	الجرجاني	الجرجرائي
٦٢	٥	يا سلوك	يا ملوك
٦٣	٧	من أبى	ومن أبى
٦٤	١	وزيرره	وزيره
ـ	٣	اشكر	أسكر
ـ	١هـ	يقصد وزيره	يقصد وزيره ابن بقيّه
ـ	٣هـ	مختارات	مختارات
٦٩	٢هـ	الضبي	« الضبي »
٧٨	١٧	قضائي	قضاني
٨٢	٨	الوحود	الوجود

٨٥	عنران	ساقط	الفصل الثاني
٩٤	قبل ١٩	سقطت كلمة « أو » وعليها الرقم ٣ والهامش (١) في الصفحة ٩٥ يعود لهذه الكلمة وللبيتين اللذين بعدها (وزادني .. الخ ، ويصبح هامش رقم ٣) ويوضع فوق (أو)	
٩٥	٢هـ	٢	١ وتتغير ارقام الهامشين اللذين يتبعان إلى ٢ ، ٣
٩٥	٢هـ	قام بحكم	قال بحكم
٩٦	٧	إزاروه	إزاره
١٠٧	٧،٨ هـ٢	الخبرى	الحيري
١٠٨	١١	عصد	عضد
١١٤	٢	هذا بلاوير	هذا سواد بلا وزير
١١٦	٦	إذا بدعةً	إذا بدعةٌ
١١٧	الأخير	ابن الفرات	بن الفرات
١٢١	١٣	لا يكن الكأس	لا يكن للكأس
١٢١	١٣	لا يكن للكأس هما بيتان	وليسا شطرين
١٢٦	١	ظبي الماء	ظبي يرق
١٢٨	١٤	بشاطيء	بشاطي
١٣٦	٦	من ذلك ما قاله القادر	من ذلك ما قاله في القادر
١٤١	٤هـ	كتابات	كنايات
١٤٢	٢هـ	كتابات	كنايات
—	١١	جردتها اعتنقنا	واعتنقنا
١٥١	٢	كالحصيّ	كالحصى
١٥٢	٣	سخفي الذي صار	سخفي الذي قد صار

—	٣ھ	وقبل البيت	ومثل البيت
١٥٤	٨	التبذلي	التبذل
١٥٥	١٢	حد قاتلاً	حداً قاتلاً
—	٢ھ	المنتخب من كتابات	المنتخب من كنايات
١٧٠	١٤	كل الفراخ	أكل الفراخ
١٧٣	١٠	يامرهفا	يا مرهفا
١٧٥	١٣	فاسقياني بين	فاسقياني من
١٧٧	٧	ليعي	ليعيى
—	١١	الدعوة الـ	الدعوة إلى
١٧٧	٣ھ	قول ابي سعيد القبري وهو من اهل القدس	قول ابي سعيد العفيري وهو من اهل القدس : هي الدنيا وليس لها تناه ونوم القبر وليس لهانتباهٌ وليس يخرّبُ الدنياالحكيم الـ قديم القادر الأحد الإله تنظر التتمه ١ — ٢٦
١٧٧	٤ھ	في المساجد نجرا	في المساجد يخرا
١٨٠	١٩	إمام فسأ	إمامٌ فسَا
١٨٠	٣ھ	نكت الهميات ١٩٦ والأبيات	نكت الهميات ١٩٦ ، البيتان الثالث والرابع فقط ، والأبيات ..
—	—	السامرائي بتحقيقها البيتان الثالث والرابع فقط	السامرائي بتحقيقها .
١٨١	١ھ	في المخطوطة .. الخ	يعود إلى الصفحة السابقة بعد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
			ان يوضع له رقم ٤ ويضاف رقم ٤ إلى (خربشته) في البيت قبل الأخير من ص١٨٠
١٨١		الهامشان (٢ ، ٣)	يصبحان (١ ، ٢)
١٨٣	١٥	وما بعدها يا اهل بغداد .. وبقية الأبيات الأخرى التي رتبت متقابلة	رتبت على شكل اشطر وهي ابيات شعرية من مجزوء الرجز
١٨٣	٣هـ	او اضربوا الدبادب	او ضربوا الدبادب
١٨٤	٥	ومن اين	ومن أبى
—	٢ فوق الهامش	يا جواً مردَ	يا جوامرد
١٨٥	١٢	قد قلت لما لاح ل ثغرها.. وانتشر السوسن من صدنحها..	قد قلت لما لاح لي ثغرها .. وانتشر السوسن من صدغها
١٩٣	٩	فأغني	فاغني
—	٢هـ	مجدياً	مجدباً
١٩٥	٧	ما بعث	فابعث
—	١٣	الرغد	الرفد
١٩٦	٩	بدا	بدأ
١٩٧	١هـ	جعفر البرمكي	جحظه البرمكي
١٩٨	١١	يُكاد	يَكادُ
١٩٩	١٩	لما طلبت لم اظفر	لما طلبت فلم أظفر
٢٠٠	٣ قبل الهامش	لا هليه	لأهليه
٢٠١	١٠	دعينا	دهينا
٢٠٣	٢	وغشا	وغشّا
٢٠٥	٤هـ	والصاحب .. بطباتعهم	والصاحب .. بطبائعهم

٢٠٧	١٤	وقال : إذا هذا	وقال : إن هذا
٢٠٨	٨	صمتيٍ	صَمْتيٍ
٢٠٩	٨	دلك او فلك	دكـَّك او فكـَّك
٢١٢	الاخير	لغة ادباء	لغة الادباء
٢١٤	١	ويساعدنا رؤيتنا في	ويساعدنا في دراستنا لها ..
٢١٥	٨	فيأخذونها .. وينالون	فيأخذوها ... وينالوا
—	ه٢	الفرار من الدنيا	« الفرار من الدنيا »
٢١٧	ه٢	عبد الرزاق	عبد الرازق
٢٢١	الاخير	عبد الله الهرتد عفيهم	عبد الله الهرندي فيهم
٢٢٢	٢	صوفيةُ	صوفيةٌ
٢٢٣	ه٣	البويهي	البديهي
٢٣٠	٥	بحبك	يحبك عظم
٢٣٦	٦ قبل الهامش	سراكا	رآكا
٢٣٨	ه٤	عوارف المعارف	تحذف ويحل محلها ما جاء في ه٥
—	ه٥	اداب الصحبة .. الخ	تنقل إلى هامش ٤ ويحل محلها (ينظر الرسالة القشيرية ٢ — ٥٧٤ فما بعدها وعوارف المعارف٤٣٧
٢٤٥	٣ قبل الأخير	غلمان مرد	غلمانا مرداً
٢٤٧	٥	ويؤسسها بمقدار	ويؤسها وبمقدار
٢٤٨	١٢	من « عجز »	من « هجر »
٢٥١	الهوامش	٢ ، ٣ ... الخ	١ ، ٢ ، ٣ .. الخ
٢٥٢	٨	امضُ به ثمار	امصُ به ثماد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٣	١٥	غير الممخرقون	إلا الممخرقون
٢٥٤	الاخير	مثلما وصفه ابن لنكك ٤ :	مثلما وصفه ابن لنكك ٤ : زمان قد تفرغ للفضول يسوّد كل ذي حمق جهول
٢٥٧	٧	عميانا	عيانا
٢٥٩	٢	الحَرّ	الخَـــزّ
٢٦٤	١٣	والسر من ورائي	والسر من رائي
٢٦٦	الاخير	نورٌ	ثورٌ
٢٦٦	الاخير	نورٌ	ثورٌ
٢٦٧	٨	ضرّة	صُرّة
٢٦٨	٣	واخو المثالث	المثالب
٢٧٢	٤	شجواً في ليب	شجواً من لبيب
٢٧٣	٦	الابيوري	الابيوردي
—	٧	أما	لما
—	٢، ٣ قبل الهامش	مالك قد هيمك لو رمت ان يبقى	ليس هنا محلهما وإنما بعد هذه الجملة في ص ٢٧٤ (على قول ابي سعيد التستري (١))
٢٧٤		وارانا من الشقاء .. في زمن	وارانا ... في زمان
—	—	فاسقياني مفيد ... ما السفاه	فاسقياني مفيدة .. من السفاه
٢٧٧	٢	بروح عامية	بروح علمية
٢٧٩	٣ قبل الهامش	في الكوخ	في الكرخ
٢٨٠	٦ ، هـ٣	المطبرة	المطيرة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
—	٣ قبل الهامش	ليت شعرى مذ غيت عنها	ليت شعري غدغيت عنها على كم
—	٥ ٧	الشعراء الخلفاء	الشعراء الخلفاء
٢٨١	٥	فيها بأوانا	قبه بأوانا
—	٦	قحانا	قحاباً
	٧	شيوع البناء	شيوع البغاء
—	٣ قبل الهامش	لم يلمح	لم يلح
٢٨٣	٣	آحٍ لقلبي .. من جواري	آحٍ قلبي .. من جوارٍ
—	١٦	فأعزت	فأعوزت
٢٨٥	٧	والأكل والشراب والسماع	والأكل والشرب والسماع
٢٨٦	١٤	كأنه زهر المذ	كأنه زهر المنـــ
٢٨٩	٨	سلا	سلامٌ
—	٩	بغناءنا	بغنائها
-	١٢	من غناءنا	من غنائها
	١٤	رتبُ	رتبٌ
٢٩٠	٧	تركت لساقي	تركت لسافي
—	٨	بعيد الخمر	يعبد
	١٠	نابا	نايا
٢٩٢	١٠	فيا لك فأقط	فيالك من مأقط
٢٩٣	١٢	فيه بلى فاستجارا	فيه به فاستجارا
٢٩٤	٧	شكري	سُكري
—	هامش	برد الاكباد	(٢) برد الاكباد
			(٣) الاعجاز والايجاز ٢٣٤
٢٩٥	٤	المزير	الزير

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩٦	بعد ٤	سقط شطر هو	يقول فيها الصاحب : « رق الزجاج وراقت الخمر
٢٩٩	٢	الغناء والمغنين	الغناء والمغنون
—	٧	الطبل والبوق :	الطبل والبوق : قال صريع الدلاء .
—	الأخير	إذا بابست	اذا باست
٣٠١	٥هـ	قد نسيتم خبز ...	قد نسيتم خبز الذراي والدخن وخبز الشعير والهرطمان
٣١١	بعد ٦	سقط كلام هو	ومنه وصف ابن سكرة لحمّام دخل اليه فسرقت نعله (١)
٣١٦	١٦	وكتب ابو اسحق	وكتب ابو اسحق الصابي يهنيء الوزير المهلبي بقوله :
٣٢٤	هـ	—	(١) ينظر مثلاً ديوان مهيار ١ — ٦٤
٣٣٧	٧	هذا الكتابين	هذا الكتاب من
—	١٢	الحمقى والمغفلون	أخبار الحمقى والمغفلين

ملاحظة هامة : حيث ان الطبع قد تم في بيروت ولبعد المسافة بين بغداد المؤلف وبيروت الطباع فقد وقعت اخطاء أخرى أرجو أن لا تفوت القاريء اللبيب كما اود أن أنبه إلى ان المرتب سامحه الله قد خلط بين كثير من الأبيات المدورة وأحياناً غير المدورة وما انتبه إلى ذلك المصحح ايضاً وما اطلعت على هذه الهفوة الا بعد الطبع وفوات الأوان ، ارجو المعذرة وعسى ان نتلافى اخطاءنا في الطبعة القادمة المؤلف



